صحيفة	
	ونور الدين محمود
٤٦	ذكر عصيان الرها لمقتل اتابك
٤٧	ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الاندلس
٤٧	ذكر قتل عبد الرحمن بن طغايرك وعباس صاحب الري
٤٨	ذكر عدة حوادث
٤٨	(سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة)
٤٨	ذكر قتل بوزابة
٤٩	ذكر طاعة اهل قابس للفرنج وغلبة المسلمين عليها
٤٩	ذكر حادثة ينبغي ان يحتاط العاقل من مثلها
٤٩	ذكر ملك الفرنج المرية وغيرها من الاندلس
٥٠	ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي عدة مواضع من بلد الفرنج
٥٠	ذكر اخذ الحلة من علي بن دبيس وعوده اليها
٥٠	ذكر عدة حوادث
٥١	(سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة)
٥١	ذكر ملك الفرنج مدينة المهدية بافريقية
٥٢	ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي بن زنكي
٥٣	ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي حصن العزيمة
٥٤	ذكر الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الامراء ووصولهم الى بغداد وما كان منهم بالعراق
٥٥	ذكر انهزام الفرنج بيغرى
٥٥	ذكر ملك الغورية غزنة وعودهم عنها

صحيفة	
٥٦	ذكر ملك الفرنج مدنا من الاندلس
٥٦	ذكر عدة حوادث
٥٦	(سنة أربع واربعين وخمسمائة)
٥٦	ذكر وفاة سيف الدين غازي بن اتابك زنكي وبعض سيرته وملك أخيه قطب الدين
٥٧	ذكر استيلاء نور الدين على سنجار
٥٧	ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر ووزارة ابن السلار
٥٨	ذكر عود جماعة من الامراء الى العراق
٥٨	ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية وهزيمة الفرنج
٥٩	ذكر الخلف بين صاحب صقلية وملك الروم
٥٩	ذكر عدة حوادث
٦٠	(سنة خمس واربعين وخمسمائة)
٦٠	ذكر اخذ العرب الحاج
٦١	ذكر فتح حصن فاميا
٦١	ذكر حصر الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها
٦١	ذكر ملك الغورية هراة
٦٢	ذكر عدة حوادث
٦٢	(سنة ست واربعين وخمسمائة)
٦٢	ذكر انهزام نور الدين من جوسلين واسر جوسلين بعد ذلك
٦٣	ذكر حصر غرناطة والمرية من بلاد الاندلس
٦٣	ذكر عدة حوادث
٦٤	(سنة سبع واربعين وخمسمائة)
٦٤	ذكر ملك عبد المؤمن بجاية وملك بني حماد
٦٤	ذكر ظفر عبد المؤمن بصنهاجة
٦٥	ذكر وفاة السلطان مسعود وملك ملكشاه

صحيفة

صحيفة

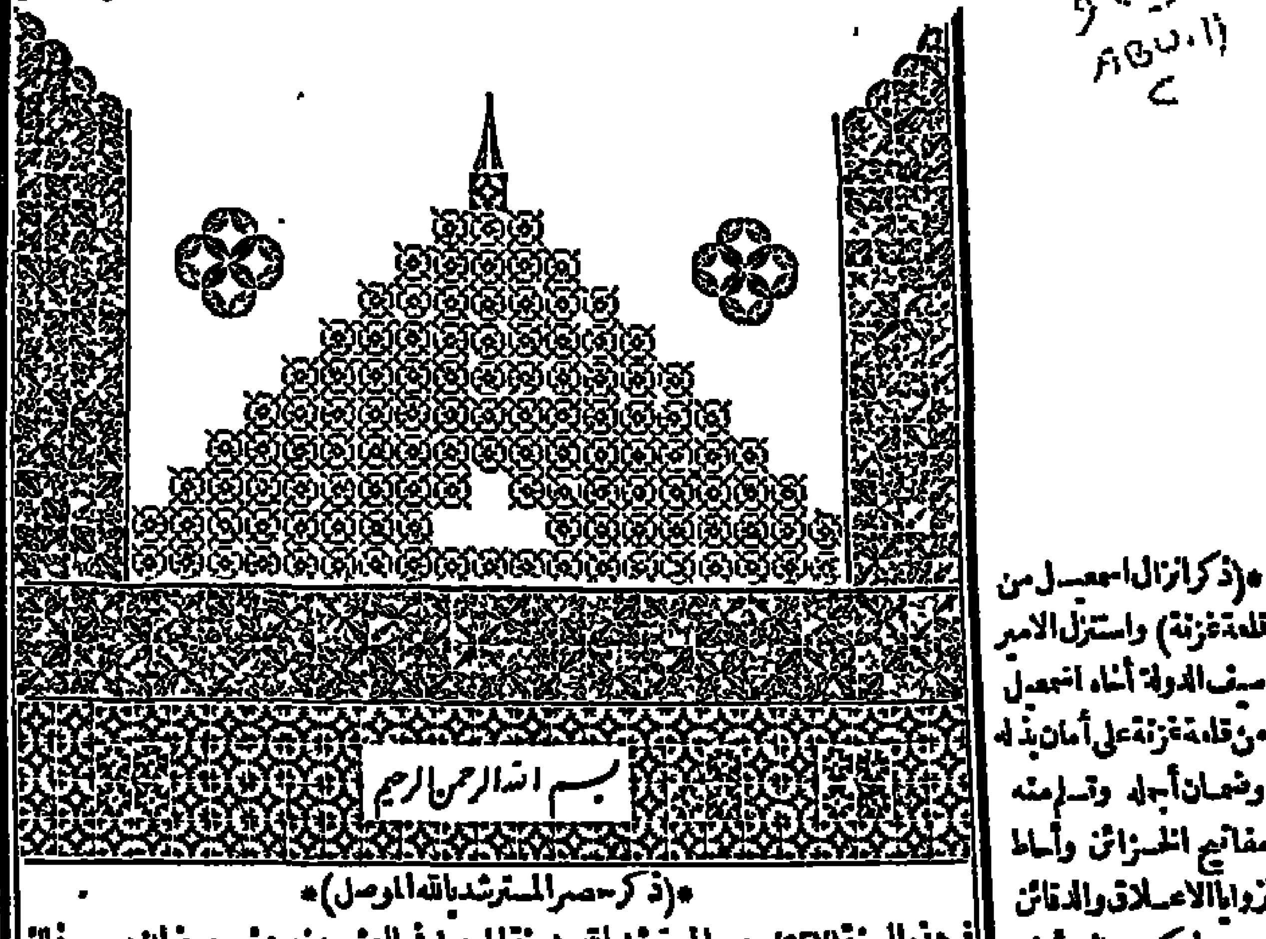
صحيفة

صحيفة

(تمت)

* الحادي عشر من تاريخ الكامل للعلامة أبي الحسن على
ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيباني المعروف بابن
الاثير الجزري الملقب بعز
الدين رحمه
الله

(وبهامش هذا الجزء تاريخ أبي نصر العتبي رحمه الله تعالى)



بسم الله الرحمن الرحيم

(ذكر حصر المسترشد بالله الموصل)

في هذه السنة (٥٢٧) حصر المسترشد بالله مدينة الموصل في العشرين من شهر رمضان وسبب ذلك ما تقدم من قصة الشهيد زنكي ببغداد على ما ذكرناه قبل فلما كان الآن قصد جماعة من الامراء السلجقية باب المسترشد بالله وصاروا معه فقوي بهم واشتغل السلاطين السلجقية بالخلف الواقع بينهم فارسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفرايني الواعظ الى عماد الدين زنكي برسالة فيها خشونة وزادها ابو الفتوح زيادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة فقبض عليه عماد الدين زنكي واهانه ولقيه بما يكره فارسل المسترشد بالله الى السلطان مسعود يعرفه الحال الذي جرى من زنكي ويعلمه انه على قصد الموصل وحصرها وتمادت الايام الى شعبان فسار عن بغداد في النصف منه في ثلاثين ألف مقاتل فلما قارب الموصل فارقها اتابك زنكي في بعض عسكره وترك الباقي بها مع نائبه نصير الدين جقر دزدارها والحاكم في دولته وامرهم بحفظها ونازلها الخليفة وقاتلها وضيق على من بها واما عماد الدين فانه سار الى سنجار وكان يركب كل ليلة ويقطع الميرة عن العسكر ومتى ظفر باحد من العسكر أخذه ونكل به وضاقت الامور بالعسكر ايضا وتواطأ جماعة من الجصاصين بالموصل على تسليم البلد فسعى بهم فأخذوا وصلبوا وبقي الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر ولم يظفر منها بشيء ولا بلغه عمن بها وهن ولا قلة ميرة وقوت فرحل عنها عائدا الى بغداد فقيل ان نصرا الخادم وصل اليه من عسكر السلطان وابلغه عن عسكر السلطان مسعود ما اوجب مسيره وعوده الى بغداد وقيل بلغه ان السلطان مسعودا عزم على قصد بغداد فعاد بالجملة وانه رحل عنها منحدرا في شبارة في دجلة فوصل الى

بغداد

*(ذكر انزال اسمعيل من قلعة غزنة) واستنزل الامير سيف الدولة أخاه اسمعيل من قلعة غزنة على أمان بذله وضمان أجله وتسلم منه مفاتيح الخزائن وأحاط بزوايا الاعلاق والدقائق وجبر له كسر حاله وأعاد اليه رونق ماله وجماله وشحن غزنة بثقاته والكفاة من حماته وانحدر الى بلخ في عامة اوليائه وأنصاره وقد انتظم له ما انتثر بعد أبيه واستقر عليه ما سعى في تلافيه فغصت شعاب بلخ ونواحيها بطبقات رجاله وعلامات الاعلام من اقباله وكتب الى الامير أبي الحرث بذكر اقباله وحذفه فضل الشغل كان بأخيه عن باله وانه قائم مقام أبيه في المحاماة عن الدولة والنضال عن الجملة والاقبال على قضاء حقوق ما تعرفه من بركة اصطناع

بغداد يوم عرفة

(ذكر ملك شمس الملوك مدينة حماة)

وفي هذه السنة ايضا في شوال ملك شمس الملوك اسمعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماة وقلعتها وهي لاتابك زنكي بن اقسنقر اخذها من تاج الملوك كما ذكرنا وملك شمس الملوك قلعة بانياس أقام بدمشق الى شهر رمضان من هذه السنة وسار الى حماة في العشر الاخير منه وسبب طمعه انه بلغه ان المسترشد بالله يريد ان يحصر الموصل فطمع وكان الوالي بحماة قد سمع الخبر فتحصن واستكثر من الرجال والذخائر ولم يبق احد من اصحاب شمس الملوك الا واشار عليه بترك قصدها لقوة صاحبها فلم يسمع منهم وسار اليها وحصر المدينة وقاتل من بها يوم العيد وزحف اليها من وقته فتحصنوا منه وقاتلوه فعاد عنهم ذلك اليوم فلما كان الغد بكر اليهم وزحف الى البلد من جوانبه فملكه قهرا وعنوة وطلب من به الامان فامنهم وحصر القلعة ولم تكن في الحصانة والعلو على ماهي اليوم فان تقي الدين عمر بن اخي صلاح الدين قطع جبلها وعملها هكذا في سنين كثيرة فلما حصرها عجز الوالي بها عن حفظها فسلمها اليه فاستولى عليها وعلى ما بها من ذخائر وسلاح وغير ذلك وسار منها الى قلعة شيزر وبها صاحبها من بني منقذ فحصرها ونهب بلدها فراسله صاحبها وصانعه بمال حمله اليه فعاد عنه الى دمشق فوصل اليها في ذي القعدة من السنة المذكورة

(ذكر هزيمة صاحب طرابلس الفرنجي)

وفي هذه السنة عبر الى الشام جمع كثير من التركمان من بلاد الجزيرة واغاروا على بلاد طرابلس وغنموا وقتلوا كثيرا فخرج القمص صاحب طرابلس في جموعه فانزاح التركمان من بين يديه فتبعهم فعادوا اليه وقاتلوه فهزموه واكثروا القتل في عسكره ومضى هو ومن سلم معه الى قلعة بعرين فتحصنوا فيها وامتنعوا على التركمان فحصرهم التركمان فيها فلما طال الحصار عليهم نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارسا من اعيان اصحابه سرا فنجوا وساروا الى طرابلس وترك الباقين في بعرين يحفظونها فلما وصل الى طرابلس كاتب جميع الفرنج فاجتمع عنده منهم خلق كثير وتوجه بهم نحو التركمان ليرحلهم عن بعرين فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوهم وقتل بينهم خلق كثير واشرف الفرنج على الهزيمة فجمعوا نفوسهم وعادوا على حمية الى رفنية فتعذر على التركمان اللحاق بهم الى وسط بلادهم فعادوا عنهم راجعين

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة اشترى الاسماعيلية بالشام قلعة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون وصعدوا اليه وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم وفيها وقع الخلف بالشام فقاتل بعضهم بعضا ولم تجر لهم بذلك عادة قبل هذه السنة وقتل بينهم جماعة وفيها في جمادى الآخرة أغار الامير سوار مقدم عسكر زنكي بحلب على ولاية تل باشر فغنم الكثير فخرج اليه الفرنج في جموع كثيرة فقاتلوه فظفر بهم واكثر القتل فيهم وكان عدة القتلى نحو ألف قتيل وعاد سالما وفيها تاسع ربيع الآخر وثب على شمس الملوك صاحب دمشق بعض مماليك جده طغدكين فضربه بسيف فلم يعمل فيه شيئا وتكاثر عليه مماليك شمس الملوك

الرضا واصطفائه وتقديمه على زعماء حشمه وأوليائه فارسل اليه أبو الحسن العلوي الهمداني في تهنئته بقدمه واظهار تيمنه بوطئ قدمه وعقد له على بلخ والترمذ وما والاهما وديار بست وهراة وما تاخمهما وداناهما وتلطف في الاعتذار اليه من أمر نيسابور حرصا على ترضيه وكراهة انصراف بكتوزون عنها الا بعلة تقتضيه فعلم الامير سيف الدولة ان تلك المناقشة صادرة عن تمويه الحساد وتلبيس المناوين والاضداد وان داء الحقد ليس له علاج وان صلاة الصبح بغير فاتحة البر خداج فأرسل الى الامير أبي الحرث ثقته أبا الحسين الحولي بهدايا تضن بمثلها سمح النفوس ويضيق عن قدرها رحب الصدور ورسم له ان يجب مسمعه عن تضريب المضربين وتثريب المثربين ويتلطف لاستخلاص سره له واستصفاء محله قبله لترتفع الحشمة وتتأكد العصمة وتستحكم الثقة ويعرفه بأن تخيمه بعرصات خراسان انما هو من أجل موالاته وحراسة اقطار ولاياته فلما ورد بخارا أعرض عما وجه فيه وعرضت الوزارة عليه

فاخذوه وقرروه بالذي حمله على ما فعل فقال اردت اراحة المسلمين من شرك وظلمك ولم يزل يضرب حتى اقر على جماعة انهم وضعوه على ذلك فقتلهم شمس الملوك بغير تحقيق وقتل معهم اخاه سونج فعظم ذلك على الناس ونفروا عنه وفيها توفي الشيخ أبو الوفاء القارسي وكان له جنازة مشهودة حضرها الاعيان ببغداد وفيها في رجب توفي القاضي أبو العباس احمد بن سلامة بن عبد الله بن مخلد المعروف بابن الرطبي الفقيه الشافعي قاضي الكرخ وتفقه على أبي اسحق وابي نصر بن الصباغ وسمع الحديث ورواه وكان قريبا من الخليفة يؤدب اولاده وتوفي ابو الحسين علي بن عبد الله بن نصر المعروف بابن الزاغوني الفقيه الحنبلي الواعظ وكان ذا فنون توفي في المحرم وتوفي علي بن يعلي بن عوض بن القاسم الهروي كان واعظا وله بخراسان قبول كثير وسمع الحديث فاكثر ومحمد بن أحمد بن علي ابو عبد الله الحراني وهو من اولاد محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان وكان محمد يلقب بالديباج لحسنه واصله من مكة وهو من أهل نابلس وكان مغاليا في مذهب الاشعري وكان يعظ توفي في صفر وفيها توفي ابو فليتة امير مكة وولي الامارة بعده ابنه القاسم وفيها توفي العزيز بن هبة الله بن علي الشريف العلوي الحسيني فجاة بنيسابور وكان جده نقيب النقباء بخراسان وعرض على العزيز هذا نقابة العلويين فامتنع وعرض عليه وزارة السلطان فامتنع ولزم الانقطاع والاشتغال بأمر آخرته وفيها توفي قاضي قضاة خراسان ابو سعيد محمد بن أحمد بن صاعد وكان خيرا صالحا

•(ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة)•

•(ذكر ملك شمس الملوك شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج)•

في هذه السنة في المحرم سار شمس الملوك اسمعيل صاحب دمشق منها الى شقيف تيرون وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به فتحاماه المسلمون والفرنج يحتمي على كل طائفة بالاخرى فسار شمس الملوك اليه في هذه السنة واخذه منه في المحرم وعظم اخذه على الفرنج لان الضحاك كان لا يتعرض الى شئ من بلادهم المجاورة له فخافوا شمس الملوك فجمعوا عساكرهم فلما اجتمعت ساروا الى بلد حوران فخربوا امهات البلد ونهبوا اماكنهم نهبة وكان شمس الملوك لما رآهم يجمعون جمع هو ايضا وحشد واحضر عنده جمع كثير من التركمان وغيرهم فنزل بازاء الفرنج وجرت بينهم مناوشة عدة ايام ثم ان شمس الملوك نهض ببعض عسكره وجعل الباقي قبالة الفرنج وهم لا يشعرون وقصد بلادهم طبرية والناصرة وعكا وما يجاورها من البلاد فنهب وخرب واحرق وسبى النساء والذرية وامتلأت ايدي من معه من الغنائم واتصل الخبر بالفرنج فانزعجوا ورحلوا في الحال لا يلوي اخ على اخيه وطلبوا بلادهم واما شمس الملوك فانه عاد الى عسكره على غير الطريق الذي سلكه الفرنج فوصل سالما ورأى الفرنج بلادهم خرابا ففت في اعضادهم وتفرقوا وراسلوا في تجديد الهدنة فهادنهم شمس الملوك في ذي القعدة السنة

•(ذكر عود الملك طغرل الى الجبل وانهزام الملك مسعود)•

في هذه السنة عاد الملك طغرل بن محمد بن ملكشاه ملك بلاد الجبل جميعها واجلى عنها اخاه السلطان مسعودا وسبب ذلك ان مسعودا لما عاد من حرب اخيه طغرل بلغه عصيان داود

لموافقة مورده خلو صدرها
عمن يستقل بأمرها ويقوم
بحق الكفالة لها والكفاية
فيها فكان مثله كما قيل
خلت الديار فسدت غير مسود
ومن الشقاء تفردي بالسودد
فاشتغل بالوزارة عن حق
السفارة وأقبل على الامر
بوجه الجد المستبد يريد
مكر ما انبثق وانهار عليه
النهر وكفران ما نم عليه
الدهر ولن يصلح العطار
ما أفسد الدهر وانشدني
المضراب لنفسه فيه
وكأنهم الدهر من غير حنكة
بيوسفه والبلعمي وغيره
الى ان رمانا بالغفاري بعدهم
وعاند فاني عبده وعزيزه
وماندها نابابن عيسى وبجوده
وفي ابن أبي زيد النجيب وسيره
فلم نرض بالمقدور فيهم فأمنا
بكل كسير في الورى وعويره
ولما أحس الامير سيف
الدولة بصورة الحال في
تناقض الآراء وتخاذل
التدبير والاهواء واشراف
الملك على الضياع بمداهنة
النصحاء واعتيادهم صلاح
انفسهم في وجوه المقاصد
والاغراض عدل الى نيسابور
على ما كان يليه من جماهير
أوليائه ومواليه وحين سمع
بكتوزون باقباله تزحزح
عن نيسابور قاصدا ابقاء على
عدته وعتاده واشفاقا
على عدد رجاله واجناده

ابن

ابن اخيه السلطان محمود باذربيجان فسار اليه وحصره بقلعة روبن دز وكان فحصن بها واشتغل بحصره بجمع الملك طغرل العساكر واستمال بعض قواد مسعود ولم يزل يفتح البلاد فكثرت عساكره وقصد مسعودا فلما قارب قزوين سار مسعود نحوه فلما تراءى العسكران فارق مسعودا من امرائه من كان قد استماله طغرل فبقي في قلة من العسكر فولى منهزما واخر رمضان وارسل الى المسترشد بالله في القدوم لبغداد فاذن له وكان نائبه باصبهان البقش السلاحي ومعه الملك سلجوق شاه فلما سمع بانهزام مسعود قصد بغداد ايضا فنزل سلجوق شاه بدار السلطان فاكرمه الخليفة وانفذ اليه عشرة آلاف دينار ثم قدم مسعود بغداد واكثر اصحابه ركاب جمال لعدم ما يركبونه ولقي في طريقه شدة فارسل اليه الخليفة الدواب والخيام والآلات وغيرها من الاموال والثياب فدخل الدار السلطانية ببغداد منتصف شوال وقام طغرل بهمدان

(ذكر حصر أتابك زنكي آمد وملكه قلعة الصور)

في هذه السنة اجتمع اتابك زنكي وتمرتاش صاحب ماردين وقصدا مدينة آمد فحصراها فارسل صاحبها الى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده فجمع عساكره وغيرها وسار نحو آمد ليرحلهما عنها فالتقوا على باب آمد وتصافوا في جمادى الآخرة فاقتتلوا فانهزم داود وعاد مغلولا وقتل جماعة من عسكره واقام زنكي وتمرتاش على آمد محاصرين لها وقطعا الشجر وشعثا البلد ثم عادا عنها من غير بلوغ غرض فقصد زنكي قلعة الصور من ديار بكر وحصرها وضايقها فملكها في رجب من هذه السنة واتصل به ضياء الدين ابو سعيد بن الكفرتوثي فاستوزره زنكي وكان حسن الطريقة عظيم الرياسة والكفاية محبا للخير

(ذكر ملك زنكي قلاع الاكراد الحميدية)

في هذه السنة استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الاكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما وكان لما ملك الموصل اقر صاحبها الامير عيسى الحميدي على ولايتها واعمالها ولم يعترضه على شيء مما هو بيده فلما حصر المسترشد الموصل حضر عيسى هذا عنده وجمع الاكراد عنده فاكثر فلما رحل المسترشد عن الموصل امر زنكي ان تحصر قلاعهم فحصرت مدة طويلة وقوتلت قتالا شديدا الى ان ملكت هذه السنة فاطمأن اذاً أهل السواد المجاورون لهؤلاء القوم فانهم كانوا معهم في ضائقة كبيرة من نهب اموالهم وخراب البلاد

(ذكر ملك قلاع الهكارية وكواشي)

وحكي عن بعض العلماء من الاكراد ممن له معرفة باحوالهم ان اتابك زنكي لما ملك قلاع الحميدية واجلاهم عنها خاف أبو الهيجاء بن عبد الله صاحب قلعة اشب والجزيرة ونوشي فارسل الى أتابك زنكي من استحلفه له وحمل اليه مالا وحضر عند زنكي بالموصل فبقي مدة ثم مات فدفن بتل توبة ولما سار عن اشب الى الموصل اخرج ولده احمد بن أبي الهيجاء منها خوفا ان يتغلب عليها واعطاه قلعة نوشي وهذا احمد هو والد علي بن أحمد المعروف بالمشطوب من اكابر امراء صلاح الدين ابن ايوب بالشام. ولما أخرجه ابوه من اشب استناب بها كرديا يقال له باو الارجي فلما مات أبو الهيجاء سار ولده احمد من نوشي الى اشب ليملكها فمنعه باو واراد حفظها لولد صغير لابي الهيجاء اسمه علي فسار زنكي بعسكره فنزل على اسب وملكها وسبب ملكها ان أهلها نزلوا كلهم الى

وكتب الى الامير ابي الحرث يقصوله عن مكانه آخذا بالوثيقة ومحاماة على الحقيقة واحتراسا من غرة اللقاء قبل اختمار العزيمة والرأى فحملته سكرة الحداثة ونزقة الصبا والغرارة وقلة النظر في العواقب وعدم الحظ من التجارب على الاغذاذ الى خراسان فين أنهضه الامكان بالمساعدة من وجوه خاصته وسائر حاشيته وسار الى سرخس كالسهم صادرا عن وتره والسيل سائلا الى منحدره فعلم الامير سيف الدولة أن قصده اياه من نتائج التغرير وفائل الرأى والتدبير ومهانة الناصح والمشير اذ لم يكن في منة القوم مقاواته على شدة باسه وملاقاته على قوة مراسه اذ لو قذفهم ببعض رجومه لغادرهم رمادا تذروه العواصف وتقتسمه الشمائل والجنائب لكنه رأى ان يغضي جفن الاحترام ويحمي ستر الاحتشام ويرعى سابق الحق والذمام فخالف طريقه الى مرو والروذ فرجاله عن نيسابور الى أن يتمكن من ارتجاعها بنية تشترك في معرفتها القاصية والدانية وحجة على مناويه ومخالفيه تتصورها الحاضرة والبادية عطف الى قنطرة زاغول

القتال فتركهم زنكي حتى قاربوه واستجرهم حتى ابعدوا عن القلعة ثم عطف عليهم فانهزموا ووضع السيف فيهم فاكثر القتل والاسر وملك زنكي القلعة في الحال واحضر جماعة من مقدمي الاكراد فيهم باو فقتلهم وعاد عنها الى الموصل ثم سار عنها ففي غيبته ارسل نصير الدين جقر نائب زنكي وخرب اشب وتلى كهيجة ونوشي وقلعة الجلاب وهي قلعة العمادية وارسل الى قلعة الشعباني وفرح وكوشر والزعفران والف وسروة وهي حصون المهرانية فحصرها فملك الجميع واستقام امر الجبل والزوزان وامنت الرعايا من الاكراد واما باقي قلاع الهكارية بجبل صور وهرور والملاسي ومابرما وباخوخا وباكزا ونسياس فان قراجا صاحب العمادية فتحها من مدة طويلة بعد قتل زنكي وهذا قراجا كان اميرا قد اقطعه زين الدين علي بلد الهكارية بعد قتل زنكي ولم اعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلهذا ذكرته ههنا وحكى غير هذا بعض فضلاء الاكراد وخالف فيه فقال ان زنكي لما فتح قلعة اشب وخربها وبنى قلعة العمادية ولم يبق في الهكارية الا صاحب جبل صور وصاحب هرور ولم يكن لهما شوكة يخاف منها عاد الى الموصل فخافه اصحاب القلاع الجبلية فاتفق ان عبد الله بن عيسى بن ابراهيم صاحب الربية والف وفرح وغيرها توفي وملكها بعده ولده علي وكانت والدته خديجة بنت الحسن اخت ابراهيم وعيسى وهما من الامراء مع زنكي وكانا بالموصل فارسلها ولدها علي الى اخويها وطلب له الامان من زنكي وحلفاه ففعل ونزل الى خدمة زنكي واقره على قلاعه واشتغل زنكي بفتح قلاع الهكارية وكان الشعباني بيد امير من المهرانية اسمه الحسن بن عمر فاخذه منه وقربه منه لكبره وقلة اعماله وكان نصير الدين جقر يكره عليا صاحب الربية وغيرها فحسن لزنكي القبض عليه فاذن له في ذلك فقبض عليه ثم ندم زنكي على قبضه فارسل الى نصير الدين ان يطلقه فرآه قدمات قبل ان نصير الدين قتله ثم ارسل العسكر الى قلعة الربية فنازلوها بغتة فملكوها في ساعة واسروا كل من بها من ولد علي واخوته واخواته وكانت والدة علي خديجة غائبة فلم توجد فلما سمع زنكي الخبر بفتح الربية سره وامر ان تسير العساكر الى باقي القلاع التي لعلي فسارت العساكر فحصروها فرأوها منيعة فراسلهم زنكي ووعدهم الاحسان فاجابوه الى التسليم على شرط ان يطلق كل من في السجن منهم فلم يجبهم الى ذلك الا ان يسلموا ايضا قلعة كواشي فمضت خديجة والدة علي الى صاحب كواشي واسمه خول وهرون وهو من المهرانية فسألته النزول عن كواشي فاجابها الى ذلك وتسلم زنكي القلاع واطلق الاسرى فلم يسمع بمثل هذا فقال ينزل من مثل كواشي لقول امرأة فاما ان يكون اعظم الناس مروأة لا يرد من دخل بيته واما ان يكون اقل الناس عقلا واستقامت ولاية الجبال

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة اوقع الدانشمند صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيرا منهم وفيها اصطلح الخليفة واتابك زنكي وفيها في ربيع الاول عزل انوشروان بن خالد عن وزارة الخليفة وفيها توفيت ام المسترشد بالله وفيها سير المسترشد عسكرا الى تكريت يحصروا مجاهد الدين بهروز فصانعهم باموال فعادوا عنه وفيها اجتمع من العساكر السنجرية مع الامير ارغش وحصروا قلعة كردكوه بخراسان وهي للاسماعيلية وضيقوا على أهلها وطال حصرها وعدمت عندهم

الاقوات

تجريم امرا عيا لما يسفر عنه التدبير وينكشف عن حقيقته الضمير وبادر بكتوزون الى مناخ الامير أبي الحرث وشافه فائق في قضه وقضيضه ولقه ولفيفه فلما وصل اليه انكر محله لديه لتقصيره في حق مقدمه تعبئة عليه وشكا الى فائق ما انكره فشكاهو اليه فوق ماذكره وتداولا بينهما ذكر معايبه وتقاولا خشونة جانبه وحزونة أخلاقه وضرائبه وأغريا أهل العسكر بخلعه والتماس الراحة منه والاستبدال به فاجروا امرهما في تدبير المساعدة موصاعلى لثة الاستطراف واقتناما لنهزة الاستضعاف فاستحضر بكتوزون بعلة اجتماع العسكر لمهم احتيج الى تقارير فيه واشارته بوجه الصواب في تلافيه حتى اذا حضره حصره ووكل به من سمل بصره غير آو لصنيعته بطليق حياته احسن ما كان ردا اجمال وجود اعتدال وطلعة هلال وروعة عزة وجلال ولقد أجهش اليه عند الاستسلام في حاجة له ثلاث شفاف الاونة عليه منها صيانة من قامت عنه عن ذل المناظرة على مال المصادرة فكايده بخلاف ما جنبه ونقض مسئلته

الاقوات فاصاب أهلها اشح وكراز وعجز كثير منهم عن القيام فضلا عن القتال فلما ظهرت امارات الفتح رحل الامير ارغش فقيل انهم حملوا اليه مالا كثيرا واعلاقا نفيسة فرحل عنهم وفيها توفي الامير سليمان بن مهارش العقيلي امير بني عقيل وولي الامارة بعده اولاده مع صغر سنهم ولطف بهم في بغداد رعاية لحق جدهم مهارش فانه هو الذي كان الخليفة القائم بامر الله عنده لما فعل به البساسيري ماذكرنا وفيها توفي الفقيه ابو علي الحسن بن ابراهيم بن فرهون الشافعي الفارقي ومولده سنة ثلاث وثلاثين واربعمائة وتفقه على أبي عبد الله الكازروني فلما توفي الكازروني انحدر الى بغداد وتفقه على ابي اسحق الشيرازي وابي نصر الصباغ وولي القضاء بواسط وكان خيرا فاضلا لايواري ولايحابي احدا في الحكم وفيها توفي عبد الله بن محمد ابن احمد بن الحسن وابو محمد بن ابي بكر الفقيه الشافعي تفقه على ابيه وكان يعظ ويكثر في كلامه من التجانس فمن ذلك قوله ابن القدود العالية والخدود الوردية مثلت بها والله العافية والوردية وهامة قبرتان بهم معلي ومن شعره

الدمع دما يسيل من اجفاني * ان عشت مع البكا فما أجفاني

سجني شجني وهمني سماني * العاذل بالملام قد سماني *

والذكر لهم يزيد في اشجاني * والنوح مع الحمام قد أشجاني

ضاقت بيعادهم يدي اعطاني * والبين بدا الهموم قد اعطاني

وفيها توفي ابن أبي الصلت الشاعر ومن شعره يذم ثقيلا

لي صديق عجبت كيف استطاعت * هذه الارض والجبال تقله

انا أرعاه مكرما وبقلبي * منه مايتلف الخيال أقله

هو مثل المشيب اكره رؤيا * ه ولكن اصونه واجله

وله أيضا

ساد صغار الناس من عصرنا * لادام من عصر ولا كانا

كالدست مهما هم ان ينقضي * صار به البيدق فرزانا

وفيها توفي محمد بن علي بن عبد الوهاب ابو رشيد الفقيه الشافعي من أهل طبرستان وسمع الحديث ايضا ورواه وكان زاهدا عابدا أقام بالجزيرة وهي بجزيرة ابن عمر سنين منفردا يعبد الله سبحانه وتعالى وعاد الى آمل وقبره بها

(ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة)

(ذكر وفاة الملك طغرل وملك مسعود بلاد الجبل)

قد ذكرنا قدوم السلطان مسعود الى بغداد منهزما من اخيه الملك طغرل وان الخليفة اكرمه وحمل اليه مايحتاج اليه مثله وامره بالمسير الى همدان وجمع العساكر ومنازعة أخيه طغرل في السلطنة والبلاد ومسعود يعد ويدافع الايام والخليفة يحثه على ذلك ووعده ان يسير معه بنفسه وامر ان يبرز خيامه الى باب الخليفة وكان قد اتصل الامير البقش السلاحي وغيره من الامراء بالخليفة وطلبوا خدمته فاجابهم وصاروا معه واتفق ان انسانا أخذ فوجد معه ملطفات من طغرل الى هؤلاء الامراء بالاقطاع لهم فلما رأى الخليفة ذلك قبض على أميرهم

ومضاعفة لثقل المحنة على ظهره فعل الموتور الذي الا شوى له ولا بقيا معه وعمد هو وفائق الى أخيه عبد الملك بن نوح وهو أصغرمنه سنا واضعف ركنا فأقاماه مقامه وسدا به مكانه وماج الناس بعضهم في بعض للفتنة الشاغرة والاحوال المتنافرة ونذر الناس بالامير سيف الدولة انه قد خيم بقنطرة زاغول فكروا على ادراجهم كالمعافير الراعبة راعتها الفوارس واحاطت بها الكلاب النواهس حتى أخذوا اقرارهم بمرو وأرسل الامير سيف الدولة الى الكافلين بالتدبير يهجن اليهما ما ارتكباه في ولي النعمة من ازالة الحشمة واضاعة الحق والحرمة غير ناظرين للدين ولا متحرجين للاسلام والمسلمين ولا متهيبين للاحدوثة الشنعاء على ألسنة الذاكرين مدى دهر الداهرين وامتدت المراجعة بينهم في الحادث الكارث وهما يحتالانه عن انتهاز الفرصة فيهما واهتبال الغرة منهما قطعه عنه عن صاحبهما في جديد الرعاية ومزيد الولاية وكلماهم بالاحجام على وجه الاحترام طالبته سعادة الجد بالاقدام وحرضته على

اسمه قفلبك ونهب ماله فاستشعر غيره من الامراء الذين مع الخليفة فهربوا الى عسكر السلطان مسعود فارسل الخليفة اليه في اعادتهم اليه فلم يفعل واحتج باشياء فعظم ذلك على الخليفة وحدث بينهما نفرة ووحشة اوجبت تأخره عن المسير معه وارسل اليه يلزمه بالمسير معه امر اجرنا فيها الامر على هذا اذ جاءه الخبر بوفاة اخيه طغرل وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة في المحرم وكان خيرا عاقلا عادلا قريبا الى الرعية محسنا اليهم وكان قبيل موته قد خرج من داره يريد السفر لقتال اخيه مسعود فدعا له الناس فقال ادعوا بخيرنا للمسلمين ولما توفي وصل الخبر الى مسعود فسار من ساعته نحو همذان واقبلت العساكر جميعها اليه واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد وكان قد خرج صحبته هو واهله ووصل مسعود الى همذان واستولى عليها واطاعته البلاد جميعها واهلها

(ذكر قتل شمس الملوك وملك اخيه)

في هذه السنة رابع عشر ربيع الآخر قتل شمس الملوك اسمعيل بن تاج الملوك بوري بن طغدكين صاحب دمشق وسبب قتله انه ركب طريقا من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم في اعمال البلد وبالغ في العقوبات لاستخراج الاموال وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس بحيث انه لا يأنف من أخذ الشيء الحقير بالعدوان الى غير ذلك من الاخلاق الدنيئة وكرهه اهله واصحابه ورعيته ثم انه ظهر عنه انه كاتب عماد الدين زنكي انه يسلم اليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول واخلى المدينة من الذخائر والاموال ونقل الجميع الى صرخد وتابع الرسل الى زنكي يحثه على الوصول اليه ويقول له ان اهملت المجيء سلمت البلد الى الفرنج فسار زنكي فظهر الخبر بذلك فامتعض اصحاب ابيه وجده واتلقهم وذكروا الحال لوالدته فساءها واشفقت منه ووعدتهم بالراحة من هذا الامر ثم انها ارتقبت الفرصة في الخلوة من غلمانه فلما رأته على ذلك امرت غلمانها بقتله فقتل وامرت بالقائه على موضع في الدار ليشاهده غلمانه واصحابه فلما رأوه قتيلا سروا بمصرعه وبالراحة من شره وكان مولده سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة وقيل كان سبب قتله ان والده كان له حاجب اسمه يوسف بن فيروز وكان متمكنا منه حاكما في دولته ثم في دولة شمس الملوك بعده فاتهم بام شمس الملوك ووصل الخبر اليه بذلك فهم بقتل يوسف فهرب منه الى تدمر وتحصن بها واظهر الطاعة لشمس الملوك فاراد قتل أمه فبلغها الخبر فقتلته خوفا منه والله اعلم ولما قتل ملك بعده اخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك وحلف له الناس واستقر له الملك بعده والله اعلم

(ذكر حصر اتابك زنكي دمشق)

في هذه السنة حصر اتابك زنكي دمشق ونازلها اول جمادى الاولى وسببه ما ذكرناه من ارسال شمس الملوك صاحبها اليه واستدعائه ليسلمها اليه فلما وصلت كتبه ورسله سار اليها فقتل شمس الملوك قبل وصوله ولما عبر الفرات ارسل اليه رسلا في تقرير قواعد التسليم فرأوا الامر قد فات الا انهم أكرموا واحسن اليهم واعيدوا بالجواب الحسن وعرفوا زنكي بقتل شمس الملوك وان القواعد عندهم مستقرة لشهاب الدين والكلمة متفقة على طاعته فلم يحفل زنكي بهذا الجواب وسار الى دمشق فنازلها ونزل اهل السواد اليها واجتمعوا

الانتقام للدين والاسلام ثم رأى ان يزحف عن مقامه الى ظاهر مرو لتكون طاقة الصلح وجاها اوسفاحة السيف شفاها ولما سامع القوم باقبالهم دب الفشل في تضاعيف اسلاتهم وسرى الوهل في تفاريق اعضائهم واستطار الخوف في مزاج دمائهم ولما سقط في أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين فأبى الله الا ان ينتقم منهم بسيف سيف الدولة جزاء عن فعلهم الفظيع وخطبهم الشنيع وسعيهم المذموم عند الجميع فصبه عليهم صب عزالي الغيث بنوء المرزمين غير انه غيث قطره عيث وغيم حشوه ضيم وسحاب حاله عذاب وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه أليم شديد وبرز فائق وبكتوزون وأبو القاسم ابن سيمجور بجلاسهم عبد الملك بن نوح وسائر اهل العسكر الى ظاهر مرو مقابلين لعسكر الامير سيف الدولة يعلنان بلادة ويسران بلادة ويقدمان ظاهر العيون ويحجمان خيفة الحرب الزبون قد ضاقت عليهم الارض بما رحبت بغروب الاقطار عليهم

فيها على محاربته ونزل أولا شماليها ثم انتقل الى ميدان الحصى وزحف وقاتل فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتفاقا تاما على محاربته وقام معين الدين أنز مملوك جده طغدكين فى هذه الحادثة بدمشق قياما مشهودا وظهر من معرفته بامور الحصار والقتال وكفايته ما لم ير وما كان سبب تقدمه واستيلائه على الامور باسرها على ما نذكر ان شاء الله تعالى فبينما هو يحاصرها وصل رسول الخليفة المسترشد بالله وهو أبو بكر بن بشر الجزرى من جزيرة ابن عمر بخلع الاتابك زنكى ويأمره بصلح صاحب دمشق الملك البارسلان محمود الذى مع اتابك زنكى فرحل عنها لليلتين مضين من جمادى الاولى من السنة المذكورة

(ذكر قتل حسن بن الحافظ)

قد ذكرنا سنة ست وعشرين وخمسمائة ان الحافظ لدين الله صاحب مصر استوزر ابنه حسنا وخطب له بولاية العهد فبقى الى هذه السنة ومات مسموما وسبب ذلك انه كان جريا على سفك الدماء وكان فى نفس الحافظ على الامراء الذين أعانوا أبا على بن الافضل حقد ويريد الانتقام منهم من غير أن يباشر ذلك بنفسه فاستوزر ابنه وأمره بذلك فتغلب على الامر جميعه واستبد به ولم يبق لابيه معه حكم وقتل من الامراء المصريين ومن أعيان البلاد جمعا حتى قيل انه قتل فى ليلة واحدة أربعين أميرا فلما رأى أبوه تغلبه عليه أخرج له خادما من خدم القصر الاكابر فجمع الجموع وحشد من الرجالة خلقا كثيرا وتقدم الى القاهرة لتقاتل حسنا ويخرجه منها فارسل له جماعة من خواصه وأصحابه فقاتلوهم فانهزم الخادم وقتل الرجال الذين معه وعبر الباقون الى الجيزة فاستكان الحافظ فصبر تحت الحجر ثم ان الباقين من الامراء المصريين اجتمعوا واتفقوا على قتل حسن وارسلوا الى أبيه الحافظ وقالوا له اما انك تسلم ابنك الينا لنقتله او نقتلكما جميعا فاستدعى ولده اليه واحتاط عليه وارسل الى الامراء بذلك فقالوا لا نرضى الا بقتله فرأى انه ان سلمه اليهم طمعوا فيه وليس الى ابقائه سبيل فاحضر طبيبين كانا له احدهما مسلم والآخر يهودي فقال لليهودى نريد سما نسقيه لهذا الولد ليموت ونخلص من هذه الحادثة فقال أنا لا اعرف غير النقوع وماء الشعير وما شاكل هذا من الادوية فقال انا اريد ما اخلص به من هذه المصيبة فقال له لا اعرف شيأ فاحضر المسلم وامره بذلك فصنع له شيأ فسقاه الولد فمات لوقته فارسل الحافظ الى الجندية وقال لهم انه قد مات فقالوا نريد ننظر اليه فاحضر بعضهم عنده فرأوا وظنوه قد عمل حيلة فجرحوا اسافل رجليه فلم يجر منه دم فعلموا موته ودفن حسن واحضر الحافظ الطبيب المسلم وقال له اخرج من عندنا من القصر وجميع مالك من الانعام والجامكية باق عليك واحضر اليهودى وقال اعلم انك تعرف ما طلبته منك ولكنك عاقل فتقيم فى القصر عندنا وكان حسن سيء السيرة ظالما جريا على سفك الدماء واخذ الاموال فهجاه الشعراء فمن ذلك ما قال المعتمد بن الانصارى صاحب الترسل المشهور

لم تأت يا حسن بين الورى حسنا * ولم تر الحق فى دنيا ولا دين
قتل النفوس بلا جرم ولا سبب * والجور فى اخذ اموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا ادب * تيه الملوك واخلاق المجانين

وقيل ان الحافظ لما رأى ابنه تغلب على الملك وضع عليه من سقاه السم فمات والله اعلم ولما مات

مزرورة * وذيول الخذلان عليهم مجرورة * وبوارح الابادر * وجوائح الدمار * من كل أوب اليهم محشورة * وظل القوم على علم بانهم يدمرون على الدمار * ويتهافتون تهافت الفراش فى النار * ويقتلون الانصار بسيوف الانصار * كما قال الله تعالى يخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المؤمنين فاعتبروا يا اولى الابصار * وتردد السفراء بينهم وبين الامير سيف الدولة فى مواضعته على سلم يسلمون معها فى العاجل من شدة بأسه * ويفتدون بها من مرارة كأسه * فأحسن الامير سيف الدولة اجابتهم الى مواضعتهم على علمه باستبطانهما الختل والحيلة * واستشعارهما للغدر والخديعة * الزاما للحجة وطمسا على الشبهة واعذارا الى الكافة * وبراءة من خطة البغى فى دفع المكافة * فما كان الا أن قوضت للرحيل خيامه * ونشرت للقفول أعلامه * حتى ثار أوباش القوم على اثره لانتهاب عسكره يظنون بأنفسهم الظنون * وانما يتعجلون المنون * ويدوسون أذناب الاراقم لو كانوا يشعرون * ولما رأى الامير سيف الدولة ركوبهم

حسن استوزره الحافظ الامير تاج الدولة بهرام وكان نصرانيا فتحكم واستعمل الارمن على
الناس فاستذلوا المسلمين وسنذكر اخباره سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ان شاء الله تعالى

•(ذكر مسير المسترشد الى حرب السلطان مسعود وانهزامه)•

في هذه السنة كان الحرب بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان مسعود في شهر رمضان
وسبب ذلك ان السلطان مسعودا لما سافر من بغداد الى همذان بعد موت أخيه طغرل
وملكها فارقه جماعة من أعيان الامراء منهم يرنقش بازدار وقزل آخر وسنقر الخمارتكين
والى همذان وعبد الرحمن بن طغايرك وغيرهم خائفين منه مستوحشين ومعهم عدد كثير ومنهم
دبيس بن صدقة وأرسلوا الى الخليفة يطلبون منه الامان ليحضروا في خدمته فقيل له انها
مكيدة لان دبيسا معهم وساروا الى خوزستان واتفقوا مع برسق بن برسق فارسل الخليفة
اليهم سديد الدولة بن الانبارى بتوقيعات الى الامراء المذكورين بتطييب نفوسهم والامر
بحضورهم وكان الامراء المذكورون قد عزموا على قبض دبيس والتقرب الى الخليفة
بحمله اليه فبلغه ذلك فهرب الى السلطان مسعود وسار الامراء الى بغداد في رجب فأكرمهم
الخليفة وحمل اليهم الاقامات والخلع وقطعت خطبة السلطان مسعود من بغداد وبرز الخليفة
في العشرين من رجب على عزم المسير الى قتال مسعود وأقام في الشفيعى فعصى عليه بكبه
صاحب البصرة فهرب اليها فراسله وبذل له الامان فلم يعد اليه وتريث الخليفة عن المسير وهؤلاء
الامراء يحسنون له الرحيل ويسهلون عليه الامر ويضعفون عنده أمر السلطان مسعود
فسير مقدمته الى حلوان فنهبوا البلاد وأفسدوا ولم ينكر عليهم شيأ ثم سار الخليفة ثامن شعبان
ولحق به في الطريق الامير برسق بن برسق فبلغت عدتهم سبعة آلاف فارس وتخلف بالعراق مع
اقبال خادم المسترشد بالله ثلاثة آلاف فارس وكان السلطان مسعود بهمذان في نحو ألف
وخمسمائة فارس وكان أكثر أصحاب الاطراف يكاتبون الخليفة ويبذلون له الطاعة فتريث
في طريقه فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم حتى عادوا اليه فصار في نحو خمسة عشر ألف
فارس وتسلل جماعة كثيرة من عسكر الخليفة حتى بقي في خمسة آلاف وأرسل اتابك زنكي
نجدة فلم يلحق وأرسل الملك داود بن السلطان محمود وهو باذربيجان الى الخليفة يشير بالميل الى
الدينور ليحضر بنفسه وعسكره فلم يفعل المسترشد وسار حتى بلغ دايمرج وعبى أصحابه فجعل في
الميمنة يرنقش بازدار ونور الدولة سنقر وقزل آخر وبرسق بن برسق وجعل في الميسرة جاولى
وبرسق شراب سلار وغلبك الذي كان الخليفة قد قبض عليه وأخرجه من محبسه ولما سمع
السلطان مسعود بخبرهم سار اليهم مجدا فواقعهم بدايمرج عاشر رمضان وانحازت ميسرة
الخليفة الى السلطان مسعود فصارت معه واقتتلت ميمنة الخليفة وميسرة السلطان قتالا
ضعيفا ودارت عساكر السلطان حول عساكر الخليفة وهو ثابت لم يتزلزل من مكانه وانهزم
عسكره وأخذ هو أسيرا ومعه جمع كثير من اصحابه منهم الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبى
وقاضى القضاة وصاحب المخزن ابن طلحة وابن الانبارى والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم
وانزل الخليفة في خيمة وغنموا ما في معسكره وكان كثيرا وحمل الوزير وقاضى القضاة وابن
الانبارى وصاحب المخزن وغيرهم من الاكابر الى قلعة سرجهان وباع الباقون نفوسهم بالثمن

مقطعة الشلال وأقصامهم
مسبعة الآجال • معلقين
خيوط الرقاب بالمرض
الغالب • والطمع
الكاذب • لا يثنيهم
حالاوهم عن السفه والتخبط
• ولا يصمهم كبراؤهم
عن التهور والتورط •
علما ان ذلك أمر يراد •
وداء خلطه البغي والعناد
• وأيقن ان سرهم بالفساد
مغمور • وان السفيه
اذا لم ينه مأمور • وأمر
بالتأثر بن بخاش اليهم من
حواشي الجيوش • من
طبقوهم بالهض والرض •
وأذاقوهم الامن شاء الله
على صعيد من الارض •
واستخار الله تعالى في المكر
على بغاة السوء كما بهم
الى البيض القواطع •
وصدقنا بينات الرماح
الشوارع • ومصلا على
الانتصاف منهم بشهادات
النصور واتلوا صبح •
وأقبل فرتب الجيوش قلبا
كثهلان • وميمنة كرضوى
وميسرة كابان • وصحن
المصاف بزهاء مائتين من
فيلة كرعن الجبال •
او دكن السحاب الثقال
• مغشاة بصفائف لم يعود
منها غير حدق النواظر •
وحد الانياب البواتر
• بهول ساستها عليها
بردفات كالبروق الخواطف

دون الطنيف ولم يقتل فى هذه المعركة احد وهذا اعجب مايحكى وعاد السلطان الى همذان وامر فنودى من تبعنا الى همذان من البغاددة قتلناه فرجع الناس كلهم على اقبح حال لايعرفون طريقا وليس معهم مايحملهم وسير السلطان الامير بك آبه المحمودى الى بغداد شحنة فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد فقبضوا جميع املاك الخليفة واخذوا غلاتها وثار جماعة من عامة بغداد فكسروا المنبر والشباك ومنعوا من الخطبة وخرجوا من الاسواق يحثون التراب على رؤسهم ويبكون ويصيحون وخرج النساء حاسرات فى الاسواق يلطمن واقتتل اصحاب الشحنة وعامة بغداد فقتل من العامة مايزيد على مائة وخمسين قتيلا وهرب الوالى وحاجب الباب واما السلطان فانه سار فى شوال من همذان الى مراغة لقتال الملك داود ابن اخيه محمود وكان قد عصى عليه فنزل على فرسخين من مراغة والمسترشد معه فترددت الرسل بين الخليفة وبين السلطان فى الصلح فاستقرت القاعدة على مانذكره ان شاء الله والله الموفق

(ذكر قتل المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله)

لما قبض المسترشد بالله ابو منصور بن الفضل بن المستظهر بالله ابى العباس احمد على ماذكرناه جعله السلطان مسعود فى خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما فى تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة وان لا يعود يجمع العساكر وان لا يخرج من داره فاجاب السلطان الى ذلك وأركب الخليفة وحمل الغاشية بين يديه ولم يبق الا أن يعود الى بغداد فوصل الخبر ان الامير قزان خوان قد ورد رسولا من السلطان سنجر فتأخر مسير المسترشد لذلك وخرج الناس مع السلطان مسعود الى لقائه وفارق الخليفة بعض من كان موكلا به وكانت خيمته منفردة عن العسكر فقصده أربعة وعشرون رجلا من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه مايزيد على عشرين جراحة ومثلوا به فجدعوا انفه وأذنيه وتركوه عريانا وقتل معه نفر من أصحابه منهم أبو عبد الله بن سكينة وكان قتله يوم الاحد سابع عشر ذى القعدة على باب مراغة وبقى حتى دفنه أهل مراغة واما الباطنية فقتل منهم عشرة وقيل بل قتلوا جميعهم والله أعلم وكان عمره لما قتل ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وكانت خلافته سبعة عشر سنة وستة أشهر وعشرين يوما وامه ام ولد وكان شهما شجاعا كثير الاقدام بعيد الهمة واخباره المذكورة تدل على ماذكرناه وكان فصيحا بليغا حسن الخط ولقد رايت خطه فى غاية الجودة ورايت اجوبته على الرقاع من احسن ما يكتب وافصحه ولما قتل المسترشد بالله بويع ابنه الراشد بالله ابو جعفر المنصور ولقب الراشد بالله وكان ابوه قد بايع له بولاية العهد فى حياته وجددت له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من ذى القعدة وكتب السلطان مسعود الى بك آبه الشحنة ببغداد فبايع له وحضر الناس البيعة وحضر بيعته احد وعشرون رجلا من اولاد الخلفاء وبايع له الشيخ ابو النجيب ووعظه وبالغ فى الموعظة واما جمال الدولة المسترشدى فكانه كان ببغداد فى طائفة من العسكر فلما جرت هذه الحادثة عبر الى الجانب الغربى واصعد الى تكريت وراسل مجاهد الدين بهروز وحلفه وصعد اليه الى القلعة

(ذكر مسير السلطان سنجر الى غزنة وعوده عنها)

فى هذه السنة فى ذى القعدة سار السلطان سنجر من خراسان الى غزنة وسبب ذلك انه نقل اليه

* وصفارات كالرعود القواصف * وقد نشرت عليها التماثيل السود * كأنها الاساود والاسود * يخيل اضطراب الرياح فيها انها تزحف للالتهام * أو تنتفض لاختطاف الهام * وتعالت عليها أطراف العوامل * فكأنها آجام السواحل * تأويها شياطين الانس فرسانا * وعفاريت الترك والهند مردا وشبانا * تبص عليهم سابغات داود كفصائح الماء تجلوها الشمس سافره * وتزهاها الشمال سائره * قد جعلوا الدروع وقاية للاجسام * وظاهروا عليها بالقلوب حرصا على الانتقام * فهم يأنسون بمباشرة القتال * ومشاورة الاقتال * واستثارة المنايا عن مرابض الآجال * انس العيون باناسيها الباصرة * والقلوب بأماسيها الحاضرة * ووقف الامير سيف الدولة فى القلب بنفسه وأخويه نصر واسمعيل ابنى ناصر الدين سبكتكين وعمه بغراجق فكانما عناه أبو فراس بقوله

علونا دوشنا بأشد منه
وأثبت عند مشتجر الرماح
بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننت البر بحرا من سلاح
وألسنة من العذبات حمر
تخاطبنا بأفواه الرياح

عن صاحبها بهرام شاه انه تغير عن طاعته وانه قد مد يده الى ظلم الرعايا واغتصاب اموالهم وكان
السلطان سنجر هو الذى ملك غزنة وقد ذكرناه سنة تسع وخمسمائة فلما سمع هذه الاخبار
المزعجة سار الى غزنة ليأخذها او يصلحه فلما رأى الطريق ابعد ادركهم شتاء شديد البرد كثير
الثلج وتعذرت عليهم الاقوات والعلوفات فشكا العسكر الى السلطان ذلك وذكروا له ما هم
فيه من الضيق وتعذر ما يحتاجون اليه فلم يجب عنه بغير التقدم امامه فلما قارب غزنة ارسل
بهرام شاه الى سنجر رسولا يتضرع ويسأل الصفح عن جرمه والعفو عن ذنبه فارسل اليه سنجر
المقرب جوهر الخادم وهو اكبر امير عنده ومن جملة اقطاعه مدينة الرى فى جواب رسالته
يجيبه عن العفو عنه ان حضر عنده وعاد الى طاعته فلما وصل الى بهرام شاه اجابه الى ما طلب
منه من الطاعة وحمل المال والحضور عنده بنفسه واظهر من الطاعة والانقياد لما يحكم به
السلطان سنجر شيأ كثيرا وعاد المقرب جوهر ومعه بهرام شاه الى سنجر فلما قاربه سبق المقرب
الى السلطان سنجر واعلمه بوصول بهرام شاه وانه بكرة غد يكون عنده وعاد المقرب الى بهرام شاه
ليجىء بين يديه وركب سنجر من الغد فى موكبه لتلقيه وتقدم بهرام شاه ومعه المقرب فلما عاين
موكب سنجر والشتر على راسه نكص على عقبيه عائدا فامسك المقرب عنانه وقبح فعله وخوفه
عاقبة ذلك فلم يرجع وولى هاربا ولم يصدق بنجاته ظنا منه ان سنجر انما يأخذه ويملك بلده وتبعه
طائفة من اصحابه وخواصه ولم يعرج على غزنة وسار سنجر الى غزنة فدخلها وملكها واحتوى
على جميع ما فيها وجبى اموالها وكتب الى بهرام شاه يلومه على ما فعله ويحلف له انه ما اراد به
شرا ولا له فى بلده مطمع ولا هو ممن تلون صنيعته وتعقب حسنته معه بسيئة وما كان قصده
لاصلاحه فاعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنصل ويقول ان الخوف منعه من الحضور ولا لوم
على من خاف من السلطان وتضرع فى عوده الى الاحسان فاجابه سنجر الى ان يعيد عليه بلده
وفارق غزنة عائدا الى بلاده فوصل الى بلخ فى شوال سنة ثلاثين وخمسمائة واستقر ملك غزنة
لبهرام شاه ورجع اليها

(ذكر قتل دبيس بن صدقة بالتاريخ)

فى هذه السنة قتل السلطان مسعود دبيس بن صدقة على باب سرادقه بظاهر مدينة خوى أمر
غلاما ارمنيا بقتله فوقف على رأسه وهو ينكت الارض باصبعه فضرب رقبته وهو لا يشعر
وكان ابنه صدقة بالحلة فاجتمع اليه عسكر ابيه ومماليكه وكثر جمعه واستأمن اليه الامير قتلغ
تكين وامر السلطان مسعود بك ابه ان يأخذ الحلة فسار بعض عسكره الى المدائن واقاموا ينتظرون
لحاق بك ابه فلم يسر اليهم جبنا وعجزا عن قصد الحلة لكثرة العسكر بها مع صدقة وبقى
صدقة بالحلة الى ان قدم السلطان مسعود الى بغداد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة فقصده
واصلح حاله معه ولزم باب السلطان ومثل هذه الحادثة تقع كثيرا وهو قرب موت المتعاديين فان
دبيسا كان يعادى المسترشد بالله ويكره خلافته ولم يكن يعلم ان السلاطين انما كانوا يبقون
عليه ليعملوه عدة لمقاومة المسترشد فلما زال السبب زال المسبب والله اعلم بذلك

(ذكر حصر عسكر يحيى المهدية)

فى هذه السنة سير يحيى بن العزيز بن حماد صاحب بجاية عسكرا لحصر المهدية وبها صاحبها

واروع جيشه ليل بهيم
وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته كريم
قليل الصفح ما بين الصفاح
فكان ثباته للقلب قلبا
وهيبته جناحا للجناح
وزحفهم نحو الهموم
على هيئة وافره * وهيبة
حاضره * فكادت الارض
تمور * والجبال تثور *
والنهار الباهر يحول *
والفلك الدائر يزال او يزول
* وبدر القوم باقدامه *
واقبال آلويته واعلامه *
فقامت عليهم القيامه *
واستفاضت فيهم الحسرة
والندامه * واقبل بعضهم
على بعض يتلاومون * لما
جار تكبهم من الامر الامر
واجتلبوه من الصيلم الاد
وحفزهم سائق الضرورة *
عن المشورة * ففزعوا الى
الاحتشاد * وهموا بالركوب
الى القواد والافراد * وبرزوا
من جدران المدينه * فى
أفواف وأصباغ يوم الزينه
* وهم أكثر ما كانوا قط فى
معركة حشرهم من أطراف
خراسان وما وراء النهر كل
فارس وراجل * وحامل
عضب أو عاسل * سوى من
استيقظهم تلك الدولة من
كل فحل بازل * وبطل باسل *
وشجاع مقاتل * واقاموا
المقوب على المزاراة قلبا
لمجتمع الليل * وصيغة

الحسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس وكان سبب ذلك ان الحسن احب ميمون بن زيادة أمير
طائفة كبيرة من العرب ومال اليه وأكثر الانعام عليه فحسده غيره من العرب فساروا الى
يحيى بن العزيز باولادهم وحملوهم رهائن عنده وطلبوا منه ان يرسل معهم عسكرا ليملكوا
المهدية فاجابهم الى ذلك وهو متباطئ فاتفق انه وصله كتب من بعض مشايخ المهدية بمثل ذلك
فونق الى ما أتاه وسير عسكرا كثيرا واستعمل عليهم قائدا كبيرا من فقهاء أصحابه يقال له
مطرف بن حمدون وكان هذا يحيى بن العزيز هو واباه يحضرون المعز بن باديس وأولاده بعده
فسارت العساكر الفارس والراجل ومعهم من العرب جمع كثير حتى نزلوا على المهدية
وحصروها برا وبحرا وكان مطرف يظهر التقشف والتورع عن الدماء وقال انما أتيت الآن
لاتسلم البلد بغير قتال فخاب ظنه فبقي أياما لم يقاتل ثم انهم باشروا واظهر أهل المهدية عليهم
واثروا فيهم وتتابع القتال وفي كل ذلك الظفر لاهل البلد وقتل من الخارجين الجم الغفير
وجمع مطرف عسكره برا وبحرا المايئس من التسليم وقاتل اشد قتال فلكت شوانيه شاطئ
البحر وقربوا من السور فاشتد الامر فامر الحسن بفتح الباب وخرج اول الناس وحمل هو ومن
معه عليهم وقال انا الحسن فلما سمع من يقاتله ذلك سلموا عليه وانهزموا عنه اجلالا له ثم اخرج
الحسن شوانيه تلك الساعة من المينا فاخذ من تلك الشواني اربع قطع وهرب الباقون ثم
وصلت نجدة من رجار الفرنجي صاحب صقلية في البحر في عشرين قطعة فحصرت شواني
صاحب بجاية فامرهم الحسن باطلاقها فاطلقوها ثم وصل ميمون بن زيادة في كثير من العرب
لنصرة الحسن فلما رأى ذلك مطرف وان النجدات تأتي الحسن في البر والبحر علم انه لا طاقة له
بهم فرحل عن المهدية خائبا وأقام رجار الفرنجي مظهرا للحسن انه مهادنه وموافقه وهو مع ذلك
يعمر الشواني ويكثر عددها وآلاتها

(ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة)

كانت جزيرة جربة من بلاد افريقية قد استوت في كثرة عمارتها وخيراتها غير ان أهلها طغوا
فلا يدخلون تحت طاعة سلطان ويعرفون بالفساد وقطع الطريق فخرج اليها جمع من الفرنج
أهل صقلية في اسطول كثير وجم غفير فيهم من مشهوري فرسان الفرنج جماعة فنزلوا
بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها واجتمع أهلها وقاتلوا قتالا شديدا فوقع بين الفريقين
وقعات عظيمة ثبت أهل جربة فقتل منهم بشر كثير فانهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا
أموالها وسبوا حريمها ونساءها وأطفالها وهلك أكثر رجالها ومن بقي منهم أخذوا لانفسهم
أمانا من صاحب صقلية وافتكوا أسراهم وسبيهم وحريمهم والله أعلم بذلك

(ذكر ملك الفرنج حصن بروطة من بلاد الاندلس)

في هذه السنة اصطلح المستنصر بالله بن هود والسليطين الفرنجي صاحب طليطلة مدة عشر
سنين وكان السليطين قد أدمن غزو بلاد المستنصر وقتالها حتى ضعف صاحبها عن مقاومته
لقلة جنوده وكثرة الفرنج فرأى ان يصالحه مدة يستريح فيها هو وجنوده ويستعدون للمعاودة
فترددت الرسل بينهم فاستقر الصلح على ان يسلم المستنصر الى السليطين حصن روطة وهو من
امنع الحصون واحصنها فاستقرت القاعدة واصطلحوا وتسلم منه الفرنج الحصن وفعل

كشدفع السيل * ومسيرة
مشحونة بأشاهب الخيل *
وماج الفريقان بعضهم
في بعض كالجراد المنتشر
ضربا يزيل الرؤس عن
العواتق * ويبين الزنود
عن المرافق * وطعنا يهتك
ودائع الصدور * ويرد
مشارع الهموم والسرور *
ورشقا يصيب شواكل
الابصار * ويطلب وراء
الفقار مضجع القرار *
واشتدت الحرب حتى
تقلصت الشفاه * وتغضنت
الجباه * وتقطعت الانفاس *
وتحسرت الفرسان
والافراس * واغبرت
الآفاق * واحمرت
الحمالق والاحداق *
وخاض الامير سيف الدولة
غمرة الحرب يجتذب
بالاوهاق * مطالع
الاعناق * ويختطف
بالادماج * ودائع
الابراج * ويفض
بالاسياف * مجامع
الاكتاف * حتى رويت
الارض من نزال الحلوق *
وغرقت الجوامح في نواعر
العروق * ودامت على حالها
في الاحتدام والاضطرام *
والاقتران باشباب الحمام *
من حين استقلت الشمس
اكليلا على الجبل * الى
أن نفضت ورسا على
الاصيل * فاضطرب القوم

المستنصر فعلا لم يفعله قبله احد

(ذكر حصر ابن ردمير مدينة افراغة وهزيمته وموته)

وفي هذه السنة حصر ابن ردمير الفرنجي لعنه الله مدينة افراغة من شرق الاندلس وكان الامير تاشفين بن علي بن يوسف بمدينة قرطبة اميرا على الاندلس لابيه فجهز الزبير بن عمرو اللمتوني من قرطبة ومعه الفا فارس وسير معه ميرة كثيرة الى افراغة وكان يحيى بن غانية الامير المشهور امير مرسية وبلنسية من شرق الاندلس واليه الامر بها من امير المسلمين علي بن يوسف فتجهز في خمسمائة فارس وكان عبد الله بن عياض صاحب مدينة لاردة فتجهز في مائتي فارس فاجتمعوا وحملوا الميرة وساروا حتى اشرفوا على مدينة افراغة وجعل الزبير الميرة امامه وابن غانية امام الميرة وابن عياض امام ابن غانية وكان شجاعا وكذلك جميع من معه وكان ابن ردمير في اثني عشر الف فارس فاحتقر جميع الواصلين من المسلمين فقال لاصحابه اخرجوا وخذوا هذه الهدية التي ارسلها المسلمون اليكم وادركه العجب ونفذ قطعة كبيرة من جيشه فلما قربوا من المسلمين حمل عليهم ابن عياض وكسرهم وقتل بعضهم على بعض وقتل فيهم والتحم القتال وباشره ابن ردمير بنفسه وعساكره جميعا مدلين بكثرتهم وشجاعتهم فحمل ابن غانية وابن عياض في صدورهم واشتد الامر بينهم وعظم القتال فكثر القتل في الفرنج وخرج في الحال اهل افراغة جميعهم ذكرهم وانثاهم صغيرهم وكبيرهم الى خيام الفرنج فاشتغل الرجال بقتل من وجدوا في العسكر واشتغل النساء بالنهب وحملوا جميع ما وجدوه هناك الى المدينة من قوت وعدد وآلات وسلاح وغير ذلك وبينما المسلمون والفرنج في القتال اذ وصل اليهم الزبير في عسكره فانهزم ابن ردمير وعسكره ولم يسلم منهم الا القليل ولحق ابن ردمير بمدينة سرقسطة فلما رأى ما قتل من أصحابه مات مغموما بعد عشرين يوما من الهزيمة وكان أشد ملوك الفرنج باسا وأكثرهم تجردا لحرب المسلمين وأعظمهم صبرا كان ينام على طارقته بغير وطاء وقيل له هلا تتسرى من بنات اكابر المسلمين اللاتي سبيت منهم فقال الرجل المحارب ينبغي ان يعاشر الرجال لا النساء وأراح الله منه وكفى المسلمين شره

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في شعبان زلزلت الارض بالعراق والموصل وبلاد الجبل وغيرها وكانت الزلزلة شديدة وهلك فيها كثير من الناس والله أعلم

(ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين عسكر الراشد وعسكر السلطان)

في هذه السنة وصل برنقش الزكوي من عند السلطان مسعود يطالب الخليفة بما كان قد استقر على المسترشد من المال وهو أربعمائة الف دينار فذكر انه لا شيء عنده وان المال جميعه كان مع المسترشد بالله فنهب ثم بلغ الراشد بالله ان برنقش يريد التهجم على دار الخلافة وتفتيشها ليأخذ المال فجمع العساكر لمنعها وأمر عليهم كج ابه وأعاد عمارة السور فلما علم برنقش بذلك اتفق هو وبك ابه شحنة بغداد وهو من أمراء السلطان على ان يهجموا على دار الخلافة يوم الجمعة فبلغ ذلك الراشد بالله فاستعد لمنعهم وركب برنقش ومعه العسكر والامراء البكجية

ضجة من تنزوا المناصل * وقسقا بوتر العوالي والعوامل * وتداعوا بينهم لتكشفت عنهم غمة القتال * بتصميل الادبار أو الاقبال * فطرحوا الميمنة على الميسرة وهم يظنون وراء ذلك ظنونا * ويعطبون من بنات الاماني أبكارا وعونا * وأبى الله الا أن ينكس عليهم ما ظنوه * ويحيق بهم وبال ما منوه * حين ركبوا من ولي النعمة ما ركبوه * اخفارا لذمته * وانكارا لحرمته * واذالة لحشمته * واضاعة لحق نعمته * وألهم الامير سيف الدولة أن يزحف اليهم بسواد موقفه فلم يك الا صدمة واحدة حتى زلت الاقدام عن مقارها * وتهاوت الرقاب عن مزارها * وجعلت تساقط أشخاص الالوية والمطارد * وتبدد النفوس عن ضرب السيوف البوارد * واستمرت الهزيمة بالقلة عند اعتكار الظلام * فطاروا بين الاقطار كل مطار * وسفت بهم سافية البوار والادبار * فلم يلتق منهم بعددها اثنان عند تنازل الاقران * وتناوب الضراب والطعان * فذلك ذكرى للذاكرين * وكذلك

ومحمد بن عكر فى نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فاخرجوا عسكر السلطان الى دار السلطان فساروا الى طريق خراسان ثم انحدر بك ابه الى واسط وسار برتقش الى البندنيجين ونهبت العامة دار السلطان

(ذكر اجتماع اصحاب الاطراف على حرب مسعود ببغداد وخروجهم عن طاعته)

فى هذه السنة اجتمع كثير من الامراء وأصحاب الاطراف على الخروج عن طاعة السلطان مسعود فسار الملك داود بن السلطان محمود فى عسكر اذربيجان الى بغداد فوصلها فى رابع صفر ونزل بدار السلطان ووصل اتابك عماد الدين زنكى بعده من الموصل ووصل برتقش بازدار صاحب قزوين وغيرهما والبقش الكبير صاحب اصفهان وصدقة بن دبيس صاحب الحلة ومعه عنتر بن أبى العسكر الجاوانى يدبره ويتم نقص صباه وابن برسق وابن الاحمديلى وخرج اليهم من عسكر بغداد كج ابه والطرنطاى وغيرهما وجعل الملك داود فى شحنكية بغداد برتقش بازدار وقبض الخليفة الراشد بالله على ناصح الدولة ابى عبد الله الحسن بن جهير استاذ الدار وهو كان السبب فى ولايته وعلى جمال الدولة اقبال المسترشدى وكان قدم اليه من تكريت وعلى غيرهما من اعيان دولته فتغيرت نيات اصحابه عليه وخافوه فاما جمال الدولة فان اتابك زنكى شفع فيه شفاعة تحتها الزام فاطلق وصار اليه ونزل عنده وخرج موكب الخليفة مع وزيره جلال الدين ابى الرضا بن صدقة الى عماد الدين لتهنئته بالقدوم فاقام الوزير عنده وسأله ان يمنعه من الخليفة فاجابه الى ذلك وعاد الموكب بغير وزير وارسل زنكى من حرس دار الوزير من النهب ثم اصلح حاله مع الخليفة واعاده الى وزارته وكذلك ايضا عبر عليه قاضى القضاة الزينبى وسار معه الى الموصل ثم ان الخليفة جد فى عمارة السور فارسل له الملك داود من قلع أبوابه واخرب قطعة منه فانزعج الناس ببغداد ونقلوا اموالهم الى دار الخلافة وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب للملك داود وجرت الايمان بين الخليفة والملك داود وعماد الدين زنكى وارسل الخليفة الى اتابك زنكى مائتى الف دينار لينفقها ووصل الملك سلجوق شاه الى واسط فدخلها وقبض على الامير بك ابه ونهب ماله وانحدر أتابك زنكى اليه لدفعه عنها واصطلحا وعاد زنكى الى بغداد وعبر الى طريق خراسان وحث على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود وسار الملك داود نحو طريق خراسان فنهب العسكر البلاد ووصلت الاخبار بمسير السلطان مسعود الى بغداد وفارق الملك داود واتابك زنكى فعاد اتابك زنكى الى بغداد وفارق الملك داود واظهر له انه يمضى الى مراغة اذا فارق السلطان مسعود همذان فبرز الراشد بالله الى ظاهر بغداد اول رمضان وسار الى طريق خراسان ثم عاد بعد ثلاثة ايام ونزل عند جامع السلطان ثم دخل الى بغداد خامس رمضان وارسل الى داود وسائر الامراء يأمرهم بالعود الى بغداد فعادوا ونزلوا فى الخيام وعزموا على قتال السلطان مسعود من داخل سور بغداد ووصلت رسل السلطان مسعود يبذل من نفسه الطاعة والموافقة للخليفة والتهديد لمن اجتمع عنده فعرض الخليفة الرسالة عليهم فكلهم رأى قتاله فقال لهم الخليفة وانا ايضا معكم على ذلك

(ذكر ملك شهاب الدين حمص)

فى هذه السنة فى الثانى والعشرين من ربيع الاول تسلم شهاب الدين محمود صاحب دمشق

يفعل الله بالظالمين * وجفل عبد الملك بن نوح الى بخارا ومعه فائق فى اتباعه * وانتبذ بكتوزون الى نيسابور فى أشياعه * وأبو القاسم بن سيمجور الى قهستان وقد صاروا حزق مزق وعادوا شذر مذر وأصبح سيف الدولة وقد أنجز الله له وعده * ونصر جنده وجده * واسعد الله على رغم الراغمين جده * وأعلى يده * وأورى زنده * وساق اليه هدى الملك على غيرمهر * سوى الشكر * ولا صداق * سوى الاستحقاق * وورث دولة آل سامان * وملك ديار خراسان * سنة تسع وثمانين وثلثمائة ورأى أن يجل بكتوزون وأبا القاسم السيمجورى عن التجمع ثانيا * والتحدث بالالتقاء آنفا * فانحدر الى طوس فى البحر الاخضر من رجاله وأفياله وطار بكتوزون بجناح الهرب الى حدود جرجان وقفى السلطان على اثره بأرسلان الجاذب فجعل يطرده طرد الشهب أشخاص العفاريت حتى نفاه من تخوم خراسان وولاه السلطان ناحية طوس ورتبه بها فيمن ضم اليه من قواده وسار الى هراة مطالا لاعمالها *

مدينة حمص وقلعتها وسبب ذلك ان اصحابها اولاد الامير خيرخان بن قراجا والوالي بها من قبلهم ضجروا من كثرة تعرض عسكر عماد الدين زنكي اليها والى اعمالها وتضييقهم على من بها من جندي وعامي فراسلوا شهاب الدين في ان يسلموها اليه ويعطيهم عوضا عنها تدمر فاجابهم الى ذلك وسار اليها وتسلمها منهم في التاريخ المذكور وسلم اليهم تدمر واقطع حمص مملوك جده معين الدين انز وجعل فيها نائبا عنه من ثقات اصحابه وعاد عنها الى دمشق فلما رأى عسكر زنكي بحلب وحماة خروج حمص عن ايديهم تابعوا الغارات الى بلادها والنهب لها والاستيلاء على كثير منها فجرى بينهم عدة وقائع وارسل شهاب الدين الى زنكي في المعنى واستقر الصلح بينهم وكف كل منهم عن صاحبه

(ذكر الفتنة بدمشق)

في هذه السنة وقعت الفتنة بدمشق بين صاحبها والجند وسبب ذلك ان الحاجب يوسف بن فيروز كان اكبر حاجب عند ابيه وجده ثم انه خاف اباه شمس الملوك وهرب منه الى تدمر فلما كان في هذه السنة سأل ان يحضر الى دمشق وكان يخاف جماعة المماليك لانه كان اساء اليهم وعاملهم اقبح معاملة وكلهم عليه حنق لاسيما في الحادثة التي خرج فيها شمس الملوك وقد تقدمت فانه اشار بقتل جماعة برأيه وبقتل سونج بن تاج الملوك فصاروا كلهم اعداء مبغضين فلما طلب الامان والحضور الى دمشق أجيب الى ذلك فانكر جماعة الامراء والمماليك قربه وخافوا ان يفعل بهم مثل فعله الاول فلم يزل يتوصل معهم حتى حلف لهم واستحلفهم وشرط على نفسه انه لا يتولى من الامور شيئا ثم انه جعل يدخل نفسه في كثير من الامور فاتفق اعداؤه على قتله فبينما هو يسير مع شهاب الدين والى جانبه امير اسمه بزاوش يحادثه اذ ضربه بزاوش بالسيف فقتله فحمل ودفن في تربة والده بالعقيبة ثم ان بزاوش والمماليك خافوا فلم يدخلوا البلد ونزلوا بظاهره وارسلوا يطلبون قواعد اشتطوا فيها فاجابهم الى البعض فلم يقبلوا منه ثم ساروا الى بعلبك وبها شمس الملوك محمد بن تاج الملوك صاحبها فصاروا معه فالتحق بهم كثير من التركمان وغيرهم وشرعوا في العيث والفساد واقتضت الحال مراسلتهم وملاطفتهم واجابتهم الى ما طلبوا واستقرت الاحوال على ذلك وحلف كل منهم لصاحبه فعادوا الى ظاهر دمشق ولم يدخلوا البلد وخرج شهاب الدين صاحب دمشق اليهم واجتمع بهم وتجددت الايمان وصار بزاوش مقدم العسكر واليه الحل والعقد وذلك في شعبان وزال الخلف ودخلوا البلد والله اعلم

(ذكر غزاة العسكر الاتابكي الى بلاد الفرنج)

في هذه السنة في شعبان اجتمعت عساكر اتابك زنكي صاحب حلب وحماة مع الامير اسوار نائبه بحلب وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة منهم وقصدوا اعمال اللاذقية ولم يتمكن اهلها من الانتقال عنها والاحتراز فنهبوا منها ما يزيد عن الوصف وقتلوا وأسروا وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم وكان الاسرى سبعة آلاف اسير ما بين رجل وامرأة وصبي ومائة الف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم وأما ما سوى ذلك من الاقمشة والعين والحلي فيخرج عن الحد واخربوا بلاد اللاذقية وما جاورها ولم يسلم منها الا القليل وخرجوا الى شيزر

وتعبد دالها بدا سر والواء فلم تنشب بكتوزون حين سمع بانثناء عنانه اليها أن بكر الى نيسابور فملكها ثانيا يرى أنه يناضل عن دولة قد سحم سماؤها * وانقضت أيامها وناحت عليها اصداؤها وهامها * فلم يزد على أن جشم السلطان كلفة الكر عليه قبل أن اطمأنت به قعدته * أو بقت على طرفه لبدته * فجفل عن نيسابور على سمت أبيورد وشد السلطان عليه الطلب فركب المفازة الى مرو مبقيا بالرواح على الحياة * ومستظهرا بالنجاة على النجاة * وخلص الى مرو وقص أعقابهم فراهة المراكب * وقوة الصبر على وعثاء تلك المهارب * ورام أن يملكها ويحتجز بها فالتمس أهلها موالاة السلطان * وشكروا ما وسعهم من العدل والاحسان * فشن عليهم غارة شعواء * وخبطهم بالسيوف خبط عشواء * وركب مفازة آمل حتى عبر النهر الى بخارا ولما خلت خراسان من بكتوزون وأصحابه سرب السلطان ارسلان الجاذب والي طوس الى قهستان لنفضها عن أبي القاسم بن سيمجور اذ كان يظن

بما معهم من الغنائم سالمين منتصف رجب فامتلأ من الاسارى والدواب وفرح المسلمون بذلك فرحا عظيما ولم يقدر الفرنج على شئ يفعلونه مقابل هذه الحادثة لعجزهم ووهنا وضعفا

(ذكر وصول السلطان مسعود الى العراق وتفرق اصحاب الاطراف ومسير الراشد بالله الى الموصل)

قيل لما بلغ السلطان مسعودا اجتماع الملك داود والامراء ببغداد على خلافه وخطب للملك داود ابن أخيه السلطان محمود جمع العساكر وسار الى بغداد فنزل بالملكية فسار بعض العسكر حتى شارفوا عسكره وطاردوهم وكان في الجماعة زين الدين على امير من أمراء اتابك زنكى ثم عادوا ووصل السلطان فنزل على بغداد وحصرها وجميع العساكر فيها وثار العيارون ببغداد وسائر محالها وافسدوا ونهبوا وقتلوا حتى انه وصل صاحب لاتابك زنكى ومعه كتب فخرجوا عليه واخذوها منه وقتلوه فحضر جماعة من اهل المحال عند الاتابك زنكى واشاروا عليه بنهب المحال الغربية فليس فيها غير عيار ومفسد فامتنع من ذلك ثم ارسل بنهب الحريم الطاهرى فاخذ منه من الاموال الشئ الكثير وسبب ذلك ان العيارين فيه وأخذوا أموال الناس ونهبت العساكر غير الحريم من المحال وحصرهم السلطان نيفا وخمسين يوما فلم يظفر بهم فعاد الى النهروان عازما على العود الى همدان فوصله طرنطاى صاحب واسط ومعه سفن كثيرة فعاد اليها وعبر فيها الى غربى دجلة وأراد العسكر البغدادى منعه فسبقهم الى العبور واختلفت كلمتهم فعاد الملك داود الى بلاده فى ذى القعدة وتفرق الامراء وكان عماد الدين زنكى بالجانب الغربى فعبر اليه الخليفة الراشد بالله وسار معه الى الموصل فى نفر يسير من اصحابه فلما سمع السلطان مسعود بمفارقة الخليفة وزنكى بغداد سار اليها واستقر بها ومنع اصحابه من الاذى والنهب وكان وصوله منتصف ذى القعدة فسكن الناس واطمأنوا بعد الخوف الشديد وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التى حلف بها الراشد بالله لمسعود وفيها بخط يده انى متى جندت أو خرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسى من الامر فافتوا بخروجه من الخلافة وقيل غير ذلك وسنذكره فى خلافة المقتفى لامر الله وكان الوزير شرف الدين على بن طراد وصاحب المخزن كمال الدين بن البقشلانى وابن الانبارى مع السلطان لانهم عنده مذ اسرهم مع المسترشد بالله فقدحوا فى الراشد ووافقهم على ذلك اصحاب المناصب ببغداد الا اليسير لانهم كانوا يخافونه وكان قد قبض بعضهم وصادر بعضا واتفقوا على ذمه فتقدم السلطان بخلعه واقامة من يصلح فخلع وقطعت خطبته فى بغداد فى ذى القعدة وسائر البلاد وكانت خلافته احد عشر شهرا واحد عشر يوما وقتله الباطنية على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر خلافة المقتفى لامر الله)

لما قطعت خطبة الراشد بالله استشار السلطان جماعة من اعيان بغداد منهم الوزير على بن طراد وصاحب المخزن وغيرهما فيمن يصلح ان يلى الخلافة فقال الوزير احد عمومة الراشد وهو رجل صالح قال من هو قال من لا اقدر ان افصح باسمه لئلا يقتل فتقدم اليهم بعمل محضر فى خلع الراشد فعملوا محضرا ذكروا فيه ما ارتكبه من اخذ الاموال واشياء تقدح فى الامامة ثم

الظنون فى تدبيره ويطمع فى الارتياش عن تحسيره فواقعه بها وطرده الى نواحى طبس عنها وولى السلطان أخاه الامير نصر ابن ناصر الدين سبكتكين قيادة الجيوش بخراسان ورتبه بنيسابور على ما كان يليه آل سيمجور على قديم الزمان وامتد الى بلخ مستقر أبيه ناصر الدين فاتخذها حضرة الملك ودار السلام ولما انتهى السلطان الى بعض حدود مرو الروذ منصرفه اليها ركب على رسم التصيد فى خف من العدد ومعه أخوه اسمعيل بن ناصر الدين وقائد من قواد أبيه يعرف بنوشتكين كاج قد وتره احسانه بما آل أمره على يده لاعتزاز كان كاحد رفقائه فى الاثبات والاطلاق والاحسان والارفاق فبينا السلطان فى هزة الاقتناص اذ حانت منه التفاتة فاذا به قابضا على قبيعة سيفه يروم انتضاءه وقد رمى وجه أخيه اسمعيل بطرفه يطلب ايماءه ولاح للسلطان انكار اسمعيل عليه بدلائل رمزه وايماضه وشواهد ارتياعه وامتعاضه غير ان استشارته اياه فيما جناه قد فرشت له بساط التهمة وجرحت منه جارحة الثقة

كتبوا فتوى ما تقول العلماء فيمن هذه صفته هل يصلح للامامة أم لا فافتوا ان من هذه صفته
لا يصلح ان يكون اماما فلما فرغوا من ذلك أحضروا القاضي أبا طاهر بن الكرخي فشهدوا عنده
بذلك فحكم بفسقه وخلعه وحكم بعده غيره ولم يكن قاضي القضاة حاضرا فانه كان عند اتابك
زنكي بالموصل ثم ان شرف الدين الوزير ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد بن المستظهر
بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين
الزينبي وصاحب المخزن ابن البقشلاني وغيرهما وأمر باحضار الامير أبي عبد الله بن المستظهر
من المكان الذي يسكن فيه فاحضر وأجلس في المثمنة ودخل السلطان اليه والوزير وتحالفا
وقرر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الامراء وارباب المناصب
والقضاة والفقهاء وبايعوا ثامن عشر ذي الحجة ولقب المقتفي لامر الله قيل سبب اللقب انه
رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يلي الخلافة بستة أيام وهو يقول له ان هذا الامر يصير
اليك فاقتف بي فلقب بذلك ولما استخلف سيرت الكتب الحكمية بخلافته الى سائر الامصار
واستوزر شرف الدين علي بن طراد الزينبي فارسل الى الموصل وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم
علي بن الحسين الزينبي ابن عم الوزير وأعاده الى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه
صاحب المخزن وجرت الامور على أحسن نظام وبلغني ان السلطان مسعودا أرسل الى
الخليفة المقتفي لامر الله في تقرير اقطاع يكون لخاصته فكان جوابه ان في الدار ثمانين بغلا
تنقل الماء من دجلة فلينظر السلطان ما يحتاج اليه من يشرب هذا الماء ويقوم به فتقررت
القاعدة على ان يجعل له ما كان للمستظهر بالله فاجاب الى ذلك وقال السلطان لما بلغه قوله
لقد جعلنا في الخلافة رجلا عظيما والمقتفي عم الراشد وهو والمسترشد ابنا المستظهر وليا الخلافة
وكذلك السفاح والمنصور اخوان وكذلك المهدي والرشيد اخوان وكذلك الواثق والمتوكل
اخوان واما ثلاثة اخوة ولوا الخلافة فالامين والمأمون والمعتصم وهم أولاد الرشيد والمكتفي
والمقتدر والقاهر بنو المعتضد والراضي والمتقي والمطيع بنو المقتدر واما اربعة اخوة ولوها
فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان لا يعرف غيرهم وحين استقرت الخلافة
للمقتفي ارسل اليه الراشد بالله رسولا من الموصل مع رسول اتابك زنكي وكان كمال الدين محمد بن
عبد الله الشهرزوري فاحضر في الديوان وسمعت رسالته وحكى لي والدي عنه قال لما حضرت
الديوان قيل لي تبايع أمير المؤمنين فقلت امير المؤمنين عندنا في الموصل وله في اعناق الخلق
بيعة متقدمة وطال الكلام وعدت الى منزلي فلما كان الليل جاءتني امرأة عجوز سرا واجتمعت
بي وابلغتني رسالة عن المقتفي لامر الله مضمونها عتابي على ما قلته واستنزالي عنه فقلت غدا
أخدم خدمة يظهر اثرها فلما كان الغد حضرت الى الديوان وقيل لي في تعيين البيعة فقلت انا
رجل فقيه قاضي ولا يجوز لي ان ابايع الآن يثبت عندي خلع المتقدم فاحضروا الشهود
وشهدوا عندي في الديوان بما اوجب خلعه فقلت هذا ثابت لا كلام فيه ولكن لا بد لنا في هذه
الدعوى من نصيب لان امير المؤمنين قد حصل له خلافة الله في ارضه والسلطان فقد استراح ممن
كان يقصده ونحن بأي شيء نعود فرجع الامر الى الخليفة فامر ان يعطى اتابك زنكي صريفين
ودرب هرون وبحرى ملكا وهي من خاص الخليفة ويزاد في ألقابه وقال هذه قاعدة لم يسمح بها

وبادر السلطان الى مضربه وقد أمر بالاحتياط عليه في وقته وحكم فيه خواص غلمانه فاخذته السيوف حتى تطايرت أعضاؤه وتناثرت عليه أوصاله وأجزاؤه ثم دعا السلطان باخيه اسمعيل فادلى بعذره وجدد العهد بما أبداه ألتونتاش للسلطان من خيانة سره وغدره وجرت مفاوضات ومراسلات اقتضاه آخرها أن يستوثق منه لنفسه وملكه اذ كان لا يلتقي سيفان في غمد ولا يجتمع فحلان في شول وبلغني ان السلطان بعد استنزاله اياه عن القلعة بغزنة بسط منه في بعض مجالس انسه وباحثه بلسان الاستدراج عند حث السقاة عما كان ينويه في معاملته أن لو ملك من أمره ما ملكه هو منه فحمله سلامة صدره ونشوة خمره على أن قال كان رأيي فيك أن أوعز بك الى بعض القلاع موسعا عليك فيما تقترحه من دار وغاية وجوار ورزق على قدر الكفاية فدار قلب ارباب السلطان عنه المائدة به عاملة بمثل ما نواه وقابله بجنس ما أبداه واستودعه والي الجوزجان أبا الحارث محمد بن بجية

لاحد من زعماء الاطراف ان يكون لهم نصيب من خاص الخليفة وكانت بيعة كمال الدين سنة
احدى وثلاثين وخمسمائة ولما عاد كمال الدين الشهرزوري سير على يده المحضر الذي عمل بخلع
الراشد فحكم به قاضي القضاة الزينبي بالموصل وكان عند اتابك زنكي

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة عزل السلطان مسعود وزيره شرف الدين انوشروان بن خالد وعاد الى بغداد وقام
بداره معزولا ووزر من بعده كمال الدين أبو البركات بن سلمة الزركزيني وهو من خراسان وفيها
ثار العيارون ببغداد عند اجتماع العساكر بها وفتكوا في البلد ونهبوا الاموال ظاهرا وكثر
الشر فقصد الشحنة شارع دار الرقيق وطلب العيارين فثار عليه أهل المحال الغربية فقاتلهم
وأحرق الشارع فاحترق فيه خلق كثير ونقل الناس أموالهم الى الحريم الطاهري فدخله
الشحنة ونهب منه مالا كثيرا ثم وقعت فتنة ببغداد بين أهل باب الازج وبين أهل المأمونية
وقتل بينهم جماعة ثم اصطلحوا وفيها سار قراسنقر في عساكر كثيرة في طلب الملك داود بن
السلطان محمود فاقام السلطان مسعود ببغداد ولم يزل قراسنقر يطلب داود حتى أدركه عند
مراغة فالتقيا واقتتل العسكران قتالا عظيما فانهزم داود وأقام قراسنقر باذربيجان
واما داود فانه قصد خوزستان فاجتمع عليه هناك عساكر كثيرة من التركمان وغيرهم فبلغت
عدتهم نحو عشرة آلاف فارس فقصد تستر وحاصرها وكان عمه الملك سلجوق شاه بن السلطان
محمد بواسط فارسل الى أخيه السلطان مسعود يستنجده فامده بالعساكر فسار الى داود وهو
محاصر تستر فقاتله فانهزم سلجوق شاه وفيها توفي محمد بن حمويه أبو عبد الله الجويني وهو من
مشايخ الصوفية المشهورين وله كرامات كثيرة ورواية الحديث وتوفي أيضا محمد بن عبد الله
ابن أحمد بن حبيب العامري الصوفي مصنف شرح الشهاب وأنشد لما احتضر

ها قد مددت يدي اليك فردها * بالعفو لا بشماتة الاعداء

وتوفي أيضا أبو عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد الفراوي الصاعدي راوي صحيح مسلم عن عبد
الغافر الفارسي وطريقه اليوم أعلى الطرق واليه الرحلة من الشرق والغرب وكان فقيها
مناظرا يخدم الغرباء بنفسه وكان يقال الفراوي الف راوي رحمه الله ورضي عنه

(ثم دخلت سنة احدى وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر تفرق العساكر عن السلطان مسعود)

في هذه السنة في المحرم اذن السلطان مسعود للعساكر التي عنده ببغداد بالعود الى بلادهم لما
بلغه ان الراشد بالله قد فارق اتابك زنكي من الموصل فانه كان يتمسك بالعساكر عنده خوفا
ان ينحدر به الى العراق فيملكه عليه فلما أراد أن يأذن للامير صدقة بن دبيس صاحب الحلة
زوجه ابنته تمسكا به وقدم على السلطان مسعود جماعة من الامراء الذين جاءوا مع الملك
داود منهم البقش السلاحي وبرسق بن برسق صاحب تستر وسنقر الخمارتكين شحنة همدان
فرضي عنهم وأمنهم وولى البقش شحنكية بغداد فعسف الناس وظلمهم وكان السلطان
مسعود بعد تفرق العساكر عنه قد بقي معه الف فارس وتزوج الخليفة فاطمة أخت
السلطان مسعود في رجب والصداق مائة ألف دينار وكان الوكيل في قبول النكاح وزير

ممتعا يشغل ما كان يثوبه
فلله هذا الفعال الذي طرز
ديباجة الكرم وغير في
وجه مساعي ملوك الامم
وقد يستغرب هذا
الاسجاح من وجه وان كان
لا يستبدع من آخر لان
هناك عاطفة القربى
والرحم ولكن الشأن في
الاجانب الذين تغلق رقابهم
الاجرام الفادحة والجنايات
الفاحشة كيف يسلط فيهم
رأيه على هواه ويستبقي
الجاني بما جناه فلم يسمع
باعف منه في الجنايات سيفا
ولا أحسن على فورة الزلات
صبرا واحتج لهذه الخصلة
الفاضلة بان الملك الحازم
من يسلب الجاني في حال
سخطه ما يمكنه الوفاء بعينه
او بمثله عند رضاه وجرح
المال يؤسى بالتعويض
والاخلاف فاما النفوس
فليس لاتلافها من تلاف

(ذكر الخلع التي أفاضها القادر بالله أمير المؤمنين على السلطان يمين الدولة وأمين الملة أنار الله برهانهما)

أوجب القادر بالله أمير المؤمنين له خلعا لم يسمع بمثلها محمولة من دار الخلافة ولقبه في كتابه يمين الدولة وأمين الملة لقبا كان مصونا في صدف الشرف لم تنله أيدي الغاصة قط على كثرة

الخليفة على بن طراد الزينبي والوكيل عن السلطان وزيره الزركبي ووثق السلطان حيث صار الخليفة وصدقة بن دبيس بن صدقة صهره وحيث سار الراشد بالله من عند زنكى الاتابك والله أعلم

●(ذكر عزل بهرام عن وزارة الحافظ ووزارة رضوان)●

فى هذه السنة فى جمادى الاولى هرب تاج الدولة بهرام وزير الحافظ لدين الله العلوى صاحب مصر وكان قد استوزره بعد قتل ابنه حسن سنة تسع وعشرين وخمسمائة وكان نصرانيا أرمنيا فتمكن فى البلاد واستعمل الارمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والارمن الذين ولاهم وطمعوا فيهم فلم يكن فى أهل مصر من أنف من ذلك الا رضوان بن الرحيق فانه لما شاء ذلك وأقلقه جمع جمعا كثيرا وقصد القاهرة فسمع به بهرام فهرب الى الصعيد من غير حرب ولا قتال وقصد مدينة اسوان فمنعه واليها من الدخول اليها وقاتله فقتل السودان من الارمن كثيرا فلما لم يقدر على الدخول الى اسوان أرسل الى الحافظ يطلب الامان فامنه فعاد الى القاهرة فحبس بالقصر فبقى مدة ثم ترهب وخرج من الحبس واما رضوان فانه وزر للحافظ ولقب بالملك الافضل وهو أول وزير للمصريين لقب بالملك ثم فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ فى اخراجه فثار الناس عليه منتصف شوال فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وهرب من داره وتركها بما فيها فنهب الناس منها ما لا يحد ولا يحصى وركب الحافظ فسكن الناس ونقل ما بقى فى دار رضوان الى قصره واما رضوان فسار يريد الشام يستنجد الاتراك ويستنصرهم فارسل اليه الحافظ الامير ابن مصال ليرده بالامان والعهد انه لا يؤذيه فرجع الى القاهرة فحبسه الحافظ عنده فى القصر وقيل انه توجه الى الشام وهو الصحيح وقصد صرخد فوصل اليها فى ذى القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشتكين فاكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار الى مصر سنة اربع وثلاثين وخمسمائة ومعه عسكر فقاتل المصريين عند باب النصر وهزمهم وقتل منهم جماعة كثيرة وأقام ثلاثة أيام فتفرق عنه كثير ممن معه فعزم على العود الى الشام فارسل اليه الحافظ الامير ابن مصال فرده وحبسه عنده فى القصر وجمع بينه وبين عياله وأهله فاقام فى القصر الى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وخرج منه وقد أعدت له خيل فهرب عليها وعبر النيل الى الجيزة فحشد وجمع المغاربة وغيرهم وعاد الى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل القاهرة فنزل عند جامع الاقمر فارسل الى الحافظ يطلب منه مالا ليفرقه على عادتهم فانهم كانوا اذا وزر وزير أرسلوا اليه عشرين ألف دينار ليفرقها فارسل الحافظ عشرين ألف دينار فقسمها وكثر عليه الناس وطلب زيادة فارسل اليه عشرين ألف دينار ففرقها فتفرق الناس وشذوا عنه فاذا الصوت قد وقع وخرج اليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا على علمائه فقاتلوهم فقام يركب فقدم اليه بعض أصحابه فرسا ليركبه فلما اراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله وحمل رأسه الى الحافظ فارسله الى زوجته فوضع فى حجرها فالقته وقالت هكذا يكون الرجال ولم يستوزر الحافظ احدا وباشر الامور بنفسه الى ان مات

●(ذكر فتح المسلمين حصن وادى ابن الاحمر من الفرنج)●

الطلاب وتنافس الملوك فى الالقاب فتبوأ سرير الملك واجتاب خلعة المجد وأذاع شعار الطاعة لامير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وقام بين يديه أمراء خراسان سماطين مقيمين رسم الخدمه وملتزمين حكم الهيبه وأجلسهم بعد الاذن العام على مجلس الانس وأمر لكل منهم ولسائر غلمانه وخاصته ووجوه أوليائه وحاشيته بحسب ما بقى من روائع الخلع والصلات ونفائس الاحبية والكرامات ● بما لم يتسع لمثله ملك ملك ولم يف ببعضه ضمير أمير واستجابت خراسان لامره وقرعت منابرها بذكره وانسقت الامور عن آخرها فى كنف ايالته واستوسقت الاعمال فى ضمن كفالته وفرض على نفسه فى كل عام غزوة فى الهند ينصر بها الدين ويقمع أعداء الله الملحدين فكتب الله أجره وأحسن نصره كذلك قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم

●(ذكر انصراف عبد الملك بن نوح الى بخارا)●

ولما وصل عبد الملك بن نوح الى بخارا فى الفل

وفى هذه السنة فى رجب سار عسكر دمشق مع مقدمهم الامير بزاوش الى طرابلس الشام فاجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة والتركمان أيضا خلق كثير فلما سمع القمص صاحبها بقربهم من ولايته سار اليهم فى جموعه وحشوده فقاتلهم وانهزم الفرنج وعادوا الى طرابلس فى صورة سيئة قد قتلت فرسانهم وشجعانهم فلما عادوا انهب المسلمون من أعمالهم أكثرها وحصروا حصن وادى ابن الاحمر وضيقوا عليه وملكوه عنوة ونهبوا ما فيه وقتلوا المقاتلة وسبوا الحريم والذرية وأسروا الرجال فاشتروا أنفسهم بمال جزيل وعاد المسلمون الى دمشق سالمين والله أعلم

(ذكر حصار زنكى مدينة حمص)

فى هذه السنة فى شعبان سار اتابك زنكى الى مدينة حمص وقدم اليها حاجبه صلاح الدين محمد الباغيسيانى وهو أكبر أمير معه وكان ذا مكر وحيل أرسله ليتوصل مع من فيها ليسلموها اليه فوصل اليها وفيها معين الدين أنز وهو الوالى عليها والحاكم فيها وهو أيضا أكبر أمير بدمشق وحمص اقطاعه كما سبق ذكره فلم ينفذ فيه مكره فوصل حينئذ زنكى اليها وحصرها وعاود مراسلة أنز فى التسليم غير مرة تارة بالوعد وتارة بالوعيد واحتج بأنها ملك صاحبه شهاب الدين وانها بيده أمانة ولا يسلمها الا عن غلبة فاقام عليها الى العشرين من شوال ورحل عنها من غير بلوغ غرض الى بعرين فحصرها وكان منه ومن الفرنج ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك زنكى قلعة بعرين وهزيمة الفرنج)

وفى هذه السنة فى شوال سار اتابك زنكى من حمص كما ذكرناه وحصر قلعة بعرين وهى للفرنج تقارب مدينة حماة وهى من أمنع الحصون وأحصنها فلما نزل عليها قاتلها وزحف اليها فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا فى قضهم وقضيضهم وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم الى اتابك زنكى ليرحلوه عن بعرين فلم يرحل وصبر لهم الى أن وصلوا اليه فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم أجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب واحتمى ملوكهم بحصن بعرين لقربه منهم فحصرهم المسلمون ومنع اتابك زنكى عنهم كل شئ حتى الاخبار فكان من به منهم لا يعلم شيأ من أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده ثم ان القسوس والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين وأعلموهم ان زنكى ان أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم فى أسرع وقت لعدم الحامى عنها وان المسلمين ليس لهم نية الا قصد البيت المقدس فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم وكان منهم ما نذكره واما زنكى فانه جد فى قتال الفرنج فصبروا وقلت عليهم الميرة والذخيرة فانهم كانوا غير مستعدين ولم يكونوا يعتقدون ان أحدا يقدر عليهم بل كانوا يتوقعون ملك باقى البلاد بالشام فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم وأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ويتركهم يعودون الى بلادهم فلم يجبهم الى ذلك فلما سمع بقرب ملك الروم من الشام واجتماع من بقى من الفرنج أعطى لمن فى الحصن الامان وقرر عليهم تسليم الحصن ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها اليه فاجابوه الى ذلك فخرجوا وسلموا اليه فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم وكان لا يصل اليهم شئ من الاخبار

ومعه فائق وتلاحق به بكتموزون فى أصحابه وأولياء عبد الملك فى مضامته طمعوا آنفا فى الاستقلال * وتكهنوا لانفسهم بطالع الاقبال * وتحدثوا بالاحتشاد لانف القتال * واختزم من بينهم فائق فى شعبان سنة تسع وثمانين وثلثمائة وهو وجه الزمرة وطراز الحلة * وعمدة الجلة * والملقب بعميد الدولة * فتمكن الاختزال من صدورهم * وسرى الاختلال فى أمورهم * وانحدر ايلك الخان الى باب بخارا يظهر لعبد الملك وسائر اجناده وانجاده موالاة خداع * واحتيال وموالاة استدراج واغتيال * وهم يظنون استظهارا على ما عراهم * واحتياطا لما يشد عراهم * مغرورين عن واجب الاستبصار * والاحتراس عن حبائل الاوتار * حتى آنسهم بلطائف بره واقباله * وأطمعهم بزخارف أقواله وأفعاله * وركب اليه بكتموزون وينال تكين الفائق وسائر قواد عبد الملك صباح يوم فلما اطمأنت بهم المجالس أمر باعتقالهم والقبض على أصحابهم ودوابهم * واستلاب أسلحتهم وأسبابهم * فلم ينج منهم الا الفارد الشارد * والنادر

السنة فلهذا سلموه وكان زنكي في مدة مقامه عليهم فتح المعرة وكفرطاب من الفرنج فكان أهلها وأهل سائر الولايات التي بينها وبين حلب وحماة مع أهل شيزر في الخزي لأن الحرب بينهم قائمة على ساق والنهب والقتل لا يزال بينهم فلما ملكها أمن الناس وعمرت البلاد وعظم دخلها وكان فتحها من رآه علم صحة قولي ومن أحسن الاعمال ما عمله زنكي مع أهل المعرة فان الفرنج لما ملكوها كانوا قد أخذوا أملاكهم فلما فتحها زنكي الآن حضر من بقي من أهلها ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم فطلب منهم كتبها فقالوا ان الفرنج أخذوا كل مالنا والكتب التي للاملاك فيها فقال اطلبوا دفاتر حلب وكل من عليه خراج على ملك يسلم اليه ففعلوا ذلك واعاد على الناس املاكهم وهذا من احسن الافعال واعدلها

•(ذكر خروج ملك الروم من بلاده الى الشام)•

قد تقدم ان الفرنج ارسلوا الى ملك القسطنطينية يستصرخونه ويعرفونه ما فعله زنكي فيهم ويحرضونه على لحاق البلاد قبل ان تملك ولا ينفعه حينئذ المجيء فتجهز وسار مجدا فابتدأ وركب البحر وسار الى مدينة انطاكية وهي على ساحل البحر فارسى فيها واقام ينتظر وصول المراكب التي فيها اثقاله وسلاحه فلما وصلت سار عنها الى مدينة نيقية فحصرها وان اصحابها صالحوه على مال يؤدونه اليه وقيل بل ملكها وسار منها الى مدينة اذنة ومدينة المصيصة وهما بيد ابن ليون الارمني صاحب قلاع الدروب فحصرهما وملكهما ورحل الى عين زربة فحصرها وملكها عنوة وملك تل حمدون وحمل اهله الى جزيرة قبرس وعبر مينا الاسكندرونة وخرج الى الشام فحصر مدينة انطاكية في ذي القعدة وضيق على اهلها وبها صاحبها الفرنجي ريمند فترددت الرسل اليهم ومشوا بينهم فتصالحوا ورحل عنها الى بغراس ودخل منها الى بلد ابن ليون الارمني فبذل له ابن ليون اموالا كثيرة ودخل في طاعته والله اعلم

•(ذكر عدة حوادث)•

في هذه السنة رابع وعشرين في ايار ظهر بالشام سحاب اسود واظلمت له الدنيا وصار الجو كالليل المظلم ثم طلع بعد ذلك سحاب احمر كانه النار واضاءت له الدنيا وهبت ريح عاصفة القت كثيرا من الشجر وكان اشد ذلك بحوران ودمشق وجاء بعده مطر شديد وبرد كبار وفيها عاد مؤيد الدين ابو الفوارس المسيب علي بن الحسين المعروف بابن الصوفي من صرخد الى دمشق وكان قد اخرج هو واهله من دمشق الى صرخد فبقوا فيها الى الآن وعادوا وولي ابو الفوارس الرياسة بدمشق وحكم فيها حكما ماضيا وكان ذا رياسة عظيمة ومروءة ظاهرة وفيها كثرت الامراض ببغداد وكثر الموت خاصة باصفهان وهمذان وفيها سار اتابك زنكي الى دقوقا فحصرها وملكها بعد ان قاتل على قلعتها قتالا شديدا وفيها توفي ابو سعد احمد بن محمد ابن ثابت الخجندي رئيس الشافعية باصفهان وتفقه على والده ودرس بالنظامية باصفهان وتوفي ابو القاسم هبة الله بن احمد بن عمر الحريري ومولده يوم عاشوراء سنة خمس وثلاثين واربعمائة وهو آخر من روى عن ابي الحسن زوج الحرة وقد روى الخطيب ابو بكر بن ثابت عن زوج الحرة ايضا وكانت وفاة الخطيب سنة ثلاث وستين واربعمائة

•(ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة)•

البلاد وبلغ الخبر صاحبه الملك نوح دعته قلته وقوته مع خذلانه فلم يستطع الاستقبال عليه ودخل ايلك بخارا يوم الثلاثاء العاشر من ذي القعدة سنة تسع وثمانين وثلثمائة ونزل دار الامارة وبث على عبد الملك عيون الطلب وطلائع الرغب والرهب حتى ظفر به فحمله الى أوزكند فمات بها وطفئت بقية الشعلة من دولة آل سامان بما وراء النهر وأطراف خراسان فصارت كأن لم تغن بالامس كدأب الدول الماضية في القرون الخالية ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون

•(ذكر خروج ابي ابراهيم اسمعيل بن نوح المنتصر وما جرى بينه وبين ايلك الخان بما وراء النهر وبين صاحب الجيش ابي المظفر نصر بن ناصر الدين بخراسان)•

وكان سبب خروجه انه لما تمكن ايلك الخان من بخارا قبض على ابي الحرث المخلوع وعبد الملك وابي ابراهيم المنتصر وابي يعقوب بني نوح بن منصور الرضي وعلى اعمامهم ابي زكريا وابي سليمان وابي صالح الغازي وغيرهم من الارومة السامانية وامر

(ذكر ملك اتابك زنكي حمص وغيرها من عمل دمشق)

وفي هذه السنة في المحرم وصل اتابك زنكي الى حماة وسار منها الى بقاع بعلبك فملك حصن المجدل وكان لصاحب دمشق وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وهو أيضا لصاحب دمشق وسار الى حمص فحصرها وأدام قتالها فلما نازل ملك الروم حلب رحل عنها الى سلمية فلما انجلت حادثة الروم على ما ذكرناه عاود منازلة حمص وأرسل الى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب اليه أمه ليتزوجها واسمها زمرد خاتون ابنة جاولي وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وادي شقرا ونهر بردى فتزوجها وتسلم حمص مع قلعتها وحملت الخاتون اليه في رمضان وانما حمله على التزوج بها ما رأى من تحكمها في دمشق فظن انه يملك البلد بالاتصال اليها فلما تزوجها خاب أمله ولم يحصل على شئ فاعرض عنها

(ذكر وصول ملك الروم الى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين)

قد ذكرنا سنة احدى وثلاثين وخمسمائة خروج ملك الروم من بلاده وشغله بالفرنج وابن ليون فلما دخلت هذه السنة وصل الى الشام وخافه الناس خوفا عظيما وقصد بزاعة فحصرها وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب فمضى جماعة من أعيان حلب الى اتابك زنكي وهو يحاصر حمص فاستغاثوا به واستنصروه فسير معهم كثيرا من العساكر فدخلوا الى حلب ليمنعوها من الروم ان حصروها ثم ان ملك الروم قاتل بزاعة ونصب عليها منجنيقات وضيق على من بها فملكها بالامان في الخامس والعشرين من رجب ثم غدر باهلها فقتل منهم وأسر وسبى وكان عدة من خرج فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها نحو أربعمائة نفس وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى فقيل لهم ان جمعا كثيرا من أهل هذه الناحية قد نزلوا المغارات فدخنوا عليهم وهلكوا في المغاير ثم رحلوا الى حلب من الغد في خيلهم ورجلهم فخرج اليهم احداث حلب فقاتلهم قتالا شديدا فقتل من الروم وجرح خلق كثير وقتل بطريق جليل القدر عندهم وعادوا خاسرين وأقاموا ثلاثة أيام فلم يروا فيها مطمعا فرحلوا الى قلعة الاثارب فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها تاسع شعبان فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والاسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا فلما سمع الامير اسوار بحلب ذلك رحل فيمن عنده من العسكر الى الاثارب فاوقع بمن فيها من الروم فقتلهم وخلص الاسرى والسبي وعادوا الى حلب واما عماد الدين زنكي فانه فارق حمص وسار الى سلمية فنازلها وعبر ثقله الفرات الى الرقة وأقام جريدة ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة واما الروم فانهم قصدوا قلعة شيزر فانها من أمنع الحصون وانما حصروها لانها لم تكن لزنكي فلا يكون له في حفظها اهتمام وانما كانت للامير ابي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني فنازلوها وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا فارسل صاحبها الى زنكي يستنجده فسار اليه فنزل على نهر العاصي بالقرب منها بينها وبين حماة وكان يركب كل يوم ويسير الى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم ثم انه ارسل الى ملك الروم يقول له انكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فانزلوا منها الى الصحراء حتى نلتقي فان ظفرت بكم ارحت المسلمين منكم وان

باعتقالهم ونسم افراد الاخوة منهم في حجرة على حدة احتياطا لنفسه بتفريق ذات بينهم عن تمكينهم من اقتضاب الحيل واختلاق الاراجيف وارتقاب الفرص واحتال أبو ابراهيم المنتصر للتماس من معتقله في زي جارية كانت تنتابهم لمطالعة أحوالهم ومراعاة أوقات أقواتهم فكانت حاله في الخلاص موافقة لحال الكميت حين استغشى ثياب طلته* وانسل عن عمد الاعتقال بمهجته* ثم أنشأ يقول

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل
على الرغم من تلك النوابح والمشلي
على ثياب الغانيات وتحتها
صريمة رأي أشبهت سلة النصل

واستخفى المنتصر بعد خلاصه عند عجوز من أهل بخارا الى ان أيس منه الطلب ثم سار الى خوارزم كالحسام القاضب* بل الشهاب الثاقب* متجردا للانتصار* مستعينا بالله على درك الثار* وتلاحق به من ند وغار* وأنجد وغار* من بقايا القواد والاجناد السامانية في أطراف خراسان حتى اجتمع ثملة

ظفرتم استرحتم واخذتم شيزر وغيرها ولم يكن له بهم قوة وانما كان يرهبهم بهذا القول واشباهه فاشار فرنج الشام على ملك الروم بمصالحته وهونوا امره عليه فلم يفعل وقال اتظنون ان ليس له من العسكر الا ما ترون انما هو يريد ان تلقونه فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حد له وكان زنكي يرسل ايضا الى ملك الروم يوهمه بان فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه تخلفوا عنه ويرسل الى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم ان ملك بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها فى رمضان وكان مقامه عليها اربعين يوما وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها فسار اتابك زنكي يتبع ساقة العسكر فظفر بكثير ممن تخلف منهم واخذ جميع ما تركوه ولما كان الفرنج على بزاعة ارسل زنكي القاضي كمال الدين ابا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى الى السلطان مسعود يستنجده ويطلب العساكر فمضى الى بغداد وانهى الحال الى السلطان وعرفه عاقبة الاهمال وانه ليس بينه وبين الروم الا ان تملك حلب وينحدروا مع الفرات الى بغداد فلم يجد عنده حركة فوضع انسانا من اصحابه يوم جمعة فمضى الى جامع القصر ومعه جماعة من رنود العجم وامرهم ان يثوروا بهم اذا طلع الخطيب المنبر ويصيح ويصيحون معه وا اسلاماه وادين محمداه ويشق ثيابه ويرمى عمامته من راسه ويخرج الى دار السلطان والناس معه يستغيثون كذلك ووضع انسانا آخر يفعل بجامع السلطان مثله فلما صعد الخطيب المنبر قام ذلك الرجل ولطم راسه والقى عمامته وشق ثوبه وا ولئك معه وصاحوا فبكى الناس وتركوا الصلاة ولعنوا السلطان وساروا من الجامع يتبعون الشيخ الى دار السلطان يستغيثون ويبكون فخاف السلطان فقال احضروا الى ابن الشهرزورى فاحضر فقال كمال الدين لقد خفت منه مما رأيت فلما دخلت قال لى اى فتنة اثرت فقلت ما فعلت شيأ انا كنت فى بيتى وانما الناس يغارون للدين والاسلام ويخافون عاقبة هذا التوانى فقال اخرج الى الناس ففرقهم عنا واحضر غدا واختر من العسكر ما تريد ففرقت الناس وعرفتهم ما امر به من تجهيز العساكر وحضرت الغد الى الديوان فجهز والى طائفة عظيمة من الجيش فارسلت الى نصير الدين بالموصل اعرفه ذلك واخوفه من العسكران طرقوا البلاد فانهم يملكونها فاعاد الجواب يقول البلاد لا شك ماخوذة فلان ياخذها المسلمون خير من ان ياخذها الكافرون فشرعنا فى التحميل واذا قد وصلنى كتاب اتابك زنكي من الشام يخبر برحيل ملك الروم ويامرنى بان لا استصحب من العسكر احدا فعرفت السلطان ذلك فقال العسكر قد تجهزت ولا بد من الغزاة الى الشام فاعطيت الجهد وبذل الحزم له ولاصحابه حتى عاد العسكر ولما عاد ملك الروم عن شيزر مدح الشعراء اتابك زنكي واكثروا فمن ذلك ما قاله المسلم بن الخضر بن قسيم الحموى من جملة قصيدة اولها

بعزمك ايها الملك العظيم * تذل لك الصعاب وتستقيم

ومن جملة هذه الابيات

الم تر ان كلب الروم لما * تبين انه الملك الرحيم

فجاء فطبق الفلوات خيلا * كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه * ودان لخطبه الخطب العظيم

وكتف خيله ورجله * وركض ارسلان بالواحاجب الى بخارا فبيث الخاقانية بها تحت اللاحف وشغلهم بعقائق السيوف البوارق * عن مجاز الاحلام الطوارق * وقبض على جعفر تكين وعلى سبعة عشر نفسا من أعيان القواد الخانية * وحملهم فى وثاق الاسر الى الجرجانيه * وأفلت الباقون بجريعة الاذقان * نحو ايلك الخان * فركب ارسلان اكتافهم بحشم حث الشمال تنزع الخريف وطردهم الى حدود سمرقند مقتفيا آثارهم * وكاسعا ادبارهم * ووافقه بقنطرة كوهك تكين خان فى عسكر جرار نابا من ايلك فى حراسة سمرقند وما يليها فانتدب لمناجزته * واستعان بالقل وسائر أصحابه على مبارزته * فنصب له ارسلان وجها وقاحا * وأضرم عليه الارض كفاحا * فولاه ظهر الادبار * واتقاه بعوذة الفرار * وغنم ارسلان ومن معه اموالهم * وزموا بتلك الانفال اجمالهم * وعادوا وابراهيم المنتصر عند ذلك الى بخارا فاستبشر اهلها بعاودته على مراده وبلغ ايلك الخان خبره فجمع

فحين رميته بك في خميس • تيقن ان ذلك لا يدوم
وابصر في المفاضة منك جيشاً • فاحرب لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور • توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى • وليس سوى الحمام له حميم

وهي قصيدة طويلة ومن عجيب ما يحكى ان ملك الروم لما عزم على حصر شيزر وسمع من بها ذلك فقال الامير مرشد بن على صاحبها وهو ينسخ مصحفا اللهم بحق من أنزلته عليه ان قضيت بمجيء ملك الروم فاقبضني اليك فتوفي بعد أيام

(ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن معه من الامراء)

لما فارق الراشد بالله أتابك زنكي من الموصل سار نحو اذربيجان فوصل مراغة وكان الامير منكبرس صاحب فارس ونائبه بخوزستان الامير بوزابة والامير عبد الرحمن طغايرك صاحب خلخال والملك داود بن السلطان محمود مستشعرين من السلطان مسعود خائفين منه فتجمعوا ووافقوا الراشد على الاجتماع لتكون أيديهم واحدة ويردوه الى الخلافة فاجابهم الى ذلك الا انه لم يجتمع معهم ووصل الخبر الى السلطان مسعود وهو ببغداد باجتماعهم فسار عنها في شعبان نحوهم فالتقوا بنجن كشت فاقتتلوا فانهزمهم السلطان مسعود وأخذ الامير منكبرس أسيرا فقتل بين يديه صبرا وتفرق عسكر مسعود في النهب واتباع المنهزمين وكان بوزابة وعبد الرحمن طغايرك على نشز من الارض فرأيا السلطان مسعودا وقد تفرق عسكره عنه فحملا عليه وهو في قلة فلم يثبت لهما وانهزم وقبض بوزابة على جماعة من الامراء منهم صدقة بن دبيس صاحب الحلة ومنهم ولد أتابك قراسنقر صاحب اذربيجان وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم وتركهم عنده فلما بلغه قتل صاحبه منكبرس قتلهم اجمعين وصار العسكران منهزمين وكان هذا من اعجب الاتفاق وقصد السلطان مسعود اذربيجان وقصد الملك داود همدان ووصل الراشد بعد الوقعة فاختلفت آراء الجماعة فبعضهم اشار بقصد العراق والتغلب عليه وبعضهم اشار باتباع السلطان مسعود للفراغ منه فان ما بعده يهون عليهم وكان بوزابة اكبر الجماعة فلم يرد ذلك وكان غرضه المسير الى بلاد فارس واخذها بعد قتل صاحبها منكبرس قبل ان يمتنع من بها عليه فبطل عليهم ما كانوا فيه وسار اليها فملكها وصارت له مع خوزستان وسار سلجوق شاه ابن السلطان محمد الى بغداد ليملكها فخرج اليه البقش الشحنة بها ونظر الخادم أمير الحاج وقاتلوه وكان عاجزا مستضعفا ولما قتل صدقة بن دبيس اقر السلطان مسعود الحلة على أخيه محمد بن دبيس وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا عنتر المقتول يدبره ولما كان البقش شحنة بغداد يقاتل سلجوق شاه ثار العيارون ببغداد ونهبوا الاموال وقتلوا الرجال وزاد أمرهم حتى كانوا يقصدون ارباب الاموال ظاهرا ويأخذون منهم ما يريدون ويعملون الامتعة على رؤس الحمالين فلما عاد الشحنة قتل منهم وصلب وغلت الاسعار وكثر الظلم منه وأخذ المستورين بحجة العيارين فجلا الناس عن بغداد الى الموصل وغيرها من البلاد

(ذكر قتل الراشد بالله)

أحايين الترك وصعد صعده
في العدد الدثر نكر أرسلان
بالو راجعا الى المنتصر
واقتضاه الاحتياط عند
ذلك العبور الى آمل الشط
فوافاها وجباها وضاقت
به وبعسكره فركب المفازة
على سمت ابيورد فملكها
وسار عنها قاصدا قصد
نيسابور وبها صاحب
الجيش أبو المظفر نصر بن
ناصر الدين سبكتكين
فالتقيا على فضاء بين بغانخ
وبشجة وذلك يوم الاربعاء
لليلتين بقيتا من شهر ربيع
الاول سنة احدى وتسعين
وثلثمائة ودارت عليهما
رحا الحرب يفصلون بالبيض
البوارق • ما بين الطلى
والعواتق • ويضربون
مفارق الهام • ضرب
القدار نقيعة القدام *
ولما اشتدت وطأة الحرب
على صحبها * ومرت كأسها
على شربها * وتكاثفت
جموع أبي ابراهيم المنتصر
على صاحب الجيش أبي
المظفر اقتضاهم الاحتياط
أن يتحيزوا الى جانب هراة
انتظار المدد * واستشرافا
لمأمول صنع الله في الغد *
فجشموا الظهور الليل * بين
ذيول الليل * حتى شابت
عليهم لمة بين حدود بوزجان
وتمكن المنتصر من
نيسابور وانضم اليه من

لما وصل الراشد بالله الى همدان وبها الملك داود وبوزابة ومن معهما من الامراء والعساكر
على ما تقدم ذكره ثم سار الى خوزستان مع الملك داود ومعهما خوارزم شاه فصار بالجزيرة
فسار السلطان مسعود ليمنعهم عن العراق فعاد الملك داود الى فارس وعاد خوارزم شاه
الى بلاده بقي الراشد وحده فلما ايس من عساكر العجم سار الى اصفهان فلما كان الخامس
والعشرون من رمضان وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد
القيلولة وكان في اعقاب مرض برئ منه ودفن بظاهر اصبهان بشهرستان فركب من معه فقتلوا
الباطنية ولما وصل الخبر الى بغداد جلسوا للعزاء به في بيت النوبة يوما واحدا وكان ابيض اشقر
حسن اللون مليح الصورة مهيبا شديد القوة والبطش قال ابو بكر الصولي الناس يقولون ان
كل سادس يقوم بامر الناس من اول الاسلام لا بد من ان يخلع وربما قتل قال فتأملت ذلك
فرأيته كما قيل فان اول من قام بامر هذه الامة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ابو بكر وعمر
وعثمان وعلي والحسن رضي الله عنهم فخلع ثم معاوية ويزيد ابنه ومعاوية بن يزيد ومروان
وعبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير فخلع ثم عبد الملك واخوه سليمان وعمر بن عبد العزيز
ويزيد وهشام ابنا عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك فخلع وقتل ثم لم ينتظم امر بني امية ثم
ولي السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد والامين فخلع وقتل والمأمون والمعتصم
والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين فخلع وقتل والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد
والمكتفي والمقتدر فخلع ثم رد ثم قتل ثم القاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمطيع والطائع
فخلع ثم القادر والقائم والمقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد فخلع وقتل قلت وفي هذا نظر
لان البيعة لابن الزبير كانت قبل البيعة لعبد الملك بن مروان وكونه جعله بعده لا وجه له
والصولي انما ذكر الى ايام المطيع بالله ومن بعده ذكره غيره

(ذكر حال ابن بكران العيار)

في هذه السنة في ذي الحجة عظم امر ابن بكران العيار ببغداد والعراق وكثرت اتباعه وصار
يركب ظاهرا في جمع من المفسدين وشانه الشريف ابو الكرم الوالي ببغداد فامر ابا القاسم
ابن اخيه حامي باب الازج ان يشتد عليه ويلبس سراويل فتوة منه ليأمن شره وكان ابن بكران
يكثر المقام بالسواد ومعه رفيق له يعرف بابن البزاز فانتهى امرهما الى انهما ارادا ان يضربا
باسمهما سكة في الانبار فارسل الشحنة والوزير شرف الدين الزينبي الى الوالي ابي الكرم وقالا
اما ان تقتل ابن بكران واما ان نقتلك فاحضر ابن اخيه وعرفه ما جرى وقال له اما ان تختار في
نفسك واما ان تختار ابن بكران فقال انا اقتله وكان لابن بكران عادة يجيء في بعض الليالي الى
ابن اخي ابي الكرم فيقيم في داره ويشرب عنده فلما جاء على عادته وشرب اخذ ابو القاسم
سلاحه ووثب به فقتله واراح الناس من شره ثم اخذ بعده بيسير رفيقه ابن البزاز وصلب وقتل
معه جماعة من الحرامية فسكن الناس واطمأنوا وهدأت الفتنة

(ذكر قتل الوزير الدركزيني ووزارة الخازن)

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره العماد ابي البركات بن سلمة الدركزيني واستوزر
بعده كمال الدين محمد بن الحسين الخازن وكان الكمال شهما شجاعا عادلا نافذ الحكم حسن

وابلم الغفيرة وبلغ السلطان
يمين الدولة وامين الملة خبره
فاستركب خيله من غزنة
يترس بنهاره ليله وسار سير
القليب ويطوي الارض كطي
السجل للكتب حتى انقض
على نيسابور انقضاض بني
الهواء على بنات الماء
والسامع المتنصر باقباله
انحدر الى اسفرايين في عامة
رجاله وبث اصحابه في
الرساتيق لجباية اموال
وازاحة اطماع حشمه بها
فازعجه الطلب فالتحق بشمس
المعالي قابوس بن وشمكير
مستنصرا اياه ومؤملا
غوثه وجدواه فتلقاه بكل
ما عناه ومهد له ذراه واعطاه
حتى ارضاه وكان مما امر
بحمله اليه صفقة واحدة
عشرة دواب بمراكب الذهب
وثلاثون بمراكب الفضة
وثلاثون من العتاق الجياد
بالبراقع والجلال وعشرون
بغلة بمراكب الفضة
والذهب وثلاثون اخرى
مقرونة بمسبح جلال وقرة
احمالا واثقالا من البسط
النادرة والفرش الفاخرة
ومن حصر طبرستان وسائر
الطرائف المجموعة في
الخزائن بجرجان واضيف
الى ذلك الف الف درهم
وثلاثون الف دينار ومائة
وخمسون تختا من الديباج

السيرة ازال المكوس ورفع المظالم وكان يتيم . ونه السلطان ووظائفه وجمع لمخزن كثيرة وكشف اشياء كثيرة كانت مستورة يخان فيها ويسرق فثقل على المتصرفين وارباب الاعمال فاوقعوا بينه وبين الامراء لاسيما قراسنقر صاحب اذربيجان فانه فارق السلطان وارسل يقول اما ان تنفذ رأس الوزير واما خذ منا سلطانا آخر فاشار من حضر من الامراء بقتله وحذروه فتنة لا تتلافى فقتله على كره منه وارسل راسه الى قراسنقر فرضي وكانت وزارته سبعة اشهر وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ووزر بعده ابو العز طاهر بن محمد البروجردي وزير قراسنقر ولقب عز الملك وضاقت الامور على السلطان مسعود واستقطع الامراء البلاد بغير اختياره ولم يبق له شئ من البلاد البتة الا اسم السلطنة لاغير

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة ملك حسام الدين تمرتاش ايلغازي صاحب ماردين قلعة الهتاخ من بلاد ديار بكر اخذها من بعض بني مروان الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها وهذا آخر من بقي فسبحان الحي الدائم الذي لا يزول ملكه ولا يتطرق اليه النقص ولا التغيير وفيها انقطعت كسوة الكعبة لما ذكرناه من الاختلاف فقام بكسوتها رامشت التاجر الفارسي كساها من الثياب الفاخرة بكل ما وجد اليه سبيل فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر الف دينار مصرية وهو من التجار المسافرين الى الهند كثير المال وفيها توفيت زبيدة خاتون ابنة السلطان بركيارق زوج السلطان مسعود وتزوج بعدها سفرى ابنة دبيس بن صدقة في جمادى الاولى وتزوج ابنة قاورت وهو من البيت السلجقي الا انه كان لا يزال يعاقر الخمر ليلا ونهارا فلهذا اسقط اسمه وذكره وفيها قتل السلطان مسعود بن البقش السلاحي شحنة بغداد وكان قد ظلم الناس وعسفهم وفعل ما لم يفعله غيره من الظلم فقبض عليه وسيره الى تكريت فسجنها عند مجاهد الدين بهروز ثم امر بقتله فلما ارادوا قتله القى بنفسه في دجلة فغرق فاخذ راسه وحمل الى السلطان وجعل السلطان شحنة العراق مجاهد الدين بهروز فعمل اعمالا صالحة منها انه عمل مسناة النهروان واشباهها وكان حسن السيرة كثير الاحسان وفيها درس الشيخ ابو منصور بن الرزاز بالنظامية ببغداد وفيها ارسل الخليفة الى اتابك زنكي في اطلاق قاضي القضاة الزينبي فأطلق وانحدر الى بغداد فخلع عليه الخليفة واقره على منصبه وفيها كان بخراسان غلاء شديد طالت مدته وعظم امره حتى اكل الناس الكلاب والسنانير وغيرهما من الدواب وتفرق اكثر اهل البلاد من الجوع وفيها توفي طغان ارسلان صاحب بدليس وارزن من ديار بكر وولي بعده ابنه فرتى واستقام له الامر وفيها في شهر صفر جاءت زلزلة عظيمة بالشام والجزيرة وديار بكر والموصل والعراق وغيرها من البلاد فخربت كثيرا منها وهلك تحت الهدم عالم كثير وفيها توفي احمد بن محمد بن ابي بكر بن ابي الفتح الدينوري الفقيه الحنبلي ببغداد وكان ينشد كثيرا هذه الابيات

تمنيت بان تمسى فقيها مناظرا * بغير عناء والجنون فنون
وليس اكتساب المال دون مشقة * تلقيتها فالعلم كيف يكون

وفيها توفي محمد بن عبد الملك بن عمر ابو الحسن الكرخي ومولده سنة ثمان وخمسين واربعمائة

التترية والسقلاطونيات العضدية * والحلل الفخرية والخزوز الطاقية * وسائر الثياب المصرية * وأمر لاهل عسكره بعشر بنيابتهم معونة لهم على عوارض حاجاتهم * وأشار على المنتصر بقصد الري اذ كانت معرضة لقصادها بتخاذل أهوائها وتوا كل أوليائها * واشتجار الفتن والاحن بين الذائدين عن فنائها * على أن عدة بولديه دارا ومنوچهر في جيوش الجبل والديلم ووجوه الاكراد والعرب ليستظهر باستخلاص تلك الولاية * وليكون ما ينويه من معاودة خراسان عن ظهر الكفاية * فقبل الاشارة * وقدم الاستخارة * وسار حتى خيم بظاهر الري فأحس أهلها منه بأم الربيق * على أريق * وقامت الري أفلاذ كبدها فأباخوا قبالة المنتصر ودس الكفلاء بتلك الدولة الى أرسلان بالو وأبي القاسم بن سيمجور وغيرهما من أولياء المنتصر من اطمعهم في مال يحمل اليهم سرا على أن يثنوا عنهم عنان المنتصر بوجه من وجوه اللطائف والحيل فانخدعوا لتسويلهم * وطمعوا في تأميلهم * وتنصحوا للمنتصر بان

وكان ذلك قبيل الحديث بكرخ واصفهان وهمذان وغيرها وفي شعبان منها توفي القاضي أبو العلاء صاعد بن الحسين بن اسمعيل بن صاعد وهو ابن عم القاضي أبي سعيد وولي القضاء بنيسابور بعد أبي سعيد

●(ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة)●

●(ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه)●

في هذه السنة في المحرم سار السلطان سنجر الى خوارزم شاه وهو ابن ملكشاه محاربا لخوارزم شاه اتسز بن محمد وسبب ذلك ان سنجر بلغه ان اتسز يحدث نفسه بالامتناع عليه وترك الخدمة له وان هذا الامر قد ظهر على كثير من أصحابه وأمرائه فأوجب ذلك قصده وأخذ خوارزم شاه بجمع عساكره وتوجه نحوه فلما قرب من خوارزم شاه في عساكره خرج خوارزم شاه اليه في عساكره فلقيه مقاتلا وعبى كل واحد منهما عساكره وأصحابه فاقتتلوا فلم يكن للخوارزمية قوة بالسلطان فلم يثبتوا وولوا منهزمين وقتل منهم خلق كثير ومن جملة القتلى ولد لخوارزم شاه فحزن عليه أبوه حزنا عظيما ووجد وجدا شديدا وملك سنجر خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ولد أخيه محمد ورتب له وزيرا وأتابكا وحاجبا وقرر قواعده وعاد الى مرو في جمادى الآخرة من هذه السنة فلما فارق خوارزم عاد اليها اتسز خوارزم شاه الفرصة فرجع اليها وكان أهلها يكرهون العسكر السنجري ويؤثرون عودة خوارزم شاه فلما عاد أعانوه على ملك البلد ففارقها سليمان شاه واختلفا بعد الاتفاق ففعل خوارزم شاه في خراسان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ما نذكره ان شاء الله

●(ذكر قتل محمود صاحب دمشق وملك أخيه محمد)●

في هذه السنة في شوال قتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغدكين صاحب دمشق على فراشه غيلة قتله ثلاثة من غلمانه هم خواصه وأقرب الناس اليه في خلوته وجلوته وكانوا ينامون عنده فقتلوه وخرجوا من القلعة وهرب أحدهم وأخذ الآخران فصلبا وكتب معين الدين انز من دمشق الى أخيه جمال الدين محمد بن بوري صاحب بعلبك وهو بها بصورة الحال واستدعاه ليملك بعد أخيه فحضر في أسرع وقت فلما دخل البلد جلس للعزاء بأخيه وحلف له الجند وأعيان الرعية وسكن الناس وفوض أمر دولته الى معين الدين انز وعلا في جدو وزاد في علو مرتبته وصار هو الجملة والتفصيل وأقطعه بعلبك وزوجه بامه وكان انز خيرا عاقلا حسن السيرة فجرت الامور عنده على أحسن نظام

●(ذكر ملك زنكي بعلبك)●

في هذه السنة في ذي القعدة سار عماد الدين اتابك زنكي بن اقسنقر الى بعلبك فحصرها ثم ملكها وسبب ذلك ان محمودا صاحب دمشق لما قتل كانت والدته زمرد خاتون عند اتابك زنكي بحلب قد تزوجها فوجدت لقتل ولدها وجدا شديدا وحزنت عليه وأرسلت الى زنكي وهو بديار الجزيرة تعرفه الحادثة وتطلب منه ان يقصد دمشق ويطلب بثار ولدها فلما وقف على هذه الرسالة بادر في الحال من غير توقف ولا تريث وسار مجدا ليعبر ذلك طريقا الى ملك البلد وعبر الفرات عازما على قصد دمشق فاحتاط من بها واستعدوا واستكثروا من الذخائر ولم يتركوا شيئا

قد رمتك من بعيد ملوك الشرق من آل سامان على بلاد أقدارهم ونباهة أخطارهم وليس من منشار القوم يدعون فيك قرابة ويفترضون لك طاعة ورعاية ومواليهم يجيبون النار الى فرصة بالتعويل عليك ومغزاه أن يحترش الافعى بيديك فله الغنم ان قدرت وعليك الغرم ان عجزت فلفتوا المنتصر عن رأيه وزينوا له الملك بخراسان من ورائه فارتحل من باب الري يريد دامغان وانفرد وادا شمس المعالي عنه تخلص بحجم ذلك التدبير والحل عقد ذلك التقدير وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال واستدل المنتصر طلقا الى نيسابور وبها صاحب الجيش أبو المظفر فاشفق من زلة القدم كالتي حدثت قبل فاحتاط بالانحياز الى بوزجان ودخل المنتصر نيسابور في شوال سنة احدى وتسعين وثلثمائة وبث عماله في جباية الاموال ومطالبة من ظفر بهم من العمال واستمد صاحب الجيش السلطان يمين الدولة وأمين الملة فرسم الحاجب الكبير التونتاش

شيأ مما يحتاجون اليه الا وبذلوا الجهد فى تحصيله وآقاموا ينتظرون وصوله اليهم فتركهم وسار الى بعلبك وقيل كان السبب فى ملكها انها كانت لمعين الدين انز كما ذكرناه وكان له جارية يهواها فلما تزوج ام جمال الدين سيرها الى بعلبك فلما سار زنكى الى الشام عازما على قصد دمشق سير الى انز يبذل له البذول العظيمة ليسلم اليه دمشق فلم يفعل وسار اتابك الى بعلبك فوصل اليها فى العشرين من ذى الحجة فى السنة فنازلها فى عساكره وضيق عليها وجد فى محاربتها ونصب عليها من المنجنيقات أربعة عشر عددا ترمى ليلا ونهارا فأشرف من بها على الهلاك وطلبوا الامان وسلموا اليه المدينة وبقيت القلعة وبها جماعة من الشجعان شجعان الاتراك فقاتلهم فلما أيسوا من معين ونصير طلبوا الامان فأمنهم فسلموا اليه القلعة فلما نزلوا منها وملكها غدر بهم وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينج منهم الا القليل فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه وخافه غيرهم وحذروه لاسيما أهل دمشق فقالوا لو ملكنا فعل بنا مثل فعله بهؤلاء فازدادوا نفورا وجدوا فى محاربته ولما ملك زنكى بعلبك أخذ الجارية التى كانت لمعين الدين انز بها فتزوجها بحلب فلم تزل بها الى ان قتل فسيرها ابنه نور الدين محمود الى معين الدين انز وهى كانت أعظم الاسباب فى المودة بين نور الدين وبين انز والله أعلم

(ذكر استيلاء قراسنقر على بلاد فارس وعوده عنها)

وفى هذه السنة جمع اتابك قراسنقر صاحب اذربيجان عساكر كثيرة وسار طالبا بثار ابيه الذى قتله بوزابة فى المصاف المقدم ذكره فلما قارب السلطان مسعودا أرسل اليه يطلب منه قتل وزيره الكمال فقتله كما ذكرناه فلما قتل سار قراسنقر الى بلاد فارس فلما قاربها تحصن بوزابة منه فى القلعة البيضاء ووطئ قراسنقر البلاد وتصرف فيها وليس له دافع ولا مانع الا انه لم يمكنه المقام وملك المدن التى فى فارس فسلم البلاد الى الملك سلجوق شاه ابن السلطان محمود وقال له هذه البلاد لك فاملك الباقى وعاد الى اذربيجان فنزل حينئذ بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين وهزم سلجوق شاه وملك البلاد وأسر سلجوق شاه وسجن فى قلعة بفارس

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى صفر توفى الوزير شرف الدين انوشروان بن خالد معزولا ببغداد وحضر جنازته وزير الخليفة فمن دونه ودفن فى داره ثم نقل الى الكوفة فدفن فى مشهد أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليه السلام وكان فيه تشيع وهو كان السبب فى عمل المقامات الحريرية وكان رجلا عاقلا شهما دينا خيرا ووزر للخليفة المسترشد وللسلطان محمود وللسلطان مسعود وكان يستقيل من الوزارة فيجاب الى ذلك ثم يخطب اليها فيجيب كارها وفيها قدم السلطان مسعود بغداد فى ربيع الاول وكان الزمان شتاء وصار يشتى بالعراق ويصيف بالجبال ولما قدمها ازال المكوس وكتب الالواح بازالتها ووضعت على ابواب الجوامع والاسواق وتقدم ان لا ينزل جندى فى دار عامى من اهل بغداد الا باذن فكثر الدعاء له والثناء عليه وكان السبب فى ذلك الكمال الخازن وزير السلطان وفيها فى صفر كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد وكان اشدها بالشام وكانت متوالية عشرة ليال كل ليلة عشر دفعات فخرب كثير من البلاد ولاسيما حلب فان اهلها لما كثرت عليهم فارقوا البلاد والبيوت وخرجوا الى الصحراء وعدوا الليلة

والى هراة البدار اليه فى معظم الجيوش من شجعان الترك وسرعان الهنود حتى اذا استظهر بذوى الغناء * فى حومة الهيجاء * كر عائدا الى نيسابور وتلقاهم المنتصر بارسلان بالو وأبى نصر بن محمود وأبى القاسم بن سيمجور فالتقوا على حرب تحطمت فيها الصفاح المشهورة * وتقصدت الرماح المطرورة * وعريت عندها الكواكب المستورة * ثم شاعت الهزيمة فى السامانية فولوا على أدبارهم نفورا * وكان أمر الله قدرا مقدورا * ودخل صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين نيسابور وقد زينت له كالهدى * على زوجها الكفى * وأقيمت له النثارات كما تتهاوى النجوم السايرة * وتتهادى الثلوج المتطايرة * وركب المنتصر سمت أبيورد والطلب على أثره حتى وصل الى جرجان ولما تسامع الامير شمس المعالى قابوس بنبئه رماه بزهاء ألفين من انجاد الاكراد فألجؤه الى الارتحال وآيسوه من طلب المحال فكر على ادراجه تائها فى الغى * وانما ترك الرأى * بظاهر الرى * وقد كان

واحدة جاتهم ثمانين مرة ولم تزل بالشام تتعاهدهم من رابع صفر الى تاسع عشره وكان معها صوت وهزة شديدة وفيها اغار الفرنج على اعمال بانياس فسار عسكر دمشق في اثرهم فلم يدركوهم فعادوا وفيها توفي ابو القاسم طاهر بن طاهر الشحامي النيسابوري بها ومولده سنة ست واربعين واربعمائة وكان اماما في الحديث مكثرا عالي الاسناد وتوفي عبد الله بن احمد بن عبد القاهر بن محمد بن يوسف ابو القاسم بن ابي الحسين البغدادي بها ومولده سنة اثنتين وخمسين واربعمائة وعبد العزيز بن عثمان بن ابراهيم بن محمد الاسدي البخاري كان قاضي بخارا وكان من الفقهاء اولاد الائمة حسن السيرة وتوفي محمد بن شجاع بن ابي بكر بن علي بن ابراهيم اللفتواني الاصفهاني باصفهان في جمادى الآخرة ومولده سنة ست وتسعين واربعمائة وسمع الحديث الكثير باصفهان وبغداد وغيرهما

(ثم دخلت سنة اربع وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر حصار اتابك زنكي دمشق)

في هذه السنة حصر اتابك زنكي دمشق مرتين فاما المرة الاولى فانه سار اليها في ربيع الاول من بعلبك بعد الفراغ من أمرها وتقرير قواعدها واصلاح ما تشعث منها بالحصر فانزل بالبقاع وارسل الى جمال الدين محمد صاحبها يبذل اليه بلدا يقترحه ليسلم اليه دمشق فلم يجبه الى ذلك فرحل وقصد دمشق فنزل على داريا ثالث عشر ربيع الاول فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان الظفر لعسكر زنكي وعاد الدمشقيون منهزمين فقتل كثير منهم ثم تقدم زنكي الى المصلى فنزل هناك ولقيه جمع كثير من جند دمشق واحداثها ورجالة الغوطة فقاتلوه فانهزم الدمشقيون واخذهم السيف فقتل فيهم واكثر واسر كذلك ومن سلم عاد جريحا واشرف البلد ذلك اليوم على الاخذ ولو ادامه لملك لكن عاد زنكي وامسك عنه عشرة ايام وتابع الرسل الى صاحب دمشق وبذل له بعلبك وحمص وغيرهما مما يختاره من البلاد فمال الى ان يسلم وامتنع غيره من اصحابه من ذلك وخوفوه عاقبة فعله وان يفعل ويغدر كما فعل باهل بعلبك فلما لم يسلموا اليه عاد القتال والزحف ثم ان جمال الدين محمدا صاحب دمشق مرض ومات ثامن شعبان وطمع زنكي حينئذ في البلد وزحف اليه زحفا شديدا ظنا منه انه ربما يقع بين المقدمين الامراء خلاف فيبلغ به الغرض وكان ما امله بعيدا فلما مات جمال الدين ولي بعده مجير الدين ابق ولده وتولى ترتيب دولته معين الدين أنر فلم يظهر لموت ابيه اثر مع ان عدوهم على باب المدينة فلما رأى أنر أن زنكي لا يفارقهم ولا يزول عن حصرهم راسل الفرنج واستدعاهم الى نصرته وان يتفقوا على دفع زنكي عن دمشق وبذل لهم بذولا وان يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها اليهم وخوفهم من زنكي ان ملك دمشق فعلموا صحة قوله وعلموا انه ان ملكها لا يبقى لهم معه بالشام مقام وان الفرنج اجتمعوا وعزموا على المسير الى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها وعسكرها على قتال زنكي فحين علم زنكي بذلك سار الى حوران خامس رمضان عازما على قتال الفرنج قبل ان يجتمعوا بالدمشقيين فلما سمع الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم فلما رآهم كذلك عاد الى حصر دمشق ونزل بعذرا شماليها سادس شوال فاحرق عدة قرى من المرج والغوطة ورحل عائدا الى بلاده ووصل الفرنج الى دمشق واجتمعوا بصاحبها وقد رحل زنكي فعادوا فسار معين

الدين

المتنصر يعتقد على ارسلان بالوتسحبه عليه واشتطاطه في المطالب بين يديه ومنازعته الرأي فيما ينحوه ومراجعته القول في كل ما يفوه به فوه وانضاف الى ذلك اتهامه اياه بالتخاذل في الحرب التي انهزم فيها عن وجه صاحب الجيش أبي المظفر نصر بن ناصر الدين لمنافسته على أبي القاسم السيمجوري بمكاتبته من اختصاصه وايثاره وغيرته على الشركة الواقعة به في محله ومقداره فحمله ما احتساه من ماء الكرب على التشفي باراقة دمه والاستروح الى انتهاك روحه فقتل به فتكة أنست فتكات الاسلام وشفت لقسه من الداء العقام وتجمع أهل عسكره لانكار ما فعل والى لهم ذلك وقد سبق السيف العذل وقام أبو القاسم علي بن محمد مصانعا لهم عن المتنصر بلسان المعتذر حتى خمد التهابهم وسكن هيجهم واضطرابهم وتآمروا بينهم على قصد سرخس للاستظهار بزعيم أهلها المعروف كان أبوه بالفقيه اذ كان قد دف المنتصر في ارفاده وانجاده وايثاره بعدته وعتاده فركبوا المسافة اليها على

الدين أتابك بانياس في عسكر دمشق وهي في طاعة زنكي كما تقدم ذكره ليحصرها ويسلمها الى الفرنج وكان واليها قد سار قبل ذلك منها بجمعه الى مدينة صور للاغارة على بلادها فصادفه صاحب انطاكية وهو قاصد الى دمشق نجدة لصاحبها على زنكي فاقتتلا فانهزم المسلمون واخذوا الى بانياس فقتل ونجا من سلم منهم الى بانياس وجمعوا معهم كثيرا من البقاع وغيره وحفظوا القلعة فنازلها معين الدين فقاتلهم وضيق عليهم ومعه طائفة من الفرنج فاخذها وسلمها الى الفرنج واما الحصر الثاني لدمشق فان اتابك لما سمع الخبر بحصر بانياس عاد الى بعلبك ليدفع عنها من يحصرها فاقام هناك فلما عاد عسكر دمشق بعد ان ملكوها وسلموها الى الفرنج فرق اتابك زنكي عسكره على الاغارة على حوران واعمال دمشق وسار هو جريدة مع خواصه فنازل دمشق سحرا ولم يعلم به احد من اهلها فلما اصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتج البلد واجتمع العسكر والعامة على السور وفتحت الابواب وخرج الجند والرجالة فقاتلوه فلم يمكن زنكي عسكره من الاقدام في القتال لان عامة عسكره كانوا قد تفرقوا في البلاد والنهب والتخريب وانما قصد دمشق لئلا يخرج منها عسكر الى عسكره وهم متفرقون فلما اقتتلوا ذلك اليوم قتل بينهم جماعة ثم احجم زنكي عنهم وعاد الى خيامه ورحل الى مرج راهط واقام ينتظر عودة عسكره فعادوا اليه وقد ملؤا ايديهم من الغنائم لانهم طرقوا البلاد واهلها غافلون فلما اجتمعوا عنده رحل بهم عائدا الى بلادهم

(ذكر ملك زنكي شهرزور واعمالها)

في هذه السنة ملك اتابك زنكي شهرزور واعمالها وما يجاورها من الحصون وكانت بيد قفجاق ابن ارسلان تاش التركماني وكان حكمه نافذا على قاصي التركمان ودانيهم وكلمته لا تخالف يرون طاعته فرضا فتحامى الملوك قصده ولم يتعرضوا لولايته لانها منيعة كثيرة المضايق فعظم شانه وازداد جمعه واتاه التركمان من كل فج عميق فلما كان هذه السنة سير اليه اتابك زنكي عسكرا فجمع اصحابه ولقيهم فتصافوا واقتتلوا فانهزم قفجاق واستبيح عسكره وسار الجيش الاتابكي في اعقابهم فحصروا الحصون والقلاع فملكوها جميعها وبذلوا الامان لقفجاق فصار اليهم وانخرط في سلك العساكر ولم يزل هو وبنوه في خدمة البيت على احسن قضية الى بعد سنة ستمائة بقليل وفارقوها

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة جرى بين امير المؤمنين المقتفي لامر الله وبين الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي منافرة وسببها ان الوزير كان يعترض الخليفة في كل ما يأمر به فنفر الخليفة من ذلك فغضب الوزير ثم خاف فقصد دار السلطان في سميرية وقت الظهر ودخل اليها واحتمى بها فارسل اليه الخليفة في العود الى منصبه فامتنع وكانت الكتب تصدر باسمه واستنيب قاضي القضاة الزينبي وهو ابن عم الوزير وارسل الخليفة الى دار السلطان رسلا في معنى الوزير فارخص له السلطان في عزله فحينئذ اسقط اسمه من الكتب واقام بدار السلطان ثم عزل الزينبي من النيابة وناب سديد الدولة بن الانباري وفيها قتل المقرب جوهر وهو من خدم السلطان سنجر وكان قد حكم في دولته جميعها ومن جملة اقطاعه الري ومن مماليكه عباس صاحب الري وكان سائر عسكر

طريق أبيورد حتى وردوها وجبوا اموالها وارتاشوا بما سمح لهم الزعيم بها وحين علم صاحب الجيش باجتماعهم على مضغ الاباطيل بينهم دلف اليهم في سراة الكماة لطردهم عن شريعة الطمع وازعاجهم عن حضانة الامل ووصل السير بالسرى حتى أشرف على سرخس في الهيئة المنشورة * والهيبة الموفورة وبرز المنتصر الى ظاهرها فخيم بازائه * واستعد للقائه * وتحايشا للقتال فاستك مسمع الهواء من قرع الحديد بالحديد * ورويت صدور المواضي من موارد الوريد * وبلغ كل من الفريقين غاية الامكان * في منازلة الاقران * ومناوشة الضراب والطعان * محاشة عن خيوط الرقاب * وتفاديا عن سوء الذكر على تناسخ الاحقاب * غير ان قضاء الله أغلب وأمره أنفذ وله الحكم في تبديل الابدال * وتصريف الاحوال * ونقل الاموال من وال الى وال * وهبت لصاحب الجيش أبي المظفر قبول الاقبال * فتمزق مصف المنتصر عن هزمى عوابس الوجوه * وجرحى بانياب المكروه * ولم ينشب صاحب الجيش أبو المظفر أن أتاه بعض

السلطان سنجر يقصدونه ويقفون ببابه وكان قتله بيد الباطنية وقف له جماعة منهم بزي النساء
واستغاثوا به فوقف يسمع كلامهم فقتلوه فلما قتل جمع صاحبه عباس العساكر وقصد
الباطنية فقتل منهم واكثر وفعل بهم ما لم يفعله غيره ولم يزل يغزوهم ويقتل فيهم ويخرب بلادهم
الى ان مات وفيها زلزلت كنجة وغيرها من اعمال اذربيجان واران الا ان اشدها كان بكنجة
فخرب منها الكثير وهلك عالم لا يحصون كثرة قيل كان الهلكى مائتي ألف وثلاثين ألفا وكان من
جملة الهلكى ابنان لقراسنقر صاحب البلاد وتهدمت قلعة هناك لمجاهد الدين بهروز وذهب
له فيها من الذخائر والاموال شيء عظيم وفيها شرع مجاهد الدين بهروز في عمل النهروانات
سكرا عظيما يرد الماء الى مجراه الاول وحفر مجرى الماء القديم وخرق اليه مجراة تأخذ من
ديالى ثم انصلح بعد ذلك وجرى الماء ناحية من السكر وبقي السكر في البر لا ينتفع به احد
ولم يتعرض احد الى رده الى مجراه عند السكر الى وقتنا هذا وفيها انقطع الغيث ببغداد
والعراق ولم يجئ غير مرة واحدة حتى اذا لم ينقطع ووقع الغلاء وعدمت الاقوات وفيها في
جمادى الآخرة دخلت الخليفة فاطمة خاتون بنت السلطان مسعود وكان يوم حملها الى دار
الخليفة يوما مشهودا غلقت بغداد عشرة ايام وزينت وتزوج السلطان مسعود بابنة الخليفة
وفيها في ربيع الاول توفي القاضي ابو الفضل يحيى ابن قاضي دمشق المعروف بالزكي

(ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر مسير جهاردانكي الى العراق وما كان منه)

في هذه السنة أمر السلطان مسعود الامير اسمعيل المعروف بجهاردانكي والبقش كون خر
بالمسير الى خوزستان وفارس واخذها من بوزابة واطلق لهم نفقة على بغداد فساروا فلقين
معهما الى بغداد فتبعهم مجاهد الدين بهروز عن دخولها الى ان يقبلوا منه فارسل الى المدائن فخسفها
وغرقها وجد في عمارة السور وسد باب الظفرية وباب كلواذى واغلق باقي الابواب وعلق
عليها السلاسل وضرب الخيام للمقاتلة فلما علما بذلك عبرا بصرصر وقصدا الحلة فمنعهما
فقصدا واسط فخرج اليهم الامير طرنطاي وتقاتلوا فانهزم طرنطاي ودخلوا واسطا ثم عبروا
ونهبوا البلد فرمان والنعمانية ولحق طرنطاي الى حماد بن أبي الخير صاحب البطيحة ووافقهم
عسكر البصرة وفارق اسمعيل والبقش عسكرهما وصار امع طرنطاي فضعف أولئك فسار الى
تستر واستشفع اسمعيل الى السلطان فعفا عنه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة وصل رسول من السلطان سنجر ومعه بردة النبي صلى الله عليه وسلم والقضيب
وكانا قد اخذا من المسترشد فاعادهما الآن الى المقتفي وفي هذه السنة توفي اتابك قراسنقر
صاحب اذربيجان واران بمدينة اردبيل وكان مرضه السل وطال به وكان من مماليك الملك
طغرل وسلمت اذربيجان واران الى الامير جاولي الطغرلي وكان قراسنقر معظما له على سلطانه
وخافه السلطان وفيها كان بين اتابك زنكي وبين داود سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا
حرب شديد وانهزم داود وملك زنكي من بلاده قلعة بهمرد وادركه الشتاء فعاد الى الموصل
وفيها ملك الاسماعيلية حصن مصياث بالشام وكان واليه مملوكا لبني منقذ أصحاب شيزر فاحتالوا

العرب بابي القاسم علي بن
محمد في ثلاثة من الوهق على
بقية من الرمق وأردف
بتوزتاش الحاجب وكان
براه المنتصر جلبة ما بين
العين والحاجب وانضمت
حبالة الاسر على معظم
ذلك العسكر فحملوا الى
غزنة في الاصفاد مقرنين
وسار المنتصر سير المضطر
لا يرى وزرا غير اعتساف
المسالك وارتكاب
المهالك على جملة لا تميز
فيها المملوك من المالك
وقفل أبو المظفر نصر بن
ناصر الدين وقد أعلى الله
كعبه ورفع قدره وأطعمه
نصره وأطار بين الخافقين
ذكره وانشدني ابو منصور
الثعالبي لنفسه فيه يذكر
ما اتيح له من هذا الفتح
الرائع منظره والشائع
في الآفاق خبره

تبلجت الايام عن غرة الدهر
وحلت بأهل البغي قاصمة الظهر
وولى بنو الادبار ادبارهم وقد
تحكم فيهم صاحب الدهر بالقهر
وقد جاء نصر الله والفتح مقبلا
إلى الملك المنصور سيدنا نصر
غياث الورى شمس الزمان وبدره

عليه ومكروا به حتى صعدوا اليه وقتلوه وملكوا الحصن وهو بايديهم الى الآن وفيها توفى سديد الدولة بن الانبارى واستوزر الخليفة بعده نظام الدين أبا نصر محمد بن محمد بن جبير وكان قبل ذلك استاذ الدار وفيها توفى برتقش بازدار صاحب قزوين وفيها فى رجب ظفر ابن الدانشمند صاحب ملطية وغيرها من تلك النواحى بجمع من الروم فقتلهم وغنم ما معهم وفيها فى رمضان سارت طائفة من الفرنج فخرج اليهم العسكر الذى بعسقلان فقاتلهم فظفر المسلمون وقتلوا من الفرنج كثيرا فعادوا منهزمين وفيها بنيت المدرسة الكمالية ببغداد بناها كمال الدين أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن ولما فرغت درس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخل وحضره ارباب المناصب وسائر الفقهاء وفيها فى رجب مات القاضى أبو بكر بن محمد بن عبد الباقى الانصارى قاضى المارستان عن نيف وسبعين سنة وله الاسناد والعوالى بالحديث وكان عالما بالمنطق والحساب والهيئة وغيرها من علوم الاوائل وهو آخر من حدث فى الدنيا عن ابى اسحق البرمكى والقاضى أبى بكر الطبرى وأبى طالب العشارى وأبى محمد الجوهرى وغيرهم وتوفى الامام الحافظ أبو القاسم اسمعيل بن محمد بن الفضل الاصفهانى عشر ذى الحجة ومولده سنة تسع وخمسين وله التصانيف المشهورة وتوفى يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين بن يعقوب الهمدانى من أهل بزجرد وسكن مرو وتفقه على أبى اسحق الشيرازى وروى الحديث واشتغل بالرياضات والمجاهدات ووعظ ببغداد فقام اليه متفقه يقال له ابن السقاء وسأله وآذاه فى السؤال فقال اسكت انى اشم منك ريح الكفر فسافر الرجل الى بلد الروم وتنصر وفيها مات أبو القاسم على بن افلح الشاعر المشهور

(ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر انهزام السلطان سنجر من الاتراك الخطا وملكهم ما وراء النهر)

ثم ذكر اصحاب التواريخ فى هذه الحادثة اقاويل نحن نذكرها جميعها للخروج من اختلافها وعهدتها فنقول فى هذه السنة فى المحرم وقيل فى صفر انهزم السلطان سنجر من الترك الكفار وسبب ذلك ان سنجرا كان قتل ابنا لخوارزم شاه اتسز بن محمد كما ذكرناه قبل فبعث خوارزم شاه الى الخطا وهم بما وراء النهر يطمعهم فى البلاد ويروج عليهم أمرها وحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر فساروا فى ثلثمائة الف فارس وسار اليهم سنجر فى عساكره فالتقوا بما وراء النهر واقتتلوا أشد قتال وانهزم سنجر وعساكره وقتل منهم مائة الف قتيل منهم اثنا عشر الفا كلهم صاحب عمامة واربعة آلاف امرأة واسرت زوجة السلطان سنجر وتم السلطان منهزما الى ترمذ وسار منها الى بلخ ولما انهزم سنجر قصد خوارزم شاه مدينة مرو فدخلها مراغمة للسلطان سنجر وقتل بها وقبض على أبى الفضل الكرمانى الفقيه الحنفى وعلى جماعة من الفقهاء وغيرهم من اعيان البلد ولم يزل السلطان سنجر مسعودا الى وقتنا هذا لم تنهزم له راية ولما تمت عليه هذه الهزيمة ارسل الى السلطان مسعود واذن له فى التصرف فى الرى وما يجرى معها على قاعدة أبيه السلطان محمد وأمره ان يكون مقيما فيها بعساكره بحيث ان دعت حاجة استدعاه لاجل هذه الهزيمة فوصل عباس صاحب الرى الى بغداد بعساكره وخدم السلطان مسعودا خدمة عظيمة وسار السلطان الى الرى امتثالا لامر عمه سنجر وقيل ان بلاد تركستان

ومن هو بالعلياء وفى أولى
الامر
فيا لك من فتح غدا زينة العلا
وواسطة الدنيا وفائدة العصر
أبى الله الا نصر نصر ورفعه
على قمة العيوق اوهامة النسر
وملكه صدر السرير كانه
لنا ذلك بالخير أوضح مجرى
وخوّله دون الملوك محاسنا
تبر على الشمس المنيرة والقطر
اذا ذكرت فاح الندى
بذكرها
كما فاح ذكى الندّ فى وهج الجمر
فتى السن كهل الحلم والرأى
والحجى
يعم بنى الآمال بالنائل الغمر
له همة لما حسبت علوّها
حسبت الثريا فى الثرى أبدا
تسرى
غدا راعيا للمسلمين وناصرا
له الله راع قد تكفل بالنصر
الا أيها الملك الذى ترك العدا
عباديد بين القتل والكسر
والاسر
قدمت قدوم الغيث أيمن
مقدم
فحليت وجه الدهر بالحسن
والبشر
ألست ترى كتب الربيع
ورسله
يقولون هذا الربيع على
الاثر
نسيم نسيب للحياة بلطفه
يجر فويق الارض أردية
العطر
وترب بأنفاس الربيع معبر

وهي كاشغر وبلاد بلاساغون وختن وطراز وغيرها مما يجاورها من بلاد ما وراء النهر وكانت بيد الملوك الخانية الأتراك وهم مسلمون من نسل أفراسياب التركي إلا أنهم مختلفون وكان سبب إسلام جدهم سبق قراخاقان أنه رأى في منامه كأن رجلا نزل من السماء فقال بالتركية ما معناه أسلم تسلم في الدنيا والآخرة فأسلم في منامه وأصبح فأظهر إسلامه فلما مات قام مقامه ابنه موسى بن سبق ولم يزل الملك بتلك الناحية في أولاده إلى أرسلان خان بن محمد بن سليمان بن داود بغراخان بن إبراهيم الملقب بطفغاج خان بن إيلك الملقب بنصر أرسلان بن علي بن موسى بن سبق فخرج على قدرخان فانتزع الملك منه فقتل سنجر قدرخان كما ذكرناه سنة أربع وتسعين وأربعمائة وأعاد الملك إلى أرسلان خان وثبت قدمه وخرج خوارج فاستصرخ السلطان سنجر فنصره وأعاده إلى ملكه وكان من جنده نوع من الأتراك يقال لهم القارغلية والأتراك الغزية الذين نهبوا خراسان على ما نذكره إن شاء الله وهم نوع آخر يقال لهم إيجق وأميرهم طوطي بن داد بك وقوم يقال لهم برق وأميرهم يقال له قرغوت بن عبد الحميد فحسن الشريف الأشرف بن محمد بن أبي شجاع العلوي السمرقندي لولد أرسلان خان المعروف بنصر خان طلب الملك من أبيه وأطمعه فسمع محمد بن خان الخبر فقتل الابن والشريف الأشرف وجرت بين أرسلان خان وبين جنده القارغلية وحشة دعتهم إلى العصيان عليه وانتزاع الملك منه فعاود الاستغاثة بالسلطان سنجر فعبر جيحون بعساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة وكان بينهما مصاهرة فوصل إلى سمرقند وهرب القارغلية من بين يديه واتفق أن السلطان سنجر خرج إلى الصيد فرأى خيالة فقبض عليهم فقررهم فأقروا أن أرسلان خان وضعهم على قتله فعاد إلى سمرقند فحصر أرسلان خان بالقلعة فملكها وأخذه أسيرا وسيره إلى بلخ فمات بها وقيل بل غدر به سنجر واستضعفه وملك البلد منه فأشاع عنه ذلك فلما ملك سمرقند استعمل عليها بعده قلج طمغاج أبا المعالي الحسن بن علي بن عبد المؤمن المعروف بحسن تكين وكان من أعيان بيت الخانية إلى الآن إلا أن أرسلان خان اطرحه فلما ولي سمرقند وكان هذا حسن ابن أخت سنجر لم تطل أيامه فمات عن قليل فأقام سنجر مقامه الملك محمود بن أرسلان خان محمد بن سليمان بن داود بغراخان وهو ابن الذي أخذ منه سنجر سمرقند وكان هذا محمود ابن أخت سنجر وكان قبل ذلك بسنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد وصل الأعور وهو كورخان الصيني إلى حدود كاشغر في عدد كثير لا يعلمهم إلا الله فاستعد له صاحب كاشغر وهو الخان أحمد بن الحسن وجمع جنوده فخرج إليه والتقوا فاقتتلوا وانهزم الأعور الصيني وقتل كثير من أصحابه ثم إنه مات فقام مقامه كورخان الصيني وكور بلسان الصين لقب لأعظم ملوكهم وخان لقب لملوك الترك فمعناه أعظم الملوك وكان يلبس لبسة ملوك الصين من المقنعة والخمار وكان مانويا ولما خرج من الصين إلى تركستان انضاف إليه الأتراك الخطا وكانوا قد خرجوا قبله من الصين وهم في خدمة الخانية أصحاب تركستان وكان أرسلان خان محمد بن سليمان يسير على ستة عشر ألف خركاه ومنزلهم على الدروب التي بينه وبين الصين يمنعون أحدا من الملوك أن يتطرق إلى بلاده وكان لهم على ذلك جرايات وإقطاعات فاتفق أنه وجد عليهم في بعض السنين فنهاهم عن نسائهم لئلا يتوالدوا فعظم عليهم ولم يعرفوا وجها يقصدونه وتحيروا فاتفق أن اجتاز بهم قفل عظيم فيه الأموال

الكثيرة

كما الدر من طيب وبالشمس تشرق
وغيرهما كبر اسقيت كأنه
على المسك والكافور
يهال بالجمر
فروح بشرب الراح روحك
إنها
تنهب من روعة البيض
والسمر
ودم لاقتناء الملك في أكمل
المنى
وفي أرفع العليا وفي أطول
العمر
*(وأنشدني أبو سعيد بن
دوست فيه لنفسه)*
للأمير المظفر الملك العا
دل فينا أبي المظفر نصر
كرم في شجاعة وحياء
في وقار ودولة مع نصر
وحيال لو رامها بختنصر
يوم فخر أعيت على بختنصر
فيه نفاع للعاوين وتقوى
وبه يدفع الكروب ونصري
وانتهى الركض بالمنتصر إلى
حال الأتراك الغزية ووالى
صغوا إلى الدولة السامانية
فأخذتهم الذمة من خذلانه
وحركتهم الحمية لعونه على
شأنه وتذاكروا بينهم
شرف آل سامان وما تعرفوه
قديما من بركات ذلك البيت
القديم والكرم الصميم
وسار بهم مصعدا حتى
لاقى بإيلك الخان وذلك في
شوال سنة ثلاث وتسعين
وثلثمائة وعندها دلف
إيلك للانتصار من المنتصر

الكثيرة والامتعة النفيسة فأخذوه وأحضروا التجار وقالوا لهم ان كنتم تريدون اموالكم
فعرفونا بلدا كثير المرعى فسيحا يسعنا ونبيع أموالنا فاتفق رأى التجار على بلد بلاساغون
فوصفوه لهم فاعادوا اليهم اموالهم وأخذوا الموكلين الذين كانوا بهم لمنعهم عن نسائهم
وكتفوهم وأخذوا نساءهم وساروا الى بلاساغون وكان ارسلان خان يغزوهم ويكثر
جهادهم فخافوه خوفا عظيما فلما طال ذلك عليهم وخرج كوخان الصينى انضافوا اليه ايضا فعظم
شأنهم وتضاعف جمعهم وملكوا بلاد تركستان وكانوا اذا ملكوا المدينة لايغيرون على أهلها
شيأ بل يأخذون من كل بيت دينارا من اهل البلاد وغيرها من القرى وأما المزدرعات وغير
ذلك فلاهلها وكل من أطاعهم من الملوك شد فى وسطه شبه لوح فضة فتلك علامة من أطاعهم
ثم ساروا الى بلاد ماوراء النهر فاستقبلهم الخاقان محمود بن محمد من حدود خجندة فى رمضان
سنة احدى وثلاثين وخمسمائة واقتتلوا فانهزم الخاقان محمود بن محمد وعاد الى سمرقند فعظم
الخطب على أهلها واشتد الخوف والحزن وانتظروا البلاء صباحا ومساء وكذلك اهل بخارا
وغيرهما من بلاد ماوراء النهر وأرسل الخاقان محمود الى السلطان سنجر يستمده وينهى اليه
مالقى المسلمون ويحثه على نصرتهم فجمع العساكر فاجتمع عنده ملوك خراسان صاحب سجستان
والغور وملك غزنة وملك مازندران وغيرهم فاجتمع اليه اكثر من مائة الف فارس وبقى
العرض ستة اشهر وسار سنجر الى لقاء الترك فعبروا الى ماوراء النهر فى ذى الحجة سنة خمس
وثلاثين وخمسمائة فشكا اليه محمود بن محمد خان من الاتراك القارغلية فقصدهم سنجر فالتجؤا
الى كوخان الصينى ومن معه من الكفار وأقام سنجر بسمرقند فكتب اليه كوخان كتابا يتضمن
الشفاعة فى الاتراك القارغلية ويطلب منه أن يعفو عنهم فلم يشفعه فيهم وكتب اليه يدعوه الى
الاسلام ويهدده ان لم يجب اليه ويتوعده بكثرة عساكره ووصفهم وبالغ فى قتالهم بانواع
السلاح حتى قال وانهم يشقون الشعر بسهامهم فلم يرض هذا الكتاب وزير السلطان طاهر
ابن فخر الملك بن نظام الملك فلم يصغ اليه وسير الكتاب فلما قرئ الكتاب على كوخان أمر بنتف
لحية الرسول وأعطاه ابرة وكلفه شق شعرة من لحيته فلم يقدر يفعل ذلك فقال كيف يشق
غيرك شعرة بسهم وانت عاجز عن شقها بابرة واستعد كوخان للحرب وعنده جنود الترك
والصين والخطا وغيرهم وقصده السلطان سنجر فالتقى العسكران وكانا كالبحرين العظيمين
بموضع يقال له قطوان وطاف بهم كوخان حتى ألجأهم الى واد يقال له درغم وكان على ميمنة
سنجر الامير قماج وعلى ميسرته ملك سجستان والاثقال وراءهم فاقتتلوا خامس صفر سنة
ست وثلاثين وخمسمائة وكانت الاتراك القارغلية الذين هربوا من سنجر من أشد الناس قتالا
ولم يكن ذلك اليوم من عسكر السلطان سنجر احسن قتالا من صاحب سجستان فأجلت الحرب
عن هزيمة المسلمين فقتل منهم مالا يحصى من كثرتهم واشتمل وادى درغم على عشرة آلاف من
القتلى والجرحى ومضى السلطان سنجر منهزما وأسر صاحب سجستان والامير قماج وزوجة
السلطان سنجر وهى ابنة أرسلان خان فأطلقهم والحسام عمر بن عبد العزيز بن مازة البخارى
الفقيه الحنفى المشهور ولم يكن فى الاسلام وقعة أعظم من هذه ولا اكثر ممن قتل فيها بخراسان
واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بماوراء النهر وبقى كوخان الى رجب من سنة سبع

فى جيوش الترك يستشعر
فى طلب الثار * استشعار
النار * حتى أناخ بحدود
سمرقند وتناذرت الغزية
باقدامه وتآمروا بينهم
على بياته فتجمعوا للركض
عليه فغشوا الخيل * تحت
ظلام الليل * حتى كاد
لاتنتقش الارض بوطء
أقدامها * ولا تشعر النجوم
بأشخاص ألويتها وأعلامها
* حتى أوقعوا به وانتهبوا
جل سواده * وقبضوا على
جلة قواده * وانقلبوا بما
غنموه الى أوطانهم عند
حصول البغية * فاستأثروا
على المنتصر بالاسرى طمعا
فى الفدية * ثم بلغ المنتصر
تنازعهم الامر بينهم فى
موالاتهم ايلك عليه
وافراجهم عن الاسرى
تقربا اليه فرأيه ذلك من
أمرهم ريبة لم تأخذه
الارض معها بقرار * ولم
تكتحل عينه عندها بغرار *
فاختار من جريدته قرابة
سبعمائة رجل ركبانا ورجالا *
خفافا وثقالا * وطاف على
المعابر فاذا النهر جامد *
وأمل الشط فى البعد آمد *
ففرشوا النهر بأتبان الارز
حتى امكنهم من العبور
وتبعه الطالب فمنعهم خطر
العبر من قصد المنتصر
وأرسل هو عند قراره بآمل
رسولا الى السلطان يمين

وثلاثين وخمسمائة فمات قدمه وكان جميلا حسن الصورة لا يلبس الا الحرير الصيني له هيبة عظيمة على أصحابه ولم يسلط أميرا على اقطاع بل كان يعطيهم من عنده ويقول متى أخذوا الاقطاع ظلموا وكان لا يقدم أميرا على أكثر من مائة فارس حتى لا يقدر على العصيان عليه وكان ينهى أصحابه عن الظلم وينهى عن السكر ويعاقب عليه ولا ينهى عن الزنا ولا يقبحه وملك بعده ابنة له فلم تطل مدتها حتى ماتت فملك بعدها امها زوجة كوخان وابنه محمد وبقي ماوراء النهر بيد الخطا الى أن أخذه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستمائة على مانذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر مافعله خوارزم شاه بخراسان)

قد ذكرنا قبل قصد السلطان سنجر خوارزم وأخذها من خوارزم شاه اتسز وعوده اليها وقتل ولد خوارزم شاه وانه هو الذي راسل الخطا وأطمعهم في بلاد الاسلام فلما انهزم السلطان سنجر وعاد منهزما سار خوارزم شاه الى خراسان فقصد سرخس في ربيع الاول من السنة فلما وصل اليها لقي الامام أبا محمد الزيادي وكان قد جمع بين الزهد والعلم فأكرمه خوارزم شاه اكراما عظيما ورحل من هناك الى مرو الشاهجان فقصده الامام احمد الباخرزي وشفع في أهل مرو وسأل ان لا يتعرض اليهم أحد من العسكر فأجابه الى ذلك ونزل بظاهر البلد واستدعى أبا الفضل الكرماني الفقيه واعيان أهلها فثار عامة مرو وقتلوا بعض اهل خوارزم شاه وأخرجوا اصحابه من البلد وأغلقوا ابوابه واستعدوا للامتناع فقاتلهم خوارزم شاه ودخل مدينة مرو سابع عشر ربيع الاول من السنة وقتل كثيرا من أهلها وممن قتل ابراهيم المروزي الفقيه الشافعي وعلي بن محمد بن ارسلان وكان ذا فنون كثيرة من العلم وقتل الشريف علي بن اسحق الموسوي وكان رأس فتنة وملقح شر وقتل كثيرا من أعيان اهلها وعاد الى خوارزم واستصحب معه علماء كثيرا من اهلها منهم ابو الفضل الكرماني وأبو منصور العبادي والقاضي الحسين بن محمد الارسابندي وابو محمد الخرقي الفيلسوف وغيرهم ثم سار في شوال من السنة الى نيسابور فخرج اليه جماعة من فقهائها وعلمائها وزهادها وسألوه أن لا يفعل بأهل نيسابور مافعل بأهل مرو فأجابهم الى ذلك لكنه استقصى في البحث عن اموال اصحاب السلطان فأخذها وقطع خطبة السلطان سنجر اول ذي القعدة وخطبوا له فلما ترك الخطيب ذكر السلطان سنجر وذكر خوارزم شاه صاح الناس وثاروا وكادت الفتنة تثور والشر يعود جديدا وامتنع الناس ذوو الرأي والعقل نظرا في العاقبة فقطعت الى اول المحرم سنة سبع وثلاثين فأعيدت خطبة السلطان سنجر ثم سير خوارزم شاه جيشا الى اعمال بيهق فأقاموا بها يقاتلون اهلها خمسة أيام ثم ساروا عنها ذلك الجيش يشنون الغارات ويخربون البلاد وعملوا باعمال نيسابور اعمالا عظيمة ومنع السلطان من مقاتلة اتسز خوارزم شاه لاجل قوة الخطا بما وراء النهر ومجاورتهم وملك خوارزم شاه هذه البلاد وغيرها من خراسان

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة ملك اتابك زنكي بن آقسنقر مدينة الحديثة ونقل من كان بها من آل مهارش الى الموصل ورتب اصحابه فيها وفيها ايضا خطب لزنكي بمدينة آمد وصار صاحبها في طاعته

وكان

الدولة وأمين الملة ويذكره بحقوق سلفه عليه واشتداد الامر في انتيال الصداد عليه وانه لم يبعث برتبة فيه طاعته واخلاصا في هواه وأظهر الانقطاع الى كنف قبوله وإشباله والانقياد الى معونته بجاهه ورجاله واستمد من أهل الشط الى سواد مرو واحتيز آمنا من معرة الترك في العبور على الاطراف والقلائد وأرسل الى أبي جعفر المعروف بخواهرزاده وكان ابوه رجلا من جلة الرعاع رفعه الزمان في دولة آل سامان يستميحه المعونة بماينفصل عن سعة يده من مال وسلاح فرد الرسول على غير وجه التريث والارتياح بحكم الانسانية ولم يرض بالرد حتى خرج اليه مقاتلا وبالقائه مقابلا فحول اصحاب المنتصر عليه حملة فرقت جمعه بجمله وتردى منه أبيوردي حتى وافاها في شهور سنة اربع وتسعين وثلثمائة وأوجب السلطان اكرام رسوله وتحقيق مأموله ووصله بصدر من المال يجبر شلته وخاطب ابن خواهرزاده بخدمته وتضمن مرضاته وترك الانحراف عن مراده فاضطره الامر الى طاعته حين شاعت سمة الفضل عليه واستطارت

وكان قبل ذلك موافقا لداود على قتال زنكي فلما رأى قوة زنكي صار معه وفيها عزل مجاهد الدين بهروز عن شحنكية بغداد ووليها قزل أميراخور وهو من مماليك السلطان محمود وكان له بروجرد والبصرة فأضيف اليه شحنكية بغداد ثم وصل السلطان الى بغداد فرأى من تبسط العيارين وفسادهم ما ساءه فأعاد بهروز الى الشحنكية فتاب كثير منهم ولم ينتفع الناس بذلك لان ولد الوزير واخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين فلم يقدر بهروز على منعهم وفيها تولى عبد الرحمن طغايرك حجبة السلطان واستولى على المملكة وعزل الامير تبر الطغرلي عنها وآل أمره الى أن مشى في ركاب عبد الرحمن وفيها توفي ابراهيم السهاوي مقدم الاسماعيلية فأخرجه ولد عباس صاحب الري في تابوته وفيها حج كمال الدين بن طلحة صاحب المخزن وعاد وقد لبس ثياب الصوفية وتخلى عن جميع ما كان عليه وأقام في داره مرعي الجانب محروس القاعدة وفيها وصل السلطان الى بغداد وكان الوزير الزينبي بدار السلطان كما ذكرناه فسأل السلطان أن يشفع فيه ليرده الخليفة الى داره فأرسل السلطان وزيره الى دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبي وشفع ان يعود الى داره فأذن له في ذلك وأعاد أخاه الى نقابة النقباء فلزم الوزير داره ولم يخرج منها الا الى الجامع وفيها أغار عسكر أتابك زنكي من حلب على بلاد الفرنج فنهبوا وأحرقوا وظفروا بسرية الفرنج فقتلوا فيهم وأكثروا فكان عدة القتلى سبعمائة رجل وفيها أفسد بنو خفاجة بالعراق فسير السلطان مسعود سرية اليهم من العسكر فنهبوا حللهم وقتلوا من ظفروا به منهم وعادوا سالمين وفيها سير رجار الفرنجي صاحب صقلية اسطولا الى أطراف افريقية فأخذوا مراكب سيرت من مصر الى الحسن صاحب افريقية وغدر بالحسن ثم راسله الحسن وجدد الهدنة لاجل حمل الغلات من صقلية الى افريقية لان الغلاء كان فيها شديدا والموت كثيرا وفيها توفي ابو القاسم عبد الوهاب ابن عبد الواحد الحنبلي الدمشقي وكان عالما وفيها توفي ضياء الدين ابو سعيد الكفرتوثي وزير أتابك زنكي وكان حسن السيرة في وزارته كريما رئيسا وفيها توفي أبو محمد بن طاوس امام الجامع بدمشق في المحرم وكان رجلا صالحا فاضلا وفيها توفي أبو القاسم اسمعيل بن احمد بن عمر بن أبي الاشعث المعروف بابن السمرقندي ولد بدمشق سنة أربع وخمسين وأربعمائة وكان مكثرا من الحديث عالي الرواية

(ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة)

*(ذكر ملك عماد الدين أتابك زنكي قلعة اشب وغيرها من الهكارية

في هذه السنة أرسل أتابك زنكي جيشا الى قلعة اشب وكانت أعظم حصون الاكراد الهكارية وأمنعها وبها أموالهم وأهلهم فحصروها وضيقوا على من بها فملكوها فأمر باخرابها وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضا عنها وكانت هذه القلعة العمادية حصنا عظيما من حصونهم خربوه لكبره لانه كبير جدا وكانوا يعجزون عن حفظه فخربت الآن اشب وعمرت العمادية وانما سميت العمادية نسبة الى لقبه وكان نصير الدين جقر نائبه بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية

(ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب)

شادخة اللؤم بجذبه * وقد كان ابو نصر نصر بن محمود الحاجب لما تسامع بقدوم راية المنتصر مال الى صاحبه * وأظهر الانقطاع الى جانبه * وأقام له الخطبة بنسا مظهرا طاعته * ومستنفدا في نصرته جهده واستطاعته * ولما أحس أهل نسا برأي أبي نصر في اتباع راية الخلاف أشفقوا على أنفسهم من عاقبة الاتهام بموالاته * والاشتراك في جناياته * فكاتبوا خوارزم شاه مستعدين عليه فأنهض أبو الفضل الحاجب أحد أعيان ذلك الباب الرفيع لازالة شره * وكفاية أمره * ومال ابو نصر بن محمود الى المنتصر فتضافرت العدد * وتوافرت العدد * وصدر الى خبوشان من رستاق استواء وناهضهم أبو الفضل في رجال خوارزم شاه فاتفق التقاؤهم في الحرب ليلا بمرأى من النجوم الشوابك حيث لا يدري الضارب مضروبه * ولا يبصر الراكب مركوبه * واختلط الفارس بالراجل * والنارس بالنابل * وتضاربوا ما بين الشوى والمقاتل وتطاعنوا اسلكي ومخاوجة كرك لامين على نابل وتصدع شمل الفريقين

وفي هذه السنة سارت مراكب الفرنج من صقلية الى طرابلس الغرب فحصروها وسبب ذلك ان أهلها في أيام الامير الحسن صاحب أفريقية لم يدخلوا أبدا في طاعته ولم يزالوا مخالفين مشاققين له فقدموا عليهم من بني مطروح مشايخ يدبرون أمرهم فلما رأى ملك صقلية ذلك جهز اليهم جيشا في البحر فوصلوا اليهم تاسع ذي الحجة فنازلوا البلد وقاتلوه وعلقوا الكلاليب في سوره ونقبوه فلما كان الغد وصل جماعة من العرب نجدة لاهل البلد فقوي أهل طرابلس بهم فخرجوا الى الاسطول فحملوا عليهم حملة منكرة فانهزموا هزيمة فاحشة وقتل منهم خلق كثير ولحق الباقون بالاسطول وتركوا الاسلحة والاثقال والدواب والالات فنهبها العرب واهل البلد ورجع الفرنج الى صقلية فجددوا أسلحتهم وتجهزوا الى المغرب فوصلوا الى جيجل فلما رآهم اهل البلد هربوا الى البراري والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذي بناه يحيى بن العزيز بن حماد للنزهة ثم عادوا.

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة خرج حسن أمير الامراء على السلطان سنجر بخراسان وفيها توفي محمد بن دانشمند صاحب ملطية والثغر واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وهو من السلجوقية وفيها خرج من الروم عسكر كثير الى الشام فحصروا الفرنج بانطاكية فخرج صاحبها واجتمع بملك الروم واصلح حاله معه وعاد الى مدينته ومات في رمضان من هذه السنة ثم ان ملك الروم بعد ان صالح صاحب انطاكية سار الى طرابلس فحصرها ثم سار عنها وفيها قبض السلطان مسعود على الامير ترشك وهو من خواص الخليفة وممن ربي عنده وفي داره فسا ذلك للخليفة ثم أطلقه السلطان حفظا لقلب الخليفة وفيها كان بمصر وباء عظيم فهلك منه اكثر البلاد

(ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر صلح الشهيد والسلطان مسعود وأتابك زنكي)

في هذه السنة وصل السلطان مسعود الى بغداد على عادته في كل سنة وجمع العساكر وتجهز لقصد أتابك زنكي وكان حقد عليه حقدا شديدا وسبب ذلك ان اصحاب الاطراف الخارجين على السلطان مسعود كانوا يخرجون عليه على ما تقدم ذكره فكان ينسب ذلك الى أتابك زنكي ويقول هو الذي سعى فيه وأشار به لعلمه انهم كلهم كانوا يصدرون عن رأيه فكان أتابك زنكي لا شك يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان فيتمكن منه ومن غيره فلما تفرغ السلطان هذه السنة جمع العساكر ليسيروا الى بلاده فسير أتابك يستعطفه ويستقيله فأرسل اليه السلطان أبا عبد الله بن الانباري في تقرير القواعد فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار يحملها الى السلطان ليعود عنه فحمل عشرين ألف دينار اكثرها عروض ثم تنقلت الاحوال بالسلطان الى ان احتاج الى مداراة أتابك وأطلق له الباقي استمالة له وحفظا لقلبه وكان عود السلطان عنه سببه حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله ومن جيد الرأي ما فعله الشهيد في هذه الحادثة فانه كان ولده الاكبر سيف الدين غازي لا يزال عند السلطان سفرا وحضرا بأمر والده فأرسل اليه ثانية وارسل الى نائبه نصير الدين جقر في ولده ليمنعه عن الدخول

الى

قبل ان صافح الليل صباحه ونفض النجم على الغرب وشاحه فلم يشعر أصحابها جنته يد الظلام على كآبة ذلك الجيش اللهام حتى اذا استفاض ضوء النهار فاذا ابن سيمجور قتيل وابن حسام الدولة أبي العباس تاش الى جنبه صريع وتفرق الباقون عباديد بين أقطار الهامه والبيد ووقع المنتصر الى اسفرايين فاتهمه أهلها حذار المحنة وخيفة الهرج والفتنة فانثنى على أدراجه في شرذمة من أصحابه يقطع الارض طولا وعرضا حتى انتهى الى بعض حدود سرخس فأقام هنالك ريثما تلاحق به الفل وسار حتى عبر النهر من ساحل قطنان وبرز منه بخارا في طلبه وسدوا عليه وجوه مهربه فركب عزيمة الرجال في ثبات القوم وثبت بعضهم لبعض جلادا بالدبابيس والحراب واغمادا للسيوف في قراب الرقاب فجد المنتصر في الامر واشتد وتجابر أسه ولم يكد وصار للقوم الى دبوسية من السغد مستجدين من بها من العمال وتفاريق الرجال ووقع المنتصر الى ثغر النور من بخارا وركض منها عليهم وكمنة اقتسمتهم بين اجتياح واجتثاث واصطلام

الى الموصل والوصول اليه فهرب غازي وبلغ الخبر والده فأرسل اليه يأمره بالعودة الى السلطان ولم يجتمع به وأرسل معه رسولا الى السلطان يقول له ان ولدي هرب خوفا من السلطان لما رأى تغيره علي وقد أعدته الى الخدمة ولم أجتمع به فانه مملوكك والبلاد لك فحل ذلك من السلطان محلا عظيما

(ذكر ملك اتابك بعض ديار بكر)

وفي هذه السنة سار اتابك زنكي الى ديار بكر ففتح منها عدة بلاد وحصون فمن ذلك مدينة طنزة ومن ذلك مدينة أسعرد ومدينة حيزان وحصن الذوق وحصن مطليس وحصن باتسية وحصن ذي القرنين وغير ذلك مما لم يبلغ غيره هذه الاماكن وأخذ أيضا من بلد ماردين مما هو بيد الفرنج جملين والموزر وتل موزر وغيرها من حصون جوسلين ورتب امور الجميع وجعل فيها من الاجناد من يحفظها وقصد مدينة آمد وحاني فحصرهما وأقام بتلك الناحية مصلحا لما انقصه ومحصرا لما لم يفتحه

(ذكر أمر العيارين ببغداد)

وفي هذه السنة زاد أمر العيارين وكثر الاذى منهم من الطلب بسبب ابن الوزير وابن قاورت أخي زوجة السلطان لانهما كان لهما نصيب من الذي يأخذه العيارون وكان النائب في شحنكية بغداد مملوكا اسمه ايلدكز وكان صارما مقداما ظالما فحمله الاقدام الى أن حضر عند السلطان فقال له السلطان ان السياسة قاصرة والناس قد هلكوا قال يا سلطان العالم اذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك وأخا امرأتك فأي قدرة لي على المفسدين وشرح له الحال فقال له الساعة تخرج وتكبس عليهما أين كانا وتصلبهما فان فعلت والا صلبتك فأخذ خاتمه وخرج فكبس على ابن الوزير فلم يجده فأخذ من كان عنده وكبس على ابن قاورت فأخذه وصلبه فأصبح الناس وهرب ابن الوزير وشاع الامر ورؤي ابن قاورت مصلوبا فهرب اكثر العيارين وقبض على من أقام وكفي الناس شرهم

(ذكر حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه)

قد ذكرنا سنة اثنتين وثلاثين مسير سنجر الى خوارزم وملكه لها وعود اتسز خوارزم شاه اليها وأخذها وما كان منه بخراسان بعد ذلك فلما كان في هذه السنة سار السلطان سنجر الى خوارزم شاه فجمع خوارزم شاه عساكره وتحصن بالمدينة ولم يخرج منها للقتال لعلمه انه لا يقوى لسنجر وكان القتال يجري بين الفريقين من وراء السور فاتفق في يوم من بعض الايام أن هجم أمير من أمراء سنجر اسمه سنقر على البلد من الجانب الغربي فلم يبق غير ملكه قهرا وعنوة وكان منقال التاجي هجم من الشرق فانهزم منقال عن البلد وبقي سنقر وحده في البلد فقوي عليه خوارزم شاه اتسز فأخرجه من البلد وبقي سنجر وحده واشتد في حفظه فلما رأى السلطان قوة البلد وامتناعه عزم على العود الى مرو ولم يمكنه من غير قاعدة تستقر بينهما فاتفق ان خوارزم شاه أرسل رسلا يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود الى ما كان عليه من الانقياد فأجابه الى ذلك واصطلحا وعاد سنجر الى مرو وأقام خوارزم شاه بخوارزم

(ذكر عدة حوادث)

واجتثاث ومالآء المعروف بابن علمدار رئيس الفتيان بسمرقند فأتاه في ثلاثة آلاف رجل وتقرب اليه مشايخ أهلها بثلثمائة غلام على سبيل بروشدمه * ووصلوا بها كرامات تضاهيها * ونثارات تدل على اخلاصهم فيها * ووافى اليه الغزية باشتعال جذوته * وتراجع قوته * ولما سمع ايلك الخان باحتداد شوكته * واشتداد وطأته * زحف اليه في احلاس الذكور من ديارات الترك واشتبكت الحرب بينهم بيورغند حتى نفدت النبال * وتكسرت النصال * وتحطمت السمر الطوال * وخان الخان مقامه * وانفض عنه أقوامه * فاستقفاه الغزية في طلاب الاسلاب * حتى بردت أيديهم بالسبايا والنهاب * والغنائم الرغاب * وذلك في شعبان سنة أربع وتسعين وثلثمائة وعاود الخان أرض الترك فضم النشر * ونادى فحشر * ثم كر على ثاره * وبث على المنتصر شرر ناره * ووافق اقباله تراجع الغزية الى أوطانهم بما نهبوه * على عاداتهم في كل ما غنموه * واستأنف الحرب على فضاء بين قسر بي دزك وخاوس من أسروشنة فاستأمن المعروف كان بالحسن بن طاق الى الخان *

في هذه السنة سير اتابك زنكي عسكرا الى مدينة عانة من اعمال الفرات فملكوها وفيها
في المحرم توفي ابو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن احمد الانماطي الحافظ ببغداد ومولده
سنة اثنتين وستين واربعمائة * وفيها توفي ابو الفتوح محمد بن الفضل بن محمد الاسفرايني
الواعظ من اهل اسفراين من خراسان واقام مدة ببغداد يعظ وسار الى خراسان فلما مات
حضر الغزنوي عزاءه ببغداد وبكى واكثر فقال بعض اصحاب ابي الفتوح الغزنوي كلاما
اغلظ له فيه فلما مات الغزنوي لامه بعض تلامذته على حضور العزاء وكثرة البكاء وقال له كنت
مهاجرا لهذا الرجل فلما مات حضرت عزاءه واكثرت البكاء واظهرت الحزن قال كنت ابكي
على نفسي كان يقال فلان وفلان فمن بعدم النظير ايقن بالرحيل وانشد هذه الابيات

ذهب المبرد وانقضت ايامه * وسينقضي بعد المبرد ثعلب
بيت من الآداب اصبح نصفه * خربا وباقي نصفه فسيخرب
فتزودوا من ثعلب فبمثل ما * شرب المبرد عن قليل يشرب
اوصيكم ان تكتبوا انفاسه * ان كانت الانفاس مما يكتب

وفيها توفي الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي في رمضان معزولا ودفن بداره بباب الازج
ثم نقل الى الحربية وفيها توفي ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري النحوي المفسر وزمخشر
احدى قرى خوارزم

(ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية)

في هذه السنة سادس جمادى الآخرة فتح اتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر مدينة الرها من
الفرنج وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة ايضا وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة وشرهم قد
استطار فيها ووصلت غاراتهم الى ادانيها واقاصيها وبلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقة
وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين الى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وسن ابن
عطير وحملين والموزر والقرادي وغير ذلك وكانت هذه الاعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات
لجوسلين وكان صاحب رأي الفرنج والمقدم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر
وكان اتابك يعلم انه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه ملكها لما
هي عليه من الحصانة فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج انه غير متفرغ الى قصد بلادهم فلما رأوا
انه غير قادر على ترك الارتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر حيث انه محارب لهم اطمأنوا
وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات الى بلاده الغربية فجاءت عيون اتابك اليه فاخبروه الخبر
فنادى في العسكر بالرحيل وان لا يتخلف عن الرها احد من غد يومه وجمع الامراء عنده
وقال قدموا الطعام وقال لا يأكل معي على مائدتي هذه الا من يطعن غدا معي بباب الرها فلم
يتقدم اليه غير امير واحد وصبي لا يعرف لما يعلمون من اقدامه وشجاعته وان احدا لا يقدر
على مساواته في الحرب فقال الامير لذلك الصبي ما انت في هذا المقام فقال اتابك دعه فوالله
اني ارى وجها لا يتخلف عني وسار والعساكر معه ووصل الى الرها وكان هو اول من حمل على
الفرنج ومعه ذلك الصبي وحمل فارس من خيالة الفرنج على اتابك عرضا فاعترضه ذلك الامير

في زهاء ستة آلاف رجل
من رفقائه عند اتقاد
جمرات الصياح * واشتداد
زفرات القراع * فاضطر
المنتصر الى الانهزام *
وكم انسان في اهل
عسكره سيوف الانتقام *
حتى رويت الارض من
دمائهم * وشبعت النسور
من اشلائهم * وسار المنتصر
الى شط جيحون فعبر على
العبد لعدم السفائن
وخلو المعابر ومضى الى
اندخود من ارض جوزجان *
متترسا من زكمة الخان *
- وامر باستياق الدواب
الراعية بها واقتسامها بين
اهل جملته فركب المفازة
الى قنطرة زاغول والمبالغ
السلطان يمين الدولة وامين
الملة خبره اسرع الانحدار
الى بلخ لابعاده عن تناهي
امره واستفحاله * واتبعه
بفريغون بن محمد في اربعين
قائدا من قواده * لطرد
سواده * وحصد فساده *
فانهزم المنتصر وسار
الى الجنابذ من قهستان
شروره * اذ كانت جيوب
عليه مزرورة * وسفت ام
ثبوت عليه السيوف * واين
الم احدقت به الحتوف *
وذلك اليه صاحب الجيش
ابو المظفر نصر بن ناصر
الدين في طغان جيق والى
مرخس وارسلان الجاذب

فطعنه فقتله وسلم الشهيد ونازل البلد وقاتله ثمانية وعشرين يوما فزحف اليه عدة دفعات
وقدم النقابين فنقبوا سور البلد ولج في قتاله خوفا من اجتماع الفرنج والمسير اليه واستنقاذ
البلد منه فسقطت البدنة التي نقبها النقابون وأخذ البلد عنوة وقهرا وحصر قلعته فملكها
أيضا ونهب الناس الاموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال فلما رأى اتابك البلد أعجبه ورأى
ان تخريب مثله لا يجوز في السياسة فامر فنودي في العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء
والاطفال الى بيوتهم واعادة ما غنموه من اثاثهم وامتعتهم فردوا الجميع عن آخره لم يفقد
منه شئ الا الشاذ النادر الذي أخذ وفارق من اخذه العسكر فعاد البلد على حاله الاول
وجعل فيه عسكرا يحفظه وتسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الفرنج
شرقي الفرات ما عدا البيرة فانها حصينة منيعة وعلى شاطئ الفرات فسار اليها وحصرها
وكانوا قد اكثروا ميرتها ورجالها فبقي على حصارها الى أن رحل عنها على ما نذكره ان شاء الله
تعالى (حكى) ان بعض الحكماء بالانساب والتواريخ قال كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل
سرية في البحر الى طرابلس الغرب وتلك الاعمال فنهبوا وقتلوا وكان بصقلية انسان من العلماء
المسلمين وهو من أهل الصلاح وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ويرجع الى قوله ويقدمه
على من عنده من القسوس والرهبان وكان أهل ولايته يقولون انه مسلم بهذا السبب ففي
بعض الايام كان جالسا في منظرة تشرف على البحر واذ قد أقبل مركب لطيف واخبره من
فيه ان عسكره دخل بلاد الاسلام وغنموا وقتلوا وظفروا وكان المسلم الى جانبه وقد اغفى فقال
له الملك يا فلان أما تسمع ما يقولون قال لا قال انهم يخبرون بكذا وكذا أين كان محمد عن
تلك البلاد وأهلها فقال له كان غاب عنهم وشهد فتح الرها وقد فتحها المسلمون الآن فضحك
منه من كان هناك من الفرنج فقال الملك لا تضحكون فوالله ما يقول الا الحق فبعد
أيام وصلت الاخبار من فرنج الشام بفتحها * وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح
ان انسانا صالحا رأى الشهيد في النوم فقال له ما فعل الله بك قال غفر لي بفتح الرها

* (ذكر قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين علي كوجك قلعة الموصل) *

في هذه السنة في ذي القعدة قتل نصير الدين جقر نائب اتابك زنكي بالموصل والاعمال جميعها
التي شرقي الفرات وسبب قتله ان الملك الب ارسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود كان
عند اتابك الشهيد وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود واصحابه بالاطراف ان هذه البلاد
لهذا الملك وانا نائبه فيها وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليخطب له بالسلطنة ويملك البلاد
باسمه وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ونصير الدين يقصده كل يوم ليقوم بخدمته ان عرضت
له فحسن له بعض المفسدين طلب الملك وقال له ان قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها من
البلاد ولا يبقى مع اتابك زنكي فارس واحد فوقع هذا منه موقعا حسنا وظنه صدقا فلما دخل
نصير الدين اليه وثب عليه من عنده من اجناد اتابك ومماليكه فقتلوه وألقوا برأسه الى أصحابه
ظنا منهم ان اصحابه يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلد وكان الامر خلاف ما ظنوه فان اصحابه
واصحاب اتابك الذين في خدمته لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق
الكثير وكانت دولة اتابك مملوءة بالرجال والاجناد ذوي الرأي والتجربة ثم دخل اليه القاضي

والى طوس يحثون الظهور
في الطلب * ويتزفون علاتها
بين الركض والخبب *
ففاتهم الى جومند ومنها
الى بسطام فيوماه شمس
المعالي قابوس بن وشمكير
بزهاء ألفين من الاكراد
الشاهجانية فاز بجوه
عنها الى بيار * راجعا باللوم
على من لقيه الا نحداره *
ولما ضاقت عليه المذاهب *
وأحاطت به المعاطب * بادر
الى كورة نسا بدارة من لا
يمكنه بدار * ولا يوطئ
الارض جنب قرار * وتلقاه
ابن سرخك الساماني
بكتاب يزين له الانتقال
اليه لمضامنته على ايلك
الخان موازرة ومواراة *
ومطابقة للخلاف عليه
ومواطاة * فنازعته نفسه
تقديم اجابته طمعا في وفائه *
وتأميلا لعونه على زمانه *
فركب الطائر وسار حتى
اذا بلغ بئر حماد من مفازة
آمل سبقه خيله الى الشط
فوافق ذلك جمود جيحون
فاغتنموا مفارقته خلاصا
مما منوا به من مكابدة
الاسفار * وعدم الاستقرار *
ووصل سهر الليل بدأب
النهار * وتشاوروا في العبور
الى سليمان الحاجب
وصافي حاجب ايلك الخان
فعبروا اليهما وعرفوهما
ان الساماني بالقرب وأن

تاج الدين يحيى بن الشهرزوري وابرز له ملطفه وكان فيما قال له الى متى تصبر على هذه الحال انا ما حضرت من هذا الكلب حتى صار استاذه زنكي والمملكة التي اراد ان يشيد فيها ومن صاحبه على بلده وما الذي يقعدك في هذه الدار فتصعد القلعة وتاخذ الاموال والسلاح وتملك البلاد وتجمع الجند وليس دون الموصل مانع فقام معه واصعده القلعة فلما قاربوا الدار منعهم من بها من النقيب والاجناد القتال فتقدم اليهم القاضي تاج الدين وقال لهم افتحوا الباب وتسلموه واعملوا به ما اردتم ثم فتح الباب ودخل الملك والقاضي اليها ومعه من اعان على قتل نصير الدين فقبضوا ونزل القاضي وبلغ الخبر اتابك زنكي وهو يحاصر قلعة البيرة وقد اشرف على ملكها فخاف ان تختلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين ففارق البيرة وارسل زين الدين علي بن بكتكين الى قلعة الموصل واليا على ما كان نصير الدين يتولاه

•(ذكر عدة حوادث)•

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره البروجردي ووزر بعده المرزبان بن عبد الله ابن نصر الاصفهاني وسلم اليه البروجردي فاستخرج امواله ومات مقبوضا وفيها كان اتابك عماد الدين زنكي يحاصر البيرة وهي للفرنج شرقي الفرات بعد ملك الرها وهي من امنع الحصون وضيق عليها وقارب ان يفتحها فجاءه خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل فرحل عنها وارسل نائبا الى الموصل واقام ينتظر الخبر فخاف من بالبيرة من الفرنج ان يعود اليهم وكانوا يخافونه خوفا شديدا فارسلوا الى نجم الدين صاحب ماردين وسلموها اليه فملكها المسلمون وفيها خرج اسطول الفرنج من صقلية الى ساحل افريقية والغرب فقصدوا مدينة برشك وقتلوا اهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقلية على المسلمين وفيها توفي تاشفين بن علي بن يوسف صاحب الغرب وكانت ولايته تزيد على اربع سنين وولي بعده اخوه وضعف امر الملثمين وقوي عبد المؤمن وقد ذكرنا ذلك سنة اربع عشرة وخمسمائة وفيها في شوال ظهر كوكب عظيم له ذنب من جانب المشرق وبقي الى نصف ذي القعدة ثم غاب ثم طلع من جانب الغرب فقيل هو هو وقيل بل غيره وفيها كانت فتنة عظيمة بين الامير هاشم بن فليتة بن القاسم العلوي الحسيني امير مكة والامير نظر الخادم امير الحاج نهب اصحاب هاشم الحجاج وهم في المسجد يطوفون ويصلون ولم يرقبوا فيهم الا ولا ذمة وفيها في ذي الحجة توفي عبد الله احمد بن محمد بن عبد الله بن حمدويه ابو المعالي المروزي بمرو وسافر الكثير وسمع الحديث الكثير وبنى بمرو رباطا ووقف فيه كتبا كثيرة وكان كثير الصدقة والعبادة وتوفي محمد بن عبد الملك بن حسن بن ابراهيم بن خيرون ابو منصور المقري في رجب ومولده في رجب سنة اربع وخمسين واربعمائة وهو آخر من روى عن الجوهري بالاجازة وفي ذي الحجة منها توفي ابو منصور سعيد بن محمد بن عمر المعروف بابن الرزاز مدرس النظامية ببغداد ومولده سنة اثنتين وستين واربعمائة وتفقه على الغزالي والشاشي ودفن في تربة الشيخ ابي اسحق

•(ثم دخلت سنة اربعين وخمسمائة)•

•(ذكر اتفاق بوزابة وعباس على منازعة السلطان)•

الحرة طيلسانه والحوادث قد طمسته فهو خلسة الطامع ونهزة الطالب وطعمة الانياب والمخالب فلم يشعر ابو ابراهيم الا بالخيل مطلة تطاردهم ساعة ثم ولاها ظهر الفرار وقبض على اخويه وشاهدهما برباط بشرى وحملوا الى اوركنه اسرى واحل المنتصر هربه حلة ابن بهيج الاعرابي من جملة العرب السيارة في تلك المفازة ليقضي الله امرا كان مفعولا وكان المعروف بابي عبد الله ماهروي بندارا من جهة السلطان يمين الدولة فيهم وقد اوصاهم بالقعود له بكل مرصد واذكاء العيون عليه عند كل مورد فلما لبس الليل جلدة الغبش وعرض على النجوم جيش الحبش وثب اهل تلك الحلة على المنتصر حيلا منهم بقدره وغباوة وقساوة وشقاوة واخنوا واحق مقدمه واحلوا الارض حرام دمه فكأنما عناه ابو تمام حبيب بن اوس الطائي حيث يقول

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
تقوم مقام النصر اذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه

في هذه السنة سار بوزابة صاحب فارس وخوزستان وعساكره الى قاشان ومعه الملك محمد ابن السلطان محمود ووصل اليهما الملك سليمان شاه بن السلطان محمد واجتمع بوزابة والامير عباس صاحب الري واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان مسعود وملكا كثيرا من بلاده ووصل الخبر اليه وهو ببغداد ومعه الامير عبد الرحمن طغايرك وهو امير حاجب حاكم في الدولة وكان ميله اليهما فسار السلطان في رمضان عن بغداد ونزل بها الامير مهلهل ونظر وجماعة من غلمان بهروز وسار السلطان وعبد الرحمن معه فتقارب العسكران ولم يبق الا المصاف فلحق سليمان شاه باخيه مسعود وشرع عبد الرحمن في تقرير الصلح على القاعدة التي ارادوها واضيف الى عبد الرحمن ولاية اذربيجان وارانية الى ما بيده وصار ابو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود وهو وزير بوزابة فصار السلطان معهم تحت الحجر وارسلوا بك ارسلان بن بلنكري المعروف بخاص بك وهو ملازم السلطان وتربيته وصار في خدمته عبد الرحمن احقن دمه وصار الجماعة في خدمة السلطان بالصورة لا بالمعنى والله اعلم

(ذكر استيلاء علي بن دبيس بن صدقة على الحلة)

في هذه السنة سار علي بن دبيس الى الحلة هاربا فملكها وكان سبب ذلك ان السلطان لما اراد الرحيل من بغداد اشار عليه مهلهل ان يحبس علي بن دبيس بقلعة تكريت فعلم ذلك فهرب في جماعة يسيرة نحو خمسة عشر فمضى الى الازيز وجمع بني اسد وغيرهم فسار الى الحلة وبها اخوه محمد بن دبيس فقاتله فانهزم محمد وملك علي الحلة واستهان السلطان امره اولا فاستفحل وضم اليه جمعا من غلمانه وغلمان ابيه واهل بيته وعساكرهم وكثر جمعهم فسار اليه مهلهل فيمن معه في بغداد من العسكر وضربوا معه مصافا فكسرهم وعادوا منهزمين الى بغداد وكان اهلها يتعصبون لعلي بن دبيس وكانوا يصيحون اذا رأوا مهلهلا وبعض اصحابه يا علي كله وكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب ومد علي يده في اقطاع الامراء بالحلة وتصرف فيها وصار شحنة بغداد ومن فيها على وجل منه وجمع الخليفة جماعة وجعلهم على السور لحفظه وراسل عليا فاعاد بانني العبد المطيع مهما رسم لي فعلت فسكن الناس ووصلت الاخبار بعد ذلك ان السلطان مسعودا تفرق خصومه عنه فازداد سكون الناس لذلك

(ذكر عدة حوادث)

حج بالناس هذه السنة قايماز الارجواني صاحب امير الحاج نظر واحتج نظر بان بركة نهب في كسرة الحلة وان بينه وبين امير مكة من الحروب ما لا يمكنه معه الحج وفيها اتصل بالخليفة عن اخيه ابي طالب ما كرهه فضيق عليه واحتاط على غيره من اقاربه وفيها ملك الفرنج لعنهم الله مدينة شنترين وباجة وماردة واشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الاندلس وكانت للمسلمين فاختلفوا فطمع العدو واخذ هذه المدن وقوي بها قوة تمكن وتيقن ملك بلاد الاسلام بالاندلس نخيب الله ظنه وكان ما نذكره وفيها سار اسطول الفرنج من صقلية ففتحوا جزيرة قرقنة من افريقية فقتلوا رجالها وسبوا حريمهم فأرسل الحسن صاحب افريقية الى رجار ملك صقلية يذكره بالعهود التي بينهم فاعتذر بانهم غير مطيعين له وفي هذه السنة توفي مجاهد الدين بهروز الغياثي وكان حاكما بالعراق نيفا وثلاثين سنة وبرنقش الزكوي صاحب اصفهان وكان

من الضرب واعتلت عليه
القنا السمر
فأثبت في مستنقع الموت
رجله
وقال لها من تحت أخمصك
الحشر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه
فلم ينصرف الا واكفانه
الاجر
مضى طاهر الاثواب لم تبق
روضة
غداة ثوى الا اشتهت انها قبر
عليك سلام الله وقفا فانني
رأيت الكريم الحر ليس
له عمر
ثم نقل قالبه الى قرية ماي
مرغ من رودبار زم ودفن
بها في شهر ربيع الاول سنة
خمس وتسعين وثلثمائة
وبلغ السلطان يمين الدولة *
وأمين الملة * خبره فأمر
بالقبض على البندار *
واذاقته مر الانكار *
وشن الغارة على حلة ابن
بهيج الاعرابي خاصه *
وعلى سائر العرب السيارة
عامه * فصارت جمرة آل
سامان رمادا تذروه الرياح
وكان الله على كل شئ
مقتدرا
*(ذكر الامراء السامانية
ومقادير أيامهم من حيث
نجمت دولتهم الى أن ورثها
السلطان يمين الدولة * وأمين
الملة)*
كان ملك آل سامان

ايضا نصبه بالعراق وهو خادم ارمنى لبعض التجار وتوفى الامير ايلدكز شحنة بغداد والشيخ ابو منصور موهوب بن احمد بن الخضر الجواليقى اللغوى ومولده فى ذى الحجة سنة خمس وستين واربعمائة واخذ اللغة عن ابى زكريا التبريزى وكان يؤم بالمقتفى امير المؤمنين وتوفى احمد بن محمد ابن الحسن بن على بن احمد بن سليمان ابو سعد بن ابى الفضل الاصفهانى ومولده سنة ثلاث وستين واربعمائة وروى الحديث الكثير وكان على سيرة السلف كثير الاتباع للسنة رحمة الله عليه

●(ثم دخلت سنة احدى واربعين وخمسمائة)●

●(ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب)●

فى هذه السنة ملك الفرنج لعنهم الله طرابلس الغرب وسبب ذلك ان رجار ملك صقلية جهز اسطولا كثيرا وسيره الى طرابلس فاحاطوا بها برا وبحرا ثالث المحرم فخرج اليهم اهلها وانشبوا القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة ايام فلما كان اليوم الثالث سمع الفرنج بالمدينة ضجة عظيمة وخلت الاسوار من المقاتلة وسبب ذلك ان اهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بايام يسيرة قد اختلفوا فاخرج طائفة منهم بنى مطروح وقدموا عليهم رجلا من الملثمين قدم يريد الحج ومعه جماعة فولوه امرهم فلما نازلهم الفرنج اعادت الطائفة الاخرى بنى مطروح فوقع الحرب بين الطائفتين وخلت الاسوار فانتهز الفرنج الفرصة ونصبوا السلالم وطلعوا على السور واشتد القتال فملكت الفرنج المدينة عنوة وقهرا بالسيف فسفكوا دماء اهلها وسبوا نساءهم واخذوا اموالهم وهرب من قدر على الهرب والتجأ الى البربر والعرب فنودى بالامان فى كافة الناس فرجع كل من فر منها واقام الفرنج ستة اشهر حتى حصنوا سورها وحفروا خندقها ولما عادوا اخذوا رهائن اهلها ومعهم بنو مطروح والملثم ثم اعادوا رهائنهم وولوا عليها رجلا من بنى مطروح واخذوا رهائنه وحده واستقامت امور المدينة والزم اهل صقلية والروم بالسفر اليها فانعمرت سريعا

●(ذكر حصر زنكى حصن جعبر وفنك)●

وفى هذه السنة سار اتابك زنكى الى حصن جعبر وهو مطل على الفرات وكان بيد سالم بن مالك العقيلى سلمه السلطان ملكشاه الى ابيه لما اخذ منه حلب وقد ذكرناه فحصره وسير جيشا الى قلعة فنك وهى تجاور جزيرة ابن عمر بينهما فرسخان فحصرها ايضا وصاحبها حينئذ الامير حسام الدين الكردى البشنوى وكان سبب ذلك انه كان لا يريد ان يكون فى وسط بلاده ما هو ملك غيره حزما واحتياطا فنازل قلعة جعبر وحصرها وقاتله من بها فلما طال عليه ذلك ارسل الى صاحبها مع الامير حسان المنبجى لمودة كانت بينهما فى معنى تسليمها وقال له تضمن عنى الاقطاع الكثير والمال الجزيل فان اجاب الى التسليم والا فقل له والله لاقيمن عليك الى ان املكها عنوة ثم لا ابقى عليك ومن الذى يمنعك منى فصعد اليه حسان واذى اليه الرسالة ووعده وبذل له ما قيل له فامتنع من التسليم فقال له حسان فهو يقول لك من يمنعك منى فقال يمنعنى منه الذى منعك من الامير بلك فعاد حسان واخبر الشهيد بامتناعه ولم يذكر له هذا فقتل اتابك بعد ايام وكانت قصة حسان مع بلك ابن اخى ايلغازى ان حسانا كان صاحب منبج فحصره بلك وضيق عليه فبينما هو كذلك فى بعض الايام يقاتله بها اذ سهم لا يعرف من رماه فقتله وخلص

بما وراء النهر وبلاد خراسان بما يتضاف اليها الى الوقت بعد الوقت من كورجستان وكرمان وجرجان وطبرستان والرى الى حدود اصفهان مائة سنة وستين وستة اشهر وعشرة ايام فاولهم (ابو ابراهيم اسمعيل) بن احمد وهو الذى قبض على عمرو بن الليث بناحية بلخ يوم الثلاثاء للنصف من شهر ربيع الآخر سنة سبع وثمانين ومائتين وولى خراسان ثمان سنين ومضى لسبيله ببخارى ليلة الثلاثاء لاربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة خمس وتسعين ومائتين مشهورا بالعدل والرأفة موسوما بطاعة الخلافة وقام بعده (ابو نصر احمد) ابن اسمعيل ملك ست سنين وثلاثة اشهر وقتله نفر من غلمانه بفربر ليلة الخميس لسبع بقين من جمادى الآخرة وكان مقتديا بابيه فى ايثار النصفة واختيار الاحدوثة الحسنة والاقتداء بالائمة والاباء فى اختيار افضل السنن واتباع احمد السنن الى ان طوت الدنيا صحائف ايامهم كما دتم فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا وتسمى الشهيد (ابو الحسن نصر بن احمد)

حصان من الحصر وقد تقدم ذكره وكان هذا القول من الاتفاق الحسن والمقتل اتابك زنكي رحل العسكر الذين كانوا يحاصرون قلعة فنك عنها وهي بيد عقاب صاحبها الى الآن وسمعتهم يذكرون انهم لهم بها نحو ثلثمائة سنة ولهم مقصد حسن وفيهم وفاء وعصبية يأخذون بيد كل من يلتجئ اليهم ويقصدهم ولا يسلمونه الى طالبه كائنا من كان قريبا ام غريبا

(ذكر قتل اتابك عماد الدين زنكي وشيء من سيرته)

في هذه السنة لخمس مضين من ربيع الآخر قتل اتابك الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل والشام وهو يحاصر قلعة جعبر على ماذكرناه قتله جماعة من مماليكه ليلا غيلة وهربوا الى قلعة جعبر فصاحوا على من بها من اهلها من العسكر يعلمونهم بقتله واظهروا الفرح فدخل اصحابه اليه فادركوه وبه رمق (حدثني والدي) عن بعض خواصه قال دخلت اليه في الحال وهو حي فحين رآني ظن اني اريد قتله فاشار الى باصبعه السبابة يستعطفني فوقعت من هيبته فقلت يامولاي من فعل هذا فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه رحمه الله قال وكان حسن الصورة اسمر اللون مليح العينين قد وخطه الشيب وكان قد زاد عمره على ستين سنة لانه كان لما قتل والده صغيرا كما ذكرناه قبل ولما قتل دفن بالرقة وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته عظيم السياسة لا يقدر القوي على ظلم الضعيف وكانت البلاد قبل ان يملكها خرابا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلأت اهلا وسكانا (حكى لي والدي) قال رأيت الموصل واكثرها خراب بحيث يقف الانسان قريب محلة الطبالين ويرى الجامع العتيق والعرصة ودار السلطان ليس بين ذلك عمارة قط وكان الانسان لا يقدر على المشي الى الجامع العتيق الا ومعه من يحميه لبعده عن العمارة وهو الآن في وسط العمارة وليس في هذه البقاع المذكورة كلها ارض براح قال وحدثني أيضا انه وصل الى الجزيرة في الشتاء فدخل الامير عز الدين الدبيسي وهو من أكابر أمرائه ومن جملة اقطاعه مدينة دقوقا ونزل في دار انسان يهودي فاستغاث اليهودي الى اتابك وانهى حاله اليه فنظر الى الدبيسي فتأخر ودخل البلد واخرج بركه وخيامه قال فلقد رأيت غلمانه ينصبون خيامه في الوحل وقد جعلوا على الارض تبنا يقيهم الطين وخرج فنزلها وكانت سياسته الى هذا الحد وكانت الموصل من اقل بلاد الله فاكهة فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك وكان أيضا شديد الغيرة ولا سيما على نساء الاجناد وكان يقول ان لم تحفظ نساء الاجناد والا فسدن لكثرة غيبة ازواجهن في الاسفار وكان اشجع خلق الله أما قبل ان يملك فيكفيه انه حضر مع الامير مودود صاحب الموصل مدينة طبرية وهي للفرنج فوصلت طعنته باب البلد واثرت فيه وحمل أيضا على قلعة عقر الحميدية وهي على جبل عال فوصلت طعنته الى سورها الى اشياء اخر واما بعد الملك فقد كان الاعداء محدقين ببلاده وكلهم يقصدها ويريدون اخذها وهو لا يقنع بحفظها حتى انه لا ينقضي عليه عام حتى يفتح من بلادهم فقد كان الخليفة المسترشد بالله مجاوره في ناحية تكريت وقصد الموصل وحصرها ثم الى جانبه من ناحية شهرزور وتلك الناحية السلطان مسعود ثم ابن سقمان صاحب خلاط ثم داود بن سقمان صاحب حصن كيفا ثم صاحب آمد وماردين ثم الفرنج من مجاورة ماردين الى دمشق ثم اصحاب دمشق فهذه الولايات قد اختلطت بولايته

فملك ثلاثين سنة وثلاثة وثلاثين يوما وفسيح النجاد * قوي العماد * وري الزناد * زكي المراد * وتوفي ليلة الخميس لثلاث بقين من رجب سنة احدى وثلاثين وثلثمائة وتلاه في ارث الملك ابنه (نوح بن نصر) وهو الحميدي فملك اثنتي عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة أيام وتوفي ببخارا يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة وانتصب بمنصبه (عبد الملك بن نوح) فملك سبع سنين وستة أشهر واحد عشر يوما وعثرت به دابته فسقط الى الارض سقطة حمل منها ميتا وذلك عشية يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلثمائة وخلفه في الولاية أخوه (منصور ابن نوح) خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وتوفي ببخارا يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس وستين وثلثمائة وولي امره من بعده (نوح بن منصور) احدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وتوفي يوم الجمعة ببخارا لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة سبع وثمانين وثلثمائة وملك بعده ولده (أبو الحرث منصور)

من كل جهاتها ويقصد هذا مرة وهذا مرة ويأخذ من هذا ويصانع هذا الى ان ملك من كل من يليه طرفا من بلاده وقد اتينا على اخباره فى كتاب الباهر فى تاريخ دولته ودولة اولاده فليطلب من هناك

(ذكر ملك ولديه سيف الدين غازى ونور الدين محمود)

لما قتل اتابك زنكى اخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده وكان حاضرا معه وسار الى حلب فملكها وكان حينئذ يتولى ديوان زنكى ويحكم فى دولته من اصحاب العمائم جمال الدين محمد بن على وهو المنفرد بالحكم ومعه امير حاجب صلاح الدين محمد الباغيسيانى فاتفقا على حفظ الدولة وكان مع الشهيد اتابك الملك الب ارسلان ابن السلطان محمود فركب ذلك اليوم واجتمعت العساكر عليه وحضر عنده جمال الدين وصلاح الدين وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات والجوارى وادخلاه الرقة فبقى بها اياما لا يظهر ثم سار الى ماكسين فدخلها واقام بها اياما وجمال الدين يحلف الامراء لسيف الدين غازى بن اتابك زنكى ويسيرهم الى الموصل ثم سار من ماكسين الى سنجار وكان سيف الدين قد وصل الى الموصل فلما وصلوا الى سنجار ارسل جمال الدين الى الدزدار يقول له ليرسل الى ولد السلطان يقول له انى مملوكك ولكن تبغى الموصل فان ملكتها سلمت اليك سنجار فسار الى الموصل واخذه جمال الدين وقصد به مدينة بلد وقد بقى معه من العسكر القليل فأشار عليه بعبور دجلة فعبرها الى الشرق فى نفر يسير وكان سيف الدين غازى بمدينة شهرزور وهى اقطاعه فارسل اليه زين الدين على نائب ابيه بالموصل يستدعيه الى الموصل فحضر قبل وصول الملك فلما علم جمال الدين بوصول سيف الدين الى الموصل أرسل اليه يعرفه قلة من معه فارسل اليه بعض عسكره فقبضه وحبس فى قلعة الموصل واستقر ملك سيف الدين البلاد وبقى أخوه نور الدين بحلب وهى له وسار اليه صلاح الدين الباغيسيانى مدبر أمره والقائم بدولته وحفظها وقد استقصينا شرح هذه الحادثة فى التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية

(ذكر عصيان الرها لما قتل اتابك)

كان جوسلين الفرنجى الذى كان صاحب الرها فى ولايته وهى تل باشر وما يجاورها قد راسل أهل الرها وعامتهم من الارمن وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين وتسليم البلد اليه فاجابوه الى ذلك وواعدهم يوما يصل اليهم فيه وسار فى عساكره الى الرها وملك البلد وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين فقاتلهم فبلغ الخبر الى نور الدين محمود بن زنكى وهو بحلب فسار مجدا اليها فى عسكره فلما قاربها خرج جوسلين هاربا عائدا الى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها حينئذ وسبى أهلها وفى هذه الدفعة نهبت وخلت من اهلها ولم يبق بها منهم الا القليل وكثير من الناس يظن انها نهبت لما فتحها الشهيد وليس كذلك ووصل الخبر الى سيف الدين غازى بعصيان الرها فسير العساكر اليها فسبقه الملك نور الدين الى البلد واستباحه ورجعوا فى الطريق فعادوا ومن اعجب ما يحكى ان زين الدين على الذى كان نائب الشهيد واولاده بقلعة الموصل جاءه هدية ارسلها اليه نور الدين من هذا الفتح وفى الجملة جارية فلما دخل اليها وخرج من عندها وقد اغتسل وقال لمن عنده تعلمون ما جرى لى فى يومنا هذا قالوا لا قال لما فتحنا الرها مع

ابن نوح سنة وتسعة اشهر فاعتقله بكتوزون بسرخس يوم الاربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة تسع وثمانين وثلثمائة وبويع أخوه (عبد الملك ابن نوح) فما استقرت قدمه فى الولاية حتى خرجت على يد السلطان يمين الدولة وأمين الملة دعامته وشالت نعامته فطار الى بخارا وقبض ايلك الخان ملكه وانتزع ولايتها من يديه فكانت مدة أمره ثمانية أشهر وسبعة عشر يوما ثم أخوه (المنتصر ابو ابراهيم) اسمعيل بن نوح وذلك حدثان ولى السلطان كور خراسان وأقبل بعد ذلك يزداد فى أسباب العلا جدا وجدا ويتضاعف فى رقاب الاعداء حدا فما يشترك شهر الا عن ثغر مفتوح وصنع ممنوح وذكر على هامات الاعواد مرفوع وباب الى قضاء المنى والآمال مشروع وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

(ذكر الاحوال التى جرت للامير ناصر الدين سبكتكين وخلف بن أحمد والى سجستان من خلاف مرة ووفاق أخرى وما جرى بعد ذلك من الطوائل والترات التى ثنت عنان

الشهيد وقع في يدي من السبي جارية رائعة أعجبني حسنها ومال قلبي اليها فلم يكن بأسرع من
ان أمر الشهيد فنودي برد السبي والمال المنهوب وكان مهيبا مخوفا فرددتها وقلبي متعلق بها
فلما كان الآن جاءتني هدية نور الدين وفيها عدة جوار فيها تلك الجارية فوطئتها خوفا ان تقع مثل
تلك الردة

(ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الاندلس)

في هذه السنة سير عبد المؤمن بن علي جيشا الى جزيرة الاندلس فملكوا ما فيها من بلاد الاسلام
وسبب ذلك ان عبد المؤمن لما كان يحاصر مراكش جاء اليه جماعة من اعيان الاندلس منهم
ابو جعفر احمد بن محمد بن حمدين ومعهم مكتوب يتضمن بيعة اهل البلاد التي هم فيها لعبد
المؤمن ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين واقامتهم لامره فقبل عبد المؤمن ذلك منهم
وشكرهم عليه وطيب قلوبهم وطلب منهم النصرة وطلبوا منه النصرة على الفرنج فجهز جيشا
كثيفا وسيره معهم وعمر اسطولا وسيره في البحر فسار الاسطول الى الاندلس وقصدوا مدينة
اشبيلية وصعدوا في نهرها وبها جيش من الملثمين فحصروها برا وبحرا وملكوها عنوة وقتل فيها
جماعة وامن الناس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد وكان لعبد المؤمن منها

(ذكر قتل عبد الرحمن طغايرك وعباس صاحب الري)

في هذه السنة قتل السلطان مسعود أمير حاجب دولته عبد الرحمن طغايرك وهو صاحب خلخال
وبعض اذربيجان والحاكم في دولة السلطان وليس للسلطان معه حكم وكان سبب قتله ان
السلطان المضيق عليه عبد الرحمن وبقي معه شبه الاسير ليس له في البلاد حكم حتى ان عبد الرحمن
قصد بلا ما كان للسلطان وهو بك ارسلان المعروف بابن خاص بك بن بلنكري وقد رباه السلطان
وقربه فابعده عنه وصار لا يراه وكان في خاص بك عقل وتدبير وجودة قريحة وتوصل الى ازالته
بعقله فجمع عبد الرحمن العساكر وخاص بك فيهم وقد استقر بينه وبين السلطان مسعود
ان يقتل عبد الرحمن فاستدعى خاص بك جماعة ممن يثق بهم وتحدث معهم في ذلك فكل منهم
خاف الاقدام عليه الا رجلا اسمه زنكي وكان جاندارا فانه بذل من نفسه ان يبدأه بالقتل
ووافق خاص بك على القيام في الامر جماعة من الامراء فبينما عبد الرحمن في موكبه ضربه
زنكي الجاندار بمقرعة حديد كانت في يده على رأسه فسقط الى الارض فاجهز عليه خاص بك
واعانه على حماية زنكي والقاتلين معه من كان واطأه على ذلك من الامراء وكان قتله بظاهر
جنزة وبلغ الخبر الى السلطان مسعود وهو ببغداد ومعه الامير عباس صاحب الري وعسكره
اكثر من عسكر السلطان فانكر ذلك وامتعض منه فداراه السلطان ولطف به واستدعى
الامير البقش كون خر وتتر وهو أمير العلف وتتر الذي كان حاجبا فلما قوي بهما أحضر عباسا
اليه في داره فلما دخل اليه منع اصحابه من الدخول معه وعدلوا به الى حجرة وقالوا له اخلع
الزردية فقال ان لي مع السلطان أيمانا وعهودا فلكموه وخرج له غلمان أعدوا لذلك فحينئذ
تشهد وخلع الزردية والقاها وضربوه بالسيوف واحتزوا رأسه والقوه الى اصحابه ثم القوا
جسده ونهب رحله وانزعج البلد لذلك وكان عباس من غلمان السلطان محمود وحسن السيرة
عادلا في رعيته كثير الجهاد للباطنية قتل منهم خلقا كثيرا وبنى من رؤوسهم منارة بالري وحصر

السلطان يمين الدولة وأمين
الملة اليه * وعطفت به الى
انتزاع الملك من يديه * وما
جرى خلال ذلك من وقائعه
في الهند الى أن استتب له
ما أراد في أمره * بعون الله
ونصره) *
قد سبق في أول هذا الكتاب
ذكر الأمير خلف بن أحمد
فيما رآه السديد منصور
ابن نوح من رده الى بيته
واظهاره على خصمه الى
أن تهاوت رجوم الفتن
بخراسان ففرغه اشتغال
ولاتها بما دهاهم منها
للاستجمام * والاتداع *
والاستظهار بما تخرجه
أرض سجستان من صنوف
الارتفاع * حتى اتسع نطاق
همته لطلب الفضول
والزيادات * على ما في يده
ومنازعة القروم والسادات
ولما تصدى الامير ناصر
الدين سبكتكين لمواقعة
ملك الهند حين تورد حدود
الاسلام على ما نطق
بشرحه صدر هذا الكتاب
غنمتها خلف بن أحمد انقباض
بسطه عن الحفظة * وخلوها
عن الشحنة * فأسرى اليها
من اقتناص بيضتها * واقتض
عذرتها * وصرف كلمة الدعوة
عنها وغمس يده في أموالها
فجباها * وجمعها فأوعاها *
فلما أفلج الله ناصر الدين * على
الكافر اللعين * عطف العنان

قلعة الموت ودخل الى قرية من قراهم فالقى فيها النار فاحرق كل من فيها من رجل وامرأة وصبي وغير ذلك وقتل بالجانب الغربي فارسلت ابنته فحملته الى الري فدفنته هناك وكان مقتله في ذي القعدة ومن الاتفاق العجيب ان العبادي كان يعظ يوما فحضره عباس فاسمع بعض اهل المجلس ورمى بنفسه نحو الامير عباس فضربه اصحابه ومنعوه وخوفا عليه لانه كان شديد الاحتراس من الباطنية لايزال لابسا الزردية لاتفارقه الغلمان الاجلاد فقال له العبادي كم هذا الاحتراز والله لئن قضى عليك بامر لتحلن انت بيدك ازرار الزردية فينفذ القضاء فيك وكان والله كما قال وقد كان السلطان استوزر ابن دارست وزير بوزابة كارها على ما تقدم ذكره فعزله الآن لانه اختار العزل والعود الى صاحبه بوزابة فلما عزله قرر معه ان يصلح بوزابة ويزيل ما عنده من الاستشعار بسبب قتل عبد الرحمن وعباس فسار الوزير وهو لايعتقد النجاة فوصل الى بوزابة وكان ما نذكره

•(ذكر عدة حوادث)•

في هذه السنة حبس السلطان مسعود اخاه سليمان شاه بقلعة تكريت وفيها توفي الامير جاولي الطغرلي صاحب ارانية وبعض اذربيجان وكان قد تعرض للعصيان وكان موته فجاءة مدلوبا فنزف دماغات وتوفي شيخ الشيوخ صدر الدين اسمعيل بن ابي سعيد الصوفي مات ببغداد ودفن بظاهر رباط الزوزني بباب البصرة ومولده سنة اربع وستين واربعمائة وقام في منصبه ولده عبد الرحيم وفيها توفي مسعود بن بلال شحنة بغداد وسار السلطان عنها وفيها كان بالعراق جراد كثير اهلك اكثر البلاد وفيها ورد العبادي الواعظ رسولا من السلطان سنجر الى الخليفة ووعظ ببغداد وكان له قبول تام وحضر مجلسه السلطان مسعود فمن دونه واما العامة فانهم كانوا يتركون أشغالهم لحضورهم مجلسه والمسابقة اليه وفيها بعد قتل الشهيد زنكي بن آقسنقر قصد صاحب دمشق حصن بعلبك وحصره وكان به نجم الدين ايوب بن شاذي فخاف ان اولاد زنكي لايمكنهم انجاده بالعاجل فصالحه وسلم القلعة اليه واخذ منه اقطاعا ومالا وملكه عشر قرى من بلاد دمشق وانتقل ايوب الى دمشق فسكنها واقام بها وفي هذه السنة في ربيع الآخر توفي عبد الله بن علي بن احمد المقري ابن بنت الشيخ ابي منصور ومولده في شعبان سنة اربع وستين وأربعمائة وكان مقريا نحويا محدثا وله تصانيف في القراآت

•(ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة)•

•(ذكر قتل بوزابة)•

لما اتصل بالامير بوزابة قتل عباس جمع عساكره من فارس وخوزستان وسار الى اصفهان فحصرها وسير عسكرا آخر الى همذان وعسكرا ثالثا الى قلعة الماهكي من بلاد اللحف فاما عسكره بالماهكي فانه سار اليهم الامير البقش كون خر فدفعهم عن اعماله وكانت اقطاعه ثم ان بوزابة سار عن اصفهان يطلب السلطان مسعودا فراسله السلطان في الصلح فلم يجب اليه وسار مجدا فالتقيا بمرج قراتكين وتصافا فاقتتل العسكران فانهزم منه السلطان مسعود وميسرته واقتتل القلبان اشد قتال واعظمه صبر فيه الفريقان وصار الحرب بينهما فسقط بوزابة عن فرسه بسهم أصابه وقيل بل عثر به الفرس فاخذ أسيرا وحمل الى السلطان فقتل

الى بيت تحصنا من غدره محتفظا من مواجبات فاتفاه اصحاب خلف بن احمد بظهور العار واعقاب الادبار والصغار وهم ناصر الدين سبكتكين لمناهضته واستخاره الله تعالى في منابذته فأرسل اليه خلف من يتأول عليه في ذلك البعث محافظته على حكم الموالاة لحفظ ولايته ويتضمن تصحيح ما صار في جبايته ويتبرع بزيادة تقوم مقام الارش عن جنايته تفاديا من ثقل وطأته على أعماله وتصونا عن عورة الافتضاح في قتاله فتغاضى ناصر الدين عن شر غدره كما لبد الاقتدار ورآ كتمانه بذل الاعتذار فكان مثله في ذلك كما قال أبو تمام

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

ثم طالبه بتصحيح المال حتى اداه وارتهن بعض رضاه فكانت الحال بينهما من بعد قائمة على جملة المسالمة الى أن حدث من أمر ابي على بن سيمجور في المراوغة التي اتفقت له بباب نيسابور ما سبق شرحه فأظهر تقربا الى ناصر الدين بمساعدته على خصمه ومرافدته بنفسه وسائر أهل جملته إحتيالا عليه بظاهر القاهرة

بين يديه وانهزم أصحابه لما أخذ هو اسيرا وبلغت هزيمة العسكر السلطاني من الميمنة والميسرة الى همذان وخراسان وقتل من الفريقين خلق كثير وكان هذا الحرب من اعظم الحروب الكائنة بين الاعاجم

(ذكر طاعة اهل قابس للفرنج وغلبة المسلمين عليها)

كان صاحب مدينة قابس قبل هذه السنة انسان اسمه رشيد فتوفي وخلف اولادا فعمد مولى له اسمه يوسف الى ولده الصغير واسمه محمد فولاه الامر واخرج ولده الكبير معمرا واستولى يوسف على البلد وحكم على محمد لصغر سنه وجرى منه اشياء من التعرض الى حرم سيده والعهدة على ناقله وكان من جملتهن امرأة من بني قرة فارسلت الى اخوتها تشكو اليهم ماهي فيه فجاء اخوتها لاخذها فمنعهم منها وقال هذه حرمة مولاي ولم يسلمها فسار بنو قرة ومعمر بن رشيد الى الحسن صاحب افريقية وشكوا اليه ما يفعل يوسف فكاتبه الحسن في ذلك فلم يجبه وقال لئن لم يكف الحسن عني والا سلمت قابس الى صاحب صقلية فجهز الحسن العسكر اليه فلما سمع يوسف بذلك ارسل الى رجار الفرنجي صاحب صقلية وبذل له الطاعة وقال له اريد منك خلعة وعهدا بولاية قابس لاكون نائبا عنك كما فعلت مع بني مطروح اصحاب طرابلس فسير اليه رجار الخلعة والعهد فلبسها وقرئ العهد بجمع الناس فجد حينئذ الحسن في تجهيز العسكر الى قابس فساروا اليها ونازلوها وحصروها فثار أهل البلد بيوسف لما اعتمده من طاعة الفرنج وسلموا البلد الى عسكر الحسن وتحصن يوسف في القصر فقاتلوه حتى فتحوه وأخذ يوسف اسيرا فتولى عذابه معمر بن رشيد وبنو قرة فقطعوا ذكره وجعلوه في فيه وعذب بانواع العذاب وولي معمر قابس مكان أخيه واخذ بنو قرة اختهم وهرب عيسى اخو يوسف وولد يوسف وقصدوا رجار صاحب صقلية فاستجاروا به وشكوا اليه مالقوا من الحسن فغضب لذلك وكان ما نذكره سنة ثلاث واربعين وخمسمائة من فتح المهدية ان شاء الله تعالى وهذا الذي كان من يوسف والله أعلم

(ذكر حادثة ينبغي ان يحتاط العاقل من مثلها)

كان هذا يوسف صاحب قابس قد ارسل رسولا الى رجار صاحب صقلية فاجتمع هو والحسين رسول صاحب المهدية عنده فجرى بين الرسولين مناظرة فذكر رسول يوسف الحسن ومانال منه وذمه ثم انهما عادا في وقت واحد وركبا البحر كل واحد منهما في مركبه فارسل رسول الحسن رقعة على جناح طائر يخبره بما كان من رسول يوسف فسير الحسن جماعة من اصحابه في البحر فاخذوا رسول يوسف واحضروه عند الحسن فسبه وقال ملكت الفرنج بلاد الاسلام وطولت لسانك بذمي ثم أركبه جملا وعلى رأسه جلاجل وطيف به في البلد ونودي عليه هذا جزاء من سعى ان يملك الفرنج بلاد المسلمين فلما توسط المهدية ثار به العامة فقتلوه بالحجارة

(ذكر ملك الفرنج المرية وغيرها من الاندلس)

في هذه السنة في جمادى الاولى حصر الفرنج مدينة المرية من الاندلس وضيقوا عليها برا وبحرا فملكوها عنوة واكثروا القتل بها والنهب وملكوا أيضا مدينة شاشة وولاية جيان وكانها

وانمار التشفي من ابي علي بعونته الحاضره* وقوته الباهره* اذ كان قد وتره بقصد حصاره* وغزوه في عقر داره* واقتساره بسيوف أنصاره وصحبه الى بوشنج في جمهور اشياعه واتباعه ثم خلفه بها ناصر الدين سبكتكين صيانة له عن كلفة السفر* وابقاء عليه من خطة الخطر* وسار الى طوس لمواقعة أبي علي وطلب الثار المنيم عنده حتى اذا طرده ونفض عن شغل تلك الحرب يده* رد الى خلف بن احمد اصحابه مثقلين بالنعم الباهره وموشحين بالخلع الفاخره تقدمهم المراكب والجنائب* وتردفهم النجائب والرغائب

فعادوا فأثنوا بالذي كان اهله ولو سكتوا اثنت عليه الحقائب

فصفت لذلك شريعة الحال بينهما عن قذى الموارأه وتجافت عن عرض المداجة والمداجاه* الى ان عبر الامير ناصر الدين سبكتكين النهر الى ماوراءه لمدافعة ايلك الخان عن ولاية الرضى برفق المناصحه* او خرق المكافحه* ثم اقتضته صورة الحال مسامحته ببعض تلك البلاد على ان يسلم له سائرها ويأمن من عنت العيث باديها وحاضرها* وتراءت

بالاندلس ثم استعادها المسلمون بعد ذلك منهم على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي عدة مواضع من بلد الفرنج)

في هذه السنة دخل نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب بلد الفرنج ففتح منه مدينة ارتاح بالسيف ونهبها وحصر مابولة وبصرفوت وكفر لاثا وكان الفرنج بعد قتل والده زنكي قد طمعوا وظنوا انهم بعده يستردون ما اخذه فلما رأوا من نور الدين هذا الجد في اول امره علموا ان ما املوه بعيد وخاب ظنهم واملهم

(ذكر اخذ الحلة من علي بن دبيس وعوده اليها)

في هذه السنة كثر فساد اصحاب علي بن دبيس بالحلة وما جاورها وكثرت الشكاوى منه فاقطع السلطان مسعود الحلة سلاركرد فسار اليها من همذان ومعه عسكر وانضاف اليه جماعة من عسكر بغداد وقصدوا الحلة فجمع علي عسكره وحشد والتقى العسكران بطيرياذ فانهزم علي وملك سلاركرد الحلة واستاط على اهل علي ورجعت العساكر واقام هو بالحلة في مماليكه واصحابه وسار علي بن دبيس فلحق بالبقش كون خر وكان باقطاعه في لحف متجنيا على السلطان فاستنجده فسار معه الى واسط واتفق هو والطرنطاي وقصدوا الحلة فاستنقذوها من سلاركرد في ذي الحجة وفارقها سلاركرد وعاد الى بغداد

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الاولى خطب للمستنجد بالله يوسف ابن المقتفي لامر الله بولاية العهد وفيها ولي عون الدين يحيى بن هبيرة كتابة ديوان الزمام ببغداد وولي زعيم الدين يحيى بن جعفر المخزن وفيها في ربيع الاول مات ابو القاسم طاهر بن سعيد بن ابي سعيد بن ابي الخير الميهني شيخ رباط البسطامي ببغداد وفي ربيع الآخر توفيت فاطمة خاتون بنت السلطان محمد زوجة المقتفي لامر الله وفي رجب منها مات ابو الحسن محمد بن المظفر بن علي ابن المسلمة ابن رئيس الرؤساء ومولده سنة اربع وثمانين وكان قد تصوف وجعل داره التي في القصر رباطا للصوفية وفيها سار سيف الدين غازي بن زنكي الى قلعة دارا فملكها وغيرها من بلد ماردين ثم سار الى ماردين وحصرها وخرب بلدها ونهبه وكان سبب ذلك ان اتابك زنكي لما قتل تطاول صاحب ماردين وصاحب الحصن الى ما كان قد قصه من بلادهما فاخذاه فلما ملك سيف الدين وتمكن سار الى ماردين وحصرها وفعل ببلدها الافاعيل العظيمة فلما رأى صاحبها وهو حينئذ حسام الدين تمرتاش ما يفعل في بلده قال كنا نشكو من اتابك الشهيد واين ايامه لقد كانت اعيادا قد حصرنا غير مرة فلم يأخذ ولا احد من عسكره حبة تبن بغير ثمن ولا يتعدى هو وعسكره حاصل السلطان وارى هذا ينهب البلاد ويخربها ثم راسله وصالحه وزوجه ابنته ورحل سيف الدين عنه وعاد الى الموصل وجهزت ابنة حسام الدين وسيرت اليه فوصلت وهو مريض قد اشفى على الموت فلم يدخل بها وبقيت عنده الى ان توفي وملك قطب الدين مودود فتزوجها على ما نذكره ان شاء الله تعالى وفيها اشتد الغلاء بافريقية ودامت ايامه فان اوله كان سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وعظم الامر على اهل البلاد حتى اكل بعضهم بعضا وقصد اهل البوادي المدن من الجوع فاغلقها اهلها دونهم وتبعه وباء وموت كثير حتى خلت البلاد وكان اهل

ابن اسعد ايلك الخان من هنا
من غربه * ويغريا ايابجرية
طمعا في بست ونواحيها
وغزنة وما يليها * وانضافت
اليه بلاغات وقوارص برقت
له من جانبه في امر ابي علي
واظهار الندامة على ما سبق
من عونه عليه والانصباح
على رؤس الاشهاد ورضا
بان اجتياح الملوك شؤم
واستباحة البيوتات لؤم
وضعف في الرأي معلوم
فطار الغضب بناصر الدين
كل مطار * وحدته نخوة
الاقتدار بالبدار الى ارض
سجستان لاطفاء الغليل
وشفاء الداء الدخيل * فشاء
كاتبه ابو الفتح علي بن محمد
البستي عما نواه بالقول
الرفيق * والرأي المؤيد
بالتوفيق * ورش ماء التلطف
على ذلك الحريق * واراه ان
بعض البلاغات زور * وان
القايل لها كالقائل ماخوذ
بما زور * وان قلوب
الرجال وحوش نافرة
وطيور في جو الهواء سابحة
فاين تمكن منها الا بالاعمال
الجميل في نصب الحبائل وتمكين
الجوارح ورمي البنادق
وبث الحبوب والمطاعم ثم
لا شيء ايسر من افلاتها عن
حبالة القانص وارسالها
من شرك الصائد كذلك
القلوب لا تصاد الا بشرك
الصنائع والعواطف * ولا

البيت لا يبقى منهم احد وسار كثير منهم الى صقلية فى طلب القوت واقوا امرا اعظيما

(ثم دخلت سنة ثلاث واربعين وخمسمائة)

(ذكر ملك الفرنج مدينة المهدية بافريقية)

قد ذكرنا سنة احدى واربعين وخمسمائة مسير اهل يوسف صاحب قابس الى رجار ملك صقلية واستغاثتهم به فغضب لذلك وكان بينه وبين الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى صاحب افريقية صلح وعهود الى مدة سنتين وعلم انه قد فاته فتح البلاد فى هذه الشدة التى اصابتهم وكانت الشدة دوام الغلاء فى جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين الى هذه السنة وكان اشد ذلك منه سنة اثنتين واربعين فان الناس فارقوا البلاد والقرى ودخل اكثرهم الى مدينة صقلية واكل الناس بعضهم بعضا وكثر الموت فى الناس فاغتنم رجار هذه السنة فعمر الاسطول واكثر منه فبلغ نحو مائتين وخمسين شينيا مملوأة رجالا وسلاحا وقوتا وسار الاسطول عن صقلية ووصل الى جزيرة قوصرة وهى ما بين المهدية وصقلية فصادفوا بها مركبا وصل من المهدية فأخذ اهله واحضروا بين يدى جرجى مقدم الاسطول فسألهم عن حال افريقية ووجد فى المركب قفص حمام فسألهم هل ارسلوا منها شيئا فحلفوا بالله انهم لم يرسلوا شيأ فامر الرجل الذى كان الحمام صحبته ان يكتب بخطه انا لما وصلنا جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية فسألناهم عن الاسطول المخذول فذكروا انه اقلع الى جزائر القسطنطينية واطلق الحمام فوصل الى المهدية فسر الامير الحسن والناس واراد جرجى بذلك ان يصل بغتة ثم سار وقدر وصولهم الى المهدية وقت السحر ليحيط بها قبل ان يخرج اهلها فلو تم له ذلك لم يسلم منهم احد فقدر الله تعالى ان ارسل عليهم ريحا فلا فلم يقدروا على السير الا بالمقاذيف فطلع النهار ثانى صفر فى هذه السنة قبل وصولهم فرآهم الناس فلما رأى جرجى ذلك وان الخديعة فاتته ارسل الى الامير الحسن يقول انما جئت بهذا الاسطول طالبا بثار محمد بن رشيد صاحب قابس ورده اليها واما انت فبيننا وبينك عهود وميثاق الى مدة ونريد منك عسكرا يكون معنا فجمع الحسن الناس من الفقهاء والاعيان وشاورهم فقالوا انقاتل عدونا فان بلدنا حصين فقال اخاف ان ينزل الى البر ويحصرنا برا وبحرا ويحول بيننا وبين الميرة وليس عندنا ما يقوتنا شهرا فنؤخذ قهرا وانا ارى سلامة المسلمين من الاسر والقتل خيرا من الملك وقد طلب منى عسكرا الى قابس فان فعلت فما يحل لى معونة الكفار على المسلمين وان امتنعت يقول انتقض ما بيننا من الصلح وليس يريد الا ان يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البر وليس لنا بقتاله طاقة والرأى ان نخرج بالاهل والولد ونترك البلد فمن اراد ان يفعل كفعلنا فليبادر معنا وامر فى الحال بالرحيل واخذ معه من حضره وما خف حمله وخرج الناس على وجوههم باهليهم واولادهم وما خف من اموالهم واثاثهم ومن الناس من اختفى عند النصارى وفى الكنائس وبقى الاسطول فى البحر تمنعه الريح من الوصول الى المهدية الى ثلثى النهار فلم يبق فى البلد ممن عزم على الخروج احد فوصل الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع ودخل جرجى القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه الا ما خف من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه ورأى الخزائن مملوأة من الذخائر النفيسة وكل شئ غريب يقل وجود

تقتاد الابازمة الايادى والعوارف * ولا تستقاد الا بابتذال الرغائب من التوالد والطوارف * ثم الكلمة الجافية تهيج وادعها وتطير راقعها * وتكدر عليها مشارعها * وتلا عليه قوله تعالى يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ثم فسرها حتى نزل عن ظهر مركب التعجيل * الى ارض التمهيل * وانشدنى ابو الفتح البستى رحمه الله فى شرح ما دار بينه وبين ناصر الدين سبكتكين لنفسه

اذا شئت ان تصطاد صحب اخى اب
وتملك منه حوزة القلب والحلب
فأشركه فى الخير الذى قد رزقته
وادخله بالاحسان فى شرك الحب
ألم تر طير الجو تهوى مسفة
لحب كقطر من ذرى الجو منصب
كذلك لا يصطاد ذو الرأى والحجى
محبات حبات القلوب بلا حب

وكتب خلف بن احمد بعد ذلك متنصلا مما عزى اليه ومتبرئا مما اتهم منه فعفا ناصر الدين عما حاك فى صدره من امره * واغمض له عما امتاحه من قليب قلبه وغدير غدره

مثله نعم عليه وجمع صاحب الحسن من قصره وكان عدة من ملك منهم من زيري بن مناد الى
الحسن تسعة ملوك ومدة ولايتهم مائة سنة وثمانين سنة من احدى وستين وثلاثمائة الى سنة
ثلاث واربعين وخمسمائة وكان بعض القواد قد ارسله الحسن الى رجار برسالة فاخذ لنفسه
واهله منه امانا فلم يخرج معهم وملك الملك المدينة بمقدار ساعتين ونودي بالامان فخرج
من كان مستخفيا واصبح رجار من الغد فارسل الى من قرب من العرب فدخلوا اليه فاحسن
اليهم واعطاهم اموالا جزيلة وارسل من جند المهدية الذين تخلفوا بها جماعة ومعهم امان
لاهل المهدية الذين خرجوا منها ودواب يحملون عليها الاطفال والنساء وكانوا قد اشرفوا على
الهلاك من الجوع ولهم بالمهدية خبايا وودائع فلما وصل اليهم الامان رجعوا فلم يمض
جمعة حتى رجع اكثر اهل البلد واما الحسن فانه سار باهله واولاده وكانوا اثني عشر ولدا
ذكرا غير الاناث وخواص خدمه قاصدا الى محرز بن زياد وهو بالمعلقة فلقيه في طريقه امير
من العرب يسمى حسن بن ثعلب فطلب منه مالا انكسر له في ديوانه فلم يمكن الحسن اخراج
مال لئلا يؤخذ فسلم اليه ولده يحيى رهينة وسار فوصل في اليوم الثاني الى محرز وكان الحسن
قد فضله على جميع العرب واحسن اليه ووصله بكثير من المال فلقيه محرز لقاء جميلا وتوجع
لما حل به فاقام عنده شهورا والحسن كاره للاقامة فاراد المسير الى ديار مصر الى الخليفة
الحافظ العلوي واشترى مركبا للسفر فسمع رجار الفرنجي فجهز شواني ليأخذه فعاد الحسن
عن ذلك وعزم على المسير الى عبد المؤمن بالمغرب فارسل كبار اولاده يحيى وتميما وعليا الى يحيى
ابن العزيز وهو من بني حماد وهما اولاد عم يستأذنه في الوصول اليه وتجديد العهد به والمسير
منه الى عبد المؤمن فاذن له يحيى فسار اليه فلما وصل لم يجتمع به يحيى وسيره الى جزيرة بني
مزغنان هو واولاده ووكل به من يمنعهم من التصرف فبقوا كذلك الى ان ملك عبد المؤمن
بجاية سنة سبع واربعين فحضر عنده وقد ذكرنا هناك ولما استقر رجار بالمهدية سير
اسطولا بعد اسبوع الى مدينة سفاقس وسير اسطولا آخر الى مدينة سوسة فاما سوسة فان
اهلها لما سمعوا خبر المهدية وكان واليها علي بن الحسن الامير فخرج الى ابيه وخرج الناس
لخروجه فدخلها الفرنج بلا قتال ثاني عشر صفر واما سفاقس فان اهلها اتاهم كثير من
العرب فامتنعوا بهم فقاتلهم الفرنج فخرج اليهم اهل البلد فاظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم
الناس حتى ابعدوا عن البلد ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم الى البلد وقوم الى البرية وقتل منهم
جماعة ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة وأسر من بقي من الرجال وسبي
الحريم وذلك في الثالث والعشرين من صفر ثم نودي بالامان فعاد أهلها اليها وافتكوا حرمهم
واولادهم ورفق بهم وباهل سوسة والمهدية وبعد ذلك وصلت كتب من رجار لجميع اهل
افريقية بالامان والمواعيد الحسنة ولما استقرت احوال البلاد سار رجار في اسطول الى
قلعة اقليبية وهي قلعة حصينة فلما وصل اليها سمعت العرب فاجتمعوا اليها ونزل اليهم الفرنج
فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم خلق كثير فرجعوا خاسرين الى المهدية وصار للفرنج من
طرابلس الغرب الى قريب تونس ومن المغرب الى دون القيروان والله اعلم

(ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي بن زنكي)

وثبت باقي عمره على مداراته
والاطف به الى ان اتاه
اليقين من ربه فانتقل الى
جوار رحمته وعفوه وبلغ
السلطان يمين الدولة وامين
الملة خبر وفاته
باظهار الشماتة فاستنشد
قول القائل

فقل للذي يبغي خلاف الذي
مضى
تجهز لاخرى مثلها فكأن قد

ثم اسر هافي نفسه مترقبا
لميقات الفرصة في الايقاع
به والاستشفاء منه الى ان
ورث ملك خراسان تقت
الاطراف من غمرات الخلاف
عليه الآفاق من غمرات
الشقاق وقد كان خلف بن
احمد عند قيام السلطان
باستصفاء المملكة قد بعث
ابنه طاهرا الى قهستان
فملكها ثم عن منها الى بوشنج
فاستولى عليها وكانت هراة
وبوشنج برسم بغراجق اخي
ناصر الدين سبكتكين فلما
وضع الله عن السلطان
اوزار تلك الملاحم اتاه
عمه بغراجق يستأذنه في
طرد المتغلب عن ولايته
ونقل ما جنته من حد نكايته
فاذن له فيه وسار حتى اذا
شارف بوشنج تلقاه طاهر
ابن خلف بجزرالاءمن المديد
تحت الحديد وتثار شا الحرب
قد ما الهام ومن خطوط
المفارق وقطا الاجسام ومن

في هذه السنة سار ملك الالمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج عازما على قصد بلاد الاسلام وهو لا يشك في ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه وتوفر امواله وعدده فلما وصل الى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه وامتثلوا امره ونهيه فامرهم بالمسير معه الى دمشق ليحصرها ويملكها بزعمه فساروا معه ونازلوها وحصروها وكان صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغدكين وليس له من الامر شئ وانما الحكم في البلد لمعين الدين انز مملوك جده طغدكين وهو الذي اقام مجير الدين وكان معين الدين عاقلا عادلا خيرا حسن السيرة فجمع العساكر وحفظ البلد واقام الفرنج يحاصرونهم ثم انهم زحفوا سادس ربيع الاول بفارسهم وراجلهم فخرج اليهم اهل البلد والعسكر فقاتلوهم وصبروا لهم وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن ذي باس الفندلاوي المغربي وكان شيخا كبيرا فقيها صالحا فلما رآه معين الدين وهو راجل قصده وسلم عليه وقال له يا شيخ انت معذور لكبر سنك ونحن نقوم بالذب عن المسلمين وسأله أن يعود فلم يفعل وقال له قد بعت واشترى مني فوالله لا أقلته ولا استقلته يعني قول الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل عند النيرب نحو نصف فرسخ عن دمشق وقوي الفرنج وضعف المسلمون فتقدم ملك الالمان حتى نزل بالميدان الاخضر فايقن الناس بانه يملك البلد وكان معين الدين قد ارسل الى سيف الدين غازي ابن اتابك زنكي يدعوه الى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم فجمع عساكره وسار الى الشام واستصحب معه اخاه نور الدين محمود من حلب فنزلوا بمدينة حمص وارسل الى معين الدين يقول له قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح من بلادي فاريد ان يكون نوابي بمدينة دمشق لاحضر والقى الفرنج فان انهزمت دخلت انا وعسكري البلد واحتمينا به وان ظفرنا فالبلد لكم لا انازعكم فيه فارسل الى الفرنج يتهددهم ان لم يرحلوا عن البلد فكف الفرنج عن القتال خوفا من كثرة الجراح وربما اضطروا الى قتال سيف الدين فابقوا على نفوسهم فقوي اهل البلد على حفظه واستراحوا من ملازمة الحرب وارسل معين الدين الى الفرنج الغرباء يقول لهم ان ملك المشرق قد حضر فان رحلتم والا سلمت البلد اليه وحينئذ تندمون وارسل الى فرنج الشام يقول لهم بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا وانتم تعلمون انهم ان ملكوا دمشق أخذوا ما بايديكم من البلاد الساحلية واما أنا فان رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين وانتم تعلمون انه ان ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام فاجابوه الى التخلي عن ملك الالمان وبذل لهم تسليم حصن بانياس اليهم واجتمع الساحلية بملك الالمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الامداد اليه وانه ربما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد وتسلموا قلعة بانياس وعاد الفرنج الالمانية الى بلادهم وهي بوراء القسطنطينية وكفى الله المؤمنين شرهم وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق ان بعض العلماء حكى له انه رأى الفندلاوي في المنام فقال له ما فعل الله بك واين انت فقال غفر لي وانا في جنات عدن على سرر متقابلين

(ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي حصن العزيمة)

تصور المناطق* واستقاء للارواح بارشية الرماح واختلاء للروس* بسيوف كسيوف الروس* ثم حمل بعضهم على بعض فذهبت الميامن بالمياسر والمياسر بالميامن وانفل طاهر من بين يديه منهزما* واتبعه بغراجق يحث منه ظلما وقد كان بغراجق قبل ان شمر للحرب* اصاب كؤسا يستيقظ بها عين الطعن والضرب* فتعاور عليه ناران من كأس وبأس حتى غفل بهما عن وثيقة التحزم وذهل عنهما عن بصيرة الحفظ والتحرز فغرر بنفسه في اتباع خصمه اغترارا بخيال سكره فلم يشعر الا بطاهر بن خلف قد كر عليه بضربة اقعصته في مكانه قتيلا ونزل للوقت اليه* من قطف عنه لاوة اخدعيه واقتسمت الهزيمة كلا الفريقين فلم يعرف الغالب من المغلوب* ولا السالب من المسلوب* خلا ابن خلف فانه قفي آثاره* عن ردهم الى محله* وورد الناعي على السلطان فناله من الغم لفقد العم* ما ينال الوالد لعدم واحده* والولد لافتقاد صنو والده* واستدل بما اتفق لابن خلف على احداق الشقاء به وبابيه* واطباق البلاء عليه وعلى من يليه

لما سار الفرنج عن دمشق رحل نور الدين إلى حصن العريمة وهو للفرنج فملكه وسبب ذلك أن
ملك الألمان لما خرج إلى الشام كان معه ولد الفنش صاحب طليطلة وهو من أولاد أكابر
ملوك الفرنج وكان جده هو الذي أخذ طرابلس الشام من المسلمين فأخذ حصن العريمة وملكه
وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس من القمص فأرسل القمص إلى نور الدين محمود وهو قد اجتمع هو
ومعين الدين أنر ببعلبك يقول له ولمعين الدين ليقصدا حصن العريمة ويملكاه من ولد الفنش
فسارا إليه مجدين في عساكرهما وأرسلا إلى سيف الدين وهو بحمص يستنجدانه فأمدهما
بعسكر كثير مع الأمير عز الدين أبي بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر وغيره فنازلوا الحصن
وحصروه وبه ابن الفنش وامتنع به فزحف المسلمون إليه غير مرة وتقدم إليه النقابون فنقبوا
السور فاستسلم حينئذ من به من الفرنج فملكه المسلمون وأخذوا كل من به من فارس وراجل
وصبي وامرأة وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن وعادوا إلى سيف الدين وكان مثل ابن الفنش
كما قيل خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بغير أذنين

(ذكر الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الأمراء ووصولهم إلى بغداد وما كان منهم بالعراق)

في هذه السنة فارق السلطان مسعودا جماعة من أكابر الأمراء وهم من أذربيجان ايلدكز
المسعودي صاحب كنجة وأرانية وقيصر ومن الجبل البقش كون خر وتتر الحاجب وهو
مسعودي أيضا وطرنطاي المحمودي شحنة واسط والدكز وقرقوب وابن طغايرك وكان سبب
ذلك ميل السلطان إلى خاص بك واطراحه لهم فخافوا أن يفعل بهم مثل فعله بعبد الرحمن
وعباس وبوزابة ففارقوه وساروا نحو العراق فلما بلغوا حلوان خاف الناس ببغداد وأعمال
العراق وغلت الأسعار وتقدم الإمام المقتفي لأمر الله بإصلاح السور وترميمه وأرسل الخليفة
إليهم العبادي الواعظ فلم يرجعوا إلى قوله ووصلوا إلى بغداد في ربيع الآخر والملك محمد بن
السلطان محمود معهم ونزلوا بالجانب الشرقي وفارقها مسعود بلال شحنة بغداد البلد خوفا
من الخليفة وسار إلى تكريت وكانت له فعظم الأمر على أهل بغداد ووصل إليهم علي بن
دبيس صاحب الحلة فنزل بالجانب الغربي فجند الخليفة أجنادا يحتمي بهم ووقع القتال بين
الأمراء وبين عامة بغداد ومن بها من العسكر واقتتلوا عدة دفعات ففي بعض الأيام انهزم
الأمراء الأعاجم من عامة بغداد مكرا وخديعة وتبعهم العامة فلما أبعدوا عادوا عليهم
وصار بعض العسكر من ورائهم ووضعوا السيف فقتل من العامة خلق كثير ولم يبقوا على
صغير ولا كبير وفتكوا فيهم فأصيب أهل بغداد بما لم يصابوا بمثله وكثر القتلى والجرحى وأسر
منهم خلق كثير فقتل البعض وشهر البعض وفدى الناس من عرفوا ومن لم يعرف ترك طريحا
بالصحراء وتفرق العسكر في المحال الغربية فأخذوا من أهلها الأموال الكثيرة ونهبوا بلد
دجيل وغيره وأخذوا النساء والولدان ثم إن الأمراء اجتمعوا ونزلوا مقابل التاج وقبلوا
الأرض واعتذروا وترددت الرسل بينهم وبين الخليفة إلى آخر النهار وعادوا إلى خيامهم
ورحلوا إلى النهروان فنهبوا البلاد وأفسدوها وعاد مسعود بلال شحنة بغداد من تكريت
إلى بغداد ثم إن هؤلاء الأمراء تفرقوا وفارقوا العراق وتوفي الأمير قيصر بأذربيجان هذا كله

والسلطان

وحدثني أن البقرة بحثت
عن المدية بروقيها والقلة
بقضى عليها آيات جناحيها
ولو عقل الفراش لما عشا
ما عاش إلى ضوء ناره ولا
تهافت في مصرع بواره
أسارت الفرس في أخبارها
مثلا
وللأعاجم في أيامها مثل
قالوا إذا جمل حانت منيته
أطاف بالبئر حتى يهلك الجمل
وزحف السلطان في شهور
سنة تسعين وثلثمائة إلى
خلف بن أحمد وهو متحجز
بحصار [illegible] بقلعة بينها
وبين مجرى النجوم قاب
قوسين بل قيد رمحين
تحور عن مراماتها الأبصار
وتحار دون مساماتها الأطيار
فحاصره بها ممنوعا عن فسحة
الاختيار ممنوا بشقة
الاضطرار مفجوعا براحة
القرار ولذة الغرار حتى
نخب الروع روعه وودع
الروح روحه فاستشعر
الخضوع والطاعة وأظهر
الخشوع والضراعة وسأل
سؤال مستكين أن ينفس
من خناقه ويرخى من حبل
إرهاقه على أن يفتدي
بمائة ألف دينار وما يليق
بها من خدمة ونثار وتحف
ومبار فأجابه السلطان إلى
ما استدعاه ووكل به من
اقتضاء المال حتى استوفاه
وغادره كما هو في إسار الحصار

والسلطان مسعود مقيم ببلد الجبل والرسل بينه وبين عمه السلطان سنجر متصلة وكان السلطان سنجر قد أرسل اليه يلومه على تقديم خاص بك ويأمره بإبعاده ويتهدده بانه ان لم يفعل ان يقصده ويزيله عن السلطنة وهو يغالط ولا يفعل فسار السلطان سنجر الى الرى فلما علم السلطان مسعود بوصوله سار اليه وترضاه واستنزله عما فى نفسه فسكن وكان اجتماعهما سنة أربع وأربعين على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر انهزام الفرنج بيغرى)

فى هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكى الفرنج بمكان اسمه يغرى من ارض الشام وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها فعلم نور الدين فسار اليهم فى عسكره فالتقوا بيغرى واقتتلوا قتالا شديدا أجلت المعركة عن انهزام الفرنج وقتل كثير منهم وأسر جماعة من مقدميهم ولم ينج من ذلك الجمع الا القليل وارسل من الغنيمة والاسارى الى أخيه سيف الدين والى الخليفة ببغداد والى السلطان مسعود وغيرهم وفى هذه الوقعة يقول ابن القيسرانى فى قصيدته التى أولها

يا ليت أن الصد مصدود * او لا فليت النوم مردود

ومنها وهو فى ذكر نور الدين

وكيف لا يثنى على عيشنا المـ * ـحمود والسلطان محمود
وصارم الاسلام لا ينثنى * الا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة * الا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها * عند ملوك الكفر مشهود

(ذكر ملك الغورية غزنة وعودهم عنها)

فى هذه السنة قصد سورى بن الحسين ملك الغور مدينة غزنة فملكها وسبب ذلك ان أخاه ملك الغورية قبله محمد بن الحسين كان قد صاهر بهرام شاه مسعود بن ابراهيم صاحب غزنة وهو من بيت سبكتكين فعظم شأنه بالمصاهرة وعلت همته فجمع جموعا كثيرة وسار الى غزنة ليملكها وقيل انما سار اليها مظهرا الخدمة والزيارة وهو يريد المكر والغدر فعلم به بهرام شاه فأخذه وحبسه ثم قتله فعظم قتله على الغورية ولم يمكنهم الاخذ بثاره ولما قتل ملك بعده أخوه سام بن الحسين فمات بالجدرى وملك بعده أخوه الملك سورى بن الحسين بلاد الغور والله اعلم وقوى أمره وتمكن فى ملكه فجمع عسكره من الفارس والراجل وسار الى غزنة طالبا بثار اخيه المقتول وقاصدا ملك غزنة فلما وصل اليها ملكها فى جمادى الاولى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفارقها بهرام شاه الى بلاد الهند وجمع جموعا كثيرة وعاد الى غزنة وعلى مقدمته السلار الحسين وابراهيم العلوى أمير هندوستان وكان عسكر غزنة الذين أقاموا مع سورى بن الحسين الغورى وخدموه قلوبهم مع بهرام شاه وانما هم بظواهرهم مع سورى فلما التقى سورى وبهرام شاه رجع عسكر غزنة الى بهرام شاه وصاروا معه وسلموا اليه سورى ملك الغورية وملك بهرام شاه غزنة فى المحرم سنة أربع وأربعين وصلب الملك سورى مع السيد الماهيانى فى المحرم أيضا من السنة وكان سورى أحد الاجواد له الكرم الغزير والمروأة العظيمة حتى انه

وخناق الوثاق وفى نفسه قصد سجستان لكنه احب أن يجعل غزوة فى الهند مقدمة لما نوى * وصدقة بين يدى نجواه * تبركا بما يجرى على يديه من ارتفاع راية الدين * واتساع ساحة اليقين * وانارة كلمة الصدق واغارة قوة الحق * فتوغل بلاد الهند متوكلا على الله الذى هداه بنوره * وقضى له بالعز فى مقدوره * وبالنجح فى تصاريف اموره * حتى انتهى الى مدينة برشور فخيم بظاهرها وبلغه اجتراء عدو الله جيبال ملك الهند على لقائه * واستعجاله القضاء بمجاورة فنائه * فاستعرض الخيول من ابناء جريدته * وسائر الغزاة والمطوعة فى جملته * واختار للجهاد خمسة عشر الف عنان من فحول الرجال * وقروم الابطال وحظر أن يختلط بهم من رده الاختبار وبهرجه الانتقاد حتى اذا خلص عددهم على الانتخاب واجتلاهم كجنان الصرائم اواسود الغاب * دلف بهم الى قتال الهجين اللعين بقلوب كالهضاب ثابته * وفروع صبر على دوح الاخلاص نابته * واقبل الفاجر الكافر فى اثنى عشر ألف فارس وثلاثين ألفا راجل وثلثمائة فيل تئن

كان يرى الدراهم فى المقاليع الى الفقراء لتقع بيد من تقع ومن يتفق له ثم عاود الغورية وملكوها وخربوها وقد ذكرنا سنة سبع وأربعين وذكرنا هناك ابتداء دولة الغورية لانهم فى ذلك الوقت عظم محلهم وفارقوا الجبال وقصدوا خراسان وعلا شأنهم وفى بعض الخلف كما ذكرناه والله اعلم

(ذكر ملك الفرنج مدنا من الاندلس)

فى هذه السنة ملك الفرنج بالاندلس مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لاردة وافراغة ولم يبق للمسلمين فى تلك الجهات شئ الا واستولى الفرنج على جميعه لاختلاف المسلمين بينهم وبقى بايديهم الى الآن

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى أبو بكر المبارك بن الكامل بن أبى غالب البغدادى المعروف أبوه بالخفاف سمع الحديث الكثير وكان مفيد بغداد وفيها غلت الاسعار بالعراق وتعذرت الاقوات بسبب العسكر الوارد وقدم أهل السواد الى بغداد منهزمين قد أخذت أموالهم وهلكوا جوعا وعريا وكذلك أيضا كان الغلاء فى أكثر بلاد خراسان وبلاد الجبل واصفهان وديار فارس والجزيرة والشام وأما المغرب فكان أشد غلاء بسبب انقطاع الغيث ودخول العدو اليها وفيها توفى ابراهيم بن نبهان الرقى ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة وصحب الغزالى والشاشى وروى الجمع بين الصحيحين للحميدى عن مصنفه وفيها فى ذى القعدة توفى الامام أبو الفضل الكرمانى الفقيه الحنفى امام خراسان

(ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة)

(ذكر وفاة سيف الدين غازى بن أتابك زنكى وبعض سيرته وملك أخيه قطب الدين)

فى هذه السنة توفى سيف الدين غازى بن أتابك زنكى صاحب الموصل بها بمرض حاد ولما اشتد مرضه أرسل الى بغداد واستدعى أوحد الزمان فحضر عنده فرأى شدة مرضه فداواه فلم ينجع فيه الدواء وتوفى أواخر جمادى الآخرة وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرا وعشرين يوما وكان حسن الصورة والشباب وكانت ولادته سنة خمسمائة ودفن بالمدرسة التى بناها بالموصل وخلف ولدا ذكرا فرباه عمه نور الدين محمود وأحسن تربيته وزوجه ابنة أخيه قطب الدين مودود فلم تطل ايامه وتوفى فى عنفوان شبابه فانقرض عقب سيف الدين وكان كريما شجاعا عاقلا وكان يصنع كل يوم لعسكره طعاما كثيرا بكرة وعشية فاما الذى بكرة فيكون مائة رأس غنم جيدة وهو اول من حمل على رأسه السنجق وأمر الاجناد أن لا يركبوا الا بالسيف فى اوساطهم والدبوس تحت أركبهم فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الاطراف وبنى المدرسة الاتابكية العتيقة بالموصل وهى من أحسن المدارس ووقفها على الفقهاء الحنفية والشافعية وبنى رباطا للصوفية بالموصل أيضا على باب المشرعة ولم تطل ايامه ليفعل ما فى نفسه من الخير وكان عظيم الهمة ومن جملة كرمه انه قصده شهاب الدين الحيص بيص وامتدحه بقصيدته التى أولها

الارض مترونا امرافهاء وضجت من ثقل اشتفافها حتى اناخ قبالة السلطان متطاولا بيده ومطاولا بقوته وبيده ويظن ان كثرة الجموع تطوى كتاب الله طيا أو تغنى من امر الله شيأ ولو درس الجاهل كتاب الله لقرأ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله وارتد الكافر بمكانه بائصا الى المطاولة متحرزا بالمدافعة والمراوغة انتظارا لما وراءه من اوباش الجيوش واوشاب القبائل والشعوب فأعجل السلطان عما حكم به من تقديم المطاولة وتأخير المقاتلة وبسط عليه ايدى اولياء الله تعالى فاوسعوهم ضربا وطعنا ونهبا ورشقا وسرا وحزا ووخزا ونصا حتى اضطر الى الدفاع وصلى نار القراع فاسطفت عند ذلك الخيول وخفقت الطبول وزحفت الفيول واقبل بعضهم على بعض يصول وترامت النبال على النصال وتراعى ولدان الاصائل بالخشل وتلالات متون القواضب كما تلالا برق الغيم جنح الغياهب وقارت ينابيع الدماء كما فاضت مجاديح الانواء وتكاثر اولياء الله على جماهير المدابير يؤزونهم أزا ويجبونهم رقصا وجزا

الامير الأمجد في زي شاعر * وقد خلت شوقا فروع المنابر

فوصله بالف دينار عينا سوى الخلع وغيرها ولما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مقيما بالموصل فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين على أمير الجيش على تمليكه فاحضروه واستحلفوه وحلفوا له واركبوه الى دار السلطنة وزين الدين في ركابه واطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين كالموصل والجزيرة ولما ملك تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش التي كان قد تزوجها أخوه سيف الدين وتوفي قبل الدخول بها وهي أم أولاد قطب الدين سيف الدين وعز الدين وغيرهما من أولاده

(ذكر استيلاء نور الدين على سنجار)

لما ملك قطب الدين مودود الموصل بعد اخيه سيف الدين غازي كان أخوه الاكبر نور الدين محمود بالشام وله حلب وحماة فكاتبه جماعة من الامراء وطلبوه وفيمن كاتبه المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد وكان حينئذ مستحفظ السنجار فارسل اليه يستدعيه ليتسلم سنجار فسار جريدة في سبعين فارسا من امراء دولته فوصل الى ماكسين في نفر يسير قد سبق اصحابه وكان يوما شديد المطر فلم يعرفهم الذي يحفظ الباب فاخبر الشحنة ان نفرا من التركمان المجندين قد دخلوا البلد فلم يستتم كلامه حتى دخل نور الدين الدار على الشحنة فقام اليه وقبل يده ولحق به باقي اصحابه ثم سار الى سنجار فوصلها وليس معه غير ركابي وسلاح دار ونزل بظاهر البلد وارسل الى المقدم يعلمه بوصوله فرآه الرسول وقد سار الى الموصل وترك ولده شمس الدين محمدا بالقلعة فاعلمه بمسير والده الى الموصل واقام من لحق اباه بالطريق فاعلمه بوصول نور الدين فعاد الى سنجار فسلمها اليه فدخلها نور الدين وارسل الى فخر الدين قرا ارسلان صاحب الحصن يستدعيه اليه لمودة كانت بينهما فوصل اليه في عسكره فلما سمع اتابك قطب الدين وجمال الدين وزين الدين بالموصل بذلك جمعوا عساكرهم وساروا نحو سنجار فوصلوا الى تل يعفر وترددت الرسل بينهم بعد أن كانوا عازمين على قصده بسنجار فقال لهم جمال الدين ليس من الرأي محاقنته وقتاله فانا نحن قد عظمنا محله عند السلطان وما هو بصدده من الغزاة وجعلنا انفسنا دونه وهو يظهر للفرنج تعظيمنا وانه تبعنا ولا يزال يقول لهم ان كنتم كما يجب والا سلمت البلاد لصاحب الموصل وحينئذ يفعل بكم ويصنع فاذا لقيناه فان هزمناه طمع السلطان فينا ويقول هذا الذي كانوا يعظمونه ويحتمون به اضعف منهم وقد هزموه وان هو هزمنا طمع فيه الفرنج ويقولون ان الذين كان يحتمي بهم اضعف منه وقد هزمهم وبالجملة فهو ابن اتابك واشار بالصلح وسار هو اليه فاصطلح وسلم سنجار الى اخيه قطب الدين وسلم مدينة حمص والرحبة بارض الشام اليه وبقي الشام له وديار الجزيرة لاخيه واتفقا وعاد نور الدين الى حلب واخذ معه ما كان قد ادخره ابوه عماد الدين اتابك فيها من الخزائن وكانت كثيرة جدا

(ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر ووزارة ابن السلار)

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الحافظ لدين الله عبد المجيد ابن الامير ابي القاسم بن المستنصر بالله العلوي صاحب مصر وكانت خلافته عشرين سنة الا خمسة اشهر وعمره نحو من سبع وسبعين سنة ولم يزل في جميعها محكوما عليه يحكم عليه وزراؤه حتى انه جعل ابنه حسنا

فلم يتصف النهار الا باتصاف المسلمين * من أعداء الله المشركين * وحكموا السيوف في رقابهم خمسة آلاف رجل فبسطوهم على العراء * وأطعموهم سباع الارض وطيور الهواء وجدل على صعيد المعترك خمسة عشر فيلا مغروزات العراقيب * باطراف النشاشيب * محزوزات الخراطيم * بأسياف اللهاميم وأحيط بعدو الله جيبال وبنيه وحفدته وبني أخيه * وذوي الصيت من رهطه وذويه فسيقوا بخزائم الاسر والقسر الى موقف السلطان كما يساق المجرمون الى النيران * وجوه عليها غبرة الكفران * ترهقها قترة الخذلان * فمن مكتوف الى الظهر قهرا * أو مسحوب على الخد جبرا * ومضروب على الوريد ضبرا * وحل مقلد جيبال عن نظيم مرصع فرائد الدر * والجواهر الزهر قوم بمائتي ألف دينار وأصيب أضعافه في اعناق المقتسمين من قرابته بين قتل وأسر * والمطعمين شدق ضبع ونسر * ونفل الله أولياءه مافات حد الاحصاء وجاز جهد الحصر والاستقصاء * وأغنمهم خمسمائة ألف رأس من روقة العبيد والاماء * وآب

وزيرا وولى عهده فحكم عليه واستبد بالامر دونه وقتل كثيرا من امراء دولته وصادر كثيرا
فلما رأى الحافظ ذلك سقاه سما فمات وقد ذكرناه ولم يل الامر من العلويين المصريين من ابوه
غير خليفة غير الحافظ والعاضد وسيرد ذكر نسب العاضد وولى الخلافة بعده بمصر ابنه الظافر
بامر الله ابو منصور واسمعيل بن عبد المجيد الحافظ واستوزر ابن مصال فبقى اربعين يوما
يدبر الامور فقصده العادل بن السلار من ثغر الاسكندرية ونازعه فى الوزارة وكان ابن مصال
قد خرج من القاهرة فى طلب بعض المفسدين من السودان فخالفه العادل بالقاهرة وصار وزيرا
وسير عباس بن ابى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى فى عسكره وهو ربيب
العادل الى ابن مصال فظفر به وقتله وعاد الى القاهرة واستقر العادل وتمكن ولم يكن للخليفة
معه حكم واما سبب وصول عباس الى مصر فان جده يحيى اخرج ابا الفتوح من المهدية فلما
توفى يحيى وولى بعده بلاد افريقية ابنه على بن يحيى بن تميم بن يحيى صاحب افريقية اخرج أخاه
أبا الفتوح والد العباس من افريقية سنة تسع وخمسمائة فسار الى الديار المصرية ومعه زوجته
بلارة ابنة القاسم بن تميم بن المعز بن باديس وولده عباس هذا وهو صغير يرضع ونزل أبو الفتوح
بالاسكندرية فاكرم واقام بها مدة يسيرة وتوفى وتزوجت بعده امرأته بلارة بالعادل بن
السلار وشب العباس وتقدم عند الظافر حتى ولى الوزارة بعد العادل فان العادل قتل فى
المحرم سنة ثمان واربعين قيل وضع ربيبه عباس من قتله فلما قتل ولى الوزارة بعده وتمكن منها
وكان جلدا حازما ومع هذا ففى ايامه اخذ الفرنج عسقلان واشتد وهن الدولة بذلك وفى ايامه
أخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق وصار الامر بعد هذا الى ان أخذت مصر منهم
على ما نذكره بعد ان شاء الله تعالى

(ذكر عود جماعة من الامراء الى العراق)

فى هذه السنة فى رجب عاد البقش كون خر والطرنطاى وابن دبيس ومعهم ملكشاه ابن
السلطان محمود الى العراق وراسلوا الخليفة فى الخطبة لملكشاه فلم يلتفت اليهم وجمع العساكر
وحصن بغداد وارسل الى السلطان مسعود يعرفه بالحال فوعده بالوصول الى بغداد فلم يحضر
وكان سبب ذلك ما ذكرناه من وصول عمه السلطان سنجر الى الرى فى معنى خاص بك فلما وصل
الى الرى سار اليه السلطان مسعود ولقيه واسترضاه فرضى عنه فلما علم البقش بمراسلة الخليفة
الجمع ونهب النهروان وقبض على الامير على بن دبيس فى رمضان فلما علم الطرنطاى بذلك
هرب الى النعمانية ووصل السلطان مسعود الى بغداد منتصف شوال ورحل البقش كون خر
من النهروان واطلق على بن دبيس فلما وصل السلطان الى بغداد قصده على والقى بنفسه
بين يديه واعتذر فرضى عنه وذكر بعض المؤرخين هذه الحادثة سنة أربع واربعين وذكر
أيضا مثلها سنة ثلاث واربعين فظنهما حادثتين وانا اظنهما واحدة ولكنا تبعناه فى ذلك
ونبهنا عليه

(ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية وهزيمة الفرنج)

فى هذه السنة غزا نور الدين محمود بن زنكى بلاد الفرنج من ناحية انطاكية وقصد حصن حارم
وهو للفرنج فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل الى حصن انب فحصره ايضا فاجتمعت

الفرنج

السلطان بمن معه من
الاولياء الى المعسكر غانمين
وافرين ظاهرين ظافرين
شاكرين لله رب العالمين
وفتح الله على السلطان من
بلاد الهند أرضا تتضاءل
بلاد خراسان فى جنبها
طولا وعرضا ووافقت هذه
الوقعة الباهر أثرها السائر
فى الآفاق خبرها يوم الخميس
الثامن من المحرم سنة
اثنتين وتسعين وثلثمائة
ولما وضعت هذه الحرب
أحمالها وحطت عن الظهور
اثقالها أحب السلطان أن
يصرف الجيش وراءه ليراه
بنوده وذووه فى شعار العار
واسار الاسار وتستطير
هيبة الاسلام فى ديار
الكفار فوافقه على خمسين
رأسا من شفاف الافيال
وارتهن ابناء وحفدة على
الوفاء بها على الكمال وعاد
الكافر وراءه حتى اذا
استقر مكانه كاتب ابنه
أنندبال وشاهيته وراءه يجرون
يشكو اليه ما عراه من
الفاقرة الكبرى والداهية
العظمى وسأله سؤال ملهف
أن يؤدى عنه الضمان وما
عزوه فساق اليه تلك
الفيول وصرف الرسول
وسبقت جملتها الى السلطان
فأمر بالافراج عن أولئك
الرهائن وكسع أدبارهم
وتولى الدبر [illegible]

الفرنج مع البرنس صاحب انطاكية وحارم وتلك الاعمال وساروا الى نور الدين ابن حلوة عن انب فلقيهم واقتتلوا قتالا عظيما وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم فانهزم الفرنج اقبح هزيمة وقتل منهم جمع كثير وأسر وامثالهم وكان ممن قتل البرنس صاحب انطاكية وكان عاتيا من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل فتزوجت امه ببرنس آخر ليدبر البلاد الى ان يكبر ابنها واقام معها بانطاكية ثم ان نور الدين غزاهم غزوة اخرى فاجتمعوا ولقوه فهزمهم وقتل فيهم واسر وكان فيمن أسر البرنس الثانى زوج أم بيمند فتمكن حينئذ بيمند بانطاكية واكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الظفر فان قتل البرنس كان عظيما عند الطائفتين وممن قال فيه القيسرانى الكاتب فى القصيدة المشهورة التى اولها

هذى العزائم لاما تدعى القضب * وذى المكارم لاما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتى متى خطبت * تعثرت خلفها الاشعار والخطب
صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها * براحة للمساعى دونها تعب
مازال جدك يبنى كل شاهقة * حتى بنى قبة اوتادها الشهب
أغرت سيوفك بالافرنج راجفة * فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة * أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
طهرت أرض الاعادى من دمائهم * طهارة كل سيف عندها جنب

(ذكر الخلف بين صاحب صقلية وملك الروم)

فى هذه السنة اختلف رجار الفرنجى صاحب صقلية وملك القسطنطينية وجرى بينهما حروب كثيرة ودامت عدة سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا ذلك لملك رجار جميع بلاد افريقية وكان القتال بينهم برا وبحرا والظفر فى جميع ذلك لصاحب صقلية حتى ان اسطوله فى بعض السنين وصل الى مدينة القسطنطينية ودخل فم الميناء واخذوا عدة شوانى من الروم واسروا جمعا منهم ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب وكان الذى يفعل هذا بالروم والمسلمين جرجى وزير صاحب صقلية فمرض عدة امراض منها البواسير والحصا ومات سنة ست واربعين وخمسمائة فسكنت الفتنة واستراح الناس من شره وفساده ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه بعده

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة زلزلت الارض زلزلة عظيمة فقيل ان جبلا مقابل حلوان ساخ فى الارض وفيها ولى أبو المظفر يحيى بن هبيره وزارة الخليفة المقتفى لامر الله وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزمام وظهر له كفاية عظيمة عند نزول العساكر بظاهر بغداد وحسن قيام فى ردهم فرغب الخليفة فيه فاستوزره يوم الاربعاء رابع ربيع الآخر سنة اربع واربعين وكان القمر على تربيع زحل فقيل له لو أخرت لبس الخلعة لهذه التربيعات فقال واى سعادة اكبر من وزارة الخليفة ولبسها ذلك اليوم وفيها فى المحرم توفى قاضى القضاة على بن الحسين الزينبى وولى القضاء عماد الدين ابو الحسن على بن احمد الدامغانى وفيها فى المحرم رخصت الاسعار بالعراق

نفسه اندبال بان أباه قد لبس بردة الشرف * وعض على جمرة الهرم وقد طلع عليه نسر الاسر ودبران الادبار * وقته عوى الامتحان وشالت به شولة الخذلان فقد حان ان يلقى حينه ويتقاضى عليه الزمان دينه * ومن سنتهم المطاعة فيهم ان من حصل منهم فى أيدى النائبة وهم المسلمون أسيرا لم ينعقد له من بعد رياسه * ولم تستتم له زعامة وسياسه * ولما رأى حبال حصوله بين قيد الهرم وقد المذلة آثر النار * على العار والمنيه * على الدنيه * فبدأ بشعره فحلق * ثم تحامل على النار فاحترق * ولما استتب للسلطان ما أراد * وانقاد له ما اقتاد * ارتاح لغزوة أخرى يطرز بها ديباجة مقامه * ويعلم بجمالها عذبات أعلامه * فمال ضوء بهند فضرب عليها بكلكل الاقتدار حتى افتتحها صغرا واعتاض منها بعد العسر يسرا * وبلغه لياذ طوائف من الهنود بشعاب تلك الاعلام * واستتارهم بخمر الغياض والآجام * متحدثين بالتحزب والتألب على العناد فأغزاهم جيشا يدوخ مجالهم * ويفرق قبل الوصول أوصالهم * فولغت فيهم السيوف حتى رويت من

وكثرت الخيرات وخرج أهل السواد الى قراهم وفيها توفى الامير نظر امير الحاج وكان قد سار بالحاج الى الحلة فمرض واشتد مرضه واستخلف على الحاج قايماز الارجوانى وعاد الى بغداد مريضا فتوفى فى ذى القعدة وكان شجاعا فاضلا خيرا معروف كثير وصدقات وافرة وفيها توفى احمد بن نظام الملك الذى كان وزير السلطان محمد والمسترشد بالله وفيها توفى على بن رافع بن خليفة الشيبانى وهو من أعيان خراسان وله مائة وسبع سنين شمسية ومات الامام مسعود الصوابى فى المحرم منها وفيها توفى معين الدين أنز نائب أبق صاحب دمشق وهو كان الحاكم والامر اليه وكان أبق صورة لا امر له معنى تحتها وفيها توفى القاضى احمد بن محمد بن الحسين الارجانى أبو بكر قاضى تستر وله شعر حسن فمنه قوله

ولما بلوت الناس اطلب عندهم * اخا ثقة عند اعتراض الشدائد
تطلعت فى حالى رخاء وشدة * وناديت فى الاحياء هل من مساعد
فلم أر فيما ساءنى غير شامت * ولم أر فيما سرنى غير حاسد
فتمتعها يا ناظرى بنظرة * وأوردتما قلبي أمر الموارد
أعينى كفا عن فؤادى فانه * من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

وفيها توفى أبو عبد الله عيسى بن هبة الله بن عيسى البزاز وكان ظريفا وله شعر حسن كتب اليه صديق له رقعة وزاد فى خطابه فأجابه

قد زدتنى فى الخطاب حتى * خشيت نقصا من الزياده
فاجعل خطابى خطاب مثلى * ولا تغير على عاده

(ثم دخلت سنة خمس واربعين وخمسمائة)

(ذكر أخذ العرب الحجاج)

فى هذه السنة رابع عشر المحرم خرج العرب زعب ومن انضم اليها على الحجاج بالغرابى بين مكة والمدينة فأخذوهم ولم يسلم منهم الا القليل وكان سبب ذلك ان نظرا امير الحاج لما عاد من الحلة على ما ذكرناه وسار على الحاج قايماز الارجوانى وكان حدثا غرا فسار بهم الى مكة فلما رأى أمير مكة قايماز استصغره وطمع فى الحاج وتلطف قايماز الحال معه الى ان عادوا فلما سار عن مكة سمع باجتماع العرب فقال للحاج من المصلحة أن لا نمضى الى المدينة فضج العجم وتهددوه بالشكوى منه الى السلطان سنجر فقال لهم فأعطوا العرب مالا نستكفى به شرهم فامتنعوا من ذلك فسار بهم الى الغرابى وهو منزل يخرج اليه من مضيق بين جبلين فوقفوا على فم مضيق وقاتلهم قايماز ومن معه فلما رأى عجزه اخذ لنفسه أمانا وظفروا بالحاج وغنموا أموالهم وجميع ما معهم وتفرق الناس فى البر وهلك منهم خلق كثير لا يحصون كثرة ولم يسلم الا القليل فوصل بعضهم الى المدينة وتحملوا منها الى البلاد وأقام بعضهم مع العرب حتى توصل الى البلاد ثم ان الله تعالى اقتص للحاج من زعب فلم يزالوا فى نقص وذلة ولقد رأيت شابا منهم بالمدينة سنة ست وسبعين وخمسمائة وجرى بينى وبينه مفاوضة قلت له فيها انى والله كنت أميل الى السلك حتى سمعت انك من زعب فنفرت وخفت شرك فقال لم فقلت بسبب أخذكم الحاج فقال لى انا لم أدرك ذلك الوقت وكيف رأيت الله صنع بنا والله ما افلحنا ولا نجحنا قل العدد وطمع العدو فينا

(ذكر

رشاش دمائهم * وصدئت
من غلائل أحشائهم
وتم ارب من سلم من قلبائها
كالا وعال * فى ربود تلك
الجبال * يرون الكواكب
ظهرا والمنايا سودا وحمرا
وذاقوا وبال امرها وكان عاقبة
أمرها خسرا * وانقلبت
رايات السلطان الى غزنة
خافقة بالصبح الشائع *
والفتح الرائع * والحول
المتين * والنصر المبين *
وقد أشرق وجه الاسلام
وابتسم ثغر الايمان وانشرح
صدر الملة * وانفصم ظهر
الشرك والبدعة * وقد كان
خلف بن أحمد عند انصراف
راية السلطان عن وجهه
عهد الى ولده طاهر فى اعمال
سجستان وأسند أمورها
اليه ايثارا له على نفسه
وهداه كريمة الملك اليه قبل
وقته * تثبيتا لها فى ملكه
قبل استحقاقه اياها بارثه
تعريضا للسلطان باستعفائه
من الملك * واقباله على النسك
واعتياضه تواضع العبادة *
عن ترفع السيادة * ليقطع
بخروج الامر من يده طمعه
عن قصده وحصده * فلما
تنفست المدة على ما ولاه
نطقت شواهد الحرد فى
اختياره * وبدت نواجذ
العقوق عن شق آثاره * فلم
يزل يلاطفه ويداريه * حتى
أعاده عما رآه فيه * ثم تمارض

(ذكر فتح حصن فاميا)

فى هذه السنة فتح نور الدين محمود بن الشهيد زنكى حصن فاميا من الفرنج وهو مجاور شيزر وحماة على تل عال من أحصن القلاع وامنعها فسار نور الدين اليه وحصره وبه الفرنج وقاتلهم وضيق على من به منهم فاجتمع من بالشام من الفرنج وساروا نحوه ليرحلوه عنهم فلم يصلوا الا وقد ملكه وملأه ذخائر وسلاحا ورجالا وجميع ما يحتاج اليه فلما بلغه سير الفرنج اليه رحل عنه وقد فرغ من أمر الحصن وسار اليهم يطلبهم فحين رأوا ان الحصن قد ملك وقوة عزم نور الدين على لقائهم عدلوا عن طريقه ودخلوا بلادهم وراسلوه فى المهادنة وعاد سالما مظفرا ومدحه الشعراء وذكروا هذا الفتح فمن ذلك قول ابن الرومى من قصيدة أولها

اسنى الممالك ما أطلت منارها * وجعلت مرهفة الدسار دسارها

واحق من ملك البلاد وأهلها * رؤف تكنفت عدله اقطارها

ومنها فى وصف الحصن

ادركت ثارك فى البغاة وكنت يا * مختار امة احمد مختارها

ضاقت نجومك فوقها والطالما * باتت تنافسها النجوم شرارها

* عادية الزمن المعيد ما لها * منك المغيرة فاسترد معارها

امست مع الشعرى العبور واصبحت * شعراء تستفلى الفحول شوارها

وهى طويلة

(ذكر حصر الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها)

فى هذه السنة سار السليطين وهو الاذفونش وهو ملك طليطلة واعمالها وهو من ملوك الجلالقة نوع من الفرنج فى اربعين الف فارس الى مدينة قرطبة فحصرها وهى فى ضعف وغلاء فبلغ الخبر الى عبد المؤمن وهو بمراكش فجهز عسكرا كثيرا وجهزه وقدمهم ابا زكريا يحيى بن يرموز ونفذهم الى قرطبة فلما قربوا منها فلم يقدروا ان يلقوا عسكر السليطين فى الوطاء وارادوا الاجتماع باهل قرطبة ليمنعوها الخطر العاقبة بعد القتال فسلكوا الجبال الوعرة والمضايق المتشعبة فساروا نحو خمسة وعشرين يوما فى الوعر فى مسافة أربعة أيام فى السهل فوصلوا الى الجبل المطل على قرطبة فلما رآهم السليطين وتحقق امرهم رحل عن قرطبة وكان فيها القائد أبو الغمر السائب من ولد القايد ابن غلبون وهو من أبطال أهل الاندلس وامرائها فلما رحل الفرنج خرج منها وقته وصعد الى ابن يرموز وقال له انزلوا عاجلا وادخلوا البلد ففعلوا وباتوا فيها فلما أصبحوا من الغد رأوا عسكر السليطين على رأس الجبل الذى كان فيه عسكر عبد المؤمن فقال لهم أبو الغمر هذا الذى خفته عليكم لانى علمت ان السليطين ما اقام الا طالبا لكم فان من الموضع الذى كان فيه طريق سهلة ولو لحقكم هنالك نال مراده منكم ومن قرطبة فلما رأى السليطين انهم قد فاتوه علم انه لم يبق له طمع فى قرطبة فرحل عائدا الى بلاده وكان حصره لقرطبة ثلاثة اشهر والله أعلم

(ذكر ملك الغورية هراة)

فى هذه السنة سار ملك الغور الحسن بن الحسين من بلاد الغور الى هراة فحصرها وكان أهلها

خلف فى الحصار المذكور واستدعى ابنه لقبول الوصيه * وتسليم الودايع الخفيه * فغفل عن سر التدبير وتدبر العقاب والنكير واقبل اقبال طرفه بن العبد على خصلتى الضبح من ضرب الجيد * أوحز الوريد * وقد كان خلف بن أحمد كمن له مقانب من جيشه فاحاطوا به احاطة خيل الزباء بجذيمة الوضاح الى أن حصل فى معتقله * وحبس فى مكمن اجله * وبقى فى السجن على حاله الى ان اخرجت جنازته محالا عليه فى قتل نفسه والجناية على روحه ودمه ولما سمع طاهر بن زيد صاحب جيش خلف بن احمد وسائر القواد بسجستان ما جرى فى امر طاهر دخلت فى طاعته ضمائرهم * ونغلت فى موالاته سرائرهم وانتقضت خوف الاسوة فيه مرائرهم * وضبطوا اقلاك المدينة على طاعة السلطان ومشايعته وارسلوا اليه بما وجنوه من التمسك بحبل الطاعه * والتمسك بدين الجماعه * وسألوا انهاض من يتولى تسليم الناحية منهم ليتبدروا الى بابه * ويتعطروا بلثم ترابه ففعل السلطان ما سألوه وجزاهم الخير على ما فعلوه

قد كاتبوه وطلبوا ان يسلموها اليه هربا من الاتراك الذين نزلوا عليهم وزوال هيبة السلطنة عنهم فامتنع اهل هراة عليه ثلاثة أيام ثم خرجوا اليه وسلموا البلد واطاعوه فاحسن اليهم وافاض عليهم النعم وغمرهم بالعدل وأظهر طاعة السلطان سنجر والقيام على الوفاء له والانقياد اليه

•(ذكر عدة حوادث)•

في هذه السنة امر علاء الدين محمود بن مسعود الغالب على أمر طريثيث اقامة الخطبة للخليفة ولبس السواد ففعل الخطيب ذلك فثار به عمه واقاربه ومن وافقهم وقاتلوه وكسروا المنبر وقتلوا الخطيب وكان فعل علاء الدين هذا لان اباه كان مسلما فلما تغلب الاسماعيلية على طريثيث اظهر موافقتهم وابطن اعتقاد الشريعة وكان يناظر على مذهب الشافعي وازداد تقدما بطريثيث وجرت امورها بارادته فلما حضره الموت اوصى ان يغسله فقيه شافعي واوصى الى ابنه علاء الدين ان امكنه ان يعيد فيها اظهار شريعة الاسلام فعل فلما رأى من نفسه قوة فعله فلم يتم له وفيها كثر المرض بالعراق لاسيما بغداد وكثر الموت أيضا فيها ففارقها السلطان مسعود وفيها توفي الامير على بن دبيس بن صدقة صاحب الحلة بأسد اباد واتهم طبيبه محمد بن صالح بالمواطأة عليه فمات الطبيب بعده بقريب وفيها استوزر عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب اباجعفر ابن أبي أحمد الاندلسي وكان ماسورا عنده فوصفه بالعقل وجودة الكتابة فاخرجه من الحبس واستوزره وهو أول وزير كان للموحدين وفي هذه السنة في المحرم جلس يوسف الدمشقي مدرسا في النظامية ببغداد وكان جلوسه بغير امر الخليفة فمنع يوم الجمعة من دخول الجامع فصلى في جامع السلطان ومنع من التدريس فتقدم السلطان مسعود الى الشيخ ابي النجيب بان يدرس فيها فامتنع بغير امر الخليفة فاستخرج السلطان اذن الخليفة في ذلك فدرس منتصف المحرم من السنة وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن علي بن مهران الفقيه الشافعي تفقه على الهراسي وولي قضاء نصيبين ثم ترك القضاء وتزهد فاقام بجزيرة ابن عمر ثم انتقل الى جبل بلد الحصن في زاوية وكان له كرامات ظاهرة وفيها مات الحسن بن ذي النون بن أبي القاسم بن أبي الحسن المسعري ابو المفاخر النيسابوري سمع الحديث الكثير وكان فقيها اديبا دائم الاشتغال يعظ الناس وكان مما ينشد

مات الكرام وولوا وانقضوا ومضوا ✱ ومات من بعدهم تلك الكرامات

وخلفوني في قوم ذوي سفه ✱ لو ابصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

•(ثم دخلت سنة ست واربعين وخمسمائة)•

•(ذكر انهزام نور الدين من جوسلين وأسر جوسلين بعد ذلك)•

في هذه السنة جمع نور الدين محمود عسكره وسار الى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمال حلب منها تل باشر وعين تاب واعزاز وغيرها وعزم على محاصرتها واخذها وكان جوسلين لعنه الله فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأي فلما علم بذلك جمع الفرنج فاكثر وسار نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا فانهزم المسلمون وقتل منهم واسر جمع كثير وكان في جملة من أسر سلاح دار نور الدين فاخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره الى الملك مسعود بن قلج ارسلان صاحب قونية واقصرا وقال له هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما أعظم منه

والتحت الدعوة للسلطان في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ولما فتح الله له رتاجها ويسر له انفراجها عزم على قصد خلف وحسم دائه وكفاية الخاصة والعامة عوادي مكره ودهائه وهو يومئذ بحصار الطاق ومن صفته انه ذو سبعة اسوار رفيعة الجدران منيعة البنيان وثيقة الاركان ويحيط بها خندق بعيد القعر فسيح العرض منيع الخاض لا يعبر منه الى المدينة الا من طريق فمضيق على جسر يطرح عند الحاجة ويرفع وقت الاستغناء عنه فعسكر السلطان حواليه محيطا به من جوانبه احاطة المحيط بنقطة المركز وجعل يستدير بالرأي وجه الحيلة في طم ذلك الخندق وكبسه ليستدف على الفارس والراجل خوضه وعبوره وكانت حوالى معسكره منابت اثل ومارقاء ذوات اعتقاف والتفاف فعرض على اهل عسكره خاصهم وعامهم راجلهم وفارسهم عضد ما يمكنهم عضده منها اضغاثا وحزما لتقم عرض الخندق ليستتب ظهور الجمال والمخترق وبادر الناس اليه فلم تشرق شمس

فلما علم نور الدين الحال عظم عليه ذلك وعمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة ليأخذ بثاره واحضر جماعة من امراء التركمان وبذل لهم الرغائب ان هم ظفروا بجوسلين وسلموه اليه اما قتيلا او اسيرا لانه علم انه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيدا فلحقت به طائفة منهم وظفروا به فصانعهم على مال يؤديه اليهم فاجابوه الى اطلاقه اذا احضر المال فارسل فى احضاره فمضى بعضهم الى أبى بكر بن الداية نائب نور الدين بحلب فاعلمه الحال فسير عسكرا معه فكبسوا اولئك التركمان وجوسلين معهم فاخذوه اسيرا واحضروه عنده وكان اسره من أعظم الفتوح لانه كان شيطانا عاتيا شديدا على المسلمين قاسى القلب واصيبت النصرانية كافة باسره ولما أسر سار نور الدين الى قلاعه فملكها وهى تل باشر وعين تاب واعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفرلاثا ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله فى مدة يسيرة تذكر مفصلة وكان نور الدين كلما فتح منها حصنا نقل اليه من كل ما يحتاج اليه الحصون خوفا من نكبة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة الى ما يمنعها من العدو ومدحه الشعراء فممن قال فيه القيسرانى من قصيدة فى ذكر جوسلين

كما أهدت الاقدار للقمص اسره * واسعد قرن من حواه الاسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه * فاوبقه الكفران عدواه والكفر
وامست عزاز كاسمها بك عزة * تشق على النسرين لوانها وكر
فسر واملا الدنيا ضياء وبهجة * فبالافق الداجى الى ذا السنا فقر
كانى بهذا العزم لا فل حده * واقصاه بالاقصى وقد قضى الامر
وقد اصبح البيت المقدس طاهرا * وليس سوى جارى الدماء له طهر

(ذكر حصر غرناطة والمرية من بلاد الاندلس)

فى هذه السنة سير عبد المؤمن جيشا كثيفا نحو عشرين ألف فارس الى الاندلس مع ابى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى وسير معهم نساءهم فكن يسرن مفردات عليهن البرانس السود ليس معهن غير الخدم ومتى قرب منهن رجل ضرب بالسياط فلما قطعوا الخليج ساروا الى غرناطة وبها جمع من المرابطين فحصرها عمر وعسكره وضيقوا عليها فجاء اليه احمد بن ملحان صاحب مدينة وادى آش واعمالها بجماعته ووحدوا وصار معه واتاه ابراهيم ابن همشك صهر بن مردنيش صاحب جيان واصحابه ووحدوا وصاروا أيضا معه فكثر جيشه وعرضوه على المسارعة الى ابن مردنيش ملك بلاد شرق الاندلس ليبغته بالحصار قبل أن يتجهز فلما سمع ابن مردنيش ذلك خاف على نفسه فارسل الى ملك برشلونة من بلاد الفرنج يخبره ويستنجده ويستحثه على الوصول اليه فسار اليه الفرنجى فى عشرة آلاف فارس وسار عسكر عبد المؤمن فوصلوا الى حمة بلقوارة وبينها وبين مرسية التى هى مقر ابن مردنيش مرحلة فسمعوا بوصول الفرنج فرجع وحصر مدينة المرية وهى للفرنج عدة شهور فاشتد الغلاء فى العسكر وعدمت الاقوات فرحلوا عنها وعادوا الى اشبيلية فاقاموا بها

(ذكر عدة حوادث)

النهار على التكبيد حتى اعرض عرض المخاضة من جانب باب الحصار للركوب وثار اليه عند ذلك الخيول وتبعتها الفيول * ومانع اصحاب خلف بن احمد من شرفات الحصار * بقذفات الاحجار * واشتعلت بينهم الحرب ترمى بشرر كالقصر وتنحى على القصرات بالفرس والقسر * وزحف الفيل العظيم الى باب الحصار فاقتلعه بنابه وزخ به فى الهواء فانحط الى الارض من حالق وقتل من اصحاب خلف الجم الغفير ولجأ الباقون على اطراف الحاجز الى السور الداخل وذمر عسكر السلطان على الحصار وتماسك اصحاب خلف فوق شرافات السور الآخر مناضلين عنها بأحجار المجانيق * واطراف الحراب والمزاريق * واطلع خلف ابن احمد عند اشتداد الخطب على ملتقى الفريقين فرأى هول المطلع ورأى تموج الفضاء بعفاريت الاجناد * على شياطين الجياد وتطاير النبال كرجل الجراد * وترامى الحراب كهز الى السحاب * وفيح الدماء * كسيح السماء * وعاين الفيل قد اهوى الى بعض اصحابه بخرطومه فرمى به

في هذه السنة في ربيع الآخر توفي العبادي الواعظ واسمه المظفر بن اردشير بخوزستان وكان الخليفة المقتفي لامر الله قد سيره في رسالة الى الملك محمد بن السلطان محمود ليصلح بينه وبين بز الملوانزي فتوفي هنالك وجلس ولده ببغداد للعزاء واقيم حاجب من الديوان العزيز وكان ابنه يجلس ويعظ ويذكر والده ويبكي هو والناس كافة ونقل العبادي الى بغداد ودفن بالشونيزي ومولده سنة احدى وتسعين واربعمائة وسمع الحديث من ابي بكر السروي وزاهر الشحامي وغيرهما وفيها انفجر بثق النهروان الذي اتهم به روز بكثرة الزيادة في تامر او اهمال امرها حتى عظم ذلك وتضرر به الناس وفيها سار الامير بقش في طائفة من عسكر السلطان سنجر الى طريثيث بخراسان واغار على بلاد الاسماعيلية فنهب وسبى وخرب واحرق المساكن وفعل بهم افاعيل عظيمة وعاد سالما

٭(ثم دخلت سنة سبع واربعين وخمسمائة)٭

٭(ذكر ملك عبد المؤمن بجاية وملك بني حماد)٭

في هذه السنة سار عبد المؤمن بن علي الى بجاية وملكها وملك جميع ممالك بني حماد وكان لما اراد قصدها سار من مراكش الى سبتة سنة ست واربعين فاقام بها مدة يعمل الاسطول ويجمع العساكر القريبة منه واما ما هو على طريقه الى بجاية من البلاد فكتب اليهم ليتجهزوا ويكونوا على الحركة اي وقت طلبهم والناس يظنون انه يريد العبور الى الاندلس فارسل في قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب برا وبحرا وسار من سبتة في صفر سنة سبع واربعين فاسرع السير وطوى المراحل والعساكر تلقاه في طريقه فلم يشعر اهل بجاية الا وهو في اعمالها وكان ملكها يحيى ابن العزيز بن حماد آخر ملوك بني حماد وكان مولعا بالصيد واللهو لا ينظر في شيء من امور مملكته قد حكم فيها بنو حمدون فلما اتصل الخبر بميمون بن حمدون جمع العسكر وسار عن بجاية نحو عبد المؤمن فلقيهم مقدمته وهي تزيد على عشرين الف فارس فانهزم اهل بجاية من غير قتال ودخلت مقدمة عبد المؤمن بجاية قبل وصول عبد المؤمن بيومين وتفرق جميع عسكر يحيى ابن العزيز وهربوا برا وبحرا وتحصن يحيى بقلعة قسطنطينية الهواء وهرب اخواه الحارث وعبد الله الى صقلية ودخل عبد المؤمن بجاية وملك جميع بلاد ابن العزيز بغير قتال ثم ان يحيى نزل الى عبد المؤمن بالامان فامنه وكان يحيى قد فرح لما اخذت بلاد افريقية من الحسن بن علي فرحا ظهر عليه فكان يذمه ويذكر معايبه فلم تطل المدة حتى اخذت بلاده ووصل الحسن بن علي الى عبد المؤمن في جزائر بني مزغنان وقد ذكرنا سنة ثلاث واربعين سبب مصيره اليها واجتمعا عنده فارسل عبد المؤمن يحيى بن العزيز الى بلاد المغرب واقام بها واجرى عليه شيئا كثيرا واما الحسن بن علي فانه احسن اليه والزمه صحبته واعلى مرتبته فلزمه الى ان فتح عبد المؤمن المهدية فجعله فيها وامر واليها ان يقتدي برأيه ويرجع الى قوله ولما فتح عبد المؤمن بجاية لم يتعرض الى مال اهلها ولا غيره وسبب ذلك ان بني حمدون استامنوا فوفى لهم بامانه

٭(ذكر ظفر عبد المؤمن بصنهاجة)

لما ملك عبد المؤمن بجاية تجمعت صنهاجة في امم لا يحصيها الا الله تعالى وتقدم عليهم رجل اسمه ابو قصبة واجتمع معهم من كتامة ولواتة وغيرهما خلق كثير وقصدوا حرب عبد المؤمن فارسل

في الهواء قاب رمحين ثم
تلقاه بنابيه ٭ واقبل على
آخر يلومهم بتشعبه
ثم انحنى على الباب بمنكبيه
فزعزعه بعضادتيه ٭ واقتلعه
بضبات الحديد عليه ٭
فاستطار عند ذلك قلبه
وطاش جاشه وارتاع روعه
واضطره هول المقام ٭ وفزع
الاصطلام ٭ الى طلب الامان
واستغاثة السلطان ٭ فكف
عنه يد الاخترام ٭ ووضع
عنه سوط الانتقام ٭ كرما
غذاه الله بدره ٭ واطربه
بنشوة خمره ٭ واقبل خلف
ابن اسد على بذله الجائزة
حتى استؤذن له على
السلطان فدخل واهوى
الى الارض بشيبته البيضاء
متعززا بذل الخدمة
وغشى البساط من سبح
الجواهر والفرائد ما كسف
النهار وخطف الابصار
نثارا ينوب عنه في شكر
ما اذاقه من برد العفو
والرحمة وحماه من حر
الروح والمهجة فتكرم
السلطان بالرفع من قدره
وضم يده بيد التقريب
الى صدره ٭ وتناسيا ما سبق
من هناته ٭ وتغابيا عما تقدم
من ذميم زلاته ٭ وحكمه
في احتمال ما احب من زيد
يساره ٭ وذخائر عقاره ٭
وخيره في المقام بحيث شاء من
ديار ممالكه وامصاره

اليهم جيشا كثيرا وقدمهم ابو سعيد يخلف وهو من الخمسين فالتقوا في عرض الجبل شرقي بجاية فانهزم ابو قصبة وقتل اكثر من معه ونهبت اموالهم وسبيت نساؤهم وذراريهم ولما فرغوا من صنهاجة ساروا الى قلعة بني حماد وهي من احصن القلاع واعلاها لا ترام على رأس جبل شاهق لا يكاد الطرف يحققها لعلوها ولكن القدر اذا جاء لا يمنع منه معقل ولا جيوش فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها في رؤس الجبال وملكت القلعة واخذ جميع ما فيها من مال وغيره وحمل الى عبد المؤمن فقسمه بين اصحابه

(ذكر وفاة السلطان مسعود وملك ملكشاه محمد بن محمود)

في هذه السنة اول رجب توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان وكان مرضه حمى حادة نحو اسبوع وكان مولده سنة اثنتين وخمسمائة في ذي القعدة ومات معه سعادة البيت السلجوقي فلم يقم له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت اليها

فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

وكان رحمه الله حسن الاخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس فمن ذلك ان اتابك زنكي صاحب الموصل ارسل اليه القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري في رسالة فوصل اليه واقام معه في العسكر فوقف يوما على خيمة الوزير حتى قارب اذان المغرب فعاد الى خيمته فاذن المغرب وهو في الطريق فرأى انسانا فقيها في خيمة فنزل اليه فصلى معه المغرب ثم سأله كمال الدين من أين هو فقال انا قاضي مدينة كذا فقال له كمال الدين القضاة ثلاثة قاضيان في النار وهو انا وانت وقاض في الجنة وهو من لم يعرف ابواب هؤلاء الظلمة ولا يراهم فلما كان الغد ارسل السلطان واحضر كمال الدين اليه فلما دخل عليه ورآه ضحك وقال القضاة ثلاثة فقال كمال الدين نعم يا مولانا فقال والله صدقت ما اسعد من لا يرانا ولا نراه ثم امر ان تقضى حاجته واعاده من يومه وكان كريما عفيفا عن الاموال التي للرعايا حسن السيرة فيهم من اصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الاخلاق لطيفا فمن ذلك انه اجتاز يوما في بعض اطراف بغداد فسمع امرأة تقول لاخرى انظري الى السلطان فوقف وقال حتى تجيء هذه الست تنظر الينا وله فضائل كثيرة ومناقب جمة وكان عهد الى ملكشاه ابن اخيه السلطان محمود فلما توفي خطب له الامير خاص بك ورتب الامور وقررها بين يديه واذعن له جميع العسكر بالطاعة ولما وصل الخبر الى بغداد بموت السلطان مسعود هرب الشحنة بها وهو مسعود بلال الى تكريت واستظهر الخليفة المقتفي لامر الله على داره ودور اصحاب السلطان ببغداد واخذ كل ما لهم فيها وكل من كان عنده وديعة لاحد منهم احضرها بالديوان وجمع الخليفة الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وتقدم باراقة الخمور من مساكن اصحاب السلطان ووجد في دار مسعود بلال شحنة بغداد كثير من الخمور فاريق ولم يكن الناس يظنون انه شرب الخمر بعد الحج وقبض على المؤيد الالوسي الشاعر وعلى الحيص بيص الشاعر ثم اطلق الحيص بيص وأعيد عليه ما اخذ منه ثم ان السلطان ملكشاه سير سلار كرد في عسكر الى الحلة فدخلها فسار اليه مسعود بلال شحنة بغداد واظهر له الاتفاق معه فلما اجتمعا قبض عليه مسعود بلال وغرقه واستبد بالحلة فلما علم الخليفة ذلك جهز العساكر اليه مع عون الدين

فاختار ارض ابلونزجان ستروا حالو ح نسيم هو ثمها واستعذابا الغير مائها واتساعا في مراتع الصيود حول ارجائها * وامر السلطان بتسييره اليها في هيئة ذوي الهيبة معافى بلباس الصيانة * عن عورة الاهانة * فاقام بها قرابة أربع سنين في ظل الترفيه وساعدته القناعة بما هو فيه * ثم انهى الى السلطان مراطنة بينه وبين ايلك الخان بملطفات سيرها اليه ورسالات أغراه بها عليه اقتضاه الاحتياط نقله الى جرديز ابقاء عليه * من صدق ما أضيف اليه * واستتماما للصنيعة لديه * واحتراسا عما يلجأ اليه * من ابطال ذلك الافضال وتكدير ذلك الغدير فبقي هنالك على جملته الى أن حقت عليه القضيه واخترمته المنيه * وذلك في رجب سنة تسع وتسعين وثلثمائة وأمر السلطان بحفظ جميع ما تخلف عنه على ولده أبي حفص وتقريره في يده وتمكينه من خدمته وأنشدني ابو منصور الثعالبي لنفسه حين وهى أمره وصفرت عن الملك يده قوله

من ذا الذي لا يذل الدهر صعبته \
ولا تلين يد الايام صعدته

ابن هبيرة فساروا اليه فلما قاربوا الحلة عبر مسعود بلال الفرات اليهم وقاتلهم فانهزم من عسكر الخليفة ونادى اهل الحلة بشعار الخليفة فلم يدخلها وتمت الهزيمة عليه وعلى اصحابه فعادوا الى تكريت وملك عسكر الخليفة الحلة وسير الوزير عسكرا الى الكوفة وعسكرا الى واسط فملكوهما ثم ان عساكر السلطان وصلت الى واسط ففارقها عسكر الخليفة فلما سمع الخليفة ذلك تجهز بنفسه وسار عن بغداد الى واسط ففارقها العسكر السلطاني وملكها الخليفة وسار منها الى الحلة ثم عاد الى بغداد فوصلها تاسع عشر ذي القعدة وكانت غيبته خمسة وعشرين يوما ثم ان خاص بك بن بلنكري قبض على الملك ملكشاه الذي خطب له بالسلطنة بعد مسعود وارسل الى اخيه الملك محمد سنة ثمان واربعين وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده ان يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد اليه فلما وصل اجلسه على تخت السلطنة اوائل صفر وخطب له بالسلطنة وخدمه وبالغ في خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم انه دخل الى الملك محمد ثاني يوم وصوله فقتله محمد وقتل معه زنكي الجاندار والقى برأسيهما فتفرق اصحابهما ولم ينتطح فيهما عنزان وكان ايدغدي التركماني المعروف بشملة مع خاص بك فنهاه عن الدخول الى الملك محمد فلم ينته فقتل وخاف شملة فنهب جشير الملك محمد ومضى طالبا خوزستان واخذ محمد من اموال خاص بك شيأ كثيرا واستقر محمد في السلطنة وتمكن وبقي خاص بك ملقى حتى اكلته الكلاب وكان صبيا تركمانيا اتصل بالسلطان مسعود فقدمه على سائر الامراء ثم كان هذا خاتمة امره

(ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج)

في هذه السنة تجمعت الفرنج وحشدت الفارس والراجل وساروا نحو نور الدين وهو ببلاد جوسلين ليمنعوه عن ملكها فوصلوا اليه وهو بدلوك فلما قربوا منه رجع اليهم ولقيهم وجرى المصاف بينهم عند دلوك واقتتلوا اشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج وقتل منهم واسر كثير وعاد نور الدين الى دلوك فملكها واستولى عليها ومما قيل في ذلك

اعدت بعصرك هذا الانيق * فتوح النبي واعصارها
فواطات يا حبذ أحدبها * واسررت من بدر ابدارها
وكان مهاجرها تابعيك * وانصار رأيك انصارها
فجددت اسلام سلمانها * وعمر جدك عمارها
وما يوم انب الا كذا * لئن طال بالنوع اشبارها
صدمت عزيمتها صدمة * اذابت مع الماء احجارها
وفي تل باشر باشرتهم * بزحف تسور اسوارها
وان دالكتهم دلوك فقد * شهدت فصدقت اخبارها

(ذكر الحرب بين سنجر والغورية)

في هذه السنة كان بين السلطان سنجر وبين الغورية حرب وكانت دولتهم اول ما قد ظهرت واول من ملك منهم رجل اسمه الحسين بن الحسين ملك جبال الغور ومدينة فيروزكوه وهي تقارب اعمال غزنة وقوي امره ولقب بعلاء الدين وتعرض الى اعمال ثم جمع جيشا وقصد هراة

أما ترى خلفا شيخ الملوك غدا
علوك من فتح العذراء بلدته
قد كان بالامس ملكا لا نظير له
فاليوم في الاسر لا ينتاش اسرته

وكان خلف بن أحمد مقصى الجناب من اطراف البلاد لسماحة كفه وغزارة سيبه * وافضاله على أهل العلم وحزبه * وقد مدح على ألسنة الشعراء والعلماء بما هو سائر * وذكره في الآفاق طائر * وقد كان جمع العلماء على تصنيف كتاب في تفسير كتاب الله تعالى لم يغادر فيه حرفا من أقاويل المفسرين * وتأويل المتأولين * ونكت المذكرين وأتبع ذلك بوجوه القراآت وعلل النحو والتصريف وعلامات التذكير والتأنيث * ووشحها بما رواه الثقات الاثبات من الحديث * وبلغني انه انفق عليهم مدة اشتغالهم بمعونته على جمعه وتدوينه عشرين ألف دينار ونسخته بنيسابور موجود في مدرسة الصابونية لكنها تستغرق عمر الكاتب وتستنفد حبر الناسخ الا ان يتقاسمها النساخ بالخطوط المختلفة وأخبرني أبو الفتح علي بن

محاصرا لها فنهب عسكره تاب وأوبة ومارباد من هراة الروذ وسار الى بلخ وحصرها فقاتله
الامير قماج ومعه جمع من الغز فغدروا به وصاروا مع الغوري فملك بلخ فلما سمع السلطان سنجر
بذلك سار اليه ليمنعه فثبت له علاء الدين واقتتلوا فانهزم الغورية وأسر علاء الدين وقتل من
الغورية خلق كثير لاسيما الرجالة واحضر السلطان سنجر علاء الدين بين يديه وقال له يا حسين
لو ظفرت بي ما كنت تفعل فاخرج له قيد فضة وقال كنت اقيدك بهذا وأحملك الى فيروزكوه
فخلع عليه سنجر ورده الى فيروزكوه فبقي بها مدة ثم انه قصد غزنة وملكها حينئذ بهرام شاه بن
مسعود بن محمود بن سبكتكين فلم يثبت بها بين يدي علاء الدين بل فارقها الى مدينة كرمان
وهي مدينة بين غزنة والهند وسكانها قوم يقال لهم ابغان وليست هذه بالولاية المعروفة
بكرمان فلما فارق بهرام شاه غزنة ملكها علاء الدين الغوري واحسن السيرة في اهلها
واستعمل عليهم اخاه سيف الدين واجلسه على تخت المملكة وخطب لنفسه ولاخيه سيف
الدين بعده ثم عاد علاء الدين الى بلد الغور وأمر اخاه ان يخلع على اعيان البلد خلعا نفيسة
ويصلهم بصلات سنية ففعل ذلك واحسن اليهم فلما جاء الشتاء ووقع الثلج وعلم اهل غزنة ان
الطريق قد انقطع اليهم فكاتبوا بهرام شاه الذي كان صاحبها واستدعوه اليهم فسار نحوهم
في عسكره فلما قارب البلد ثار اهله على سيف الدين فاخذوه بغير قتال وكان العلويون هم الذين
تولوا أسره وانهزم الذين كانوا معه فمنهم من نجا ومنهم من أخذ ثم انهم سودوا وجه سيف الدين
واركبوه بقرة وطافوا به البلد ثم صلبوه وقالوا فيه اشعارا يهجونه وغنوا بها حتى النساء فلما
بلغ الخبر الى اخيه علاء الدين الحسين قال شعرا معناه ان لم اقلع غزنة في مرة واحدة فلست
الحسين بن الحسين ثم توفي بهرام شاه وملك بعده ابنه خسروشاه وتجهز علاء الدين الحسين
وسار الى غزنة سنة خمسين وخمسمائة فلما بلغ الخبر الى خسروشاه سار عنها الى لهاوور وملكها
علاء الدين ونهبها ثلاثة ايام واخذ العلويين الذين اسروا اخاه فالقاهم من رؤس الجبال وخرب
المحلة التي صلب فيها واخذ النساء اللواتي قيل عنهن انهن كن يغنين بهجاء اخيه والغورية
فادخلهن حماما ومنعهن من الخروج حتى متن فيه وأقام بغزنة حتى اصلحها ثم عاد الى
فيروزكوه ونقل معه من أهل غزنة خلقا كثيرا وحملهم المخالي مملوءة ترابا فبنى به قلعة في
فيروزكوه وهي موجودة الى الآن وتلقب بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين
السلجوقية وقد تقدم سنة ثلاث واربعين وخمسمائة من أخبارهم وفيه مخالفة لهذا في بعض
الامر وكلاهما سمعناه ورأيناه في مصنفاتهم فلهذا ذكرنا الامرين وأقام الحسين على ذلك مدة
واستعمل ابني اخيه وهما غياث الدين وشهاب الدين

(ذكر ملك غياث الدين وشهاب الدين الغوريين)

لما قوي امر عمهما علاء الدين الحسين بن الحسين استعمل العمال والامراء على البلاد وكان
ابنا اخيه وهما غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام وشهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام فيمن
استعمل على بلد من بلاد الغور واسمه سنجة وكان غياث الدين يلقب حينئذ شمس الدين ويلقب
الآخر شهاب الدين فلما استعملهما احسنا السيرة في عملهما وعدلا وبذلا الاموال فمال الناس
اليهما وانتشر ذكرهما فسعى بهما من حسدهما الى عمهما علاء الدين وقال انهما يريدان

محمد البستي الكاتب قال كنت عملت فيه ثلاثة أبيات من غير قصد لتبليغها اياه لكنها سارت على ألسنة الرواة اليه فلم أشعر الا بصرة فيها ثلثمائة دينار أتحفني بها على يد بعض ثقاته صلة لي على ما قلته * والابيات هذه

خلف بن أحمد أحمد الاخلاف
أربى بسودده على الاسلاف
خلف بن أحمد في الحقيقة واحد
لكنه مرب على الآلاف
أضحى لآل الليث اعلام الورى
مثل النبي لآل عبد مناف

فقلت له قريب من هذه الصورة حديث أبي اسحق ابراهيم بن هلال الصابي وذلك ان رسول سيف الدولة كان قدم بلد السلام فطلب شيأ من شعره على لسان صاحبه فدافعه به الى ان أزف ارتحاله وأتاه عند الوداع مطالبه فاعطاه بعجالة الوقت قوله

ان كنت خنتك في المودة ساعة
فذممت سيف الدولة المحمودا
وزعمت ان له شريكا في العلا
وجحدته في فضله التوحيدا
قسما لو اني حالف بغموسها
لغريم دين ما أراد مزيدا

فلما عاد الرسول الى الحضرة

الوثوب بك وقتلك والاستيلاء على الملك فارسل عمه ما يستدعيهما اليه فامتنعا وكانا قد عملا
الشر فلما امتنعا جهز اليهما عسكرا مع قائد يسمى حروش الغوري فلما التقوا انهزم حروش
ومن معه وأسر هو وانضاف عليه واصحابه اليه وخلعا عليه واظهرا عصيان عمهما وقطعا
خطبته فتوجه اليهما علاء الدين وسار اخوهما ايضا اليه فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم
علاء الدين واخذ اسيرا وانهزم عسكره فنادى فيهم ابنا اخيه بالامان فاحضرا عمهما واجلساه
على التخت ووقفا في خدمته فبكى علاء الدين وقال هذان صبيان قد فعلا ما لو قدرت عليهما
لم افعله واحضر القاضي في الحال وزوج غياث الدين بابنته وجعله ولي عهده وبقي كذلك الى ان
مات فلما توفي ملك غياث الدين بعده وخطب لنفسه في الغور وغزنة بالملك وبقي كذلك الى ان
ملك الغز غزنة بعد موت علاء الدين عمه وانهبوها ونهبوها وبقيت بايديهم خمس عشرة سنة يسومون
على اهلها العذاب ويتابعون الظلم كعادتهم في كل بلدة ملكوها ولو انهم لما ملكوا احسنوا
السيرة في الرعايا لدام ملكهم فلم يزل الغز بغزنة هذه المدة وغياث الدين يقوى امره ويحسن
السيرة والناس يميلون اليه ويقصدونه محبة له

(ذكر ملك غياث الدين غزنة وما جاورها من البلاد)

لما قوي امر غياث الدين جهز جيشا كثيفا مع اخيه شهاب الدين الى غزنة فيه اصناف
الغورية والخلج والخراسانية فساروا اليها فلقيهم الغز فقاتلوهم فانهزم الغزية وثبت شهاب
الدين فيمن ثبت معه على ما اصابهم فقتله واخذ العلم وتركه على حاله فتراجع الغز ولم يكونوا
علموا بما كان من شهاب الدين فجاؤوا يطلبون علمهم فكلما جاء اليه طائفة قتلهم فأتى على
اكثرهم ودخل غزنة وتسلمها واحسن السيرة في اهلها وافاض العدل وسار من غزنة الى كرمان
وشنوران فملكهما ثم تعدى الى ماء السند وعمل على العبور الى بلاد الهند وقصد لهاوور وبها
يومئذ خسروشاه بن بهرام شاه المقدم ذكر والده فلما سمع خسروشاه بذلك سار فيمن معه الى ماء
السند فمنعه من العبور فرجع عنه وقصد فرشابور فملكها وما يليها من جبال الهند واعمال
الافغان والله اعلم

(ذكر ملك شهاب الدين لهاوور)

لما ملك شهاب الدين جبال الهند قوي امره وجنانه وعظمت هيبته في قلوب الناس واحبوه
لحسن سيرته فلما خرج الشتاء واقبل الربيع من سنة تسع وسبعين وخمسمائة سار قصد لهاوور
في جمع عظيم وحشد كثير من خراسان والغور وغيرهما فعبر الى لهاوور وحصرها وارسل الى
صاحبها خسروشاه والى اهلها يتهددهم ان منعوه واعلمهم انه لا يزول حتى يملك البلد وبذل
لخسروشاه الامان على نفسه واهله وماله ومن الاقطاع ما اراد وان يزوج ابنته بابن
خسروشاه على ان يطأ بساطه ويخطب لاخيه فامتنع عليه واقام شهاب الدين محاصرا له
مضيقا عليه فلما رأى اهل البلد والعسكر ذلك ضعفت نياتهم في نصرة صاحبهم فخذلوه فارسل
لما رأى ذلك قاضي البلد والخطيب يطلبون له الامان فاجاب شهاب الدين الى ذلك وحلف له
وخرج اليه ودخل الغورية الى المدينة وبقي كذلك شهرين مكرما عنده ثم ورد رسول
من غياث الدين الى شهاب الدين يأمره بانفاذ خسروشاه اليه

حمل اليه صرة فيها ثلثمائة
دينار موسومة باسمه وللشيخ
أبي الفتح البستي فيه أيضا
يمدحه
من كان يبغي علو الذكر
والشرفا
أو يبتغي عطف دهر قد نبا
وجفا
أو كان يأمل عند الله منزلة
تدنيه قرب الابرار والزلفا
أو كان يطلب دينا يستقيم به
ولا يرى عوجا فيه ولا جنفا
أو كان ينشد مما فاته خلفا
فليخدم الملك العدل الرضى
خلفا
الوارث العدل والعليا من
سلف
حثوا بطاعته فوجه من
سلفا
المؤثر القصد في اغضاء
موردة
فان اراد عطاء آثر السرفا
اذا التوى عنق ولى حكومته
سيفا اذا ما اقتضى حقا له
انتصفا
والسيف ابلغ للاعناق
موعظة
كم من صليف جعله حتفه
الصلفا
وان بدا كلف في وجه
مكرمة
جلاه بلا كلف عن وجهه
الكلفا
رضاه يصرف عن مستجيره
صرف الزمان اذا ما نابه
صرفا

(ذكر انقراض دولة سبكتكين)

لما انفذ غياث الدين الى اخيه شهاب الدين يطلب انفاذ خسروشاه اليه امره شهاب الدين بالتجهز والمسير فقال انا لا اعرف احالك ولا لي حديث الا معك ولا عين الا في عنقك فمناه وطيب قلبه وجهزه وسيره معه ولده واصحبهما جيشا يحفظونهما فسارا كارهين فلما بلغا فرشابور خرج اهلها اليهما يبكون ويدعون لهما فزجرهم الموكلون بهما وقالوا سلطانان يزوران سلطانا آخر لاي شيء تبكون وضربوهم فعادوا وخرج ولد خطيبها الى خسروشاه متوجعا له قال فلما دخلت عليه اعلمته رسالة ابي وقلت انه قد اعتزل الخطابة ولا حاجة بي الى خدمة غيركم فقال لي سلم عليه واعطاني فرجية فوطا ومصلى من عمل الصوفية وقال هذه تذكرة ابيك عند ابي فسلمها اليه وقل له ادرع الدهر كيفما دار وانشد بلسان فصيح

وليس كعهد الدار يا ام مالك * ولكن احاطت بالرقاب السلاسل

قال فانصرفت الى ابي وعرفته الحال فبكى وقال قد ايقن الرجل بالهلاك ثم رحلوا فلما بلغوا بلد الغور لم يجتمع بهما غياث الدين بل امر بهما فرفعا الى بعض القلاع فكان آخر العهد بهما وهو آخر ملوك آل سبكتكين وكان ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلثمائة فتكون مدة ولايتهم مائتي سنة وثلاث عشرة سنة تقريبا وكان ملوكهم من احسن الملوك سيرة ولاسيما جدهم محمود فان آثاره في الجهاد معروفة واعماله للآخرة مشهورة

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم بابائهم او مجدهم قعدوا

فتبارك الذي لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور فأف لهذه الدنيا الدنية تفعل هذا بابنائها نسأل الله تعالى ان يكشف عن قلوبنا حتى نراها بعين الحقيقة وأن يقبل بنا اليه وأن يشغلنا به عما سواه انه على كل شيء قدير هكذا ذكر بعض فضلاء خراسان أن خسروشاه آخر ملوك آل سبكتكين وقد ذكر غيره انه توفي في الملك وملك بعده ابنه ملكشاه وسنذكره في سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبالجملة فابتداء دولة الغورية عندي فيها خلف لو ينكشف الحق فاصلحه ان شاء الله تعالى

(ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطنة)

لما استقر ملكهم بلهاوور واتسعت مملكتهم وكثرت عساكرهم وأموالهم كتب غياث الدين الى أخيه شهاب الدين باقامة الخطبة له بالسلطنة وتلقب بالقاب السلاطين كان لقبه شمس الدين فتلقب غياث الدين والدنيا معين الاسلام قسيم أمير المؤمنين ولقب اخاه بمعز الدين ففعل شهاب الدين ذلك وخطب له بالسلطنة

(ذكر ملك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان)

لما فرغ شهاب الدين من اصلاح أمر لهاوور وتقرير قواعدها سار الى اخيه غياث الدين فلما اجتمع به استقر رأيهما على المسير الى خراسان وقصد مدينة هراة ومحاصرتها فسارا في العساكر الكثيرة اليها وكان بها جماعة من الاتراك السنجرية فنازلا البلد وحصراه وضيقا على من به فاستسلموا اليهما وارسلوا يطلبون الامان منهما فاجابهما الى ذلك وامناهم فتسلما البلد واخرجا من فيه من الامراء السنجرية واستناب فيه غياث الدين خرنك الغوري وسار غياث الدين واخوه الى فوشنج ملكشاه ثم الى باذغيس وكالين وبيوار فملكاها أيضا وتسلم

اذا اقشعر زمان من جدوبته
اغنى الورى وكفى جوده وكفا
بسخطه يدع الافلاك خائفة
والشمس حائرة والبدر منكسفا
يرى التوقف في يوم وغى وندى
وصاف عن رأي مشكل وقفا
لله نصل ضئيل في انامله
اعاد حظي سمينا بعد ما نحفا
يهين امواله كي يستفيد بها
عزا يؤثل في اعقابه الشرفا
والمرء للوم في احواله هدف
ان لم يكن ماله من دونه هدفا
لا يلحق الواصف المطري معانيه
وان يكن سابقا في كل ما وصفا

وانشدني ابو الفضل الهمداني قصيدته التي يمدح بها خلف بن احمد اولها

سماء الدجى ما هذه الحدق النجل
اصدر الدجى حال وجيد الضحى عطل
لك الله من عزم اجوب جيوبه
كأني في اجفان عين الردى كحل

وفيها يذكر اباه بهمذان
واستقباله الحجيج للسؤال

ذلك جميعه غياث الدين وأحسن السيرة في أهل البلاد ورجع الى فيروز كوه ورجع شهاب الدين الى غزنة وكان ينبغي ان حوادث الغورية تذكر في السنين واتبعناها بعضها ببعض بعضا ولان فيما لم يعرف تاريخه فتركناه

ذكر ملك شهاب الدين مدينة آجرة من بلد الهند

لما رجع شهاب الدين من خراسان الى غزنة أقام بها حتى أراح واستراح هو وعساكره ثم سار الى بلد الهند فحاصر مدينة آجرة وبها ملك من ملوك الهند فلم يظفر منه بطائل وكان للهندي زوجة غالبة على أمره فراسلها شهاب الدين أنه يتزوجها فأعادت الجواب انها لا تصلح له ولكن لها ابنة جميلة تزوجه اياها فأرسل اليها يجيبها الى التزويج بابنتها فسقت زوجها سما فمات وسلمت البلد اليه فلما تسلمه أخذ الصبية فأسلمت وتزوجها وحملها الى غزنة وأجرى عليها الجرايات الوافرة ووكل بها من علمها القرآن وتشاغل عنها فتوفيت هي بعد عشر سنين ولم يرها ولم يقربها فبنى لها مشهدا ودفنها فيه وأهل غزنة يزورون قبرها ثم عاد الى بلد الهند فذلل له صعابها وتيسر له فتح الكثير من بلادهم ودوخ ملوكهم وبلغ منهم ما لم يبلغه احد قبله من ملوك المسلمين

ذكر ظفر الهند على المسلمين

لما اشتدت نكاية شهاب الدين في بلاد الهند واثخانه في اهلها واستيلاؤه عليهم اجتمع ملوكهم وتآمروا بينهم ووبخ بعضهم بعضا فاتفق رأيهم على الاجتماع والتعاضد على حربه فجمعوا عساكرهم وحشدوا وأقبل اليهم الهنود من كل فج عميق على الصعب والذلول وجاؤا بحدهم وحديدهم وكان الحاكم على جميع الملوك المجتمعين امرأة هي من أكبر ملوكهم فلما سمع باجتماعهم ومسيرهم اليه تقدم هو أيضا اليهم في عسكر عظيم من الغورية والخلج والخراسانية فالتقوا واقتتلوا فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم المسلمون وركبهم الهنود يقتلون ويأسرون وأثخنوا فيهم وأصاب شهاب الدين ضربة بطلت منها يده اليسرى وضربة أخرى على رأسه سقط منها الى الارض وحجز الليل بين الفريقين فاحتمل شهاب الدين جماعة من غلمانه الاتراك في ظلمة الليل وهم يطلبونه في القتلى ويبكون وقد رجع الهنود الى ورائهم فكلموه وهو على ما به من الجهد فجاؤا اليه مسرعين وحملوه على رؤسهم رجالة يتداولون حمله حتى بلغوا مدينة آجرة مع الصباح وشاع خبر سلامته في الناس فجاؤا اليه يهنؤنه من أقطار البلاد فأول ما عمل انه أخذ أمراء الغورية الذين انهزموا عنه وأسلموه فملأ مخالي خيلهم شعيرا وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم فأكلوه ضرورة وبلغ الخبر الى أخيه غياث الدين فأرسل اليه يلومه على عجلته واقدامه وأنفذ اليه جيشا عظيما

ذكر ظفر المسلمين بالهند

لما سلم شهاب الدين وعاد الى آجرة وأتاه المدد من أخيه غياث الدين وعاد الهنود جددوا سلاحهم ووفروا جمعهم وأقاموا عوض من قتل منهم وسارت ملكتهم وهم معها في عدد يضيق عنه الفضاء فراسلها شهاب الدين يخدعها بأنه يتزوجها فلم تجبه الى ذلك وقالت اما الحرب واما ان تسلم بلاد الهند وتعود الى غزنة فأجابها الى العود الى غزنة وانه يستأذن أخاه

من شره والبعث عن وطنه
ووطره
يذكرني قرب العراق
وديعة
لدي الله لا يبليه مال
ولا أهل
حنته النوى عني وأضنته
غيبتي
وعهدي به كالليث يحرز جروه
عيل
اذا ورد الحاج لاقى رفاقهم
بقوارق دمع حسها الثجل
والسحل
يسائلهم كيف ابنه أين
داره
الام انتهى لم يسد حله
شغل
أضاقت به حال أطالت به يد
أأخره نقص أقتمه فضل
يقولون وافى حضرة الملك
الذي
له الكنف المأمول والنائل
الجزل
فقيد له طرف وحلت لسعي
وخير به قصر ودر له نزل
وفاضت عليه مطرة خلقة
بها الله وادى عن ولايتها
عزل
يذكرهم بالله الاصدقتم
لدي أجداث ما تقولون أم
هزل
طويتنا لقتبالك المأمول
واقنا
بعثك عن أمثالهم أبداً لو
ولما بلونا كم تلونا مديحكم
فيا طيب ما نبلو ويا صدق

غياث الدين فعل ذلك مكرا وخديعة وكان بين العسكرين نهر وقد حفظ الهنود المخاضات فلا يقدر أحد من المسلمين أن يجوزه وأقاموا ينتظرون ما يكون من جواب غياث الدين بزعمهم فبينما هم كذلك اذ وصل انسان هندى الى شهاب الدين وأعلمه انه يعرف مخاضا قريبا من عسكر الهنود وطلب ان يرسل معه جيشا يعبرهم المخاض ويكبسون الهنود وهم غارون آمنون فخاف شهاب الدين أن تكون خديعة ومكرا فاقام له ضمناء من أهل آجرة والمولتان فارسل معه جيشا كثيفا وجعل عليهم الامير الحسين بن خرميل الغورى وهو الذى صار بعد صاحب هراة وكان من الشجاعة والرأى بالمنزلة المشهورة فسار الجيش مع الهندى فعبروا النهر فلم يشعر الهنود الا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم فاشتغل الموكلون بحفظ المخاضات فعبر شهاب الدين وباقى العساكر وأحاطوا بالهنود وأكثروا القتل فيهم ونادوا بشعار الاسلام فلم ينج من الهنود الا من عجز المسلمون عن قتله وأسره وقتلت ملكتهم وتمكن شهاب الدين بعد هذه الوقعة من بلاد الهند وأمن معرة فسادهم والتزموا له بالاموال وسلموا اليه الرهائن وصالحوه وأقطع مملوكه قطب الدين ايبك مدينة دهلى وهى كرسى الممالك التى فتحها من الهند فارسل عسكرا من الخلج مع محمد بن بختيار فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل اليها مسلم قبله حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق وقد حدثنى صديق لى من التجار بوقعتين تشبه هاتين الوقعتين المذكورتين وبينهما بعض الخلاف وقد ذكرناهما سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى يعقوب الكاتب ببغداد وكان يسكن بالمدرسة النظامية وحضر متولى التركات وختم على الغرفة التى كان يسكنها بالمدرسة فثار الفقهاء وضربوا المتولى وهذه عادتهم فيمن يموت بها وليس له وارث فقبض حاجب الباب على رجلين من الفقهاء وعاقبهما وحبسهما فاغلق الفقهاء المدرسة وألقوا كرسى الوعاظ فى الطريق وصعدوا اسطح المدرسة ليلا واستغاثوا وتركوا الادب وكان حينئذ مدرسهم الشيخ أبا النجيب فجاء وألقى نفسه تحت التاج يعتذر فعفى عنه وفيها توفى حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وميافارقين وكانت ولايته نيفا وثلاثين سنة وتولى بعده ابنه نجم الدين ألبى وفيها مات أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الارموى الشافعى المحدث ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة وفيها توفى أبو الاسعد عبد الرحمن القشيرى فى شوال وهو شيخ شيوخ خراسان وفيها فى المحرم باض ديك ببغداد بيضة وباض بازى بيضتين وباضت نعامة لاذكر معها بيضة

(ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام سنجر من الغز ونهبهم خراسان وما كان منهم)

فى هذه السنة فى المحرم انهزم السلطان سنجر من الاتراك الغز وهم طائفة من الترك مسلمون كانوا بما وراء النهر فلما ملك الخطا الترجوهم منه كما ذكرنا فقصدوا خراسان وكانوا خلقا كثيرا فاقاموا بنواحى بلخ يرعون فى مراعيها وكان لهم امراء اسم احدهم دينار والآخر بختيار والآخر طوطى والآخر ارسلان والآخر جغر والآخر محمود فاراد الامير قماج وهو

ماتلو

وياملكا أدنى مناقبه العلى
وأيسر ما فيه السماحة والبذل
هو البدر الا انه البحر زاخرا
سوى انه الضرغام لكنه الوبل
محاسن يبديها العيان كما ترى *
وان نحن حدثنا بها دفع العقل
فلولا وسام المكارم باسمه
ليهنك أن لم تبق مكرمة غفل
وجارك أفراد الملوك الى الندى
وحقا لقد اعجزتهم ولك الفضل
سمابك من عمرو ويعقوب محتد
كذا الاصل مفخورا به وكذا النسل
وانشدنى السيد ابو جعفر محمد بن موسى الموسوى بيتين ذكر انهما مكتوبان على باب داره بسجستان وهما
من سره ان يرى الفردوس عالية
فلينظرن الى ايوان كيوان
اوسره ان يرى الرضوان عن كثب
بملء عينيه فلينظر الى الباني
نعم وصفت سجستان للسلطان فهدأت عيون الفتن وانقطعت اطماع

مقطع بلخ ابعادهم فصانعوه وبذلوا له بذلا فعاد عنهم ثم عادوا على حالة حسنة لا يؤذون احدا ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ثم ان قماج عاودهم وأمرهم بالانتقال عن بلده فامتنعوا وانضم بعضهم الى بعض واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك فسار قماج اليهم في عشرة آلاف فارس فجاء اليه أمراؤهم وسألوه أن يكف عنهم ويتركهم في مراعيهم ويعطونه من كل بيت مائتي درهم فلم يجبهم الى ذلك وشدد عليهم في الانتزاح عن بلده فعادوا عنه واجتمعوا وقاتلوه فانهزم قماج ونهبوا ماله ومال عسكره وأكثروا القتل في العسكر والرعايا واسترقوا النساء والاطفال وعملوا كل عظيمة وقتلوا الفقهاء وخربوا المدارس وانتهت الهزيمة بقماج الى مرو وبها السلطان سنجر فاعلمه الحال فراسلهم سنجر يتهددهم ويأمرهم بمفارقة بلاده فاعتذروا وبذلوا بذلا كثيرا ليكف عنهم ويتركهم في مراعيهم فلم يجبهم الى ذلك وجمع عساكره من أطراف البلاد واجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس وقصدهم ووقع بينهم حرب شديد فانهزمت عساكر سنجر وانهزم هو أيضا وتبعهم الغز قتلا واسرا فصار قتلى العسكر كالتلال وقتل علاء الدين قماج وأسر السلطان سنجر وأسر معه جماعة من الامراء فأما الامراء فضربوا اعناقهم واما السلطان سنجر فان امراء الغز اجتمعوا وقبلوا الارض بين يديه وقالوا نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك فقد علمنا انك لم ترد قتالنا وانما حملت عليه فأنت السلطان ونحن العبيد فمضى على ذلك شهران او ثلاثة ودخلوا معه الى مرو وهي كرسي ملك خراسان وطلبها منه بختيار اقطاعا فقال السلطان هذه دار الملك ولا يجوز ان تكون اقطاعا لاحد فضحكوا منه وحبق له بختيار بفمه فلما رأى ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خانكاه مرو وتاب عن الملك واستولى الغز على البلاد وظهر منهم من الجور ما لم يسمع بمثله وولوا على نيسابور واليا فقسط على الناس كثيرا وعسفهم وضربهم وعلق في الاسواق ثلاث غرائر وقال اريد ملء هذه ذهبا فثار عليه العامة فقتلوه ومن معه فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها نهبا مجحفا وجعلوها قاعا صفصفا وقتلوا الكبار والصغار واحرقوها وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد كلها فممن قتل الحسين بن محمد الارسابندي والقاضي علي بن مسعود والشيخ محيي الدين محمد ابن يحيى واكثر الشعراء في مراثي محمد بن يحيى فممن قال فيه علي بن ابراهيم الكاتب

مضى الذي كان يحيي الدين من فيه * يسيل بالفضل والافضال واديه
مضى ابن يحيى الذي قد كان صوب حيا * لا بل شهور وما بالدين يحييه
خلا خراسان من علم ومن ورع * لما نعاه الى الآفاق ناعيه
لما ماتوه مات الدين وأسفا * من ذا الذي بعد يحيى الدين يحييه

ثم تعذر وصف ما جرى منهم بتلك البلاد جميعها ولم يسلم من خراسان شيء لم تنهبه الغز غير هراة ودهستان لانها كانت حصينة فامتنعت وقد ذكر بعض مؤرخي خراسان هذه الاخبار بما فيه زيادة وضوح وقال ان هؤلاء الغز قوم انتقلوا من نواحي الثغور اقاصي الترك الى ما وراء النهر في ايام المهدي واسلموا واستنصر بهم المقنع صاحب المخاريق والشعبذة حتى تم امره فلما رأت العساكر اليه خذله هؤلاء الغز واسلموه وهذه عادتهم في كل دولة كانوا فيها وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الخانية الخانية الاتراك لما قدر عليهم وطردوهم من اوطانهم

الخليفة بها عن التعصب
والتحزب ، واقتصرت
ابصارهم دون الترتب
والتقلب ، ورجع السلطان
الى غزنة باهي الامر عالي
الظفر والنصر ، قد صنع الله
له في ايامه ، وسدد نحو
المراد سهامه ، وشهره
بافتراع المدينة العذراء ،
واستصفاء المملكة الغراء ،
واطلاع ذروة الرجاء ،
وادراع لامة العز والعلاء ،
وانشدني ابو منصور
الثعالبي لنفسه في فتح
سجستان من قصيدة هذه
الابيات

سعدت بغرة وجهك الايام
وتزينت ببقائك الاعوام
وتصرفت بك في المعالي همة
تعيا بها الافهام والاوهام
ولقد فرشت مهاد عدلك
فاغتدت
تتوارد الآساد والآرام
واقتض سيف علاك كل
مدينة
بكر عليها للاياس ختام
حتى زرنج استغاثت
وتمنعت
فكأنها الاعلى لك حرام
فقمعتها باوليائها وفضضتها
نفراهم لقناتك الاكمام
وقديمها والايام تشدق
الورى
بنا تجيد تنشده الايام
قدبيا نصر الله والفتح الذي
تزهى بكتبة وصفه الاقلام

الامير زنكي بن خليفة الشيباني المستولي على حدود طخارستان اليه وانزلهم بلاده وكانت بينه
وبين الامير قماج عداوة احكمتها الايام للمجاورة التي بينهما وكل منهما يريد أن يعلو على الآخر
ويحكم عليه فتقوى بهم زنكي وساروا معه الى بلخ لمحاربة قماج فكاتبهم قماج فمالوا اليه
وخذلوا زنكي عند الحرب فاخذ زنكي وابنه اسيرين فقتل قماج بن زنكي وجعل يطعم اباه لحمه
ثم قتل الاب ايضا واقطع قماج الغز مواضع واباحهم مراعي بلاده فلما قام الحسين بن الحسين
الغوري وقصد بلخ خرج اليه قماج وعساكره ومعه الغز ففارقه الغز وانضموا الى الغوري حتى
ملك مدينة بلخ فسار السلطان سنجر الى بلخ ففارقها الغوري بعد قتال انهزم منه ثم دخل الى
السلطان سنجر لعجزه عن مقاومته فرده الى غزنة وبقي الغز بنواحي طخارستان وفي نفس قماج
منهم الغيظ العظيم لما فعلوه معه فاراد صرفهم عن بلاده فتجمعوا وانضم اليهم طوائف من الترك
وقدموا عليهم ارسلان بوقا التركي فجمع قماج عسكره ولقيهم فاقتتلوا يوما كاملا الى الليل
فانهزم قماج وعسكره واسر هو وابنه ابو بكر فقتلوهما واستولوا على نواحي بلخ وعاثوا فيها
وافسدوا بالنهب والقتل والسلب وبلغ السلطان سنجر الخبر فجمع عساكره وسار اليهم فراسلوه
يعتذرون ويتنصلون فلم يقبل عذرهم ووصل اليهم مقدمة السلطان وفيها محمد بن أبي بكر بن
قماج المقتول والمؤيد اي أبه في المحرم من سنة ثمان واربعين وخمسمائة ووصل بعدهم السلطان
سنجر فالتقاه الغز بعد ان ارسلوا يعتذرون ويبذلون الاموال والطاعة والانقياد الى كل
ما يؤمرون به فلم يقبل سنجر ذلك منهم وسار اليهم فلقوه وقاتلوه وصبروا له ودام قتالهم فانهزم
عسكر سنجر وهو معهم فتوجهوا الى بلخ على اقبح صورة وتبعهم الغز واقتتلوا مرة ثانية فانهزم
السلطان سنجر ايضا ومضى منهزما الى مرو في صفر من السنة فقصد الغز اليها فلما سمع العسكر
الخراساني بقربهم منهم اجفلوا من بين ايديهم هاربين لما دخل في قلوبهم من خوفهم والرعب
منهم فلما فارقها السلطان والعسكر دخلها الغز ونهبوها افحش نهب واقبحه وذلك في جمادى
الاولى من السنة وقتلوا بها كثيرا من اهلها وأعيانها منهم قاضي القضاة الحسن بن محمد
الارسابندي والقاضي علي بن مسعود وغيرهما من الائمة العلماء ولما خرج سنجر من مرو وقصد
بوزابة واخذه الغز اسيرا واجلسوه على تخت السلطنة على عادته وقاموا بين يديه وبذلوا له
الطاعة ثم عاودوا الغارة على مرو في رجب من السنة فمنعهم اهلها وقاتلوهم قتالا شديدا بذلوا
فيه جهدهم وطاقتهم ثم انهم عجزوا فاستسلموا اليهم فنهبوها اقبح من النهب الاول لم يتركوا بها
شيأ وكان قد فارق سنجر جميع امراء خراسان ووزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك ولم
يبق عنده غير نفر يسير من خواصه وخدمه فلما وصلوا الى نيسابور احضروا الملك سليمان
شاه ابن السلطان محمود فوصل الى نيسابور تاسع عشر جمادى الآخرة من السنة فاجتمعوا عليه
وخطبوا له بالسلطنة وسار في هذا الشهر جماعة من العسكر السلطاني الى طائفة كثيرة من
الغز فاوقعوا بهم وقتلوا منهم كثيرا وانهزم الباقون الى امرائهم الغزية فاجتمعوا
معهم ولما اجتمعت العساكر على الملك سليمان شاه وساروا الى مرو ويطلبون الغز فبرز الغز
اليهم فساعة رآهم العسكر الخراساني انهزموا وولوا على ادبارهم وقصدوا نيسابور وتبعهم
الغز فمروا بطوس وهي معدن العلماء والزهاد فنهبوها وسبوا نساءها وقتلوا رجالها وخربوا

بأجل احوال واين مقدم
واتم اقبال يليه دوام
ورحم الله البديع ابا الفضل الهمداني حيث يقول في السلطان يمين الدولة وامين الملة

تعالى الله ماشاء
وزاد الله ايماني
أأفريدون في التاج
ام الاسكندر الثاني
ام الرجعة قد عادت
الينا بسليمان
اظلت شمس محمود
على انجم سامان
وامسى آل بهرام
عبيد الابن خاقان
اذا ما ركب الفيل
لحرب اوليدان
رأت عيناك سلطانا
على منكب شيطان
فمن واسطة الهند
الى ساحة جرجان
ومن قاصية السند
الى أقصى خراسان
على مقتبل العمر
وفي مفتتح الشان
فيوما رسل الشاه
ويوما رسل الخان
فما يعزب بالمغر
ب عن طاعتك اثنان
لك السرح اذا شئت
على كاهل كيوان
ابا والي بغداد
ويا صاحب غمدان
تأمل ماتي فيل
على سبعة اركان
يقابن اساطين
ويلعبن بثعبان

مساجدها وما سكن اهلها وسلم من جميع ولاية طوس الا البلد الذى فيه مشهد على بن موسى الرضا ومواضع أخر يسيرة لها اسوار ومن قتل من اعيان اهلها امامها محمد المارشكى ونقيب العلويين بها على الموسوى وخطيبها اسمعيل بن الحسن وشيخ شيوخها محمد بن محمد وافتوا من بها من الشيوخ الصالحين وساروا منها الى نيسابور فوصلوا اليها فى شوال سنة تسع واربعين ولم يجدوا دونها امانا ولا مدافعا فنهبوها نهبا ذريعا وقتلوا اهلها قتلا كثيرا حتى ظنوا انهم لم يبقوا بها احدا حتى انه احصى فى محلتين خمسة عشر الف قتيل من الرجال دون النساء والصبيان وسبوا نساءها واطفالها واخذوا اموالها وبقى القتلى فى الدروب كالتلال بعضهم فوق بعض واجتمع اكثر اهلها بالجامع المنيعى فحصروا به فحصرهم الغز فعجز اهل نيسابور عن منعهم فدخل الغز اليهم فقتلوهم عن آخرهم وكانوا يطلبون من الرجال المال فاذا اعطاهم احد قتلوه وقتلوا كثيرا من أئمة العلماء والصالحين منهم محمد بن يحيى الفقيه الشافعى الذى لم يكن فى زمانه مثله وكان رحلة الناس من اقصى الغرب والشرق اليه ورثاه جماعة من العلماء منهم ابو الحسن على بن ابى القاسم البيهقى فقال

يا سافكا دم عالم متبحر • قد طار فى اقصى الممالك صيته
بالله قل لى يا ظلوم ولا تخف • من كان يحيى الدين كيف تميته

منهم الزاهد عبد الرحمن بن عبد الصمد الاكاف واحمد بن الحسين الكاتب سبط القشيرى وابو البركات الفراوى والامام على الصباغ المتكلم واحمد بن محمد بن حامد وعبد الوهاب الملقابادى والقاضى صاعد بن عبد الملك بن صاعد والحسن بن عبد الحميد الرازى وخلق كثير من الائمة والزهاد والصالحين واحرقوا ما بها من خزائن الكتب ولم يسلم الا بعضها وحصروا شارستان وهى منيعة فاحاطوا بها وقاتلهم اهلها من فوق سورها وقصدوا جوين وبذلوا نفوسهم لله تعالى واحموا بيضتهم والباقى الى النهب والقتل عليه ثم قصدوا اسفراين فنهبوها وخربوها وقتلوا فى اهلها فاكثروا وممن قتل عبد الرشيد الاشعثى وكان من اعيان دولة السلطان فتركها واقبل على الاشتغال بالعلم وطلب الآخرة وابو الحسن الفندورجى وكان من ذوى الفضائل لاسيما فى علم الادب ولما فرغ الغز من جوين واسفراين عادوا الى نيسابور ونهبوا ما بقى فيها بعد النهب الاول وكان قد لحق بشهرستان كثير من اهلها فحصرهم الغز واشرفوا عليها ونهبوا ما كان فيها لاهلها ولاهل نيسابور وهتكوا الحرم والاطفال وفعلوا ما لم يفعله الكفار مع المسلمين وكان العيارون ايضا ينهبون نيسابور اشد من نهب الغز ويفعلون اقبح من فعلهم ثم ان السلطان سليمان شاه ضعف وكان قبيح السيرة سيئ التدبير واذ وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك توفى فى شوال سنة ثمان واربعين فضعف امره واستوزر سليمان شاه بعده ابنه نظام الملك ابا على الحسن بن طاهر واختل امر دولته بالكلية ففارق خراسان فى صفر سنة تسع واربعين وعاد الى جرجان فاجتمع الامراء وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن اخت السلطان سنجر وخطبوا له على منابر خراسان واستدعوه اليهم فملكوه امورهم وانقادوا له فى شوال سنة تسع واربعين وخمسمائة وساروا معه الى الغز وهم يحاصرون هراة وجرت بينهم حروب كان الظفر فيها كثيرا للغز ورحلوا فى جمادى الاولى من سنة خمسين وخمسمائة وسار معهم من على هراة الى مرو

عجائب المخلوقات
يشهرت بالوان
ويأجوج ومأجوج
من بلد قوجان
واستيلاء السلطان على
سجستان المعروف
بقصى الحاجب احمد
المشهور • من قواد ناصر
الدين سبكتكين • مختلف
فى السياسة سيرته • واستبد
فى الرفق بالبرى • والعنف
على المريب بصيرته • ثم ان
طوائف من خوم الفتنة
• ورسوم الشر والعصبية
ابطرتهم رفاهية العيش
ورفاغة الامن ونصرة
المال • وسعة الحال
فصدقوا بينهم • بتقديم من
يضمهم • على العصيان
ويزعمهم • فى الخروج على
السلطان • تعرضا للبلاء •
وتمسكا بالشقاء • واجتراء
على سوء القضاء • فابرزوا
صفحة الخلاف • واخترطوا
نصل الشر من الغلاف
فلما رأى السلطان • انتقاض
سجستان • على خاقانه
وأمنائه • بادر اليها فى عشرة
آلاف رجل من نخب
العسكر • ومعه صاحب
الجيش أبو المظفر بن ناصر
الدين والتونتاش الحاجب
وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم
الطائى وحصر المردة العتاة
فى حصار أرك ووكل شمول
عسكره بجوانب الاسوار
واقتسم بينهم عال ذلك

وعاودوا المصادرة لاهلها وسار الخان محمود بن محمد الى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد على ما نذكره وراسل الغز فى الصلح فاصطلحوا فى رجب من سنة خمسين وخمسمائة هدنة على دخل وسيرد باقى اخبارهم سنة اثنتين وخمسين

(ذكر ملك المؤيد نيسابور وغيرها)

كان للسلطان سنجر مملوك اسمه اى ابه ولقبه المؤيد فلما كانت هذه الفتنة تقدم وعلا شأنه واطاعه كثير من الامراء فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وابيورد وشهرستان والدامغان وازاح الغز عن الجميع وقتل منهم خلقا كثيرا واحسن السيرة وعدل فى الرعية واستمال الناس ووفر الخراج على اهله وبالغ فى مراعاة ارباب البيوت فاستقرت البلاد له ودانت له الرعية لحسن سيرته وعظم شأنه وكثرت جموعه فراسله خاقان محمود بن محمد فى تسليم البلاد والحضور عنده فامتنع وترددت الرسل بينهم حتى استقر على المؤيد مال يحمله الى الملك محمود فكف عنه محمود واقام المؤيد بالبلاد هو والسلطان محمود

(ذكر ملك اينانج الرى)

كان اينانج احد مماليك السلطان سنجر فلما كان من فتنة الغز ما ذكرناه هرب من خراسان ووصل الى الرى فاستولى عليها واقام بها وارسل الى السلطان محمد شاه بن محمود صاحب همدان واصفهان وغيرهما يخدمه وهاداه وارضاه واظهر له الطاعة وبقى بها الى ان مات السلطان محمد فاستولى على عدة بلاد تجاور الرى فملكها فعظم امره وعلا شأنه وصارت عساكره عشرة آلاف فارس فلما ملك سليمان شاه همدان على ما نذكره حضر عنده واطاعه لانسه به كان ايام مقام سليمان شاه بخراسان فتقوى امره بذلك

(ذكر قتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس)

فى هذه السنة فى المحرم قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله قتله ربيبه عباس بن ابى الفتوح ابن يحيى الصنهاجى اشار اليه بذلك الامير أسامة بن منقذ ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فامر ولده نصرا فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وولى الوزارة بعده ربيبه عباس وكان عباس قد قدم من المغرب كما ذكرناه الى مصر وتعلم الخياطة وكان خياطا حسنا فلما تزوج ابن السلار بأمه احبه واحسن تربيته فجازاه بان قتله وولى بعده وكانت الوزارة فى مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين وقل ان وليها احد بعد الافضل الا بحرب وقتل وما شاكل ذلك فلذلك ذكرناهم فى تراجم مفردة والله اعلم

(ذكر الحرب بين العرب وعساكر عبد المؤمن)

فى هذه السنة فى صفر كانت الحرب بين عسكر عبد المؤمن والعرب عند مدينة شطيف وسبب ذلك ان العرب وهم بنو هلال والاثبج وعدى ورياح وزغب وغيرهم من العرب لما ملك عبد المؤمن بلاد بنى حماد اجتمعوا من ارض طرابلس الى اقصى المغرب وقالوا ان جاورنا عبد المؤمن اجلانا من المغرب وليس الرأى الا القاء الجد معه واخراجه من البلاد قبل ان يتمكن وتحالفوا على التعاون والتظافر وان لا يخون بعضهم بعضا وعزموا على لقائه بالرجال والاهل والمال ليقاتلوا قتال الحريم واتصل الخبر بالملك رجار الفرنجى صاحب صقلية فارسل الى امراء

الحصار * ونشبت الحرب بعد العصر يوم الجمعة للنصف من ذى الحجة سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وخاض السجزية غمرتها ساعة * متوازرين على المدافعة * ومتضافرين على الممانعة والمقارعة * حتى اذا أوهنهم السلاح * واثخنتهم الجراح لاذوا بالانجحار والاعتصار بسور الحصار * وظهر أولياء السلطان على بعض جوانب السور * فى ظلمة الديجور فتنادوا بشعار الملك المنصور فانهزم الفجار * وملك عليهم الحصار * وبسطت أيدى القتل والضرب على من تضمنتهم الدور * وأظلتهم المساكن والقصور * فمن رؤس منبوذة * وأعناق مجذوذة * ووجوه مكبوبة ودماء على الارض مصبوبة وهام الآخرون على وجوههم يتساقطون * من كسع الادبار فى الآثار * ويلوذون * من ضرب الاخادع * بالمخادع ويفزعون * من شن الغارات الى المغارات * والطلب بقطع دابرهم * ويلحق بالاول آخرهم * حتى خلت سجستان من عيث شرارهم * وسلمت من نث شرارهم * وفتح الله تلك المملكة على السلطان فتحا ثانيا * وملكا تاليا * فلم يسمع على مرور الايام * بمثله فتحا فى غلق الظلام * فاستفاضت هيبة السلطان * فى أهل

العرب وهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن وغيرهم يحثهم على لقاء عبد المؤمن ويعرض عليهم ان يرسل اليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم على شرط أن يرسلوا اليه الرهائن فشكروه وقالوا ما بنا حاجة الى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين وساروا فى عدد لا يحصى وكان عبد المؤمن قد رحل من بجاية الى بلاد المغرب فلما بلغه خبرهم جهز من الموحدين ما يزيد على ثلاثين الف فارس واستعمل عليهم عبد الله بن عمر الهنتاتى وسعد الله بن يحيى وكان العرب أضعافهم فاستجرهم الموحدون وتبعهم العرب الى ان وصلوا الى ارض سطيف بين جبال فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن والعرب على غير اهبة والتقى الجمعان واقتتلوا اشد قتال واعظمه فانجلت المعركة عن انهزام العرب ونصرة الموحدين وترك العرب جميع مالهم من اهل ومال واثاث ونعم فاخذ الموحدون جميع ذلك وعاد الجيش الى عبد المؤمن بجميعه فقسم جميع الاموال على عسكره وترك النساء والاولاد تحت الاحتياط ووكل بهم من الخدم الخصيان من يخدمهم ويقوم بحوائجهم وامر بصيانتهم فلما وصلوا معه الى مراكش انزلهم فى المساكن الفسيحة واجرى لهم النفقات الواسعة وامر عبد المؤمن ابنه محمدا ان يكاتب امراء العرب ويعلمهم ان نساءهم واولادهم تحت الحفظ والصيانة وانه قد بذل لهم الامان والكرامة فلما وصل كتاب محمد الى العرب سارعوا الى المسير الى مراكش فلما وصلوا اليها اعطاهم عبد المؤمن نساءهم واولادهم واحسن اليهم واعطاهم أموالا جزيلة فاسترق قلوبهم بذلك واقاموا عنده وكان بهم حفيا واستعان بهم على ولاية ابنه محمد العهد على ما نذكره سنة احدى وخمسين

(ذكر ملك الفرنج مدينة بونة وموت رجار وملك ابنه غليالم)

فى هذه السنة سار اسطول رجار ملك الفرنج بصقلية الى مدينة بونة وكان المقدم عليهم فتاه فيلب المهدوى فحصرها واستعان بالعرب عليها فاخذها فى رجب وسبى اهلها وملك ما فيها غير انه اغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا باهليهم واموالهم الى القرى فاقام بها عشرة ايام وعاد الى المهدية وبعض الاسرى معه وعاد الى صقلية فقبض رجار عليه لما اعتمد من الرفق بالمسلمين فى بونة وكان فيلب يقال انه وجميع فتيانه مسلمون يكتمون ذلك وشهدوا عليه انه لا يصوم مع الملك وانه مسلم فجمع له رجار الاساقفة والقسوس والرهبان فحكموا بان يحرق فاحرق فى رمضان وهذا اول وهن دخل على المسلمين بصقلية ولم يمهل الله رجار بعده الا يسيرا حتى مات فى العشر الاول من ذى الحجة من السنة وكان مرضه الخوانيق وكان عمره قريب ثمانين سنة وكان ملكه نحو عشرين سنة ولما مات ملك بعده ابنه غليالم وكان فاسد التدبير سيء التصور فاستوزر مايو البرصانى فاساء التدبير فاختلفت عليه حصون من جزيرة صقلية وبلاد قلورية وتعدى الامر الى افريقية على ما نذكره

(ذكر وفاة بهرام شاه صاحب غزنة)

فى هذه السنة فى رجب توفى السلطان بهرام شاه بن مسعود بن ابراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بها وكانت ولاية بهرام شاه ستا وثلاثين سنة وكان عادلا حسن السيرة جميل الطريقة محبا للعلماء مكرما لهم باذلا لهم الاموال الكثيرة جامعا للكتب تقرأ بين يديه

سجستان * حتى نامت لها اليم عن دبيب العقارب * وصرير الجنادب * وأنشد بعض أهل العصر * فى تهنئة النصر

يا أيها الملك الذى
زند المعالى يقتدح
لا زال ثغرك باسما
من أجل ثغر تفتتح

وانشدنى أبو منصور الثعالبى فى هذا الفتح الشهير * والفتح الكبير * يمدح السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * بهذه الابيات

يا خاتم الملك ويا قاهر الد *
أملاك بين الاخذ والصفح
عليك عين الله يا فاتح الـ
أرض مستولا على الفتح
راياته تنطق بالنصر بل
تكاد تتلو سورة الفتح
كم أثر فى الدين أثرته
يقصر عنه أثر الصبح
وكم يد للملك شيدتها
تثنى عليها ألسن المدح
فاسعد بايامك واستغرق الـ
أعداء بالكبح وبالذبح
ودم رفيعا عالى القدح
تمتع الملك على القدح

ثم جعل السلطان سجستان طعمة لصاحب الجيش أخيه أبى المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين مضافة الى نيسابور وناهيك بهما ولاية فى بلاد المشرق فنصب خلافته عليها أبا منصور نصر بن اسحق وزيره * ووكل به تدبيره * ورضى لها تقديمه وتأخيره * فقام بضبط

وبينهم مخيونهم ولما مات ملك ولده خسروشاه الملك بعده

(ذكر ملك الفرنج مدينة عسقلان)

في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جملة مملكة الظافر بالله العلوى المصرى وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون الى ملكها سبيلا وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته وكان الوزراء كل سنة يرسلون اليها من الذخائر والاسلحة والاموال والرجال من يقوم بحفظها فلما كان في هذه السنة قتل ابن السلار على ما ذكرناه واختلفت الاهواء في مصر وولى عباس الوزارة والى ان استقرت قاعدة اغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان فاجتمعوا وحصروها فصبر أهلها وقاتلوهم قتالا شديدا حتى انهم بعض الايام قاتلوا خارج السور وردوا الفرنج الى خيامهم مقهورين وتبعهم اهل البلد اليها فايس حينئذ الفرنج من ملكه فبيناهم على عزم الرحيل اذ قد أتاهم الخبر ان البلد قد وقع بين أهله خلاف وقتل منهم قتلى فصبروا وكان سبب هذا الاختلاف انهم لما عادوا عن قتال الفرنج قاهرين منصورين ادعى كل طائفة منهم ان النصرة من جهتهم كانت وانهم هم الذين ردوا الفرنج خاسرين فعظم الخصام بينهم الى ان قتل من احدى الطائفتين قتيل واشتد الخطب وعظم حينئذ وتفاقم الشر ووقعت الحرب بينهم فقتل بينهم قتلى فطمع الفرنج وزحفوا اليه وقاتلوا عليه فلم يجدوا من يمنعهم فملكوه

(ذكر حصر عسكر الخليفة تكريت وعودهم عنها)

في هذه السنة سير الخليفة المقتفى لامر الله عسكرا الى تكريت ليحصروها وارسل معهم مقدما عليهم ابن الوزير عون الدين ابن هبيرة وترشك وهو من خواص الخليفة وغيرهما فجرى بين ابن الوزير وترشك منافرة اوجبت ان كتب ابن الوزير يشكو من ترشك فامر الخليفة بالقبض على ترشك فعرف ذلك فارسل الى مسعود بلال صاحب تكريت فصالحه وقبض على ابن الوزير ومن معه من المقدمين وسلمهم الى مسعود بلال فانهزم العسكر وغرق منه كثير وسار مسعود بلال وترشك من تكريت الى طريق خراسان فنهبا وافسدا فسار المقتفى عن بغداد لدفعهما فهربا من بين يديه فقصد تكريت فحصرها اياما وجرى له مع اهلها حروب من وراء السور فقتل من العسكر جماعة بالنشاب فعاد الخليفة عنها ولم يملكها

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة وصلت مراكب من صقلية فيها جمع من الفرنج فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصرية وفيها كان بين الكرج بارمينية وبين صلتق صاحب ارزن الروم مصاف وحرب شديد وانهزم صلتق واسره الكرج ثم اطلقوه وفيها توفى أبو العباس احمد بن أبى غالب الوراق المعروف بابن الطلاية الزاهد البغدادى بها وكان من الصالحين وله حديث ورواية وتوفى عبد الملك بن عبد الله بن ابى سهل أبو الفتح بن ابى القاسم الكروخى الهروى راوى جامع الترمذى ومولده سنة اثنتين وستين واربعمائة ومن طريقه سمعناه

(ثم دخلت سنة تسع واربعين وخمسمائة)

(ذكر قتل الظافر وولاية ابنه الفائز)

الولاية * واستدرار الجباية * واتقان السياسه * وانعام الحراسه * قيام من عدله الزمان بثقافه * وزينه الكمال باوصافه * وعاد السلطان الى بلخ عازما على استئناف الجد * في غزو الهند على ما سنذكره في موضعه ان شاء الله تعالى

*(ذكر شمس المعالى قابوس ابن وشمكير وانتقاله الى مملكته * بعون الله ونصرته * بعد طول التقلب * في التغرب)*

قد كان شمس المعالى اقام بخراسان ثمانى عشرة سنة مصابرا الدهر على وقعاته * وتصرف حالاته * لم تغمز يد الحادثات قناته * ولم يقرع صرف النائبات صفاته * ولم تنقص دوائر الايام مروته * ولم تنقض حبوته * ولم يبق من اصحاب الجيوش وزعماء الجمهور من لم يضرب له بسهم من نوافله * ولم يرجع الى حظ من عطاياه وفواضله * ولم يخدمه أحد من ذوى الحشمة بسلام * الا حظى منه بانعام * واحسان وأحبية ألوان * وافراس مطهمة حسان * فعلى الاكاف خلعه ولباسه * وتحت الافخاذ مراكبه وافراسه * وحشو البيوت بدره وأكياسه * وقد كان آل سامان يهمون بردّه الى مملكته * حيازة لعصب

في هذه السنة في المحرم قتل الظافر بالله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي صاحب مصر وكان سبب قتله أن وزيره عباسا كان له ولد اسمه نصر فأحبه الظافر وجعله من ندمائه الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة فاتفق أن قدم من الشام مؤيد الدولة الأمير أسامة بن منقذ الكناني في وزارة ابن السلار واتصل بعباس فحسن له قتل العادل بن السلار زوج أمه فقتله وولاه الظافر الوزارة فاستبد بالأمر وتم له ذلك وعلم الأمراء والأجناد أن ذلك من فعل ابن منقذ فعزموا على قتله فخلا بعباس وقال له كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول قال وما ذلك قال الناس يزعمون أن الظافر يفعل بابنك نصر وكان نصر خصيصا بالظافر وكان ملازمه ليله ونهاره وكان من أجمل الناس صورة وكان الظافر يتهم به فانزعج لذلك وعظم عليه وقال كيف الحيلة قال تقتله فيذهب عنا العار فذكر الحال لولده نصر فاتفقا على قتله وقيل إن الظافر أقطع نصر بن عباس قرية قليوب وهي من أعظم قرى مصر فدخل إليه مؤيد الدولة ابن منقذ وهو عند أبيه عباس فقال له نصر قد أقطعني مولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ما هي في مهرك بكثير فعظم عليه وعلى أبيه وأنف من هذه الحال وشرع في قتل الظافر فأمر ابنه فحضر نصر عند الظافر وقال له أشتهي أن تجيء إلى داري لدعوة صنعتها ولا تكثر من الجمع فمشى معه في نفر يسير من الخدم ليلا فلما دخل الدار قتله ومن معه وأفلت خويدم صغير اختبأ فلم يروه ودفن القتلى في داره وأخبر أباه عباسا الخبر فبكر إلى القصر وطلب من الخدم الخاصين بخدمة الظافر أن يطلبوا له إذنا في الدخول عليه لأمر يريد أن يأخذ رأيه فيه فقالوا إنه ليس في القصر فقال لا بد منه وكان غرضه أن ينفي التهمة عنه بقتله وأن يقتل كل من بالقصر ممن يخاف أن ينازعه فيمن يقيمه في الخلافة فلما ألح عليهم عجزوا عن إحضاره فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لا يدرون ما الخبر إذ وصل إليهم الخويدم الصغير الذي شاهد قتله وقد هرب من دار عباس عند غفلتهم عنه وأخبرهم بقتل الظافر فخرجوا إلى عباس وقالوا له سل ولدك عنه فإنه يعرف أين هو لأنهما خرجا جميعا فلما سمع ذلك منهم قال أريد أن أعترض القصر لئلا يكون قد اغتاله أحد من أهله فاستعرض القصر فقتل أخوين للظافر وهما يوسف وجبريل وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله إسماعيل ثاني يوم قتل أبوه وله من العمر خمس سنين فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد ولم يترك فيه إلا ما لا خير فيه

(ذكر وزارة الملك الصالح ابن رزيك)

كان السبب في وزارة الملك الصالح ابن رزيك أن عباسا لما قتل الظافر وأقام الفائز ظن أن الأمر يتم له على ما يريده فكان الحال خلاف ما اعتقده فإن الكلمة اختلفت عليه وثار به الجند والسودان وصار إذا أمر بالأمر لا يلتفت إليه ولا يسمع قوله فأرسل من بالقصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بن رزيك يستغيثون به وأرسلوا شعورهم في الكتب وكان في منية بني خصيب واليا عليها وعلى أعمالها وليست من الأعمال الجليلة وإنما كانت أقرب الأعمال إليهم وكان فيه شهامة فجمع ليقصد عباسا وسار إليه فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الأموال التي لا تحصى كثرة والتحف والأشياء التي لا يوجد الا هنا

السبق في اذاته على خصمه واقامة ملكه الى يده فقطعهم توالي الفتوق من كل وجه عليهم عن اصابة اغراضهم في امره والهمته بصيرة التجارب مداراة المحنة حتى ينتهي زمانها * يقضي على الاقبال بحرانها اذ كان الاضطراب في المحن كالاضطراب في حبل الخناق ما ازداد صاحبه على نفسه حركة * الا ازداد اختناقا وهلكة * ومما يضاف الى شعره قوله في اقبال محنته

قل للذي بصروف الدهر عيرنا
هل عاند الدهر الا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف
وتستقر بأقصى قعره الدرر
فان تكن نشبت أيدي الزمان بنا
ومسنا من توالي بؤسه الضرر
ففي السماء نجوم ما لها عدد
وليس يكسف الا الشمس والقمر

ولما وطئ ناصر الدين سبكتكين عراص خراسان واقتدره الظفر بابي علي على كورها ارتاح لقائه * وما يتصبب من نصرته واعلائه * ثم اتفق له من الانقلاب الى بلخ ما حال بينه وبين مراده فقعد مدة على بجلته الى ان انقرض أمر ابي علي بن سيمجور وخوى نجم الشغل به

كان اخذه من القصر فلما سار وقع به الفرنج فقتلوه واخذوا جميع ما معه فقتنة ودوابه وسار الملك
الصالح فدخل القاهرة باعلام سود وثياب سود حزنا على الظافر والشعور التى أرسلت اليه
من القصر على رؤس الرماح وكان هذا من الفال العجيب فان الاعلام السود العباسية دخلتها
وازالت الاعلام العلوية بعد خمس عشرة سنة ولما دخل الصالح القاهرة خلع عليه خلع الوزارة
واستقر فى الامر واحضر الخادم الذى شاهد قتل الظافر فاراه موضع دفنه فاخرجه ونقله الى
مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنج عباسا اسروا ابنه فارسل الملك الصالح الى الفرنج وبذل لهم
مالا واخذه منهم فسار عن الشام مع اصحاب الصالح فلم يكلم احدا منهم كلمة واحدة الى ان رأى
القاهرة فانشد

بلى نحن كنا أهلها فابادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

وادخل القصر فكان آخر العهد به فانه قتل وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح البيوت
الكبار والاعيان بالديار المصرية فامسك اهلها وابعدهم عن ديارهم واخذ اموالهم فمنهم من
هلك ومنهم من تفرق فى البلاد والحجاز واليمن وغيرها فعل ذلك خوفا منهم ان يثوروا عليه
وينازعوه فى الوزارة وكان ابن منقذ قد هرب مع عباس فلما قتل هرب الى الشام

*(ذكر حصر تكريت ووقعة بكمزا)

فى هذه السنة ارسل الخليفة المقتفى لامر الله رسولا الى والى تكريت بسبب من عندهم من
المأسورين وهم ابن الوزير وغيره فقبضوا على الرسول فسير الخليفة عسكرا اليهم فخرج اهل
تكريت فقاتلوا العسكر ومنعوهم من الدخول الى البلد فسار الخليفة بنفسه مستهل صفر فنزل
على البلد فهرب أهله فدخل العسكر فشعثوا ونهبوا بعضه ونصب على القلعة ثلاثة عشر
منجنيقا فسقط من اسوارها برج وبقى الحصر كذلك الى الخامس والعشرين من ربيع الاول
وامر الخليفة بالقتال والزحف فاشتد القتال وكثر القتلى ولم يبلغ منها غرضا فرحل عائدا الى
بغداد فدخلها آخر الشهر ثم امر الوزير عون الدين بن هبيرة بالعود الى محاصرتها والاستعداد
والاستكثار من الآلات للحصار فسار اليها سابع ربيع الآخر ونازلها وضيق عليها فوصل
الخبر بان مسعود بلال وصل الى شهرابان ومعه البقش كون خر وترشك وعسكر كثير فنهبوا
البلاد فعاد الوزير الى بغداد وكان سبب وصول هذا العسكر انهم خوفوا الملك محمد ابن السلطان
محمود على قصد العراق فلم يتهيأ له ذلك فسير هذا العسكر واضاف اليهم خلق كثير من التركمان
فخرج الخليفة اليهم فارسل بلال مسعود الى تكريت واخرج منها الملك ارسلان بن السلطان
طغرل بن محمد وكان محبوسا بتكريت وقال ان هذا سلطان نقاتل بين يديه بازاء الخليفة
والتقى العسكران عند بكمزا بالقرب من بعقوبا ودام بينهم المناوشة والمحاربة ثمانية عشر يوما
ثم انهم التقوا آخر رجب فاقتتلوا فانهزمت ميمنة عسكر الخليفة وبعض القلب حتى بلغت
الهزيمة بغداد ونهبت خزائنه وقتل خازنه فحمل الخليفة بنفسه هو وولى عهده وصاح يا آل
هاشم كذب الشيطان وقرأ وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وحمل باقى العسكر
معه فانهزم مسعود والبقش وجميع من معهم وتمت الهزيمة وظفر الخليفة بهم وغنم عسكره
جميع مال التركمان من دواب وغنم وغير ذلك فبيع كل كبش بدانق وكانوا قد حضروا
بنسائهم واولادهم وخركاواتهم وجميع مالهم فاخذ جميعه ونودى من أخذ من اولاد التركمان

وانحدر الى طوس لطلب
أخيه ابى القاسم السيمجورى
فجدد عند ذلك شمس المعالى
عهده به ولاطف كل منهما
صاحبه بما لا يفى به بيان
ولا يتسع له حساب ولا
حسبان * وجرى ذكر فخر
الدولة واستظهاره ببدر بن
حسنويه صاحب الاكراد
والفوارس الانجاد * فاراد
ناصر الدين سبكتكين ان
يستظهر عليهم بكماة الشرق
ورماة الحدق * من كتائب
الاتراك الخانية فارسل
حاجبه الكبير التوتناش
الى ايلك الخان يتنجزه حكم
الحال التى تقارا عليها فيما
وراء النهر من الاتحاد * فى
الوداد والاشتراك فى الاملاك
بامداده بعشرة آلاف رجل
من نخب رجاله * وشهب
ابطاله * وصرف شمس المعالى
وراءه على ميعاد معاده *
ورجع ناصر الدين سبكتكين
الى بلخ مستعدا للامر *
ومنتظرا لوصول العدد
الدثر * فاستأثر الله به قبل ان
عاد الرسول * وتحقق المسؤل
فحط عليه ما صنع * وصوح
دونه نبت ما زرع * وتوسط
وجوه الناس بين السلطان
يمين الدولة * وامين الملة *
وبين شمس المعالى قابوس فى
اسعاده * ورده الى معاده
على مال يقضى به حق غنائه
ويضاهى حسن بلائه *

ونسائهم شيأ فلم يردّه فردوه فاخذ البقش كون خر الملك ارسلان وانهزم الى بلد اللحف وقلعة الماهكي وفي هذه الحرب غدر بنو عوف من عسكر الخليفة ولحقوا بالعجم ومضى هندي الكردي ايضا معهم وكان الملك محمد قد ارسل عسكرا مع خاص بك بن آقسنقر نجدة لكون خر فلما وصلوا الى الراذان بلغهم خبر الهزيمة فعادوا ورجع الخليفة الى بغداد فدخلها اوائل شعبان فوصل الخبران مسعود بلال وترشك قصدا مدينة واسط فنهبوا وخربوا فسير الخليفة الوزير ابن هبيرة في عسكر خامس عشر شعبان فانهزم العجم فلحقهم عسكر الخليفة ونهب منهم شيأ كثيرا وعاد الى بغداد فلقب الوزير سلطان العراق ملك الجيوش وسير الخليفة عسكرا الى بلد اللحف فاخذه وصار في جملته واما الملك الب ارسلان بن طغرل فان البقش اخذه معه الى بلده فارسل اليه الملك محمد يقول له احضر عنده وارسلان معه فمات البقش كون خر في رمضان في هذه السنة وبقي ارسلان مع ابن البقش وحسن الجاندار فحملاه الى الجبل فخاف السلطان محمد أن يصل ارسلان الى زوج امه ابي بكر فيجعله ذريعة الى قصد البلاد فلم ينفعه حذره واتصل ارسلان بابي بكر زوج امه فصار معه وهو أخو بهلوان بن ايلدكز لامه وطغرل الذي قتله خوارزم شاه ولد ارسلان هذا وكان طغرل آخر السلجوقية

•(ذكر ملك نور الدين محمود مدينة دمشق)•

في هذه السنة في صفر ملك نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر مدينة دمشق واخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين اتابك وكان سبب حرصه على ملكها ان الفرنج لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان لم يكن لنور الدين طريق الى ازعاجهم عنها الاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق حتى انهم استعرضوا كل من بها من مملوك وجارية من النصارى فمن أراد المقام بها تركوه ومن أراد العود الى وطنه اخذوه قهرا من صاحبه ام ابى وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة يأخذونها منهم فكان رسلهم يدخلون البلد ويأخذونها منهم فلما رأى نور الدين ذلك خاف ان يملكها الفرنج فلا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام فاعمل الحيلة في أخذها حيث علم انها لا تملك قهرا لان صاحبها متى رأى غلبة من يقصده راسل الفرنج واستعان بهم لئلا يملكها من يقوى بها على قتالهم فراسل مجير الدين صاحبها واستمالوه وواصله بالهدايا واظهر له المودة حتى رَكَن اليه فكان نور الدين يقول له في بعض الاوقات ان فلانا قد كاتبني في تسليم دمشق يعني بعض امراء مجير الدين فكان يبعد الذي قيل عنه ويأخذ اقطاعه فلما لم يبق عنده من الامراء احد قدم اميرا يقال له عطاء بن حفاظ السلمي الخادم وكان شهما شجاعا وفوض اليه أمر دولته فكان نور الدين لا يتمكن معه من أخذ دمشق فقبض عليه مجير الدين وقتله فسار نور الدين حينئذ الى دمشق وكان قد كاتب من بها من الاحداث واستمالهم فوعدوه بالتسليم اليه فلما حصر نور الدين البلد ارسل مجير الدين الى الفرنج يبذل لهم الاموال وتسليم قلعة بعلبك اليهم لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم ليرحلوا نور الدين عن البلد فالى ان اجتمع لهم ما يريدون تسلم نور الدين البلد فعادوا بخفي حنين واما كيفية تسليم دمشق فانه لما حصرها ثار الاحداث الذين راسلهم فسلموا اليه البلد من الباب الشرقي وملكه وحصر مجير الدين

في محبتي زيانه • وتعيق كايد اعدائه • فاظهر الوفاء له لغاية شهرين من قرانه بجرجان اذ كان يحيل بجل ما يلزمه على ما يدركه من استلابها • ويغفل من اخلافها • وانه يتصابى بعد انتقال الملك اليه خبط رعيته بالحيف والعسف • والاتقاء عليهم ببرد الحرق والنسف • فاعجل السلطان يمين الدولة • وامين الملة • ما أهمه من ارث ابيه • وشغل الخاطر باخيه • عن تقديم انظاره • وتعجيل رده الى داره فاستمهله ريثما يكفي ما امامه وبقضي الشغل بما وراءه • وسار الى غزنة حتى يسر الله افتتاحها • وداوى على يده جراحها • وكان ابو القاسم ابن سيمجور رقيما بقومس فلما مضى فخر الدولة لسبيله اغار منها الى جرجان متغلبا عليها • وكاتب ابو القاسم شمس المعالي قابوس في الاستعداد اليها • ليقوم بتسليمها اليه • وتقريرها في يديه • فسار على سمت الروغد حتى وافى جرجان وابو القاسم بن سيمجور باستراباذ وقد جهز من الري ابو العباس فيروزان بن الحسن في جماهير المشاهير من قواد الديلم والاكراد وقد كان اطمع ابو القاسم من ضاياف ولاية قهستان وهراة يأمر بمعاودة خراسان

في القلعة وراسله في تسليمها وبذل له اقطاعا من جملته مدينة حمص فسلمها اليه وسار الى حمص واعطاه عوضا عنها بالس فلم يرضها وسار منها الى العراق واقام ببغداد وابتنى بها دارا بالقرب من النظامية وتوفي بها

(ذكر قصد الاسماعيلية خراسان والظفر بهم)

في هذه السنة في ربيع الآخر اجتمع جمع كثير من الاسماعيلية من قهستان بلغت عدتهم سبعة آلاف رجل ما بين فارس وراجل وساروا يريدون خراسان لاشتغال عساكرها بالغز وقصدوا اعمال خواف وما يجاورها فلقيهم الامير فرخشاه بن محمود الكاساني في جماعة من حشمه واصحابه فعلم ان لا طاقة له بهم وسار عنهم وارسل الى الامير محمد بن انز وهو من اكابر امراء خراسان واشجعهم يعرفه الحال وطلب منه المسير اليهم بعسكره ومن قدر عليه من الامراء ليجتمعوا عليهم ويقاتلوهم فسار محمد بن انز في جماعة من الامراء وكثير من العسكر واجتمعوا هم وفرخشاه ودافعوا الاسماعيلية وقاتلوهم وطال الحرب بينهم ثم نصر الله المسلمين وانهزم الاسماعيلية وكثر القتل فيهم واخذهم السيف من كل مكان وهلك اعيانهم وساداتهم بعضهم قتل وبعضهم اسر ولم يسلم منهم الا القليل الشريد وخلت قلاعهم وحصونهم من حام ومانع فلولا اشتغال العساكر بالغز لكانوا ملكوها بغير تعب ولا مشقة واراحوا المسلمين منهم ولكن لله امر هو بالغه

(ذكر ملك نور الدين تل باشر)

في هذه السنة او التي بعدها ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة تل باشر وهي شمالي حلب من امنع القلاع وسبب ملكها ان الفرنج لما رأوا ملك نور الدين دمشق خافوه وعلموا انه يقوى عليهم ولا يقدرون على الانتصاف منه لما كانوا يرونه منه قبل ملكها فراسله من بهذه القلعة من الفرنج وبذلوا له تسليمها فسير اليهم الامير حسان المنبجي وهو من اكابر امرائه وكان اقطاعه ذلك الوقت مدينة منبج وهي تقارب تل باشر وامره ان يسير اليها ويتسلمها فسار اليها وتسلمها منهم وحصنها ورفع اليها من الذخائر ما يكفيها سنين كثيرة

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة مات استاذ دار ابو الفتوح عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء وكان له صدقات ومعروف كثير ومجالسة للفقراء وللمامات ولي الخلافة ابنه الاكبر عضد الدين ابو الفرج محمد بن عبد الله ما كان الى ابيه وتوفي عبد الرحمن بن عبد الصمد بن احمد بن علي ابو القاسم الاكاف النيسابوري كان زاهدا عابدا فقيها مناظرا وكان السلطان سنجر يزوره ويتبرك بدعائه وكان ربما حجبه فلا يمكنه من الدخول اليه وفيها توفي ثقة الدولة ابو الحسن علي بن محمد الزويني القزويني وكان يخدم ابا نصر محمد بن الفرج الابري وزوجه ابنته شهدة الكاتبة فقربه المقتفي لامر الله ووكله فبنى مدرسة بباب الازج

(ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة)

في هذه السنة سار الخليفة المقتفي لامر الله الى دقوقا فحصرها وقاتل من بها ثم رحل عنها لانه بلغه ان عسكر الموصل قد تجهزوا للمسير اليه لمنعه عنها فرحل ولم يبلغ غرضا وفيها استولى شملة

للاعتضاد به * والاستظهار بعدته وعديده * فجرد عزمه للانصراف * وضرب ثلاث المواعيد بالاخلاف * غير حافل بما يلحقه من المذمة بخذلان من جشمه لنصرته * واستقدمه على ما تحت يده وقدرته * وسار نحو اسفراين فانقلب شمس المعالي قابوس الى نيسابور على سرة النهل استنساء بالوقت الى مقتطف الرجاء ومخترف الامل * وتربصا لما حوته رحم الليالي من جنين المقدور * في ادالة الميسور على المعسور * ولما رأى امور آل سامان مختلة النظام * منحلة العراقي والاوذام * لا تزداد على الرقع الا خرقا * ولا على الرتق الا فتقا * محض الرأي فيما يقيم له مائد امره * ويحوش عليه آبد ملكه * فكانت زبدة مخضه ان سرب الاصبهبذ شهريار بن شروين الى جبل شهريار لاستصفائه * فسار نحوه بمن تحت لوائه وعلى الجبل يومئذ رستم بن المرزبان خال الامير مجد الدولة ابي طالب رستم بن فخر الدولة صاحب الري فتناهدا للقتال على رسمهم في الاحتراس بالتراس * وادراع لباس الباس * وشد عليهم الاصبهبذ شدة شردتهم بين المهامه والدكادك * واقحمتهم لهوات المعاطب والمهالك * واصاب منهم غنيمة

البركاني على خوزستان وصاحبه حينئذ ملكشاه بن محمود بن محمد فسير الخليفة اليه عسكرا
فلقيهم شملة في رجب وقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة واسر وجوههم ثم احسن اليهم شملة
واطلقهم وارسل يعتذر فقبل عذره وسار الى خوزستان فملكها وازاح عنها ملكشاه بن
السلطان محمود بن محمد وفيها سار الغز الى نيسابور فملكوها بالسيف ودخلوها وقتلوا محمد بن
يحيى الفقيه الشافعي وقتلوا من ثلاثين الفا وكان السلطان سنجر له اسم السلطنة وهو معتقل
لا يلتفت اليه حتى انه اراد كثيرا من الايام ان يركب فلم يكن له من يحمل سلاحه فشده على
وسطه وركب وكان اذا قدم اليه طعام يدخر منه ما يأكله وقتا آخر خوفا من انقطاعه عنه
لتقصيرهم في واجبه ولانهم ليس هذا مما يعرفونه وفيها وثب قوم من الارمن بمدينة آني فاخذوها
من الامير شداد وسلموها الى اخيه فضلون وفيها في ذي الحجة قتل الاتراك القارغلية
طمغاج خان بن محمد بما وراء النهر والقوه في الصحراء ونسبوه الى اشياء قبيحة وكانت مدة ملكه
مستضعفا غير مهيب وفيها توفي أبو الفضل محمد بن ناصر بن علي البغدادي الحافظ الاديب
وكان مشهورا بالفضل وكان شافعيا وصار حنبليا مغاليا ومولده سنة سبع وستين واربعمائة
في شعبان وكان موته ايضا في شعبان وفيها كان بالعراق وما جاوره من البلاد زلزلة كبيرة في ذي
الحجة وفيها توفي يحيى الغساني الحموي الموصلي وكان فاضلا اخباريا وتاج الدين ابو طاهر يحيى بن
عبد الله بن القاسم الشهرزوري قاضي جزيرة ابن عمر

•(ثم دخلت سنة احدى وخمسين وخمسمائة)•

•(ذكر عصيان الجزائر وافريقية على ملك الفرنج بصقلية وما كان منهم)•

قد ذكرنا سنة ثمان واربعين وخمسمائة موت رجار ملك صقلية وملك ولده غليالم وانه كان فاسد
التدبير فخرج عن حكمه عدة من حصون صقلية فلما كان هذه السنة قوي طمع الناس فيه
فخرج من طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقنة واظهروا الخلاف عليه وخالف عليه اهل
افريقية فاول من اظهر الخلاف عليه عمر بن ابي الحسين الفرياني بمدينة سفاقس وكان رجار
قد استعمل عليها لما ملكها اباه ابا الحسين وكان من العلماء الصالحين فاظهر العجز والضعف
وقال استعمل ولدي فاستعمله واخذ اباه رهينة الى صقلية فلما اراد المسير اليها قال لولده عمر
اني كبير السن وقد قارب اجلي فمتى امكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم
ولا تنظر في اني اقتل واحسب اني قد مت فلما وجد هذه الفرصة دعا اهل المدينة الى الخلاف
وقال يطلع جماعة منكم الى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم
ويقتلونهم كلهم فقالوا له ان سيدنا الشيخ والدك نخاف عليه قال هو امرني بهذا واذا قتل
بالشيخ الوف من الاعداء فما مات ثم لم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم وكان ذلك اول
سنة احدى وخمسين وخمسمائة ثم اتبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وبعده محمد بن رشيد
بقابس وسار عسكر عبد المؤمن الى بونة فملكها وخرج جميع افريقية عن حكم الفرنج ما عدا
المهدية وسوسة وارسل عمر بن ابي الحسين الى زويلة وهي مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان
يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد الى زويلة
فاعانوا اهلها على من بالمهدية من الفرنج وقطعوا الميرة عن المهدية فلما اتصل الخبر بغليالم ملك

جمعة • بعد أن قتل منهم
مقتلة عظيمة • واقام الخطبة
بالجبل على شمس المعالي
قابوس بن وشمكير وكان لابي
ابن سعيد احد اعيان الجبل
وشجعانهم مقيما عند
الاستندارية فيما وافق
من أضرابه مشايعا لهم
في ظاهر الامر • وناظرا الى
موالاة شمس المعالي من
نقاب السر • واتفق ان نصر
ابن الحسن بن فيروزان اقطعه
الاضافة بناحية الديلم الى
حدود الاستندارية تطمع
في مقالبهم عليها ومن احتمى
فيها • فقصده من بحرات
ابنائها بن طرده عنها وقبض
على خاله أبي الفضل اصبهبذ
كلاذ فسجن الى ان دفن
ومايل بعد ذلك بابي بن سعيد
نصرا فتساعدا على قصد
آمل وبها ابو العباس
الحاجب في زهاء الفين من
عسكر الري فأجلياه عنها
• زعما تقفوه الصفاح •
وهشيما تذروه الرياح •
وطير بابي بن سعيد عند ذلك
كتبه الى شمس المعالي بذكر
الفتح الذي اتيح له على شعار
موالاته • واستشعار
طاعته وعلائه • واظهار
التنصح باستطلاع راياته •
ففصل عن نيسابور سائرا
نحو جرجان وتحيز بابي بن
سعيد عن مضامة نصر الى
استراباذ مجاهرا بشعار
صاحبه ويجمع اليمن

صقلية احضر ابا الحسين وعرفه ما عمل ابنه فامره ان يكتب اليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعود الى طاعته ويخوفه عاقبة فعله فقال من قدم على هذا برجع بكتاب فارسل ملك صقلية اليه رسولا يتهدده ويأمره بترك ما ارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك فلما كان الغد خرج اهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا وارسل عمر الى الرسول يقول له هذا ابي قد دفنته وقد جلست للعزاء به فاصنعوا به ما اردتم فعاد الرسول الى غليالم فأخبره بما صنع عمر بن ابي الحسين فاخذ اباه وصلبه فلم يزل يذكر الله تعالى حتى مات واما اهل زويلة فانهم كثر جمعهم بالعرب واهل سفاقس وغيرهم فحصروا المهدية وضيقوا عليها وكانت الاقوات بالمهدية قليلة فسير اليهم صاحب صقلية عشرين شينيا فيها الرجال والطعام والسلاح فدخلوا البلد وارسلوا الى العرب وبذلوا لهم مالا لينهزموا وخرجوا من الغد فاقتتلوا هم واهل زويلة فانهزمت العرب وبقي اهل زويلة واهل سفاقس وركبوا في البحر فنجوا وبقي اهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا الى زويلة فوجدوا ابوابها مغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل اكثرهم ولم ينج الا القليل فتفرقوا ومضى بعضهم الى عبد المؤمن فلما قتلوا هرب من سلم من الحرم والصبيان والشيوخ في البر ولم يعرجوا على شيء من اموالهم ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والاطفال ونهبوا الاموال واستقر الفرنج بالمهدية الى ان اخذها منهم عبد المؤمن على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل)

في هذه السنة قبض زين الدين علي كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه وكان سليمان شاه عند عمه السلطان سنجر قد دعاه وقد جعله ولي عهده وخطب له على منابر خراسان فلما جرى لسنجر مع الغز ما ذكرناه وتقدم على عسكر خراسان وضعفوا عن الغز مضى الى خوارزم شاه فزوجه ابنة اخيه اتسز ثم بلغه عنه ما كرهه فابعده فجاء الى اصفهان فمنعه شحنتها من الدخول فمضى الى قاشان فسير اليه محمد شاه ابن اخيه محمود بن محمد عسكرا ابعدوه عنها فسار الى خوزستان فمنعه ملكشاه عنها فقصد اللحف ونزل البندنيجين وارسل رسولا الى الخليفة المقتفي يعلمه بوصوله وترددت الرسل بينهما الى ان استقر الامر على ان يرسل زوجته تكون رهينة فارسلها الى بغداد ومعها كثير من الجواري والاتباع وقال قد ارسلت هؤلاء رهائن فان اذن امير المؤمنين في دخول بغداد فعلت والا رجعت فاكرم الخليفة زوجته ومن معها واذن له في القدوم اليه فقدم ومعه عسكر خفيف يبلغون ثلثمائة رجل فخرج ولد الوزير ابن هبيرة لتلقيه ومعه قاضي القضاة والنقيبان ولم يترجل له ابن الوزير ودخل بغداد وعلى رأسه الشمسة وخلع عليه الخليفة واقام ببغداد الى ان دخل المحرم من سنة احدى وخمسين وخمسمائة فاحضر فيه سليمان شاه الى دار الخليفة واحضر قاضي القضاة والشهود واعيان العباسيين وحلف للخليفة على النصح والموافقة ولزوم الطاعة وانه لا يتعرض الى العراق بحال فلما حلف خطب له ببغداد ولقب ألقاب ابيه غياث الدنيا والدين وباقي ألقابه وخلع عليه خلع السلطنة وسير معه من عسكر بغداد ثلاثة آلاف فارس وجعل الامير قويدان صاحب الحلة امير حاجب معه وسار

ابناء الجليل من كان يسلك شعب هواه * ويستلم ركن طاعته ورضاه * وكتب شمس المعالي الى الاصبهبذ بالانضمام الى بابي وجمع اليد الى يده فيما اقدم واخر * والشد على عضده فيما اورد واصدر * ففعل ما امر وتسامع ابو العباس فيروزان ابن الحسن بنبئهما * وهو مقيم بجرجان فنهد لكفاية امرهما * واخماد ما التهب من جمرهما * فواقعاه بباب استراباذ وقعة انت فيها حدود القواطع * من حديد المدارع * ومزارق الزانات من مفارق الهامات * وكادت الهزيمة تستقر باصحاب بابي لولا انقلاب الاكراد والعرب في عسكر الديلم عليهم ببيض الظبا وزرق العوالي * منادين بشعار شمس المعالي فانهزم ابو العباس فيروزان بن الحسن فيمن معه وركب الطلب اكتافهم فأسروا وزهاء عشرين نفرا من وجوه القواد في جملته واسرى بقية الفل نحو جرجان وقد قدم اليها قابوس ابن وشمكير سالار بن خوكاش أحد اقاربه فوافق انهزامهم اليها * اظلاله عليها فضجوا رنة وعويلا * وضلوا فلا يهتدون سبيلا * واضطروا الى استئناف الهزيمة قرحا على قرح *

عمر ولاد الجبل في ربيع الاول وسار الخليفة الى حلوان ووصل اليه ملكشاه ابن السلطان محمود اخي السلطان محمد صاحب همذان وغيرهما يدعوه الى موافقتهم فقدم في الف فارس فحلف كل منهما لصاحبه وجعل ملكشاه ولي عهد سليمان شاه وقوى امرهم الخليفة بالمال والاسلحة وغيرها فساروا واجتمعوا هم وايلدكز فساروا في جمع كثير فلما سمع السلطان محمد خبرهم ارسل الى قطب الدين مودود صاحب الموصل ونائبه زين الدين يطلب منهما المساعدة ويبذل لهما البذول الكثيرة ان ظفر فاجاباه الى ذلك ووافقاه فقويت نفسه وسار الى لقاء سليمان شاه ومن اجتمع معه من عساكره ووقعت الحرب بينهم في جمادى الاولى واشتد القتال بين الفريقين فانهزم سليمان شاه ومن معه وتشتت العسكر ووصل من عسكر الخليفة وكانوا ثلاثة آلاف رجل نحو من خمسين رجلا ولم يقتل منهم احد وانما اخذت خيولهم واموالهم وتشتتوا وجاؤا متفرقين وفارق سليمان شاه ايلدكز وسار نحو بغداد على شهرزور وخرج اليه زين الدين علي في جماعة من عسكر الموصل وكان بشهرزور الامير برآن مقطعها من جهة زين الدين وسارا فوقفا على طريق سليمان شاه فاخذاه اسيرا وحمله زين الدين الى قلعة الموصل وحبسه بها مكرما محترما الى ان كان من امره ما نذكره سنة خمس وخمسين ان شاء الله فلما قبض سليمان شاه ارسل زين الدين الى السلطان محمد يعرفه ذلك ووعده المعاضدة على كل ما يريده منه والمساعدة له والله اعلم

• (ذكر حصر نور الدين قلعة حارم) •

في هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكي الى قلعة حارم وهي للفرنج ثم لبيمند صاحب انطاكية وهي تقارب انطاكية من شرقيها وحصرها وضيق على اهلها وهي قلعة منيعة في نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد وساروا نحوه ليرحلوه عنها وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله ويرجعون الى رأيه فارسل اليهم يقول انا نقدر على حفظ القلعة وليس بنا ضعف الى الاخطار وانتم بلقائه فانه ان هزمكم اخذها وغيرها والرأي مطاولته فارسلوا اليه وصالحوه على ان يعطوه نصف اعمال حارم فاصطلحوا على ذلك ورحل عنهم فقال بعض الشعراء

البنت دين محمد يا نوره • عزا له فوق السماء اساد •
مازلت تشمله بعماد القنا • حتى تثقف عوده المياد •
لم يبق مذ ارهفت عزمك دونه • عدد يراع به ولا استعداد
ان المنابر لو تطيق تكلما • حمدتك عن خطبائها الاعواد
ملق باطراف القريعة كلكلا • طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا خوض الردى • حاموا فراس كيدهم او كادوا
ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة • عزما لحارم والمصاد مصاد
من منكرات بنصف السيل الزبا • وابوه ذلك العارض المداد
اوان يعد الشمس كاسفة السنا • نار لها ذاك الشهاب زناد
لا يشمع الا باء ما مكنوا من الشمليا حتى يرفع الاولاد •

وملا انوق ببرج • وشرطب
شمس المعالي قابوس بعبر
الفتح • وماهياه الله له من
عظيم النجح • فسار الى جرجان
وقد شرح الله صدره •
وجلى عن الكرب وفا بدره
وتسنح باليسر عسره • وزاد
على القدر قدره • ودخلها
في شعبان سنة ثمان وثمانين
وثلثمائة ولبعض كتاب
اهل العصر فيه عند زفاف
الملك اليه قصيدة اولها
الحمد لله ما يمنه الاعذار
واما تمام ما يريد الصبر تزداد
والكريم اذا الايام زلن به
عن المنى بثبات النفس اعذار
كم فاضل وجنون المجنون له
حتما على حسك الاذى واسرار
وكم جريح قريح القلب
ذي عبر
وكم قتيل وما للسيف اثار
وكم فقير بلا جرم وشائنة
وكم غني وللايام ادوار
سير سريع ودور غير منصرم
نصب العيون ودون الغيب
استار
من كان يخبر بال الدهر دائرة
لم يثنه عن عيان الحال اخبار
وانما حاصل الايام معتبرا
مقدار ما صح عن التحقيق فرار
ينعى الزمان على من لا
اصطبار له
ورقة الدين في العسر صبار
فاصبر هديت فان الصبر
منجية
ومن وراء ظلام الليل
اسفار

وهي طويلة

ذكر وفاة خوارزم شاه اتسز وغيره من الملوك

في هذه السنة تاسع جمادى الآخرة توفي خوارزم شاه اتسز بن محمد بن انوشتكين وكان قد اصابه فالج فتعالج منه فلم يبرأ فاستعمل ادوية شديدة الحرارة بغير امر الاطباء فاشتد مرضه وضعفت قوته فتوفي وكان يقول عند الموت ما اغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه وكانت ولادته في رجب سنة تسعين واربعمائة ولما توفي ملك بعده ابنه ارسلان فقتل نفرا من اعمامه وسمل أخاله فمات بعد ثلاثة أيام وقيل بل قتل نفسه وارسل الى السلطان سنجر وكان قد هرب من أسر الغز على ما نذكره يبذل الطاعة والانقياد فكتب له منشورا بولاية خوارزم وسير الخلع له في رمضان فبقي في ولايته ساكنا آمنا وكان اتسز حسن السيرة كافا عن اموال رعيته منصفا لهم محبوبا اليهم مؤثرا للاحسان والخير اليهم وكان الرعية معه بين امن غامر وعدل شامل وفي سابع عشر الشهر المذكور توفي أبو الفوارس بن محمد بن ارسلان شاه ملك كرمان وملك بعده ابنه سلجوق شاه وفيها توفي الملك مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان قتلمش صاحب قونية وما يجاورها من بلاد الروم وملك بعده ابنه قلج ارسلان

ذكر هرب السلطان سنجر من الغز

في هذه السنة في رمضان هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من اسر الغز وجماعة من الامراء الذين معه وسار الى قلعة ترمذ واستظهر بها على الغز وكان خوارزم شاه اتسز بن محمد بن انوشتكين والخاقان محمود بن محمد يقصدان الغز فيقاتلانهم فيمن معهما فكانت الحرب بينهم سجالا وغلب كل واحد من الغز والخراسانيين على ناحية من خراسان فهو يأكل دخلها ولا رأس لهم يجمعهم وسار السلطان سنجر من ترمذ الى جيحون يريد العبور الى خراسان فاتفق ان مقدم الاتراك القارغلية واسمه علي بك توفي وكان اشد شيء على السلطان سنجر وعلى غيره كثير الشر والفساد واثارة الفتن فلما توفي اقبلت القارغلية على السلطان سنجر وكذلك غيرهم من سائر الامم من اقاصي البلاد واداينها وعاد الى دار ملكه بمرو في رمضان فكانت مدة اسره مع الغز من سادس جمادى الاولى سنة ثمان واربعين الى رمضان سنة احدى وخمسين وخمسمائة

ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية عهد ابيه

في هذه السنة امر عبد المؤمن بالبيعة لولده محمد بولاية عهده وكان الشرط والقاعدة بين عبد المؤمن وبين عمر ان يلي عمر الامر بعد عبد المؤمن فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر اولاده احب ان ينقل الملك اليهم فاحضر امراء العرب من هلال وزغب وعدي وغيرهم اليه ووصلهم واحسن اليهم ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن ويقولوا له نريد ان تجعل لنا ولي عهد من ولدك يرجع الناس اليه بعدك ففعلوا ذلك فلم يجبهم اكراما للعمر لعلو منزلته في الموحدين وقال لهم ان الامر لابي حفص عمر فلما علم عمر ذلك خاف على نفسه فحضر عند عبد المؤمن واجاب الى خلع نفسه فحينئذ بويع لمحمد بولاية العهد وكتب الى جميع بلاده بذلك وخطب له فيها جميعها واخرج عبد المؤمن في ذلك اليوم من الاموال شيأ كثيرا

ذكر استعمال عبد المؤمن اولاده على البلاد

والدهر ذو غيرات والنوب ... عسر ويسر واحلاء وامرار
والبدر يدركه التمحيق منتقصا ... وبعده بضياء التم نوار
والنار في خلل العيدان كامنة ... وسقطها باقتداح الزند سعار
والحديد يطبع كالصمصام ثم له ... من صيقل الدهر جلاء وشهار
هذا الشمس المعالي في سعادته ... له مع الفلك الدوار اخبار
اعطاه من غرر الآمال ما قصرت ... عن نيل امثالها في الدهر اعمار
ملكا وعزا وعيشا رافعا وعلا ... ودولة ضمنها النصر واظهار
لما كساه دروع العز ضافية ... ولم يجد منه غير الشكر يختار
ابدى نشوزا عليه كي يجربه ... بالصبر والصبر للاحرار مسبار
حتى اذا ما قضى من سبره وطرا ... وللامور نهايات واطوار
امسى يعاود ما ارضاه في خفر ... وخده بدم التشوير فوار
فالدهر خادمه والعز صارمه ... والرأي رايته والخلق انصار
قرم أضحى حياة العالمين به ... كانه الشمس والاعمار اقمار
راح الكرام الى اوكارنا له ... كانه الليل والاحرار اطيار

في هذه السنة استعمل عبد المؤمن اولاده على البلاد فاستعمل ولده ابا محمد عبد الله على بجاية واعمالها واستعمل ابنه أبا الحسن عليا على فاس واعمالها وولى ابنه ابا حفص عمر على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة وكذلك غيرهم وقد سلك في استعمالهم طريقا عجيبا وذلك انه كان قد استعمل على البلاد شيوخ الموحدين المشهورين من اصحاب المهدي محمد بن تومرت وكان يتعذر عليه ان يعزلهم فأخذ اولادهم وتركهم عنده يشتغلون في العلوم فلما تمهروا فيها وصاروا يقتدى بهم قال لآبائهم اني اريد ان تكونوا عندي استعين بكم على ما أنا بصدده ويكون اولادكم في الاعمال لانهم علماء فقهاء فاجابوا الى ذلك وهم فرحون مسرورون فولى اولادهم ثم وضع عليهم بعضهم ممن يعتمد عليه فقال اني ارى امرا عظيما قد غفلتم عنه قد تمت فيه الحزم والادب فقالوا وما هو فقال اولادكم في الاعمال واولاد امير المؤمنين ليس لهم منها شيء مع ما فيهم من العلم وحسن السياسة واني اخاف ان ينظر في هذا فتسقط منزلتكم عنده فعلموا صدق القائل فحضروا عند عبد المؤمن وقالوا نحب ان تستعمل على البلاد السادة اولادك فقال لا افعل فلم يزالوا حتى فعل ذلك لهم بسؤالهم اياه

(ذكر حصر السلطان محمد بغداد)

في هذه السنة في ذي الحجة حصر السلطان محمد بغداد وسبب ذلك ان السلطان محمد بن محمود كان قد ارسل الى الخليفة يطلب ان يخطب له ببغداد والعراق فامتنع الخليفة من اجابته الى ذلك فسار من همذان في عساكر كثيرة نحو العراق ووعده اتابك قطب الدين صاحب الموصل ونائبه زين الدين علي بارسال العساكر اليه نجدة له على حصر بغداد فقدم العراق في ذي الحجة سنة احدى وخمسين واضطرب الناس ببغداد وارسل الخليفة بجمع العساكر فاقبل خطلوبرس في عسكر واسط ورحل مهلهل الى الحلة فاخذها واهتم الخليفة وعون الدين بن هبيرة بامر الحصار وجمع جميع السفن وقطع الجسر وجعل الجميع تحت التاج ونودي منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسين ان لا يقيم احد بالجانب الغربي فاجفل الناس واهل السواد ونقلت الاموال الى حريم دار الخلافة وخرب الخليفة قصر عيسى والمربعة والقرية والمستجدة والجعفري ونهب اصحابه ما وجدوا وخرب اصحاب محمد شاه نهر القلابين والتوثة وشارع ابن رزق الله وباب الميدان وقطفتا واما أهل الكرخ واهل باب البصرة فانهم خرجوا الى عسكر محمد وكسبوا معهم اموالا كثيرة وعبر السلطان محمد فوق حراقة الى الجانب الغربي ونهبت اوانا وانضاف به زين الدين هناك وساروا فنزل محمد شاه عند الرملة وفرق الخليفة السلاح على الجند والعامة ونصب المنجنيقات والعرادات فلما كان في العشرين من المحرم ركب عسكر محمد شاه وزين الدين علي ووقفوا عند الرقة ورموا بالنشاب الى ناحية التاج فعبر اليهم عامة بغداد فقاتلوهم ورموهم بالنفط وغيره ثم جرى بينهم عدة حروب وفي ثالث صفر عاودا القتال واشتدت الحرب وعبر كثير من أهل بغداد سباحة وفي السفن فقتلوا وكان يوما مشهودا ولم تزل الحرب بينهم كل وقت وعمل الجسر على دجلة وعبر عليه أكثر العسكر الى الجانب الشرقي وصار القتال في الجانبين وبقي زين الدين في الجانب الغربي وامر الخليفة فنودي كل من جرح فله خمسة دنانير فكان كلما جرح انسان يحضر عند الوزير فيعطيه خمسة دنانير فاتفق أن بعض العامة

له المعالي سماء والاذى شهب
والجد سارية والجود امطار
علاه كالليل والمصباح همته
ونقله الجود والآمال سمار
تراه تنهزم الاموال عن يده
مثل انهزام العدى عنه اذا ثاروا
وجده الدهر للناس لهمته
والجود بازله والصيد احرار
حياؤه يوقاح السيف ممتزج
وعدله في حزون البأس سيار
ندى يديه الى الفردوس منتسب
ووقع سطوته في سره النار
يوم الهياج صفاح البيض ظلته
والجو من اهب الملمات صهار
يغادر الحرب والارواح راتبة
الى التراق وطرف الموت نظار
يرش من دفع الاعناق قسطلها
اذ نقعها بحواشي الخيل ثوار
تناثرت انجم الاقدار سطوته
اذا الرماح من الارواح عمار
فهن في خمة الاضواء آنسة
وهن من طخية الظلماء نفار
للمشترى بينها النصر منطقة
يبغي رضاه والمريخ زنار
كفته روعته امر ابعسلمة
تأيد ورعى الحفلو ديار
وقد افاض على الظلماء هيبته
فايصر مذار الباس صبرار

جرح جرحا ليس بكبير فحضر الوزير يطلب الدنانير فقال له الوزير ليس هذا الجرح بشئ فعاود القتال فضرب فانشقت جوفه وخرج شئ من شحمه فحمل الى الوزير فلما رآه قال يا مولانا الوزير ارضيك هذا فضحك منه واضعف له ورتب له من يعالج جراحته الى ان برئ وتعذرت الاقوات فى العسكر الا ان اللحم والفواكه والخضر كثيرة وكانت الغلات ببغداد كثيرة لان الوزير كان يفرقها فى الجند عوض الدنانير يبيعونها فلم تزل الاسعار عندهم رخيصة الا ان اللحم والفاكهة والخضر قليل عندهم واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وعدم المعيشة لاهلها وكان زين الدين وعسكر الموصل غير مجدين فى القتال لاجل الخليفة والمسلمين وقيل لان نور الدين محمود بن زنكى وهو اخو قطب الدين صاحب الموصل الاكبر ارسل الى زين الدين يلومه على قتال الخليفة ففتروا وانصروا ولم تزل الحرب فى أكثر الايام وعمل السلطان محمد شاه اربعمائة سلم ليصعد الرجال فيها الى السور وزحفوا وقاتلوا ففتح اهل بغداد ابواب البلد وقالوا اى حاجة بكم الى السلاليم هذه الابواب مفتحة فادخلوا منها فلم يقدروا على ان يقربوها فبينما الامر على ذلك اذ وصل الخبر الى السلطان محمد ان اخاه ملكشاه وايلدكز صاحب بلاد اران ومعه الملك ارسلان ابن الملك طغرل بن محمد وهو ابن امرأة ايلدكز قد دخلوا همذان واستولوا عليها واخذوا أهل الامراء الذين مع محمد شاه واموالهم فلما سمع محمد شاه ذلك جد فى القتال لعله يبلغ مناه فلم يقدر على شئ ورحل عنها نحو همذان فى الرابع والعشرين من ربيع الاول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وعاد زين الدين الى الموصل وتفرق ذلك الجمع على عزم العود اذا فرغ محمد شاه من اصلاح بلاده فلم يعودوا يجتمعون وفى كثرة حروبهم لم يقتل بينهم الانفر يسير وانما الجراح كان كثيرا ولما ساروا نهبوا بعقوبا وغيرها من طريق خراسان ولما رحل العسكر عن بغداد اصاب اهلها امراض شديدة حادة وموت كثير للشدة التى مرت بهم واما ملكشاه وايلدكز ومن معهما فانهم ساروا من همذان الى الرى فخرج اليهم اينانج شحنتها وقاتلهم فهزموه فارسل الملك محمد الامير سقمس بن قيماز الحرامى فى عسكر نجدة لاينانج فسار سقمس وكان ايلدكز وملكشاه ومن معهما قد عادوا من الرى يريدون محاصرة الخليفة فلقيهم سقمس وقاتلهم فهزموه ونهبوا عسكره واثقالهم فاحتاج الملك محمد الى الاسراع فسار فلما بلغ حلوان بلغه ان ايلدكز بالدينور واتاه رسول من نائبه اينانج انه دخل همذان واعاد الخطبة له فيها فقويت نفسه وهرب شملة صاحب خوزستان الى بلاده وتفرق اكثر جمع ايلدكز وملكشاه وبقيا فى خمسة آلاف فارس فعادا الى بلادهما شبه الهارب ولما دخل محمد شاه همذان اراد التجهز لقصد بلاد ايلدكز فابتدأ به مرض السل وبقى به الى ان مات

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الاول أطلق ابو الوليد البدر ابن الوزير ابن هبيرة من حبس تكريت ولما قدم بغداد خرج اخوه والموكب يتلقونه وكان يوما مشهودا وكان مقامه فى الحبس يزيد على ثلاث سنين وفيها احترقت بغداد فى ربيع الآخر وكثر الحريق بها واحترق درب فراشا ودرب الدواب ودرب اللبان وخرابة ابن جردة والظفرية والخاتونية ودار الخلافة وباب

ان السلامة ان لو الهمت نطقت

يارب انك لى من سيفه جار
يا أيها الملك الميمون طائره
ومن نداه كفيض اليم زخار
ان الزمان عروس ما لها ابدا
سوى خصالك مشاط وعطار
البخل عندك فى وجه الندى كاف
نعم وفى غرة الاقبال ادبار
ترمى العدى من بنات الكيد صائبة
وان رموا خانت المرمى اوتار
كان ما قد رموا من امن ظالمة
وما رميت به وحى واقدار
تحمى وتلتهب الاوتار راميه
كانما احتجت الاوتار اوتار
لازلت فى نعم تفضى الى نعم
ما طاف حول فناء البيت عمار
ممتعا بسرور غير منقرض
حتى يفوق نجود الارض اغوار

ولابى بكر محمد بن العباس الطبرى المعروف بالخوارزمى من قصيدة يمدحه بها وقت مقامه بنيسابور

قامت تودعنى بالادمع السجم
والصمت بين يديها وبين فم
البين اخرسها او البين انطقها
وهذه حالة فى الناس كلهم
قد طالما انهزمت عنا السيوف فلا
تحاربينا بجيش الورد والعنم

الازج وسرق السلطان وغير ذلك وفيها في شوال قصد الاسماعيلية طبس بخراسان فاوقعوا بها وقعة عظيمة واسروا جماعة من اعيان دولة السلطان ونهبوا اولادهم وردوا بهم وقتلوا فيهم وفيها في ذي القعدة توفي شيخ الاسلام ابو المعالي الحسن بن عبد الله بن احمد بن محمد المعروف بابن الرزاز بنيسابور وهو من اعيان الافاضل وفي هذه السنة توفي مؤيد الدين بن نيسان رئيس آمد والحاكم فيها على صاحبها وولي ما كان اليه بعده ابنه كمال الدين ابو القاسم وتوفي ابو الحسن علي بن الحسين الغزنوي الواعظ المشهور ببغداد وكان قدم اليها سنة ست عشرة وخمسمائة وكان له قبول عظيم عند السلاطين والعامة والخلفاء الا ان المقتفي اعرض عنه بعد موت السلطان مسعود لاقبال السلطان عليه وكان موته في المحرم وتوفي ابو الحسن ابن الخل الفقيه الشافعي شيخ الشافعية ببغداد وكان يؤم بالخليفة في الصلاة وتوفي ابن الآمدي الشاعر وهو من اهل النيل من اعيان الشعراء في طبقة الغزي والارجاني وكان عمره قد زاد على تسعين سنة وفيها قتل مظفر بن حماد بن ابي الخير صاحب البطيحة قتله نفيس بن فضل بن ابي الخير في الحمام وولي بعده وفيها توفي الوأواء الحلبي الشاعر المشهور وفيها في رمضان توفي الحكيم ابو جعفر بن محمد البخاري باسفراين وكان عالما بعلوم الحكماء الاوائل

(ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الزلازل بالشام)

في هذه السنة في رجب كان بالشام زلازل كثيرة قوية تخربت كثيرا من البلاد وهلك فيها ما لا يحصى كثرة فخرب منها بالمرة حماة وشيزر وكفرطاب والمعرة وافامية وحمص وحصن الاكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وانطاكية واما ما لم يكثر فيه الخراب ولكن خرب اكثره فجميع الشام وتهدمت اسوار البلاد والقلاع فقام نور الدين محمود في ذلك المقام المرضي وخاف على بلاد الاسلام من الفرنج حيث خربت الاسوار فجمع عساكره واقام باطراف البلاد فلم يزل كذلك حتى فرغ من اسوار البلاد واما كثرة القتلى فيكفي ان معلما كان بالمدينة وهي مدينة حماة ذكر عنه انه فارق المكتب لمهم عرض له فجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يأت احد يسأل عن صبي كان له بالمكتب

(ذكر ملك نور الدين حصن شيزر)

نبتدي بذكر هذا الحصن وانه كان قبل ان يملكه نور الدين محمود بن زنكي فنقول هذا الحصن قريب من حماة بينهما نصف نهار وهو على جبل عال منيع لا يسلك اليه الا من طريق واحدة وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من ايام صالح بن مرداس الى ان انتهى الامر الى ابي المرهف نصر بن علي بن نصر بن منقذ بعد ابيه ابي الحسن علي وكان بيده الى ان مات سنة احدى وتسعين واربعمائة وكان شجاعا كريما فلما حضره الموت استخلف اخاه ابا سلامة مرشد بن علي فقال والله لا وليته ولاخرجن من الدنيا كما دخلتها وكان عالما بالقرآن وهو والد مؤيد الدولة اسامة بن منقذ فولاها اخاه الاصغر سلطان بن علي واصطحبا اجمل صحبة مدة من الزمان فاولد مرشد عدة اولاد ذكور وكبروا وسادوا ومنهم عز الدولة ابو الحسن علي ومؤيد الدولة اسامة وغيرهما ولم يولد لاخيه سلطان ولد ذكر الى ان كبر فجاءه اولاد ذكور فحسد اخاه على ذلك وخاف

وقد خلت بلام الاتباع فلا
تلق سوا القناة فمة البهم
لم يبق في الارض لي شيء
اهاب له
فهل اهاب انكسار الجفن
ذي السقم
استغفر الله من قولي غلطت
بلى
اهاب شمس المعالي امة الامم
كان خطك من سيف الامير
ومن
حتم القضاء ومن عزي ومن
كلمي
فذي جفونك عن رمية الدي
فان سفرت فقد حاولت
سفك دمي
وان دعاك ابو يحيى لنصرته
على يوما فابدي الثغر وابتسمي
قال الامير لاخلاق الكرام
قفي
بحيث انت فما زادت على نعم
وقال العلم والآداب لا تردا
الاعلى فاهما بلا ولم
القائل القول لو فاه الزمان به
صارت لياليه اياما بلا ظلم
والفاعل الفعلة الغراء
لو مزجت
بالنار لم تكن النيران من حمم
لا تعتقان بمضروب المال في يده
فقد تجف ضروع العارض
السجم
قد يحجز العير بعد المد تعرفه
ويترك الجذب وكر الاجدل
القطم
ولا يغرنك ان الدهر ساربه
قد يغمد السيف يوم الروع
بالبهم

اولاد اخيه على اولاده وسعى بينهم المفسدون فغيروا كلا منهما على اخيه فكتب سلطان الى اخيه مرشد ابيات شعر يعاتبه على اشياء بلغته عنه فأجابه بشعر فى معناه رأيت اثبات ما تمس الحاجة اليه منه وهى هذه الابيات

ظلوم أبت فى الظلم الا تماديا * وفى الصد والهجران الا تغاليا
شكت هجرنا والذنب فى ذاك ذنبها * فياعجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين فىّ وطالما * عصيت عذولا فى هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال الى القلى * وهيهات ان أمسى لها الدهر قاليا
ولا ناسيا ما أودعت من عهودها * وان هى أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتانى من قريضك جوهر * جمعت المعالى فيه لى والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينا لانه * تولى برغمى حين ولى شبابيا
واين من الستين لفظ مفوّق * اذا رمت ادنى القول منه عصانيا
وقلت أخى يرعى بنىّ واسرتى * ويحفظ عهدى فيهم وذماميا
ويجزيهم مالم اكافه فعله * لنفسى فقد اعددته من تراثيا
فمالك لما ان حنى الدهر صعدتى * وثلم منى صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برّك قسوة * وقربك منى جفوة وتناسيا
واصبحت صفر الكف مما رجوته * أرى اليأس قد عفى سبيل رجائيا
على أننى ما حلت عما عهدته * ولا غيرت هذى السنون وداديا
فلا غرو عند الحادثات فاننى * أراك يمينى والانام شماليا
تحمل بها عذراء لو قرنت بها * نجوم السماء لم تعد دراريا
تحلت بدر من صفاتك زانها * كما زان منظوم اللآلى الغوانيا
وعش بانيا للمجد ما كان واهيا * مشيدا من الاحسان ما كان هاويا

وكان الامر بينهما فيه تماسك فلما توفى مرشد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة قلب اخوه لاولاده ظهر المجن وباداهم بالسوء وأخرجهم من شيزر فتفرقوا وقصد اكثرهم نور الدين وشكوا اليه مالقوا من عمهم فغاظه ذلك ولم يمكنه قصده ولا الاخذ بثارهم واعادتهم الى وطنهم لاشتغاله بجهاد الفرنج ولخوفه ان يسلم شيزر الى الفرنج ثم توفى سلطان وولى بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد حنقه عليهم وانتظر فرصة تمكنه فلما خربت القلعة هذه السنة بما ذكرناه من الزلزلة لم ينج من بنى منقذ الذين بها أحد وسبب هلاكهم اجمعين ان صاحبها منهم كان قد ختن ولدا له وعمل دعوة للناس واحضر جميع بنى منقذ عنده فى داره وكان له فرس يحبه ولا يكاد يفارقه واذا كان فى مجلس اقيم الفرس على بابه وكان المهر فى ذلك اليوم على باب الدار فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار فرمح الفرس رجلا كان اولهم فقتله وامتنع الناس من الخروج فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها ولم ينج منها الا الشريد فبادر اليها بعض امراء نور الدين وكان بالقرب منها فصعد اليها وتسلمها نور الدين منه فملكها وعمر اسوارها ودورها واعادها جديدة

الآن اذ غذت الدنيا بجمشه * وقابلته صباحا أوجه النعم
ترنو اليه فتخفى شخص منقبض لراحتيه وتغضى طرف محتشم
اذا دعت نحوه ساقا نهضت قدما
والعمر يذهب بين الساق والقدم
حتى تقربها حال وتبعدها * كذا يكون رجوع الآبق السدم
وله من قصيدة أخرى يقول فى نسيبها
شموس لهن البيت والخدر مغرب
فطالعها البين والهجر غارب
ولكنه شمس المعالى خلافها
مشارقه ليست لهن مغارب
وما القبول الشمس الا وقد رأوا
بأنك شمس والملوك كواكب
أقول لزوار الامير ترجلوا
فمن زاره من راجل فهو راكب
وان زاره الفرسان كنت كفيلهم
بأن يرجعوا والخيل فيهم جنائب
ألا ابلغا عنى الامير رسالة
تدل على انى على الدهر عاتب
الى كم يحل المرء مثلك بلدة
بها منبر فيه لغيرك خاطب
عليك بهذا السيف فاقض ديونه
فللسيف دين عند كفك واجب
ولا تقعدن تغضى الجفون على القذى
وفى الارض مركوب ورمح وصاحب

(ذكر وفاة الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر وانتقالها لقطب الدين مودود الى الجزيرة)

كانت الجزيرة لأتابك زنكي فلما قتل سنة احدى وأربعين أقطعها ابنه سيف الدين غازي للامير أبي بكر الدبيسي وكان من أكابر أمراء والده فبقيت بيده الى الآن وتمكن منها وصار بحيث يتعذر على قطب الدين أخذها منه فمات في ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين ولم يخلف ولدا فاستولى عليها مملوك له اسمه قتلغ وأطاعه جندها فحصرهم مودود ثلاثة أشهر ثم تسلمها من قتلغ في صفر من سنة ثلاث وخمسين وأعطاه عوضها اقطاعا كثيرة

(ذكر وفاة السلطان سنجر)

في هذه السنة في ربيع الاول توفي السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب ارسلان أبو الحرث اصابه قولنج ثم بعده اسهال فمات منه ومولده بسنجار من ديار الجزيرة في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة وسكن خراسان واستوطن مدينة مرو ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد واجتمع معه بالخليفة المستظهر بالله فعهد الى محمد بالسلطنة وجعل سنجر ولي عهده فلما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان واستقام أمره وأطاعه السلاطين وخطب له على أكثر منابر الاسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة ولم يزل أمره عاليا وجده متراقيا الى ان اسره الغز على ما ذكرناه ثم انه خلص بعد مدة وجمع اليه أطرافه وكان يعود الى المملكة فأدركه أجله وكان مهيبا كريما رفيقا بالرعية وكانت البلاد في زمانه آمنة ولما مات دفن في قبة بناها لنفسه سماها دار الآخرة ولما وصل خبر موته الى بغداد قطعت خطبته ولم يجلس له في الديوان للعزاء ولما حضر السلطان سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود ابن محمد بن بغراخان وهو ابن أخت السلطان سنجر فأقام بها خائفا من الغز فقصد جرجان يستظهر بها وعاد الغز الى مرو وخراسان واجتمع طائفة من عساكر خراسان على أي ابه المؤيد فاستولى على طرف من خراسان وبقيت خراسان على هذا الاختلال الى سنة أربع وخمسين وراسل الغز الملك محمودا على ما نذكره سنة ثلاث وخمسين وسألوه ان يحضر عندهم ليملكوه عليهم فلم يثق اليهم وخافهم على نفسه فأرسل ابنه اليهم فأطاعوه مدة ثم لحقهم الملك محمود على ما نذكره سنة ثلاث وخمسين

(ذكر ملك المسلمين مدينة المرية وانقراض دولة الملثمين بالاندلس)

في هذه السنة انقرضت دولة الملثمين بالاندلس وملك أصحاب عبد المؤمن مدينة المرية من الفرنج وسبب ذلك ان عبد المؤمن لما استعمل ابنه أبا سعيد على الجزيرة الخضراء ومالقة عبر أبو سعيد البحر الى مالقة واتخذها دارا وكاتبه ميمون بن بدر اللمتوني صاحب غرناطة ان يوحد ويسلم اليه غرناطة فقبل أبو سعيد ذلك منه وتسلم غرناطة فسار ميمون الى مالقة بأهله وولده فتلقاه أبو سعيد وأكرمه ووجهه الى مراكش فأقبل عليه عبد المؤمن وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم الا جزيرة ميورقة مع حمو بن غانية فلما ملك أبو سعيد غرناطة جمع الجيوش وسار الى مدينة المرية وهي بأيدي الفرنج أخذوها من المسلمين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فلما نازلها وافاها الاسطول من سبتة وفيه خلق كثير من المسلمين فحصروا المرية برا وبحرا وجاء الفرنج الى من بها فحصرهم فيها ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها وبنى أبو سعيد سورا

تمر بك هذا الدهر فالزمه يقترم
فلن يوقظ القرام الا المطالب
وأنت ابن عم السيف بل أنت عمه
وكيف تخاف الاقربين الاقارب
أليس أبو كم وشمكير وجده
زياد ومرداويج عم مناسب
تمر لك بنا آمالوا ومنبر
واما حسام كالعقيقة قاضب
وللقاضي أبي الحسين علي
ابن عبد العزيز الجرجاني
فيه من قصيدة أولها
أسري خيال الهاجر المتجنب
ويجري دموع الزائر المتطرب
سألت بالدهر الذي صرت بعده
قذى ناظري من بعد أن كنت ملعبي
أعق على عين اذا ما وعدتها
بقربك قالت للدموع تأهبي
ولما تداعت للغروب شموسهم
وقمنا لتوديع الفريق المغرب
تلقين أطراف السجوف بمشرق
لهن واعطاف الخدور بمغرب
فما صبرت الا بدمع مضيع
ولا أذن الا بقلب معذب
كأن فؤادي قرن قابوس راعه
تلاعبه بالقنا المتأشب
همام يراه المال أسرع عادث

على الجبل المذكور الى البحر وعمل عليه خندقا فصارت المدينة والحصن الذى فيه الفرنج محصورا بهذا السور والخندق ولا يمكن من يجدهما من ان يصل اليهما فجمع الادفونش ملك الفرنج بالاندلس المعروف بالسليطين فى اثنى عشر ألف فارس من الفرنج ومعه محمد بن سعد بن مردنيش فى ستة آلاف فارس من المسلمين وراموا الوصول الى المدينة ودفع المسلمين عنها فلم يطيقوا ذلك فرجع السليطين وابن مردنيش خائبين فمات السليطين فى عوده قبل ان يصل الى طليطلة وتمادى الحصار على المرية ثلاثة اشهر فضاقت الميرة وقلت الاقوات على الفرنج فطلبوا الامان ليسلموا الحصن فاجابهم أبو سعيد اليه وأمنهم وتسلم الحصن ورحل الفرنج فى البحر عائدين الى بلادهم فكان ملكهم المرية مدة عشر سنين

(ذكر غزو صاحب طبرستان الاسماعيلية)

فى هذه السنة جمع شاه مازندران رستم بن على بن شهريار عسكره وسار ولم يعلم احدا جهة مقصده وسلك المضايق وجد السير الى بلد ألموت وهى للاسماعيلية فاغار عليها واحرق القرى والسواد وقتل فاكثر وغنم اموالهم وسبى نساءهم واسترق ابناءهم فباعهم فى السوق وعاد سالما غانما وانخذل الاسماعيلية ودخل عليهم من الوهن مالم يصابوا بمثله وخرب من بلادهم مالا يعمر فى السنين الكثيرة

(ذكر أخذ حجاج خراسان)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار حجاج خراسان فلما رحلوا عن بسطام أغار عليهم جمع من الجند الخراسانية قد قصدوا طبرستان فاخذوا من أمتعتهم وقتلوا نفرا منهم وسلم الباقون وساروا من موضعهم فبينما هم سائرون اذ طلع عليهم الاسماعيلية فقاتلهم الحجاج قتالا عظيما وصبروا صبرا عظيما فقتل أميرهم فانخذلوا وألقوا بأيديهم واستسلموا وطلبوا الامان وألقوا اسلحتهم مستأمنين فاخذهم الاسماعيلية وقتلوهم ولم يبقوا منهم الا شرذمة يسيرة وقتل فيهم من الائمة العلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الاسلام وخصت خراسان ولم يبق بلد الا وفيه المأتم فلما كان الغد طاف شيخ فى القتلى والجرحى ينادى يا مسلمون يا حجاج ذهب الملاحدة وأنا رجل مسلم فمن أراد الماء سقيته فمن كلمه قتله واجهز عليه فهلكوا اجمعون الا من سلم وولى هاربا وقليل ما هم

(ذكر الحرب بين المؤيد والامير ايثاق)

قد ذكرنا تقدم الامير اى ابه مملوك السلطان سنجر وتقدمه على عساكر خراسان فحسده جماعة من الامراء منهم الامير ايثاق وهو من الامراء السنجرية وانحرف عنه وكان تارة يقصد خوارزمشاه وتارة مازندران وتارة يظهر الموافقة للمؤيد ويبطن المخالفة فلما كان الآن فارق مازندران ومعه عشرة آلاف فارس قد اجتمع معه كل من يريد الغارة على البلاد وكل منحرف عن المؤيد وقصد خراسان وأقام بنواحى نسا وابيورد لا يظهر المخالفة للمؤيد بل يراسله بالموافقة والمعاضدة له ويبطن ضدها وانتقل المؤيد من المكاتبة الى المكاشفة وسار اليه بجريدة فاغار عليه واوقع به فتفرق عنه جموعه ونجا بحشاشة نفسه وغنم المؤيد وعسكره كل مال ايثاق ومضى منهزما الى مازندران وكان ملكها رستم بينه وبين أخ له اسمه على تنازع على الملك وقد

الى حتفه والقرن أخوف معطب
يغض العدى اطراقه قبل عزمه
ويطرقهم رعبا ولم يتأهب
وفيها يصف الزانات
وزرق على صرتظل اذا هوت
تلاحظ أعقاب الشهاب المذنب
ترفعن عن طيش الرماح وزلة
السـ*ـهام وتقصير الحسام المجرب
فخرن ظبات البيض ثم وصلنها
اليمين من سمر الرماح باكعب
فللن منال السهم من متبعد
وقمن مقام السيف من متقرب
فتى ما تلاقت همتاه بصدره
ولا يشهد الجلى برأى مشعب
له الهمة العلياء والمنصب الذى
تتبعه الجوزاء ألحاظ متعب
اذا بعض أطراف الرجال تقاصرت
عن المجد ألفوه كريم التقلب
ويذهب من عز ومجد ومفخر
الى آثار من داويج فى كل مذهب
يزاحمهم من وشمكير بمنكب
ومن سلف الاصبهبذين بموكب
وما خلصت للمرء سماة والد
اذا لم يقابله بخال مهذب
كلا طرفيه يرجع الطرف خاسئا
اذا رامه عن كل خرق محجب
يعود نمعالى اردشير بخاله
ويعلو الربا عن شاوساسان بالاب

قوي رستم فلما وصل اينانج الى مازندران قتل علياً وحمل رأسه الى أخيه رستم فعظم ذلك على رستم واشتد واستشاط غضباً وقال آكل لحمي ولا أطعمه غيري ولم يزل اينانج يتردد في خراسان بالنهب والغارة لا سيما مدينة اسفرايين فانه أكثر من قصدها حتى خربت فراسله السلطان محمود بن محمد والمؤيد ودعواه الى الموافقة فامتنع فسارا اليه في العساكر فلما قارباه أتاهما كثير من عسكره فنجا من بين أيديهما الى طبرستان في صفر سنة ثلاث وخمسين فتبعاه في عساكرهما فأرسل شاه مازندران يطلب الصلح فأجاباه واصطلحوا وحمل شاه مازندران أموالاً جليلة وهدايا نفيسة وسير اينانج ابنه رهينة فعادا عنه

•(ذكر الحرب بين المؤيد وسنقر العزيزي)•

كان سنقر العزيزي من أمراء السلطان سنجر وممن ناوى أيضاً المؤيد أي أبه فلما اشتغل المؤيد بحرب اينانج سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد الى هراة ودخلها وبها جماعة من الاتراك وقصد بها أن يشير عليه بأن يعتضد بالملك الحسين ملك الغورية فلم يفعل واستبد بنفسه منفرداً لأنه رأى اختلاف الامراء على السلطان محمود بن محمد فطمع وحدثته نفسه بالقوة فقصده المؤيد الى هراة فلما وصل اليها قاتله من بها شيئاً من قتال ثم ان الاتراك مالوا الى المؤيد وأطاعوه وانقطع خبر سنقر العزيزي من ذلك الوقت ولم يعلم ما كان منه فقيل انه سقط عن فرسه فمات وقيل بل اغتاله الاتراك فقتلوه وتقدم السلطان محمود الى ولاية هراة في عساكره وجنوده ولحق جماعة من عسكر سنقر بالامير اينانج وأغاروا على طوس وقراها فبطلت الزروع والحرث واستولى الخراب على البلاد وعمت الفتن أطراف خراسان وأصابهم العين فانهم كانوا أيام السلطان سنجر في أرغد عيش وأمنه وهذا أدب الدنيا لا يصفو نعيمها وخيرها من كدر ونوائب وآفات وقلما يخلص شرها من خير فنسأل الله أن يحسن لنا العون والعقبى بمحمد وآله

•(ذكر ملك نور الدين بعلبك)•

في هذه السنة ملك نور الدين محمود بعلبك وقلعتها وكانت بيد انسان يقال له ضحاك البقاعي منسوب الى بقاع بعلبك وكان قد ولاه اياها صاحب دمشق فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها ولم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف الحال معه الى الآن فملكها واستولى عليها

•(ذكر عدة حوادث)•

في هذه السنة قلع الخليفة المقتفي لأمر الله باب الكعبة وعمل عوضه باباً مصفحاً بالفضة المذهبة وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتاً يدفن فيه اذا مات وفيها توفي محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت أبو بكر الخجندي رئيس أصحاب الشافعي باصفهان وسمع الحديث من أبي علي الحداد وكان صدراً مقدماً عند السلاطين وكان ذا حشمة عظيمة وجاه عريض ووقع بعده فتنة عظيمة باصفهان وقتل فيها خلق كثير وفيها كان بخراسان غلاء شديد أكلت فيه سائر الدواب حتى الناس وكان بنيسابور طباخ ذبح انساناً علوياً وطبخه وباعه في الطبيخ ثم ظهر عليه انه فعل ذلك فقتل وأسفر الغلاء وصلحت أحوال الناس وفيها توفي القاضي أبو العباس

ولما انتهت الهزيمة بالقوم الى الري على جملة الانكسار وذلة الاقتسار وشنعة القتل والاسار قطع عليهم سياط العذل والتعنيف وملئت عيونهم من تقنيات التعيير والتشوير وكان أبو علي الحسن بن أحمد بن حمويه على الوزارة فاختار عشرة آلاف رجل من بين الديلم وفتاك الاتراك ونخب العرب وأفراد الاكراد وسار بهم في منوجهر بن قابوس وبيستون بن بيجاسب وكاذ بن فيروزان وشاموج ابن أخت عظيم الديلم وموسى الحاجب وشابور ابن كردويه وأبي العباس ابن جاني وعبد الملك بن ماكان وهؤلاء رؤوس الجيل والديلم حتى أظل شهريار وبلغ شمس المعالي قابوس اقباله فاستنهض أطرافه واستظهر بشهريار بن شروين استمداداً لموافقته وتنجزاً لوعد الله في نصرته وتثبيت وطأته واستتمام ما أعاده الله اليه من نعمته وبادر أبو علي بن حمويه مع الأمير نصر بن الحسن ابن فيروزان شمس المعالي قابوس بن وشمكير ولزاطعه الى جانبه وواصله بكتبه بالنفاق عقدته فالتاقى ذروته بالانتصار في نصرته وملقياً اليه أن القرابة الواشجة بين أبي طالب بن

احمد بن بختيار بن علي الماندائي الواسطي قاضيها وكان فقيها عالما وفيها في ربيع الآخر توفي القاضي برهان الدين ابو القاسم منصور بن أبي سعد محمد بن أبي نصر احمد الصاعدي قاضي نيسابور وكان من أئمة الفقهاء الحنفية

(ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين سنقر وارغش)

في هذه السنة كانت حرب شديدة بين سنقر الهمذاني وارغش المسترشدي وسببها ان سنقر الهمذاني كان قد نهب سواد بغداد بطريق خراسان وكثر جمعه فخرج الخليفة المقتفي لامر الله في جمادى الاولى بنفسه يطلبه فلما وصل الى بلد اللحف قال له الامير خطلوبرس انا اكفيك هذا المهم وكان بينه وبين سنقر مودة فركب اليه وتلاقيا وجرى بينهما عتاب طويل لاجل خروجه عن طاعة الخليفة فاجاب سنقر الى الطاعة وعاد خطلوبرس واصلح حاله فاقطعه بلد اللحف والامير ارغش المسترشدي فلما توجها الى اللحف جرى بينهما منازعة فاراد سنقر قبض ارغش فرآه محترزا فصار با واقتتلا قتالا شديدا وغدر بارغش اصحابه فعاد منهزما الى بغداد وانفرد سنقر ببلد اللحف وخطب فيه للملك محمد فسير من بغداد عسكر القتاله مقدمهم خطلوبرس فجرت بينهما حرب شديدة انهزم في آخرها سنقر وقتلت رجاله ونهبت امواله التي في العسكر وسار هو الى قلعة الماهكي وأخذ ما كان له فيها واستخلف فيها بعض غلمانه وسار هو الى همذان فلم يلتفت اليه الملك محمد شاه فعاد الى قلعة الماهكي

(ذكر الحرب بين شملة وقايماز السلطاني)

في هذه السنة أيضا كان قتال بين شملة صاحب خوزستان ومعه ابن مكلبة وبين قايماز السلطاني في ناحية بادرايا فجمعا عسكرهما وسارا اليه فاتاه الخبر بذلك وهو يشرب فلم يحفل بذلك وركب اليهم في نحو ثلثمائة فارس وكان معجبا بنفسه فحمل عليهم واختلط بهم فاحدقوا به وقاتل اشد قتال فانهزم اصحابه وأخذوه أسيرا فتسلمه انسان تركماني كان له عليه دم لانه قتل ابنا للتركماني فقتله بابنه وارسل براسه الى محمد شاه وأرسل الخليفة عسكرا لقتال شملة ومن معه فانزاحوا من بين أيديهم ولحقوا بالملك ملكشاه بخوزستان فهلك كثير منهم بالبرد

(ذكر معاودة الغز الفتنة بخراسان)

كان الاتراك الغزية قد أقاموا ببلخ واستوطنوها وتركوا النهب والقتل ببلاد خراسان واتفقت الكلمة بها على طاعة السلطان خاقان محمود بن محمد أرسلان وكان المتولي لامور دولته المؤيد اى أبه وعن رأيه يصدر محمود فلما كان هذه السنة في شعبان سار الغز من بلخ الى مرو وكان السلطان محمود بسرخس في العساكر فسار المؤيد في طائفة من العسكر اليهم فاوقع بطائفة منهم وظفر بهم ولم يزل يتبعهم الى أن دخلوا الى مرو أوائل رمضان وغنم من أموالهم وقتل كثيرا وعاد الى سرخس فاتفق هو والسلطان محمود على قصد الغز وقتالهم فجمعا العساكر وحشدا وسارا الى الغز فالتقوا سادس شوال من هذه السنة وجرت بينهم حرب طال مداها فبقوا يقتتلون من يوم الاثنين سابع شوال الى نصف الليل من ليلة الاربعاء الحادي عشر من الشهر تواقعوا عدة وقعات متتابعة ولم يكن بينهم مزاحة ولا نزول الا لما لابد منه انهزم الغز

فخر الدولة وبيته لو صادفت منه حكمها في الاشفاق على دولته * والانتداب لنصرته * لكان أحق الناس بسياسة أجناده * وزعامة ممالكه وبلاده * وانه الآن متى سلك طريق الخدمه * وجانب جانب التهمه * وحافظ على حرمة النعمه * لم يعدم ما يرومه من ترتيب وترحيب وتنويل وتخويل وتفخيم وتقديم وأذن له في الانتقال الى قومس الى ان يدبر أمره بمقتضاه فارتاح لما شامه من تلك العقيقه * ووثق به على الحقيقه * وسار نحو سارية ثم قرض الجادة ذات اليسار وركب ذات اليمين مما يلي طراشك وأبادان حتى اذا حاذى رقعة قومس أذاع في أصحابه رأيه في طاعة أبي طالب وانه ما عاش رقيق خدمته * ونصير دعوته * فاختلفت عليه كلمتهم حين أفصح بتدبيره * وباح بسر ضميره * فمن فريق رجع الى الاستندارية وفريق الى جرجان * في طلب الامان * وسل نصر في الباقين حتى أناخ بقومس وسأل أبا علي بن حمويه تمكينه من بعض القلاع ليحصن فيه عياله وأثقاله فمكنه من حصار بدومند فاستوطنه وأودعه * ماله ومن معه

فيها ثلاث دفعات وعادوا الى الحرب فلما أسفر الصبح يوم الاربعاء انكشفت الحرب عن هزيمة عساكر خراسان وتفرقهم في البلاد وظفر الغز بهم وقتلوا فأكثروا فيهم وأما الجرحى والاسرى فأكثر من ذلك وعاد المؤيد ومن سلم معه الى طوس فاستولى الغز على مرو واستحضروا السيرة وأكرموا العلماء والائمة مثل تاج الدين أبي سعد السمعاني وشيخ الاسلام على البلخي وغيرهما وأغاروا على سرخس ونهبت القرى وجلى أهلها وقتل من أهل سرخس نحو عشرة آلاف قتيل ونهبوا طوس أيضا وقتلوا أهلها الا القليل وعادوا الى مرو وأما السلطان محمود ابن محمد الخان والعساكر التي معه فلم يقدروا على المقام بخراسان من الغز فساروا الى جرجان ينتظرون ما يكون من الغز فلما دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة أرسل الغز الى السلطان يسألونه أن يحضر عندهم ليملكوه أمرهم فلم يثق بهم وخافهم على نفسه فأرسلوا يطلبون منه ابنه جلال الدين محمدا ليملكوه أمرهم ويصدروا عن أمره ونهيه في قليل الامور وكثيرها وترددت الرسل واستحلف السلطان محمود لولده بالعهود والمواثيق وتقرير القواعد ثم سيره من جرجان الى خراسان فلما سمع الامراء الغزية بقدومه ساروا من مرو الى طريقه فالتقوه بنيسابور وأكرموه وعظموه ودخل نيسابور واتصلت به العساكر الغزية واجتمعوا عنده في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وخمسمائة ثم ان السلطان محمودا سار من جرجان الى خراسان في الجيوش التي معه من الامراء السنجرية وتخلف عنه المؤيد أي أبه فوصل الى حدود نسا وابيورد وأقطع نسا الامير اسمه عمر بن حمزة النسوي فقام في حفظها المقام المرضي ومنع عنها أيدي المفسدين وأقام السلطان محمود بظاهر نسا حتى انسلخ جمادى الآخرة من السنة ولما كان الغز بنيسابور في هذه السنة أرسلوا الى طوس يدعونهم الى الطاعة والموافقة فامتنع أهل راذكان من اجابتهم الى ذلك واغتروا بسور بلادهم وبما عندهم من الشجاعة والقوة والعدة الوافرة والذخائر الكثيرة فقصدها طائفة من الغز وحصروهم وملكوا البلد وقتلوا فيه ونهبوا فأكثروا ثم عادوا الى نيسابور وساروا مع جلال الدين محمد ابن السلطان محمود الخان الى بيهق وحصروا سابزوار رابع عشر جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة فامتنع أهلها عليهم وقام بأمرهم النقيب عماد الدين على بن محمد بن يحيى العلوي الحسيني نقيب العلويين واجتمعوا معه وصدروا الى أمره ونهيه ووقفوا عند اشارته فامتنعوا على الغز وحفظوا البلد منهم وصبروا على القتال فلما رأى الغز امتناعهم عليهم وقوتهم أرسلوا اليهم يطلبون الصلح فاصطلحوا ولم يقتل من أهل سابزوار في تلك الحروب غير رجل واحد ورحل الملك جلال الدين والغز عن سابزوار في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة وساروا الى نسا وابيورد

(ذكر أمر المؤيد وخلاصه)

قد ذكرنا ان المؤيد أي أبه تخلف عن السلطان ركن الدين محمود بن محمد بجرجان فلما كان الآن سار من جرجان الى خراسان فنزل بقرية من قرى خبوشان اسمها زانك وبها جمع من الغز فوصلها الى زانك فبادروا اليه وحصروه فيها فخرج منه هاربا فرآه واحد من الغز فأخذه فوعده بالجزيل ان أطلقه فقال الغزي وأين المال فقال هو مودع في بعض هذه الجبال

ولما أمن أبو على شره وعادية توجهه نحو سارية فلما اطمأن بها أسرى منوجهر ابن شمس المعالي قابوس الى أبيه عائذا بالقمين عقوقه وكفران ما فرض الله عليه من حقوقه فارتاع أبو على من مسعود بن بجاسب لاشتراكهما في نسبة الجيل وأرومة ذلك القبيل واشفق من صفوه القديم في خدمة شمس المعالي وحسبه اياه على معاودة سدته واهتبال الغرة في مراجعة جملته فاحتال الحيلة في اعتقاله ورده الى الري في وثاقه وامتد الى ظاهر جرجان مما يلي نهر الداي فعسكر به وتواصى أهل الحفاظ والحمية والانفة الابية من أصحاب شمس المعالي قابوس بالترافد في التصالد والتماثل على التقاتل والتماسك عند التعارك وشدوا احيازيمهم للقراع وقرعوا ظنابيبهم للمصاع وناصبوهم الحرب طرفي الصباح والرواح لا يسأمون وقع الصفاح ولا يالمون لذع الجراح حتى خيم شهران كيوم واحد في معاصة الكريهة بين تكلف وتديه ومس عسكر جرجان ضيقة لانقطاع الميرة المرادة عنهم فاستعصموا بالقوس الشريفة وتغنوا طول تلك الايام بالبلغ

[illegible]

الآن فسار الى ترمذ ليحصرها فجمع صاحبها فيروزشاه أحمد بن أبي بكر بن قماج عسكره ولقيه ليمنعه فاقتتلوا فانهزم فيروزشاه ومضى منهزما لا يلوي على شيء فاصابه في الطريق قولنج فمات منه

(ذكر عود المؤيد الى نيسابور وتخريب ما بقي منها)

في هذه السنة عاد المؤيد أي أبه الى نيسابور في عساكره ومعه الامام المؤيد الموفق الشافعي الذي تقدم ذكر الفتنة بينه وبين ذخر الدين نقيب العلويين وغيره وبهم من نيسابور فلما خرج منها سار مع المؤيد وحضر مع المؤيد وحصر معه حصار نيسابور ورحلوا عن النقيب العلوي بشارستان واشتد الخطب وطال الحرب وسفكت الدماء وهتكت الاستار وخربوا ما بقي من نيسابور من الدور وغيرها وبالغ الشافعية ومن معهم من الانتقام فخربوا المدرسة الصندلية لاصحاب أبي حنيفة وخربوا غيرها وحصروا القهندز وهذه الفتنة استأصلت نيسابور ثم رحل المؤيد اي أبه عنها الى بيهق في شوال من سنة أربع وخمسين وخمسمائة كان ينبغي أن تكون هذه الحوادث الغزية الواقعة في سنة أربع وخمسين مذكورة في سنتها وانما اتبعنا بعضها بعضا ليكون أحسن لسياقتها

(ذكر ملك ملكشاه خوزستان)

في هذه السنة ملك ملكشاه ابن السلطان محمود بلاد خوزستان وأخذها من شملة التركماني وسبب ذلك أن الملك محمد بن السلطان محمود لما عاد من حصار بغداد كما ذكرناه مرض وبقي مريضا بهمذان ومضى أخوه ملكشاه الى قم وقاشان ونهبهما وصادر أهلها وجمع أموالا كثيرة فراسله أخوه محمد شاه يأمره بالكف عن ذلك ليجعله ولي عهده في الملك فلم يفعل ومضى الى اصفهان فلما قاربها أرسل رسولا الى ابن الخجندي وأعيان البلد في تسليم البلد اليه فامتنعوا من ذلك وقالوا الاخ في رقابنا يمين ولا نغدر به فحينئذ شرع ملكشاه في الفساد والمصادرة لاهل القرى فلما سمع محمد شاه الخبر سار عن همذان وعلى مقدمته كردبازو الخادم فتفرقت جموع ملكشاه عند فرسيسين فلحق بقويدان وكان قد فارق المقتفي لامر الله واتفق مع سنقر الهمذاني فلحقا كلاهما به وحسنا له قصد بغداد فسار عن بلد خوزستان الى واسط ونزل بالجانب الشرقي وهم على غاية الضر من الجوع فنهبوا القرى ثم بانا حث اتقع بثق بتلك الناحية تفرق منهم كثير ونجا ملكشاه ومن سلم معه وسار الى خوزستان فمنعه شملة من العبور فراسله ليمكنه من العبور الى أخيه الملك محمد شاه فلم يجبه الى ذلك وكانت حينئذ الاكراد الكرد الذين هناك واستدعاهم اليه فقربوا به ونزل اليه من تلك الجبال خلق كثير فاطاعوه فرحل ونزل على كرشانا وطلب من شملة الحرب فالان له شملة القول وقال انا اخطب لك وأكون معك فلم يقبل منه فاضطر شملة الى الحرب فجمع عسكره وقصده فلقيه ملكشاه ومعه سنقر الهمذاني واويدان وغيرهما من الامراء فاقتتلوا فانهزم شملة وقتل كثير من أصحابه وصعد الى قلعته دزدرين وملك ملكشاه البلاد وجبى الاموال الكثيرة وأظهر العدل وتوجه الى أرض فارس

(ذكر الحرب بين التركمان والاسماعيلية بخراسان)

وجل عن التعمق بهم المتوف ووطئهم على الارض السيوف وأقام الله على الجبل غنائم لا يستوعبها بيان ولا تستغنيها بنان ثم رأى شمس المعالي أن توعز بمداواة الجرحى والقتل عن الاسرى وصرفهم وراءهم بالخلع والكرامات والاحبية والصلات شكرا لنعمة الله فيما أولاه وإكبارا القدرة منه في تحقيق ما رجاه وأنشدني أبو منصور الثعالبي أبياتا له في ذكر هذا الفتح الذي تقلمه الله في سالف أيامه والملك الذي أقر الله مقره في قرابه

الفتح منتظم والدهر مبتسم ... وملك شمس المعالي كله نعم
والعدل منبسط والحق مرتجع ... والشعب ملتئم والجور منصرم
ألقت مقاليدها الدنيا الى ملك ... ما زال وقفا عليه المجد والكرم
شمس المعالي وغيث المشرقين ومن ... في يديه البلاد والملك والحشم
هو الامام هو القرم الهمام هو السيد بدر التمام هو الصمصام والقلم

كان بنواحي قهستان طائفة من التركمان فنزل اليهم جمع من الاسماعلية من قلاعهم وهم ألف وسبعمائة فأوقعوا بالتركمان فلم يجدوا الرجال وكانوا قد فارقوا بيوتهم فنهبوا الاموال وأخذوا النساء والاطفال وأحرقوا مالم يقدروا على حمله وعاد التركمان فرأوا مافعل بهم فتبعوا اثر الاسماعلية فأدركوهم وهم يقتسمون الغنيمة فكبروا وحملوا عليهم ووضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا حتى أفنوهم قتلا وأسرا ولم ينج الا تسعة رجال لاغير

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة كثر فساد التركمان أصحاب ترجم الايوانى بالجبل فسير اليهم من بغداد عسكر مقدمهم منكبرس المسترشدى فلما قاربهم اجتمع التركمان فالتقوا واقتتلوا هم ومنكبرس فانهزم التركمان أقبح هزيمة وقتل بعضهم وأسر بعض وحملت الرؤس والاسارى الى بغداد وفيها حج الناس فلما وصلوا الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وصل اليهم الخبر ان العرب قد اجتمعت لتأخذهم فتركوا الطريق وسلكوا طريق خيبر فوجدوا مشقة شديدة ونجوا من العرب وفيها توفي الشيخ نصر بن منصور بن الحسين العطار أبو القاسم الحرانى ومولده بحران سنة أربع وثمانين وأربعمائة وأقام ببغداد وكثر ماله وصدقاته أيضا وكان يقرأ القرآن وهو والد ظهير الدين الذى حكم فى دولة المستضىء بأمر الله على ما نذكره ان شاء الله وفيها توفي أبو الوقت عبد الاول بن عيسى بن شعيب السجزى ببغداد وهو سجزى الاصل هروى المنشا وكان قدم الى بغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة يريد الحج فسمع الناس بها عليه صحيح البخارى وكان عالى الاسناد فتأخر لذلك عن الحج فلما كان هذه السنة عزم على الحج فمات وفيها توفي يحيى بن سلامة ابن الحسن بن محمد أبو الفضل الحصكفى الاديب بميافارقين وله شعر حسن ورسائل جيدة مشهورة وكان يتشيع ومولده بطنزة فمن شعره

وخليع بت أعذله * ويرى عذلى من العبث
قلت ان الخمر مخبثة * قال حاشاها من الخبث
قلت فالارفاث تتبعها * قال طيب العيش فى الرفث
قلت منها القىء قال أجل * شرفت عن مخرج الحدث
وسأسلوها فقلت متى * قال عند الكون فى الجدث

(ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة)

ذكر ملك عبد المؤمن مدينة المهدية من الفرنج وملكه جميع افريقية قد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج مدينة المهدية من صاحبها الحسن بن على بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى وذكرنا أيضا سنة احدى وخمسين مافعله الفرنج بالمسلمين فى زويلة المجاورة للمهدية من القتل والنهب فلما قتلهم الفرنج ونهبوا أموالهم هرب منهم جماعة وقصدوا عبد المؤمن صاحب المغرب وهو بمراكش يستجيرونه فلما وصلوا اليه ودخلوا عليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وانه ليس فى ملوك الاسلام من يقصد سواه ولا يكشف هذا الكرب غيره فدمعت عيناه وأطرق ثم رفع رأسه وقال ابشروا لانصرنكم ولو بعد حين وأمر بانزالهم وأطلق لهم ألفى دينار ثم أمر بعمل الروايا والقرب ومايحتاج اليه العساكر فى السفر وكتب الى

هو الغمام الذى تخشى صواعقه
قهرا ويرجو نداه العرب والعجم
هو المقيم وقد سارت مآثره
كأن علياه من دنياه تنتظم
والارض من صدره والريح من يده
والروض من خلقه للخلق يبتسم
الله جارك يامن جار حضرته
يلقى السعود عليه الدهر تزدحم
ابشر فقد جاء نصر الله مؤتنفا
وعاشر الفتح منشور اله علم
يامن اذا اعتصمت صيد الملوك به
أمسى وأصبح بالرحمن يعتصم
أبل الجديدين بالعمر الجديد ودم
للملك يخدمك التوفيق والقسم
وأنشدنى الامير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى لنفسه
لاتعصين شمس العلا قابوسا
فمن عصى قابوس لاقى بوسا
نعم * ولما بلغ أبو على بن حمويه قومس منهزمه عن تلك المعركة أرسل الى نصر بن الحسن بن فيروزان يسأله تعجيل اللحاق به ليتعاضدا على لم شعث الهزيمة * وسد ما جاش من منخر تلك الكشفة الذميمة * ثم أعجله

جميع نوابه في الغرب وكان قد ملك الى قريب تونس يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من
الغلات وان يترك في سنبله ويخزن في مواضعه وان يحفروا الآبار في الطرق ففعلوا جميع
ما أمرهم به وجمعوا الغلات ثلاث سنين ونقلوها الى المنازل وطينوا عليها فصارت كأنها
تلال فلما كان في صفر من هذه السنة سار عن مراكش وكان أكثر أسفاره في صفر فسار
يطلب افريقية واجتمع من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الاتباع والسوقة أمثالهم وبلغ
من حفظه لعساكره انهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة واذا نزلوا صلوا جميعهم
مع امام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلف منهم أحد كائنا من كان وقدم بين يديه الحسن بن علي
ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وكان صاحب المهدية وافريقية وقد ذكرنا سبب
مصيره عند عبد المؤمن فلم يزل يسير الى ان وصل الى مدينة تونس في الرابع والعشرين من
جمادى الآخرة من السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان وأقبل اسطوله في البحر في سبعين
شينيا وطريدة وشلندى فلما نازلها أرسل الى أهلها يدعوهم الى طاعته فامتنعوا فقاتلهم من
الغد أشد قتال فلم يبق الا أخذها ودخول الاسطول اليها فجاءت ريح عاصف منعت الموحدين
من دخول البلد فرجعوا ليباكروا القتال ويملكوه فلما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من
أعيان أهلها الى عبد المؤمن يسألونه الامان لاهل بلدهم فأجابهم الى الامان لهم في أنفسهم
وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم الى الطاعة وأما من عداهم من أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم
وأهاليهم ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين وان يخرج صاحب البلد هو وأهله
فاستقر ذلك وتسلم البلد وأرسل اليه من يمنع العسكر من الدخول وأرسل أمناءه ليقاسموا
الناس على أموالهم وأقام عليها ثلاثة أيام وعرض الاسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن
أسلم سلم ومن امتنع قتل وأقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم وسار عبد
المؤمن منها الى المهدية والاسطول يحاذيه في البحر فوصل اليها ثامن عشر رجب وكان حينئذ
بالمهدية أولاد ملوك الفرنج وابطال الفرسان وقد أخلوا زويلة وبينها وبين المهدية غلوة سهم
فدخل عبد المؤمن زويلة وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة
ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها وانضاف اليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد
ما يخرج عن الاحصاء وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها
وضيق موضع القتال عليها لان البحر دائر بأكثرها فكأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر
وكانت الفرنج تخرج شجعانهم الى أطراف العسكر فتنال منه ويعودون سريعا فأمر عبد
المؤمن أن يبنى سور من غرب المدينة يمنعهم من الخروج وأحاط الاسطول بها في البحر وركب
عبد المؤمن في شيني ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها وطاف بها في البحر فهاله ما رأى من
حصانتها وعلم انها لا تفتح بقتال برا ولا بحرا وليس لها الا المطاولة وقال للحسن كيف نزلت عن
مثل هذا الحصن فقال لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر فقال صدقت وعاد من البحر
وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صار في العسكر كالجبلين
من الحنطة والشعير فكان من يصل الى العسكر من بعيد يقولون متى حدثت هذه الجبال
فيقال لهم هي حنطة وشعير فيتعجبون من ذلك وتمادى الحصار وفي مدته أطاع سفاقس عبد

الطالب عن التوقف والتلوم
فأوجف نحو الري وأتاه
نصر الى بلده فاستوطن
سمنان وتابع كتبه الى أبي
طالب مجد الدولة رستم بن
فخر الدولة مستمدا ومشيرا
لتلافي الخلل الواقع مجدا
فتراخت المدة على استئناف
امداده واقبال معونته
واسعاده ثم أمده بابن بكتكين
الحاجب في زهاء ستمائة
من شجعان الغلمان تقوى
بهم وتكثر بمكانهم ورماه
شمس المعالي بباني بن سعيد
في رجال من الجيل وكتب
الى الاصبهبذ شهريار بن
رستم لمعونته وازاحة علته
فصمد صمد نصر من شدا
عنان الحفظ ومفوضا
مفرق التيقظ وقد كان
نصر سد الطرق على أبنائها
سترا لخبره وصيانة لذيل
الكتمان على أثره فاتفقت
الغاية بباني بن سعيد عليه على
حين تقطع من رجاله وتفرق
من أكثر أصحابه فتناوشا
الحرب ونصر مستعد
وأمره في القراع جد
ثم اضطر باني الى الانقلاب
على بارح الخيبة وفشت
الهزيمة فيمن تلاحق به
وتراخى عنه من ذنابى
عسكره وجرى عليهم من
القتل والأسر ما اعتد به
نصر في مساعيه عند أبي
طالب فقبل به نصر وبه

المؤمن ومدينة طرابلس وجبال نفوسة وقصور افريقية وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف وسير ابنه أبا محمد عبد الله في جيش ففتح بلادا ثم ان أهل مدينة قفصة لما رأوا تمكن عبد المؤمن أجمعوا على المبادرة الى طاعته وتسليم المدينة اليه فتوجه صاحبها يحيى بن تميم بن المعز ومعه جماعة من أعيانها وقصدوا عبد المؤمن فلما أعلمه حاجبه بهم قال له عبد المؤمن قد اشتبه عليك ليس هؤلاء أهل قفصة فقال له لم يشتبه علي قال له عبد المؤمن كيف يكون ذلك والمهدي يقول ان أصحابنا يقطعون أشجارها ويهدمون أسوارها ومع هذا فنقبل منهم ونكف عنهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا فأرسل اليهم طائفة من أصحابه ومدحه شاعر منهم بقصيدة أولها

ماهز عطفيه بين البيض والاسل * مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

فوصله بألف دينار ولما كان في الثاني والعشرين من شعبان من السنة جاء اسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شينيا غير الطرائد وكان قد وفد من جزيرة يابسة من بلاد الاندلس وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه فأرسل اليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمجيء الى المهدية فقدموا في التاريخ فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا الميناء فخرج اليهم اسطول عبد المؤمن وركب العسكر جميعه ووقفوا على جانب البحر فاستعظم الفرنج ما رأوه من كثرة العساكر ودخل الرعب قلوبهم وبقي عبد المؤمن يمرغ وجهه على الارض ويبكي ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا في البحر فانهزمت شواني الفرنج وأعادوا القلوع وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شواني ولو كان معهم شواني لاخذوا أكثرهم وكان أمرا عجيبا وفتحا قريبا وعاد اسطول المسلمين مظفرا منصورا وفرق فيهم عبد المؤمن الاموال ويئس أهل المهدية حينئذ من النجدة وصبروا على الحصار ستة أشهر الى آخر شهر ذي الحجة من السنة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج الى عبد المؤمن عشرة وسألوا الامان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا الى بلادهم وكان قوتهم قد فني حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم الاسلام ودعاهم اليه فلم يجيبوا ولم يزالوا يترددون اليه أياما بالكلام اللين فأجابهم الى ذلك وأمنهم وأعطاهم سفنا فركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاء فغرق أكثرهم ولم يصل منهم الى صقلية الا النفر اليسير وكان صاحب صقلية قد قال ان قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين هم بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله الفرنج غرقا وكان مدة ملكهم المهدية اثنتي عشرة سنة ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة وسماها عبد المؤمن سنة الاخماس وأقام بالمهدية عشرين يوما فرتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل اليها الذخائر من الاقوات والرجال والعدد واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن علي الذي كان صاحبها وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله وأقطع الحسن بها اقطاعا وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده ورحل من المهدية أول صفر من السنة الى بلاد الغرب

(ذكر ايقاع عبد المؤمن بالعرب)

لما فرغ عبد المؤمن من أمر المهدية وأراد العود الى الغرب جمع أمراء العرب من بني رياح الذين كانوا بافريقية وقال لهم قد وجبت علينا نصرة الاسلام فان المشركين قد استفحل

حاله * وجلاء عليه صفحة اقباله * وأنهض عند ذلك رستم بن المرزبان خال مجد الدولة أبي طالب في ثلاثة آلاف رجل مدد النصر وعقدت له الاصبهبذية على جبل شهريار فناقاه نصر الى دنباوند وساعده على صعوده * وامتلاك حدوده * ولجأ الاصبهبذ شهريار الى سارية وبها منوجهر بن شمس المعالي معتصما بعقوته * ومعتصما بمروته * فأصاب أهل فريم غلاء عم بلاؤه * وشمل الكافة داؤه * وسببه بسط الايدي بالغارات * وانتهاب ما أوعته الرعايا للارماق من الاقوات * فاضطر نصر الى الانصراف عن رستم بن المرزبان للقحط الشامل * والبلاء النازل * فلم ينهه الاصبهبذ عند انقلابه أن ركض على رستم فأجلاه عنها الى حد الري منخوبا * منكوبا * ومخذولا * مفلولا * فصفت له ناحيته * وانحسمت عنه شذاة نصر وعاديته * وكان ابو نصر محمود الحاجب قد ألجأه بعض المحن التي دهمته الى خدمة شمس المعالي فهدله كنفه * وحكم في اصطناعه شرفه * ووالى الصنائع والرغائب اليه * وملأ من الاموال يديه * وسهل ركوب المطالب عليه * ثم

أمرهم بالاندلس واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين وما يقاتلهم أحد
مثلكم فبكم فتحت البلاد أول الاسلام وبكم يدفع عنها العدو الآن ونريد منكم عشرة
آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله فأجابوا بالسمع والطاعة فحلفهم
على ذلك بالله تعالى وبالمصحف فحلفوا ومشوا معه الى مضيق جبل زغوان وكان منهم انسان يقال
له يوسف بن مالك وهو من أمرائهم ورؤس القبائل فيهم فجاء الى عبد المؤمن بالليل وقال له سرا
ان العرب قد كرهت المسير الى الاندلس وقالوا ما غرضه الا اخراجنا من بلادنا وانهم لا يفون بما
حلفوا عليه فقال يأخذ الله عز وجل الغادر فلما كانت الليلة الثانية هربوا الى عشائرهم ودخلوا
البر ولم يبق منهم الا يوسف بن مالك فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق ولم يحدث عبد المؤمن في
أمرهم شيأ وسار نحو المغرب يحث السير حتى قرب من القسطنطينية فنزل في موضع مخصب يقال له
وادي النساء والفصل ربيع والكلأ مستحسن فأقام به وضبط الطرق فلا يسير من العسكر
أحد البتة ودام كذلك عشرين يوما فبقي الناس في جميع البلاد لا يعرفون لهذا العسكر خبرا
مع كثرته وعظمه ويقولون ما أزعجه الا خبر وصله من الاندلس فحث لاجله في السير فعادت العرب
الذين جفلوا منه من البرية الى البلاد لما أمنوا جانبه وسكنوا البلاد التي ألفوها واستقروا في
البلاد فلما علم عبد المؤمن برجوعهم جهز اليهم ولديه أبا محمد وأبا عبد الله في ثلاثين ألف مقاتل من
أعيان الموحدين وشجعانهم فجدوا السير وقطعوا المفاوز فما شعر العرب الا والجيش قد أقبل
بغتة من ورائهم من جهة الصحراء ليمنعوهم الدخول اليها ان راموا ذلك وكانوا قد نزلوا جنوبا من
القيروان عند جبل يقال له جبل القرن وهم زهاء ثمانين ألف بيت والمشاهير من مقدميهم أبو
محفوظ محرز بن زياد ومسعود بن زمام البلاط وجبارة بن كامل وغيرهم فلما أطلت عساكر
عبد المؤمن عليهم اضطربوا واختلفت كلمتهم ففر مسعود وجبارة بن كامل ومن معهما من
عشائرهما وثبت محرز بن زياد وأمرهم بالثبات والقتال فلم يلتفتوا اليه فثبت هو ومن معه من
جمهور العرب فناجزهم الموحدون القتال في العشر الاوسط من ربيع الآخر من السنة
وثبت الجمعان واشتد الامر فاتفق ان محرز بن زياد قتل ورفع رأسه على رمح فانهزمت جموع
العرب عند ذلك وأسلموا البيوت والحريم والاولاد والاموال وحمل جميع ذلك الى عبد المؤمن
وهو بذلك المنزل فأمر بحفظ نساء العربيات الصرائح وحملهن معه تحت الحفظ والبر والصيانة
الى بلاد الغرب وفعل معهن مثل ما فعل في حريم الاثبج ثم أقبلت اليه وفود رياح مهاجرين
في طلب حريمهم كما فعل الاثبج فأجمل الصنيع لهم ورد الحريم اليهم فلم يبق منهم أحد الا صار
عنده وتحت حكمه وهو يخفض لهم الجناح ويبذل فيهم الاحسان ثم انه جهزهم الى ثغور
الاندلس على الشرط الاول وجمعت عظام العرب المقتولين في هذه المعركة عند جبل القرن
فبقيت دهرا طويلا كالتل العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد وبقيت افريقية مع نواب
عبد المؤمن آمنة ساكنة لم يبق فيها من أمراء العرب خارج عن طاعته الا مسعود البلاط بن
زمام وطائفته في أطراف البلاد

(ذكر غرق بغداد)

في هذه السنة ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة في دجلة وخرق القورج فغرقت بغداد وأقبل

رماه فوجه نصر بن الحسن
مزاح العلة بقدر الكفاية
من ذوي البسالة والنكاية
فلف اليه جيشا ثبت
ووجه على آخاذ ثابت ساقه
وأحرق عليه الارض حربا
بكرا على يده وعوانا على
أيدي أعوانه ومدده ثم حمل
على جموعه حملة شردتهم
كل مشرد وطردتهم بين
أيدي البيد كل مطرد وعلق
في حبالة الاسر حسان بن
الداعي وابن هند وغيرهما
من أعيان القواد واصطف
على جدالة الحرب من
القتلى ما شبعت به الضباع
بل سمنت عليه الوحوش
الجياع وانهزم نصر من
بين يديه الى سمنان في جمادى
الآخرة سنة تسعين وثلثمائة
وكان نصر على جلالة بيته
وفخامة عشيرته ورهطه
مغرما بالظلم مغرى بالحيف
والغشم ووافقت ولايته
مدرجة الحجيج وزوار
البيت العظيم وزمزم
والحطيم فنجلهم عنته
في كل سنة بوجوه
من المطالبات المختلفة
والمعاملات المجحفة حتى
انتشر عنه سوء الاحدوثه
وحبط عليه جمال تلك الجلالة
الموروثه ولعل عثار الزمان
به عدوى ضجيج الحجيج عنه
بالاستغاثة في سالف الوقت

المدالى البلد فامتلأت الصحارى وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة يوم السبت تاسع عشر الشهر فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظنا انها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق قراح ظفر والاجمة والمختارة والمقتدية ودرب القبار وخرابة ابن جردة والريانى وقراح القاضى وبعض القطيعة وبعض باب الازج وبعض المأمونية وقراح أبي الشحم وبعض قراح ابن رزين وبعض الظفرية ودب الماء تحت الارض الى أماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى داخل السور عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى داخل السور يدب فى المحال التى لم يركبها الماء فكثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وانما هى تلول فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين وأما الجانب الغربي فغرقت فيه مقبرة أحمد بن حنبل وغيرها من المقابر وانخسفت القبور المبنية وخرج الموتى على رأس الماء وكذلك المشهد والحربية وكان أمرا عظيما

(ذكر عود سنقر الهمذانى الى اللحف وانهزامه)

فى هذه السنة عاد سنقر الهمذانى الى اقطاعه وهو قلعة الماهكى وبلد اللحف وكان الخليفة قد أقطعه للامير قايماز العميدى ومعه أربعمائة فارس فأرسل اليه سنقر يقول له ارحل عن بلادى فامتنع فسار اليه وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه العميدى ورجع الى بغداد بأسوأ حال فبرز الخليفة وسار فى عساكره الى سنقر فوصل الى النعمانية وسير العساكر مع ترشك ورجع الى بغداد ومضى ترشك نحو سنقر الهمذانى فتوغل سنقر فى الجبال هاربا ونهب ترشك ما وجد له ولعسكره من مال وسلاح وغير ذلك وأمر وزيره بقتل من رأى من أصحابه ونزل على الماهكى وحصرها أياما ثم عاد الى البندنيجين وأرسل الى بغداد بالبشارة وأما سنقر فانه لحق بملكشاه فاستنجده فسير معه خمسمائة فارس فعاد ونزل على قلعة هناك وأفسد أصحابه فى البلاد وأرسل ترشك الى بغداد يطلب نجدة فجاءته فأراد سنقر أن يكبس ترشك فعرف ذلك فاحترز فعدل سنقر الى المخادعة فأرسل رسولا الى ترشك يطلب منه أن يصلح حاله مع الخليفة فاحتبس ترشك الرسول عنده وركب فيمن خف من أصحابه فكبس سنقر ليلا فانهزم هو وأصحابه وكثر القتل فيهم وغنم ترشك أموالهم ودوابهم وكل مالهم ونجا سنقر جريحا

(ذكر الفتنة بين عامة استراباذ)

فى هذه السنة وقع فى استراباذ فتنة عظيمة بين العلويين ومن يتبعهم من الشيعة وبين الشافعية ومن معهم وكان سببها ان الامام محمدا الهروى وصل الى استراباذ فعقد مجلس الوعظ وكان قاضيها أبو نصر سعد بن محمد بن اسمعيل النعيمى شافعى المذهب أيضا فثار العلويون ومن يتبعهم من الشيعة بالشافعية ومن يتبعهم باستراباذ ووقعت بين الطائفتين فتنة عظيمة انتصر فيها العلويون فقتل من الشافعية جماعة وهرب القاضى ونهبت داره ودور من معه وجرى عليهم من الامور الشنيعة ما لا حد عليه فسمع شاه مازندران الخبر فاستعظمه وأنكر على العلويين فعلهم وبالغ فى الانكار مع انه شديد التشيع وقطع عنهم جرايات كانت لهم ووضع الجبايات والمصادرات على العامة فتفرق كثير منهم وعاد القاضى الى منصبه وسكنت الفتنة

والافاضة * وواصل نصر الرى بكتبه فى الاستنفار * والاستنهاض من سرعة العشار * فجد له فى طول التطويل * بأنواع التعليل * والتأسيل * كما قيل

مواعيد كما اختب سراب المهمه القفر
فمن يوم الى يوم ومن شهر الى شهر

ويلغه بعد ذلك ان مجد الدولة أبا طالب وشمس المعالى قابوس قد تصالحا على احتيال تحصيله والظفر به فساءظنا * وضاق بالامر ذرعا * ونمى اليه أيضا ان بعض قواد السلطان يمين الدولة وأمين الملة وكان يعرف بأرسلان هندوبجه والى قهستان قد أوقع بأبى القاسم السيمجورى وأجلاه عنها الى الجنابذ فأغذ السير اليه على مظاهرته * والتحصن بمرافقته ومضافرته * وجعل يحطب فى حبله * ويفتل فى ذروته بحيله وختله * ويزين له قصد الرى معه لامتلاكها على أبى طالب مجد الدولة ايهاما لتغلل النيات فى طاعته * ودخل الاهواء فى مشايعته * فاغتر أبو القاسم بتغريره * وانجر فى جريره * وسار الى خوار الرى فتلقاه من سرعان الكتائب * من غض بهم لهوات تلك

(ذكر وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه)

في هذه السنة توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد وهو الذي حاصر بغداد وطالب السلطنة وعاد عنها فأصابه سل وطال به فمات بباب همذان وكان مولده في ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فلما حضره الموت أمر العساكر فركبت وأحضر أمواله وجواهره وحظاياه ومماليكه فنظر الى الجميع من طيارة تشرف على ما تحتها فلما رآه بكى وقال هذه العساكر والاموال والمماليك والسراري ما أرى يدفعون عني مقدار ذرة ولا يزيدون في أجلي لحظة وأمر بالجميع فرفع بعد أن فرق منه شيأ كثيرا وكان حليما كريما عاقلا كثير التأني في أموره وكان له ولد صغير فسلمه الى آقسنقر الاحمديلي وقال له أنا أعلم أن الناس لا تطيع مثل هذا الطفل وهو وديعة عندك فارحل به الى بلادك فرحل به الى مراغة فلما مات اختلفت الامراء فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه وطائفة طلبوا سليمان شاه وهم الاكثر وطائفة طلبوا ارسلان الذي مع ايلدكز فأما ملكشاه فانه سار من خوزستان ومعه دكلا صاحب فارس وشملة التركماني وغيرهما فوصل الى أصفهان فسلمها اليه ابن الخجندي وجمع له مالا أنفقه عليه وأرسل الى العساكر بهمذان يدعوهم الى طاعته فلم يجيبوه لعدم الاتفاق بينهم ولان أكثرهم كان يريد سليمان شاه

(ذكر أخذ حران من نور الدين وعودها اليه)

في هذه السنة مرض نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب مرضا شديدا أرجف بموته وكان بقلعة حلب ومعه أخوه الاصغر أمير ميران فجمع الناس وحصر القلعة وكان شيركوه وهو أكبر أمرائه بحمص فبلغه خبر موته فسار الى دمشق ليتغلب عليها وبها أخوه نجم الدين أيوب فأنكر عليه أيوب ذلك وقال أهلكتنا والمصلحة أن تعود الى حلب فان كان نور الدين حيا خدمته في هذا الوقت وان كان قد مات فأنا في دمشق نفعل ما تريد من ملكها فعاد الى حلب مجدا وصعد القلعة وأجلس نور الدين في شباك يراه الناس وكلمهم فلما رأوه حيا تفرقوا عن أخيه أمير ميران فسار الى حران فملكها فلما عوفي نور الدين قصد حران ليخلصها فهرب أخوه منه وترك أولاده بحران في القلعة فملكها نور الدين وسلمها الى زين الدين علي نائب أخيه قطب الدين صاحب الموصل ثم سار نور الدين بعد أخذ حران الى الرقة وبها أولاد أميرك الجاندار وهو من أعيان الامراء وقد توفي وبقي أولاده فنازلها فشفع جماعة من الامراء فيهم فغضب من ذلك وقال هلا شفعتم في أولاد أخي لما أخذت منهم حران وكانت الشفاعة فيهم من أحب الاشياء الي فلم يشفعهم وأخذها منهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة مرض الخليفة المقتفي لامر الله واشتد مرضه وعوفي فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلق البلد اسبوعا وفيها عاد ترشك الى بغداد ولم يشعر به أحد الا وقد ألقى نفسه تحت التاج ومعه سيف وكفن وكان قد عصى على الخليفة والتحق بالعجم فعاد الآن فرضي عنه وأذن له في دخول دار الخلافة وأعطي مالا وفيها في جمادى الاولى أرسل محمد بن أنز صاحب قهستان عسكرا الى بلد الاسماعيلية من الجبال فقتلوا كثيرا من العسكر وأسروا الامير الذي كان مقدما عليهم احمد قيبة وهو صهر ابن أنز فبقي

القارم والمسارب • ولما رأى أبو القاسم ان الامر جد • والطريق منسد خشي وراءه ماضيا في البتات • مفترلا لعارض الحرمان • وبلغ شمس المعالي قابوس ابن وشمكير انصرافه مع نصر عن وجه الري تقدم اليهما بمقاربت الاكراد من كل جانب • وردهم عن حدود مملكته بعذاب واصب • ولما رأيا أن الارض تاقفلهم يمينا وشمالا • وتتقاذفهم جنوبا وشمالا • توامرا على قصد السلطان يمين الدولة وأمين الملة مستأمنين اليه • ومستعدين على الزمان بالمثول بين يديه • فيما على حضرته • وتشابه حال خدمته • فأما أبو القاسم فهرب على ما سبق ذكره الى ان أودعه الحبس أسره • وأما نصر فأقام على الخدمة مدة الى ان أمر السلطان باقطاعه بسار وجومند طعمة له فتمرض اليهما • وأبت عليه همته القناعة بهما • فلم يزل يضارب في حباله الى أن خدع من الري ووصل منها الى قلعة استوناوند فجعلت عليه حصيرا وساء ذلك مصيرا • ووكل شمس المعالي بعد ذلك بجوالي القلاع فيما بين جرجان واستراباذ وما وراءها من أعاليهم احاطة

عندهم أسيرا عدة شهور حتى زوج ابنته من رئيس الاسماعيلية على بن الحسن وخلص من الاسر وفيها توفى شرف الدين على بن ابى القاسم منصور بن ابى سعد الساعدى قاضى نيسابور فى شهر رمضان وكان موته بالرى ودفن فى مقبرة محمد بن الحسن الشيبانى صاحب ابى حنيفة رضى الله عنهما وكان القاضى حنفيا ايضا

(ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة)

(ذكر مسير سليمان شاه الى همذان)

فى هذه السنة سار سليمان شاه من الموصل الى همذان ليتولى السلطنة وقد تقدم سبب قبضه وأخذه الى الموصل وسبب مسيره اليها ان الملك محمد ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لما مات أرسل أكابر الامراء من همذان الى اتابك قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل يطلبون منه ارسال الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه اليهم ليولوه السلطنة فاستقرت القاعدة بينهم ان يكون سليمان شاه سلطانا وقطب الدين اتابكه وجمال الدين وزير قطب الدين وزير السليمان شاه وتحالفوا على هذا وجهز سليمان شاه بالاموال الكثيرة والبرك والدواب والآلات وغير ذلك مما يصلح للسلاطين وسار ومعه زين الدين على وعسكر الموصل الى همذان فلما قاربوا بلاد الجبل أقبلت العساكر اليهم أرسالا كل يوم يلقاه طائفة وأمير فاجتمع مع سليمان شاه عسكر عظيم فخافهم زين الدين على نفسه لانه رأى من تسلطهم على السلطان واطراحهم للادب معه ما أوجب الخوف منه فعاد الى الموصل فحين عاد عنه لم ينتظم امره ولم يتم له ما أراده وقبض العسكر عليه بباب همذان فى شوال سنة ست وخمسين وخطبوا لارسلان شاه ابن الملك طغرل وهو الذى زوج ايلدكز بأمه وسنذكر مشروحا ان شاء الله تعالى

(ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين)

فى هذه السنة توفى الفائز بنصر الله ابو القاسم عيسى بن اسمعيل الظافر صاحب مصر وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين وكان له لما ولى خمس سنين كما ذكرناه ولما مات دخل الصالح ابن رزيك القصر واستدعى خادما كبيرا وقال له من ههنا يصلح للخلافة فقال ههنا جماعة وذكر أسماءهم وذكر له منهم انسانا كبير السن فأمر باحضاره فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير وترك الكبار واستبد بالامر فأعاد الصالح الرجل الى موضعه وأمر حينئذ باحضار العاضد لدين الله ابى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن ابوه خليفة وكان العاضد ذلك الوقت مراهقا قارب البلوغ فبايع له بالخلافة وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز ما لا يسمع بمثله وعاشت بعد موت العاضد وخروج الامر من العلويين الى الاتراك وتزوجت

(ذكر وفاة الخليفة المقتفى لامر الله وشئ من سيرته)

فى هذه السنة ثانى ربيع الاول توفى أمير المؤمنين المقتفى لامر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله ابى العباس احمد بن المقتدى بأمر الله رضى الله عنه بعلة التراقى وكان مولده ثانى عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين واربعمائة وأمه أم ولد تدعى ياعى وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة اشهر وستة عشر يوما ووافق أباه المستظهر بالله فى علة التراقى وماتا جميعا

افتضها غيلة ومكيده * ومراعاة لحقوق الاستسلام والتسليم وكيده * فصفت له بحدودها وحواشيها * وقلاعها وصياصيها * وبما أعد من زبد الاحقاب فيها * واتفق بعد ذلك اخلاد الاصبهبذ بجيل شهريار الى جانب الجانبية فى طاعة شمس المعالى قابوس وادعاؤه الامر لنفسه اغترارا بما اجتمع له من الوفر * والتف عليه من العدد الدثر * والعسكر المجر * فرمى من جانب الرى بأبى على رستم ابن المرزبان خال أبى طالب فى صناديد الديلم وفيهم بيستون ابن بجاسب المقبوض عليه من قبل فى التلظى بموالاة صاحبه قابوس فنصب له الحرب قراعا * ومصاعا * وثقافا * وثقافا وكانت عاقبة أمره ان كسر * فأسر * ونادى ابو على رستم ابن اصبهبذ بمكانه بشعار شمس المعالى قابوس لوحشة كان استشعرها من أهل الرى وأقام الخطبة فيها باسمه وكاتبه بذكر طاعته وشرح ما فتح الله على يده وهاجر ابو حرب بيستون ابن بجاسب الى أرضه المقدسة من فناء صاحبه وولى نعمته فانشرح صدره * وقرت بالاياب عينه *

في ربيع الاول وكان حليما كريما عادلا حسن السيرة من الرجال ذوي الرأي والعقل الكثير وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم الى الآن وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر الى الآن الا ان يكون المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا الحروب بنفسه وكان يبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار في جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شئ

(ذكر خلافة المستنجد بالله)

وفي هذه السنة بويع المستنجد بالله امير المؤمنين واسمه يوسف وأمه أم ولد تدعى طاوس بعد موت والده وكان للمقتفي حظية وهي ام ولده ابي علي فلما اشتد مرض المقتفي وأيست منه راسلت جماعة من الامراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدوها على ان يكون ولدها الامير ابو علي خليفة فقالوا كيف الحيلة مع ولي العهد فقالت اذا دخل على والده قبضت عليه وكان يدخل الى أبيه كل يوم فقالوا لابد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على ابي المعالي بن الكيا الهراسي فدعوه الى ذلك فأجابهم على ان يكون وزيرا فبذلوا له ما طلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم ابي علي أحضرت عدة من الجواري وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولي العهد المستنجد بالله وكان له خصي صغير يرسله كل وقت يتعرف اخبار والده فرأى الجواري بأيديهن السكاكين ورأى بيد ابي علي وأمه سيفين فعاد الى المستنجد فأخبره وأرسلت هي الى المستنجد تقول له ان والده قد حضره الموت ليحضر ويشاهده فاستدعى استاذ دار عضد الدولة وأخذ معه جماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدرع وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجواري فضرب واحدة منهن فجرحها وكذلك أخرى وصاح ودخل استاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجواري وأخذ أخاه ابا علي وأمه فسجنهما وأخذ الجواري فقتل منهن وغرق منهن ودفع الله عنه فلما توفي المقتفي لامر الله جلس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه ابو طالب ثم أخوه ابو جعفر ابن المقتفي وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير ابن هبيرة وقاضي القضاة وأرباب الولاية والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدراهم (حكي عنه) الوزير عون الدين بن هبيرة انه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام منذ خمس عشرة سنة وقال لي يبقى ابوك في الخلافة خمس عشرة سنة فكان كما قال صلى الله عليه وسلم قال ثم رأيته قبل موت ابي المقتفي بأربعة أشهر فدخل بي في باب كبير ثم ارتقى الى رأس جبل وصلى بي ركعتين ثم ألبسني قميصا ثم قال لي قل اللهم اهدني فيمن هديت وذكر دعاء القنوت ولما ولي الخلافة أقر ابن هبيرة على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضي ابن المرخم وكان بئس الحاكم وأخذ منه مالا كثيرا وأخذت كتبه فأحرق منها في الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب اخوان الصفا وما يشاكلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء وكان استاذ الدار ومكنه وتقدم الى الوزير ان يقوم له وعزل قاضي القضاة أبا الحسن علي بن احمد الدامغاني ورتب مكانه ابا جعفر عبد الواحد الثقفي وخلع عليه

وطاب بالايناس والاحسان غيثه ولو بعد عن الحياة حينه وانضافت مملكة الجيل بأمرها الى ممالك جرجان وطبرستان فولاها شمس المعالي متوجها اليه حتى من لو عاش الى زمانه لرد عليه عوادي مفاخره ورجع اليه على آثاره ومآثره وانقضت بعدها عليه الرويان وشالوس وما وراءها من الحدود الاستندارية فصارت ولايته تشرق بنور العدل والاحسان وتبسم عن ثغور الامن والامان وواصل شمس المعالي السلطان يمين الدولة وأمين الملة بكتبه ورسله في عقد وثيقة يتحصن بها من صروف النوائب ويستظهر بها على وجوه المطالب وقدم بين يدي نجواه من أنواع القرب والمبار ما خرج عن الحد والمقدار حتى تأكدت العصمة وتأربت العقدة واشتبكت الالسنة واستحكمت الثقة وصارت جرجان وطبرستان الى سواحل البحر وديار الديلم بحكم الحال المنتجة كاحدى ممالكه التي يحكم عليها أمرا ونهيا ويبسط فيها حاضرا وباديا ولله شمس المعالي في همة له بين المجرة مجراها وفي بحار الكرم مجراها ومرساها فلم يسمع في شيوخ الملوك بأشرف منه قيمة وأرطب ديمة وأكرم شيمة وأصدق بارقة مشيمة وأوفر عقلا وتحصيلا

(ذكر الحرب بين عسكر خوارزمشاه والاتراك البرزية)

في هذه السنة في ربيع الاول سار طائفة من عسكر خوارزمشاه الى اجنه وهجموا على يغمرخان بن أودك ومن معه من الاتراك البرزية فأوقعوا بهم وأكثروا القتل فانهزم يغمرخان وقصد السلطان محمود بن محمد الخان والاتراك الغزية الذين معه وتوسل اليهم بالقرابة وظن يغمرخان ان اختيار الدين ايثاق هو الذي هيج الخوارزمية عليه فطلب من الغز انجاده

(ذكر أحوال المؤيد بخراسان هذه السنة)

قد ذكرنا سنة ثلاث وخمسين عود المؤيد أي أبه الى نيسابور وتمكنه منها وان ذلك كان سنة أربع وخمسين فلما دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة ورأى المؤيد تحكمه في نيسابور وتمكنه في دولته وكثرة جنده وعسكره أحسن السيرة في الرعية لاسيما أهل نيسابور فانه جبرهم وبالغ في الاحسان اليهم وشرع في اصلاح اعمالها واصلاح ولاياتها فسير طائفة من عسكره الى ناحية استقيل وكان بها جمع قد تمردوا وأكثروا العبث والفساد في البلاد وطال تماديهم في طغيانهم فأرسل اليهم المؤيد يدعوهم الى ترك الشر والفساد ومعاودة الطاعة والصلاح فلم يقبلوا ولم يرجعوا عما هم عليه فسير اليهم سرية كثيرة فقاتلوهم وأذاقوهم عاقبة ما صنعوا فأكثروا القتل فيهم وخربوا حصنهم وسار المؤيد من نيسابور الى بيهق فوصلها رابع عشر ربيع الآخر من السنة وقصد منها حصن خسروجرد وهو حصن منيع بناه كيخسرو الملك قبل فراغه من قتل افراسياب وفيه رجال شجعان فامتنعوا على المؤيد فحصرهم ونصب عليهم المجانيق وجد في القتال فصبر أهل الحصن حتى نفد صبرهم ثم ملك المؤيد القلعة وأخرج كل من فيها ورتب فيها من يحفظها وعاد منها الى نيسابور في الخامس والعشرين من جمادى الاولى من السنة ثم سار الى هراة فلم يبلغ منها غرضا فعاد الى نيسابور وقصد مدينة كندر وهي من أعمال طريثيث وقد تغلب عليها رجل اسمه أحمد كان خربنده واجتمع معه جماعة من الرنود وقطاع الطريق والمفسدين فخربوا كثيرا من البلاد وقتلوا كثيرا من الخلق وغنموا من الاموال ما لا يحصى وعظمت المصيبة بهم على خراسان وزاد البلاء فقصدهم المؤيد فتحصنوا بالحصن الذي لهم فقوتلوا أشد قتال ونصب عليهم العرادات والمجنيقات فأذعن هذا الخربنده أحمد الى طاعة المؤيد والانخراط في سلك أصحابه وأشياعه فقبله أحسن قبول وأحسن اليه وأنعم عليه ثم انه عصى على المؤيد وتحصن بحصنه فأخذه المؤيد منه قهرا وعنوة وقيده واحتاط عليه ثم قتله وأراح المسلمين منه ومن شره وفساده وقصد المؤيد في شهر رمضان ناحية بيهق عازما على قتالهم لخروجهم عن طاعته فلما قاربها أتاه زاهد من اهلها ودعاه الى العفو عنهم والحلم عن ذنوبهم ووعظه وذكره فأجاب الى ذلك ورحل عنهم فأرسل السلطان محمود بن محمد الخان وهو مع الغز الى المؤيد بتقرير نيسابور وطوس واعمالها عليه ورد الحكم فيها اليه فعاد الى نيسابور رابع ذي القعدة من السنة ففرح الناس بما تقرر بينه وبين الملك محمود وبين الغز من ابقاء نيسابور عليه ليزول الخلف والفتن عن الناس

(ذكر الحرب بين شاه مازندران ويغمرخان)

لما قصد يغمرخان الغز وتوسل اليهم لينصروه على ايثاق لظنه انه هو الذي حسن للخوارزمية

واظهر جهله وتضليله * وأغذى للنفس بعفاف الحكمة * وأجزى للبدن بكفاف الطعمة * قد فطم النفس عن رضاع الملاهي * فلم يعرف اللهو وما هو ولا البطالة ما هي * علما منه بأن الملك واللهو ضدان * وأن ليس لا لتقائهما تدان * ولقد أحسن أبو الفتح علي بن محمد البستي الكاتب في نصرة هذا الرأي بقوله

اذا غدا ملك باللهو مشتغلا
فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة
لما غدا برج نجم اللهو والطرب

نعم ولا أحرص على انصاف الرعية * وآخذ بأطراف العدل في القضية * وأبرع في الآداب والحكم * وأجمع بين ذرابة السيف وذلاقة القلم * ورسائله موجودة في البلاد * عند الافراد * لكني أكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه * وزهرة من حدائق احسانه * اذ كان في تصفحها ما يغني عن التكثر في هذا المكان بها فمنها رسالة أنشأها في الترجيح بين صحابة النبي صلى الله عليه وسلم بعقب رسائله القديمة * وقرائنه البديعة *

وهي

قصده فأجابوه الى ذلك وسار واتبعه على طريق نسا وابيورد ووصلوا الى الامير ايثاق ثم عبد لنفسه بهم قوة فاستنجد شاه مازندران بغياث ومعه من الاكراد والديلم والاتراك والتركمان الذين يسكنون نواحي ابسكون بجمع كثير فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم وانهزم الاتراك الغزية والبرزية من شاه مازندران عشر مرات ويعودون وكان على ميمنة شاه مازندران الامير ايثاق فحملت الاتراك الغزية عليه لما يئسوا من الظفر بقلب شاه مازندران فانهزم ايثاق وتبعه باقي العسكر ووصل شاه مازندران الى سارية وقتل من عسكره أكثرهم وحكى ان بعض التجار كفن ودفن من هؤلاء القتلى سبعة آلاف رجل واما ايثاق فانه قصد في هربه خوارزم وأقام بها وسار الغز من المعركة الى دهستان وكان الحرب قريبا منها فنهبوا أسورها وأوقعوا بأهلها ونهبوهم أوائل سنة ست وخمسين وخمسمائة بعد ان خربوا جرجان وفرقوا أهلها في البلاد وعادوا الى خراسان

•(ذكر وفاة خسروشاه صاحب غزنة وملك ابنه بعده)•

في هذه السنة في رجب توفي السلطان خسروشاه بن بهرام شاه بن مسعود بن ابراهيم بن مسعود ابن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة وكان عادلا حسن السيرة في رعيته محبا للخير وأهله مقربا للعلماء محسنا اليهم راجعا الى قولهم وكان ملكه تسع سنين وملك بعده ابنه ملكشاه فلما ملك نزل علاء الدين الحسين ملك الغور الى غزنة فحصرها وكان الشتاء شديدا والثلج كثيرا فلم يمكنه المقام عليها فعاد الى بلاده في صفر سنة ست وخمسين

•(ذكر الحرب بين ايثاق وبغراتكين)•

في هذه السنة منتصف شعبان كان بين الامير ايثاق والامير بغراتكين برغش الجركاني حرب وكان ايثاق قد سار الى بغراتكين في آخر أعمال جرجان فنهب واخذ أمواله وكل ماله وكان ذا نعمة عظيمة وأموال جمة فانهزم بغراتكين عنها وخلاها فافتتحها ايثاق واستغنى بها وقويت نفسه بسببها وكثرت جموعه وقصده الناس واما بغراتكين فانه أرسل الى المؤيد صاحب نيسابور وسار في جملته ومعدودا من أصحابه فتلقاه المؤيد بالقبول

•(ذكر وفاة ملكشاه بن محمود)•

في هذه السنة توفي ملكشاه ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان باصبهان مسموما وكان سبب ذلك انه لما كثر جمعه باصبهان أرسل الى بغداد وطلب ان يقطعوا خطبة عمه سليمان شاه ويخطبوا له ويعيدوا القواعد بالعراق الى ما كانت أولا والا قصدهم فوضع الوزير عون الدين بن هبيرة خصيا كان خصيصا به يقال له اغلبك الكوهرائيني فمضى الى بلاد العجم واشترى جارية من قاضي همذان بألف دينار وباعها من ملكشاه وكان قد وضعها على سمه ووعدها أمورا عظيمة على ذلك وسمته في لحم مشوي فأصبح ميتا وجاء الطبيب الى دكلا وشملة فعرفهما انه مسموم فعرفوا ان ذلك من فعل الجارية فأخذت وضربت وأقرت وهرب اغلبك ووصل الى بغداد ووفى له الوزير بجميع ما استقر الحال عليه ولما مات أخرج أهل اصفهان أصحابه من عندهم وخطبوا لسليمان شاه واستقر ملكه بتلك البلاد وعاد شملة الى خوزستان فأخذ ما كان ملكشاه تغلب عليه منها

•(ذكر

بسم الله الرحمن الرحيم
اعلم ان أصعب الامور • وأشرفها بين الجمهور • هو الخروج بالنبوة • والاستعلاء على الخلق بهذه القوة • لانه تقليب الوجوه عن القبلة المعبودة • وادخال الاعناق في قلادة غير معهودة • ومخاطبة الخلق عن الخالق • خالق لا تدركه أبصار الخلائق • وقد اعتلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ذروة هذا الشرف • وصار ان سلف من الانبياء خير الخلف • وفاز بعزيمة هذا الذكر العظيم • وأذاق العرب لذة النعيم • ونقلهم الى الثروة والغنى من الفقر والفاقة • وأراحهم من رعاية الجمل والناقة • وليس وراء لابتغاء العد أمد • فما فوق السماء للسمو مصعد • ثم ضبط الامر بعد زعيمه على نظامه • واقامته في قوامه • وهذا ما تولاه أبو بكر رضي الله تعالى عنه حين ودع عمره • من غير أن يسلم الى أحد أمره • فانه قام به قيام ثابت القلب • مستقل بمقاومة الخطب • غير مفكر في رد راد • ولا مبال بعداوة مضاد • حتى حمى حريم الدين • وجمع شمل

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة حج أسد الدين شيركوه بن شاذي مقدم جيوش نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وشيركوه هذا هو الذي ملك الديار المصرية وسنذكره ان شاء الله تعالى . وفيها أرسل زين الدين علي نائب قطب الدين صاحب الموصل رسولا الى المستنجد يعتذر مما اعتمده من مساعدة محمد شاه في حصار بغداد ويطلب أن يؤذن له في الحج فأرسل اليه يوسف الدمشقي مدرس النظامية وسليمان بن قتلمش يطيبان قلبه عن الخليفة ويعرفانه الاذن في الحج فحج ودخل الى الخليفة فأكرمه وخلع عليه . وفيها توفي قايماز الارجواني أمير الحاج سقط عن الفرس وهو يلعب بالاكرة فسال مخه من مناخيره وأذنيه فمات . وفيها في ربيع الآخر توفي محمد بن يحيى بن علي بن مسلم أبو عبد الله الزبيدي من أهل زبيد مدينة باليمن مشهورة وقدم بغداد سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكان نحويا واعظا وصحبه الوزير ابن هبيرة مرة وكان موته ببغداد

(ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الفتنة ببغداد)

في هذه السنة في ربيع الاول خرج الوزير ابن هبيرة من داره الى الديوان والغلمان يطرقون له وأرادوا يردون باب المدرسة الكمالية بدار الخليفة فمنعهم الفقهاء وضربوهم بالآجر فشهر أصحاب الوزير السيوف وأرادوا ضربهم فمنعهم الوزير ومضى الى الديوان فكتب الفقهاء مطالعة يشكون أصحاب الوزير فأمر الخليفة بضرب الفقهاء وتأديبهم ونفيهم من الدار فمضى استاذ الدار وعاقبهم هناك واختفى مدرسهم الشيخ أبو طالب ثم ان الوزير أعطى كل فقيه دينارا واستحل منهم وأعادهم الى المدينة وظهر مدرسهم

(ذكر قتل ترشك)

في هذه الايام قصد جمع من التركمان الى البندنيجين فأمر الخليفة بتجهيز عسكر اليهم وان يكون مقدمهم ترشك وكان في اقطاعه بلد اللحف فأرسل اليه الخليفة يستدعيه فامتنع من المجيء الى بغداد وقال يحضر العسكر فأنا أقاتل بهم وكان عازما على الغدر فجهز العسكر وساروا اليه وفيهم جماعة من الامراء فلما اجتمعوا بترشك قتلوه وأرسلوا رأسه الى بغداد وكان قتل مملوكا للخليفة فدعا أولياء المقتول وقيل لهم ان أمير المؤمنين قد اقتص لكم ممن قتله

(ذكر قتل سليمان شاه والخطبة لارسلان)

في هذه السنة في ربيع الآخر قتل السلطان سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه وسبب ذلك أنه كان فيه تهور وخرق وبلغ به شرب الخمر حتى انه شربها في رمضان نهارا وكان يجمع المساخر ولا يلتفت الى الامراء فأهمل العسكر أمره وصاروا لا يحضرون بابه وكان قد رد جميع الامور الى شرف الدين كردبازو الخادم وهو من مشايخ الخدم السلجوقية يرجع الى دين وعقل وحسن تدبير فكان الامراء يشكون اليه وهو يسكنهم فاتفق انه شرب يوما بظاهر همذان في الكشك فحضر عنده كردباز فلامه على فعله فأمر سليمان شاه من عنده من المساخر فعبثوا بكردبازو حتى ان بعضهم كشف له سوأته فخرج مغضبا فلما صحا سليمان أرسل

المسلمين * ولم يرض بأن يلم بيضة الشريعة ثلم * ولا أن يتغير من أحكامها حكم * فلقب خليفة رسول الله * بابتدائه لحياطة دين الله * ثم تحصين حوزة الاسلام من عوارض الفساد * ومعادية الاعداء والاضداد * والمجاهدة في استضافة ديار المخالفين * الى جانب الاسلام ومجامع المسلمين * وهو ما أتاه عمر رضي الله عنه لما آل اليه الامر فانه صرف جهده الى الجهاد * وقصر كده وكدّه على افتتاح البلاد * حتى اتسع نطاق هذه الملة * وخضعت الرقاب لاهل هذه القبلة * فلقب أمير المؤمنين * اذ كان نعم العون لرسول رب العالمين * قد فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من الامر الاعظم * والشأن الافخم * وأطفأ لهيب كل ملتهب * على رغم من أبي لهب * والتأم بسعي الشيخين * شعب الامرين الآخرين * وبلغ من الاحكام مبلغا ليس فيه مستزاد * ولا يشين بياض غرته سواد * ولم يبق للتابعين سوى التمسك بدين ممهد * ومراعاة بناء مشيد * فلم يقدروا على القيام به * واحتجبوا وراء حجابه * ولما أتت الخلافة عثمان

اليه بهمذان فقيل عنده الا انه يجتنب المحظور عنده فكتب سليمان الى اينانج صاحب الرى
يطلب منه ان يقصده على كردبازو فوصل الرسول واينانج مريض فأعاد الجواب يقول اذا
افقت من مرضى حضرت الملك بعسكرى فبلغ الخبر كردبازو فازداد استيحاشا فأرسل اليه
سليمان يوما يطلبه فقال اذا جاء اينانج حضرت وأحضر الامراء واستحلفهم على طاعته وكانوا
كارهين لسليمان فحلفوا له فأول ما عمل ان قتل المساخرة الذين لسليمان وقال انما افعل ذلك
للملك ثم اصطلحا وعمل كردبازو دعوة عظيمة حضرها السلطان والامراء فلما سار السلطان
سليمان شاه الى داره قبض عليه كردبازو وعلى وزيره ابن القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدى
وعلى أصحابه فى شوال سنة خمس وخمسين وخمسمائة فقتل وزيره وخواصه وحبس سليمان شاه
فى قلعة ثم أرسل اليه من خنقه وقيل بل حبسه فى دار مجد الدين العلوى رئيس همذان وفيها
قتل وقيل بل سقى سما فمات والله أعلم وأرسل الى ايلدكز صاحب أرانية وأكثر بلاد اذربيجان
يستدعيه اليه ليخطب للملك ارسلان شاه الذى معه وبلغ الخبر الى اينانج صاحب الرى فسار
ونهب البلاد الى ان وصل الى همذان فتحصن كردبازو وطلب منه اينانج ان يعطيه مصافا فقال أنا
لا أحاربك حتى يصل الاتابك الاعظم ايلدكز وسار ايلدكز فى عساكره جميعها تزيد على عشرين
ألف فارس ومعه ارسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه فوصل الى همذان فلقيهم كردبازو
وأنزله دار المملكة وخطب لارسلان شاه بالسلطنة بتلك البلاد وكان ايلدكز اتابكه والبهلوان
حاجبه وهو أخوه لامه وكان ايلدكز هذا أحد مماليك السلطان مسعود وأمره فى أول أمره
فلما ملك أقطعه اران وبعض اذربيجان واتفق الحروب والاختلاف فلم يحضر عند أحد من
السلاطين السلجوقية وعظم شأنه وقوى أمره وتزوج بأم الملك ارسلان شاه فولدت له أولاد
منهم البهلوان محمد وقزل ارسلان عثمان وقد ذكرنا سبب انتقال ارسلان شاه اليه وبقى عنده
الى الآن فلما خطب له بهمذان أرسل ايلدكز الى بغداد يطلب الخطبة لارسلان شاه أيضا وان
تعاد القواعد الى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود فاهين رسوله وأعيد اليه على أقبح حالة
واما اينانج صاحب الرى فان ايلدكز راسله ولاطفه فاصطلحا وتعاقدا على الاتفاق وتزوج
البهلوان بن ايلدكز بابنة اينانج ونقلت اليه بهمذان

(ذكر الحرب بين ابن آقسنقر وعسكر ايلدكز)

لما استقر الصلح بين ايلدكز واينانج أرسل الى ابن آقسنقر الاحمديلى صاحب مراغة يدعوه الى
الحضور فى خدمة السلطان ارسلان شاه فامتنع من ذلك وقال ان كففتم عنى والا فعندى
سلطان وكان عنده ولد محمد شاه بن محمود كما ذكرناه وكان الوزير ابن هبيرة قد كاتبه يطمعه
فى الخطبة لولده محمود شاه فجهز ايلدكز عسكرا مع ولده البهلوان فبلغ الخبر الى ابن آقسنقر فارسل
الى شاه ارمن صاحب خلاط وصاهره وصارا يدا واحدة فسير اليه شاه ارمن عسكرا كثيرا
واعتذر عن تأخره بنفسه لانه فى ثغر لا يمكنه مفارقته فقوى بهم ابن آقسنقر وكثر جمعه
وسار هو والبهلوان فالتقيا على نهر اسبيدرود فاشتد القتال بينهم فانهزم البهلوان أقبح هزيمة
ووصل هو وعسكره الى همذان على أقبح صورة واستأمن أكثر أصحابه الى ابن آقسنقر
وعاد الى بلاده منصورا

ابن عثمان * فكان منه
ما كان * من تبديل زى
الملك * بزى الملك *
وتغيير سيرة الائمة *
حين توسع فى النعمة *
حتى اجتنى ثمر ما جنى *
وتبوأ بسوء ما أتى * ولما
عادت الى على بن أبى طالب
رضى الله عنه هاجت
الرياح واختلفت الدول
من كل جانب وبدت
الاوابد وبدلت العقائد *
وتحول أمر الدين ملك
المغالبة * ودول القتلة
والمجاذبة * ووقعت
الخلافة فى الخلاف * وبرز
الشر من الغلاف * وبقى
على رضى الله عنه على
اضطراب لا يهدأ * وفى
مداواة داء لا يبرأ * مع
شجاعته المشهورة *
ومآثره المأثورة * وانتهى
أمره الى ما انتهى * حتى
جرى عليه وعلى عقبه
ما جرى * فلينظر اذا كان
الامر كذلك * أهؤلاء
أحق بالقدح أم أولئك *
قد مضى القوم وآثارهم
فى الاسلام كالشمس فى
الاشتهار * والهباء فى
الانتشار * وصنيعهم
طامح على الفلاح *
وليس بأيدى الصماء
سوى السفاهة والصياح *
(وقرأت توقيعا له الى بعض
الافاضل يستقدمه

(ذكر

(ذكر الحرب بين ايلدكز واينانج)

لما مات ملكشاه ابن السلطان محمود كما ذكرناه أخذ طائفة من أصحابه ابنه محمودا وانصرفوا به نحو بلاد فارس فخرج عليهم صاحبها زنكي بن دكلا السلغري فأخذه منهم وتركه في قلعة اصطخر فلما ملك ايلدكز والسلطان ارسلان شاه الذي معه البلاد وأرسل ايلدكز الى بغداد يطلب الخطبة للسلطان كما ذكرناه شرع الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزير الخليفة في اثارة أصحاب الاطراف عليه وراسل الاحمديلي وكان ما ذكرناه وكاتب زنكي بن دكلا صاحب بلاد فارس يبذل له ان يخطب للملك الذي عنده وهو ابن ملكشاه وعلق الخطبة له بظفره بايلدكز فخطب ابن دكلا للملك الذي عنده وأنزله من القلعة وضرب الطبل على بابه خمس نوب وجمع عساكره وكاتب اينانج صاحب الري يطلب منه الموافقة وسمع ايلدكز الخبر فحشد وجمع وكثر عسكره وجموعه فكانت أربعين ألفا وسار الى اصفهان يريد بلاد فارس وأرسل الى زنكي ابن دكلا يطلب منه الموافقة وان يعود يخطب لارسلان شاه فلم يفعل وقال ان الخليفة قد أقطعني بلاده وأنا سائر اليه فرحل ايلدكز وبلغه ان جشيرا الارسلان بوقا وهو أمير من أمراء زنكي وفي اقطاعه أرجان بالقرب منه فأنفذ سرية للغارة عليه فاتفق ان ارسلان بوقا عزم على تغيير الخيل التي معه فاضعفها وأخذ عوضها من ذلك الجشير فسار في عسكره الى الجشير فصادف العسكر الذي سيره ايلدكز لاخذ دوابه فقاتلهم وأخذهم وقتلهم وأرسل الرؤس الى صاحبه فكتب بذلك الى بغداد وطلب المدد فوعد بذلك وكان الوزير عون الدين بن هبيرة أيضا قد كاتب الامراء الذين مع ايلدكز يونجهم على طاعته ويضعف رأيهم ويحرضهم على مساعدة زنكي بن دكلا واينانج وكان اينانج قد برز من الري في عشرة آلاف فارس فأرسل اليه ابن آقسنقر الاحمديلي خمسة آلاف فارس وهرب ابن البازدار صاحب قزوين وابن طغيرك وغيرهما فلحقوا باينانج وهو في صحراء ساوة واما ايلدكز فانه استشار نصحاءه فأشار وا بقصد اينانج لانه أهم فرحل اليه ونهب زنكي سميرم وغيرها فردّ ايلدكز اليه أميرا في عشرة آلاف فارس لحفظ البلاد فسار زنكي اليهم فلقيهم وقاتلهم فانهزم عسكر ايلدكز اليه فتجلد ايلدكز وأرسل يطلب عساكر اذربيجان فجاءته مع ولده قزل ارسلان وسير زنكي بن دكلا عسكرا كثيرا الى اينانج واعتذر عن الحضور بنفسه عنده لخوفه على بلاده من شملة صاحب خوزستان فسار ايلدكز الى اينانج وتدانى العسكران فالتقوا تاسع شعبان وجرى بينهم حرب عظيمة أجلت عن هزيمة اينانج فانهزم أقبح هزيمة وقتلت رجاله ونهبت أمواله ودخل الري وتحصن في قلعة طبرك وحصر ايلدكز الري ثم شرع في الصلح واقترح اينانج اقتراحات فأجابه ايلدكز اليها وأعطاه جرماذقان وغيرها وعاد ايلدكز الى همذان وكان ينبغي أن تتأخر هذه الحادثة والتي قبلها وانما قدمت لتتبع أخواتها

(ذكر وفاة ملك الغور وملك ابنه محمد)

في هذه السنة في ربيع الآخر توفي الملك علاء الدين الحسين بن الحسين الغوري ملك الغور بعد انصرافه من غزنة وكان عادلا من أحسن الملوك سيرة في رعيته ولما مات ملك بعده ابنه سيف الدين محمد واطاعه الناس واحبوه وكان قد صار في بلادهم جماعة من دعاة الاسماعيلية وكثر اتباعهم فأخرجهم من تلك الديار جميعها ولم يبق فيها منهم احد وراسل الملوك وهاداهم

رتبة ليثوي مسترقه)*
محال لمن سمت به همته * الى قصد من تغلو عنده قيمته * أن يكون على غيره عريمته * وليبيت من سواه زيارته وحجته * وأما خطه فخطة المحاسن فسمه ان شئت وشيا محوكا * او تبرا مسبوكا * او درا مفصلا * او سحرا محصلا * وكان اسمعيل بن عباد اذا قرأ خطه يقول أهذا خط قابوس * ام جناح طاوس * فهو كما قال المتنبي

في خطه من كل قلب شهوة
حتى كأن مداده الاهواء
ولكل عين قرة في قربه
حتى كأن مغيبه الاقذاء

*(ذكر الحال التي انعقدت بين السلطان يمين الدولة * وامين الملة * وبين ايلك الخان في التواصل والتصاهر * والتعاقد على التعاون والتظاهر * الى ان خلعت بهجة البشر * وكشرت عن اعصل الشر)*

قد كان ايلك الخان * لما ملك السلطان خراسان * على الغدرة بآل سامان * اغتنم تطهير ما وراء النهر عن كل منتسب الى تلك الارومة * ومتشبث بشعب تلك الجرثومة * فلم يدع هنالك ذا ظفر الا قلمه * ولا ذا حد الا اجتاحه واصطلمه *

واستمال المؤيد اى ابه صاحب نيسابور وطلب موافقته

•(ذكر الفتنة بنيسابور وتخريبها)•

كان اهل العيث والفساد بنيسابور قد طمعوا في نهب الاموال وتخريب البيوت وفعل ما ارادوا فاذا نهوا لم ينتهوا فلما كان الآن تقدم المؤيد اى ابه بقبض أعيان نيسابور منهم نقيب العلويين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسينى وغيره وحبسهم في ربيع الآخر سنة ست وخمسين وقال أنتم الذين أطمعتم الرنود والمفسدين حتى فعلوا هذه الفعال ولو أردتم منعهم لامتنعوا وقتل من أهل الفساد جماعة فخربت نيسابور بالكلية ومن جملة ما خرب مسجد عقيل وكان مجمعا لاهل العلم وفيه خزائن الكتب الموقوفة وكان من أعظم منافع نيسابور وخرب أيضا من مدارس الحنفية ثمان مدارس ومن مدارس الشافعية سبع عشرة مدرسة وأحرق خمس خزائن للكتب ونهب سبع خزائن كتب وبيعت بأبخس الاثمان هذا ما أمكن احصاؤه سوى ما لم يذكر

•(ذكر خلع السلطان محمود ونهب طوس وغيرها من خراسان)•

في هذه السنة في جمادى الآخرة قصد السلطان محمود بن محمد الخان وهو ابن أخت السلطان سنجر وقد ذكرنا انه ملك خراسان بعده ففي هذه السنة حصر المؤيد صاحب نيسابور بشاذياخ وكان الفريقان مع السلطان محمود فدامت الحرب الى آخر شعبان سنة ست وخمسين وخمسمائة ثم ان محمودا أظهر انه يريد دخول الحمام فدخل الى شهرستان آخر شعبان كالهارب من الغز وأقاموا على نيسابور الى آخر شوال ثم عادوا راجعين فعاثوا في القرى ونهبوها ونهبوا طوس نهبا فاحشا وحضروا المشهد الذى لعلى بن موسى وقتلوا كثيرا ممن فيه ونهبوهم ولم يعرضوا للقبة التى فيها القبر فلما دخل السلطان محمود الى نيسابور امهله المؤيد الى ان دخل رمضان من سنة سبع وخمسين وخمسمائة واخذه وكحله واعماه واخذ ما كان معه من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة وكان يخفيها خوفا عليها من الغز لما كان معهم وقطع المؤيد خطبته من نيسابور وغيرها مما هو في تصرفه وخطب لنفسه بعد الخليفة المستنجد بالله واخذ ابنه جلال الدين محمدا الذى كان قد ملكه الغز امرهم قبل ابيه وقد ذكرنا ذلك وكحله ايضا وحبسهما ومعهما جواريهما وحشمهما وبقيا فيه فلم تطل ايامهما ومات السلطان محمود ثم مات ابنه بعده من شدة وجده لموت ابيه والله اعلم

•(ذكر عمارة شاذياخ نيسابور)•

كانت شاذياخ قد بناها عبد الله بن طاهر بن الحسين لما كان اميرا على خراسان للمأمون وسبب عمارتها انه رأى امرأة جميلة تقود فرسا تريد سقيه فسألها عن زوجها فأخبرته به فاحضره وقال له خدمة الخيل بالرجال اشبه فلم تقعد انت في دارك وترسل امرأتك مع فرسك فبكى الرجل وقال له ظلمك منعنا على ذلك فقال وكيف قال لانك تنزل الجند معنا في دورنا فان خرجت انا وزوجتي بقى البيت فارغا فأخذ الجندى ما فيه وان سقيت انا الفرس فلا آمن على زوجتي من الجندى فرأيت ان اقيم في البيت وتخدم زوجتي الفرس فعظم الامر عليه وخرج من البلد لوقته ونزل في الخيام وامر الجند فخرجوا من دور الناس وبنى شاذياخ

ثم كتاب ايلك الخان السلطان يمين الدولة مهنئا له بما ذخر الله لمن شاكلته من الملك • وصافية الملك • وظاهر اليه من ظاهرة العز وباطنة الصنع ومعتمدا لنفسه بما تطفه من عنقه ودرجاته • ملاوة على صفقة اقباله • وعلاوة على جماله وجلاله • وتردد القراء بينهما في وصلة تبل رحم الحال • وتؤكد أسباب المودة والوصال • وتضمن تحريم الثقة في الجانبين • وترفع ستر الحشمة في ذات البين • وتؤدى رتبة الاختلاط الى الامتزاج • وقربة الاشتباك الى الاتشاج • فتصير النفوس واحدة • والسواعد على وجوه مصالحها متساعدة • فأنهض السلطان عنه الماء كان بنيسابور في طلب ابى ابراهيم المنتصر الساماني ابا الطيب سهل ابن محمد بن سليمان الصعلوكى امام اهل الحديث بها رسولا الى ايلك الخان وضم اليه طغانجق والى سرخس في خطبة كريمته عليه • ونقلها الى صحبته اليه • واصحبه ما عدا الحد والعد من سبائك العقيان • وبواقيت البهرمان •

دارا له ولجنده وسكنها وهم معه ثم انها دثرت بعد ذلك فلما كان ايام السلطان الب ارسلان ذكرت له هذه القصة فامر بتجديدها ثم انشعثت بعد ذلك فلما كان الآن وخربت نيسابور ولم يمكن حفظها والغز تفارق البلاد وتم بها امر المؤيد حينئذ بعمل سورها وسدّ ثلمه وسكنه ففعل ذلك وسكنها هو والناس معه وخربت حينئذ نيسابور كل خراب ولم يبق فيها انسان

(ذكر قتل الصالح بن رزيك ووزارة ابنه رزيك)

في هذه السنة في شهر رمضان قتل الملك الصالح ابو الغارات طلائع بن رزيك الارمني وزير العاضد العلوي صاحب مصر وكان سبب قتله انه تحكم في الدولة التحكم العظيم واستبد بالامر والنهي وجباية الاموال اليه لصغر العاضد ولانه هو الذي ولاه ووتر الناس فانه اخرج كثيرا من اعيانهم وفرقهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه ثم انه زوج ابنته من العاضد فعاداه ايضا الحرم من القصر فارسلت عمة العاضد الاموال الى امراء المصريين ودعتهم الى قتله وكان اشدهم عليه في ذلك انسان يقال له ابن الداعي فوقفوا له في دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش فجرحوه جراحات مهلكة الا انه حمل الى داره وفيه حياة فارسل الى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع اثره في خلافته فاقسم العاضد انه لم يعلم بذلك ولم يرض به فقال ان كنت بريا فسلم عمتك الي حتى انتقم منها فامر بأخذها فارسل اليها فاخذها قهرا واحضرت عنده فقتلها واوصى بالوزارة لابنه رزيك ولقب العادل فانتقل الامر اليه بعد وفاة ابيه وللصالح اشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير فمنها في الافتخار

ابى الله الا ان يدوم لنا الدهر * ويخدمنا في ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفنى الوفه * ويبقى لنا من بعده الاجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا * سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قرانا اذا رحنا الى الحرب مرة * قرانا ومن اضيافنا الذئب والنسر
كما اننا في السلم نبذل جودنا * ويرتع في انعامنا العبد والحر

وكان الصالح كريما فيه ادب له شعر جيد وكان لاهل العلم عنده انفاق ويرسل اليهم العطاء الكثير بلغه ان الشيخ ابا محمد بن الدهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل قد شرح بيتا من شعره وهو هذا

تجنب سمعي ما يقول العواذل * واصبح لي شغل من الغزو شاغل

فجهز اليه هدية سنية ليرسلها اليه فقتل قبل ارسالها وبلغه ايضا ان انسانا من اعيان الموصل قد اثنى عليه بمكة فارسل اليه كتابا يشكره ومعه هدية وكان الصالح اماميا لم يكن على مذهب العلويين المصريين ولما ولي العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر فقيل انهم يفرحون بالخليفة فقال كأني بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الاول حتى استخلف هذا وما علموا انني كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم قال عمارة دخلت الى الصالح قبل قتله بثلاثة ايام فناولني قرطاسا فيه بيتان من شعره وهما

نحن في غفلة ونوم وللمو * ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا الى الحمام سنينا * ليت شعري متى يكون الحمام

وعقائل الدر والمرجان * وتخوت الوشي والحبر * ونوادر البدو والحضر * وصواني الذهب مملوءة من بياضات العنبر * واواني الفضة منضودة بشمامات الكافور وغير ذلك من شارات الهنود * وقطاع العود * وذكور الفحول * واناث الفيول * تحت حدوج مغشاة بذوات التعاريج * من الوان الديابيج * منطقة بعصائب يخطف العيون بريقها * وتصطخب على الاقتاب معاليقها * وعتاق ضوامر كالقداح * بخدود كمتون الصفاح * وغرر كنجوم الصباح * وقوائم كمخترق الرياح * وسنابك كفلاق الصفاح * في مراكب كأنما حلي بعضها من قطع عقيق * او شعل حريق * وحلي سائرها بنجوم الثريا والنثرة * وبنات نعش من وراء المجرة * وقرن ذلك كله بأموال على سبيل الالطاف * تغمر ذوائب الاوصاف * فسار الامام ابو الطيب سهل بن محمد الى ايلك الخان كريما يتقبل كريمه * ويحمل من بحر الترك الى ايران درة يتيمه * فطلع على ايلك واهل بيته طلوع النجم طاب اباه *

والطيب اطلق اعنانه * بعد ان تم عجره وانشابه * واعطاها منهم القدر وفادة

فكان آخر عهدي به وقال عميد الدولة ايضا من عجيب الاتفاق انى انشدت ابنه قصيدة اول فيها

اولك الذى تسطو الليالى بحده * وانت يمين ان سطا وشمال
رتبته العظمى وان طال عمره * اليك مصير واجب ومثال
تخالسك اللحظ المصون ودونها * حجاب شريف لا انقضا وحجال

فانتقل الامر اليه بعد ثلاثة ايام

(ذكر الحرب بين العرب وعسكر بغداد)

فى هذه السنة فى شهر رمضان اجتمعت خفاجة الى الحلة والكوفة وطالبوا برسومهم من الطعام والتمر وغير ذلك فمنعهم امير الحاج ارغش وهو مقطع الكوفة ووافقه على منعه الامير قيصر شحنة الحلة وهما من مماليك الخليفة فافسدت خفاجة ونهبوا سواد الكوفة والحلة فاسرى اليهم الامير قيصر شحنة الحلة فى مائتين وخمسين فارسا وخرج اليه ارغش فى عسكر وسلاح فانتزحت خفاجة من بين ايديهم وتبعهم العسكر الى رحبة الشام فارسل خفاجة يعتذرون ويقولون قد قنعنا بلبن الابل وخبز الشعير وانتم تمنعونا رسومنا وطلبوا الصلح فلم يجبهم ارغش وقيصر وكان قد اجتمع مع خفاجة كثير من العرب فتصافوا واقتتلوا وارسلت العرب طائفة الى خيام العسكر ورحالهم فحالوا بينهم وبينها وحمل العرب حملة منكرة فانهزم العسكر وقتل كثير منهم وقتل الامير قيصر واسرت جماعة اخرى وجرح امير الحاج جراحة شديدة ودخل الرحبة فحماه شحنتها واخذ له الامان وسيره الى بغداد ومن نجا مات عطشا فى البرية وكان اماء العرب يخرجن بالماء يسقين الجرحى فاذا طلبه منهن احد من العسكر اجهزن عليه وكثر النوح والبكاء ببغداد على القتلى وتجهز الوزير عون الدين بن هبيرة والعساكر معه نخرج فى طلب خفاجة فدخلوا البرية وخرجوا الى البصرة ولما دخلوا البر عاد الوزير الى بغداد وارسل بنو خفاجة يعتذرون ويقولون بغى علينا وفارقنا البلاد فتبعونا واضطررنا الى القتال وسألوا العفو عنهم فأجيبوا الى ذلك

(ذكر حصر المؤيد شارستان)

فى هذه السنة حصر المؤيد اى ابه مدينة شارستان قريب نيسابور وقاتله اهلها ونصب المجانيق والعرادات فصبر اهلها خوفا على انفسهم من المؤيد وكان مع المؤيد جلال الدين الموفق الفقيه الشافعى فبينما هو راكب اذ وصل اليه حجر منجنيق فقتله خامس جمادى الآخرة من السنة وتعدى الحجر منه الى شيخ من شيوخ بيهق فقتله فعظمت المصيبة بقتل جلال الدين على اهل العلم خصوصا اهل السنة والجماعة وكان فى عنفوان شبابه رحمه الله لما قتل ودام الحصار الى شعبان سنة سبع وخمسين وخمسمائة فنزل خواجكى صاحبها بعد ما كثر القتل ودام الحصر وكان لهذه القلعة ثلاثة رؤساء هم ارباب النهى والامر وهم الذين حفظوها وقاتلوا عنها احدهم خواجكى هذا والثانى داعى بن محمد ابن ابى حرب العلوى والثالث الحسين بن ابى طالب العلوى الفارسى فنزلوا كلهم ايضا الى المؤيد اى ابه فبعث معهم من اشياعهم واتباعهم فاما خواجكى فانه ثبت عليه انه قتل زوجته ظلما وعدوانا واخذ مالها فقتل بها وملك المؤيد شارستان وصفت له ثم نهبها عسكره الا انهم لم يقتلوا امرأة ولا سبوها

يعد ان طال اغترابه * عن باب السلطان * فى ذلك المهم من الشان * ثم تقبله فى نفسه فهو الامام المقدم * والصدر المحتشم * ومن لا يقرب الى بابه ضريب * له فى ابواب الفضائل * وخصوصا فى خلافيات المسائل * واقام بأوزجند الى ان فرغ من امر الزفاف * وازيحت علته فى الانصراف * فعاد على جناح النجاح مصحوبا بجلوبات الترك من نقر المعادن * ونوافج المسك * وقود المراكب * وعيس الركائب * وورود الوصفاء والوصائف * وبيض البزاة * وسود الاوبار * ونصب الختو * واحجار اليشب * وطرائف الصين * واتحدت الحال بين السلطان * وبين ايلك الخان * اتحادا اشترك فيه المرائع والنعم * واستوى فيه الصنائع والخدم * وبقيت على جملتها فى التأكد والتأكد الى ان نزغ الشيطان بينهما فنغلت الضمائر * واعتلت القوى والمرائر * وتولى السفير تدبير ذلك الوصال * فحل معقوده * وتصل مسروده * وسيأتى الشرح على الوقائع التى جرت بينهما على الاثر فاما الآن فانى اشير الى نبذ من محاسن هذا الشيخ السفير * والكافل فى الامر بالتدبير * واسمه بذكر

(ذكر ملك الكرج مدينة انى)

فى هذه السنة فى شعبان اجتمعت الكرج مع ملكهم وساروا الى مدينة انى من بلاد اران وملكوها وقتلوا فيها خلقا كثيرا فانتدب لهم شاه أرمن بن ابرهيم بن سكمان صاحب خلاط وجمع العساكر واجتمع معه من المتطوعة خلق كثير وسار اليهم فلقوه وقاتلوه فانهزم المسلمون وقتل اكثرهم وأسر كثير منهم وعاد شاه ارمن مهزوما ولم يرجع معه غير أربعمائة فارس من عسكره

(ذكر ولاية عيسى مكة حرسها الله تعالى)

كان أمير مكة هذه السنة قاسم بن فليتة بن قاسم بن ابى هاشم العلوى الحسنى فلما سمع بقرب الحجاج من مكة صادر المجاورين وأعيان اهل مكة وأخذ كثيرا من أموالهم وهرب من مكة خوفا من أمير الحاج أرغش وكان قد حج هذه السنة زين الدين على بن بكتكين صاحب جيش الموصل ومعه طائفة صالحة من العسكر فلما وصل أمير الحاج الى مكة رتب مكان قاسم بن فليتة عمه عيسى بن قاسم بن هاشم فبقى كذلك الى شهر رمضان ثم ان قاسم بن فليتة جمع جمعا كثيرا من العرب اطمعهم فى مال له بمكة فاتبعوه فسار بهم اليها فلما سمع عمه عيسى فارقها ودخلها قاسم فاقام بها أميرا أياما ولم يكن له مال يوصله الى العرب ثم انه قتل قائدا كان معه حسن السيرة فتغيرت نيات أصحابه عليه وكاتبوا عمه عيسى فقدم عليهم فهرب وصعد جبل أبى قبيس فسقط عن فرسه فأخذه أصحاب عيسى وقتلوه فعظم عليه قتله فأخذه وغسله ودفنه بالمعلى عند أبيه فليتة واستقر الامر بعده لعيسى والله أعلم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة سار عبد المؤمن بن على الى جبل طارق وهو على ساحل الخليج مما يلى الاندلس فعبر المجاز اليه وبنى عليه مدينة حصينة وأقام بها عليه عدة شهور وعاد الى مراكش وفيها فى المحرم وردنيسابور جمع كثير من تركمان بلاد فارس ومعهم اغنام كثيرة للتجارة فباعوها وأخذوا الثمن ونزلوا على مرحلتين من طابس كيلكى وباتوا هناك فنزل اليهم الاسماعيلية وكبسوهم ليلا ووضعوا السيف فيهم فقتلوا اكثروا ولم ينج منهم الا الشريد وغنم الاسماعيلية جميع مامعهم من مال وعروض وعادوا الى قلاعهم وفيها كثرت الامطار فى اكثر البلاد ولاسيما خراسان فان الامطار توالت فيها من العشرين من المحرم الى منتصف صفر لم تنقطع ولا رأى الناس فيها شمسا وفيها كان بين الكرج وبين الملك صلتق بن على صاحب ارزن الروم قتال وحرب انهزم فيه صلتق وعسكره وأسر هو وكانت اخته شاه بانوار قد تزوجها شاه ارمن ابن سكمان بن ابراهيم بن سكمان صاحب خلاط فارسلت الى ملك الكرج هدية جليلة المقدار وطلبت منه ان يفاديها باخيها فاطلقه فعاد الى ملكه وفيها قصد صاحب صيدا من الفرنج نور الدين محمود صاحب الشام ملتجئا اليه فامنه وسير معه عسكرا يمنعه من الفرنج أيضا فظهر عليهم فى الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة وانهزم الباقون وفيها ملك قرا ارسلان صاحب حصن كيفا قلعة شاتان وكانت لطائفة من الاكراد يقال لهم الجوبية فلما ملكها خربها وأضاف ولايتها الى حصن طالب وفيها توفى الكمال حمزة بن على بن طلحة

رتجالات خراسان * من اعيان رعايا السلطان * عين الدولة وأمين الملة * ووجوه الفضل من أوليائه * فمن منثور كلامه قوله من تصدر قبل أوانه * فقد تصدى لهوانه * يشير الى قول منصور الفقيه

الكلب أعلى همة
وهو النهاية فى الخساسه
ممن ينافس فى الريا
سة قبل أوقات الرياسة

وقوله العقل اطيب عيش * والعدل أغلب جيش * وقوله اذا كان رضا الخلق معسورا لا يدرك * فان ميسوره لا يترك * وقوله انما يحتاج الى اخوان العشرة * لمكان العسرة * وقوله من تغافل عنك مع علمه بحاجتك الى عونه وتوقيره * طلب علمك عله اذا عاتبته على تقصيره * كانه ألم فيه بقول القائل

توق الناس يا ابن أبى وأمى
فهم تبع المخافة والرجاء
ألم تر مظهرين على عتبا
وكانوا أمس اخوان الصفاء
بليت بنكبة فغدوا وراحوا
على أشد أسباب البلاء
ابت اقدارهم ان ينصرونى
بمال او بجاه أو براء
وخافوا أن يقال لهم خذلتم
صديقا فادعوا اقدم الجفاء

ولبعض أهل العصر فيه

كلام الامام امام الكلام
وفوه يفوه بحر النظام
مزاج معانيه فى لفظها

صاحب المخزن كان جليل القدر أيام المسترشد بالله وولي المقتفي وبنى مدرسة لاصحاب الشافعي بالقرب من داره ثم حج وعاد وقد لبس القوط وزي الصوفية وترك الاعمال فقال بعض الشعراء فيه

يا عضد الاسلام يا من سمت • الى العلا همته القاهره
كانت لك الدنيا فلم ترضها • ملكا فاخلدت الى الآخره

وبقي منقطعا في بيته عشرين سنة ولم يزل محترما يغشاه الناس كافة

(ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة)

•(ذكر فتح المؤيد طوس وغيرها)•

في هذه السنة في السابع والعشرين من صفر نازل المؤيد أي ابه ابا بكر جاندار بقلعة وسكرة خوى من طوس وكان قد تحصن بها وهي حصينة منيعة لا ترام فقاتله واعانه اهل طوس على أبي بكر لسوء سيرته كانت فيهم وظلمه فلما رأى ابو بكر ملازمة المؤيد ومواصلة القتال عليه خضع وذل ونزل من القلعة بالامان في العشرين من ربيع الاول من السنة فلما نزل منها حبسه المؤيد وامر بتقييده ثم سار منها الى كرستان وصاحبها ابو بكر فاخر فنزل من قلعته وهي من أمنع الحصون على رأس جبل عال وصار في طاعة المؤيد ودان له ووافقه وسير جيشا في جمادى الآخرة منها الى اسفراين فتحصن رئيسها عبد الرحمن بن محمد بن علي الحاج بالقلعة وكان أبوه كريم خراسان على الاطلاق ولكن كان عبد الرحمن هذا بئس الخلف فلما تحصن احاط به العسكر المؤيدي واستنزلوه من الحصن وحملوه مقيدا الى شاذياخ وحبس بها وقتل في ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وملك المؤيد أيضا قهندز نيسابور واستدارت مملكة المؤيد حول نيسابور وعادت الى ما كانت عليه قبل الا ان اهلها انتقلوا الى شاذياخ وخربت المدينة العتيقة وسير المؤيد جيشا الى خواف وبها عسكر مع بعض الامراء اسمه ارغش فكمن ارغش جمعا في تلك المضايق والجبال وتقدم الى عسكر المؤيد فقاتلهم وطلع الكمين فانهزم عسكر المؤيد وقتل منهم جمع وعاد الباقون الى المؤيد بنيسابور وسير جيشا الى بوشنج هراة وهي في طاعة الملك محمد بن الحسين الغوري فحصروها واشتد الحصار عليها وقام القتال والزحف فسير الملك محمد الغوري جيشا اليها فمنع عنها فلما قاربوا هراة فارقها العسكر الذي يحصرها وعادوا عنها وصفت تلك الولاية للغورية

•(ذكر أخذ ابن مردنيش غرناطة من عبد المؤمن وعودها اليه)•

في هذه السنة أرسل أهل غرناطة من بلاد الاندلس وهي لعبد المؤمن الى الامير ابراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش فاستدعوه اليهم ليسلموا اليه البلد وكان قد وحد وصار من أصحاب عبد المؤمن وفي طاعته وعن عزمه على قصد ابن مردنيش فلما وصل اليه رسل أهل غرناطة سار معهم اليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن فامتنعوا بحصنها فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذي كان عنده وتوجه الى غرناطة لنصرة من فيها من أصحابه فعلم بذلك ابراهيم بن همشك فاستنجد ابن مردنيش ملك البلاد بشرق الاندلس فارسل اليه الفي فارس من انجاد أصحابه ومن الفرنج الذين جندهم معه فاجتمعوا بنواحي غرناطة فالتقوا هم ومن بغرناطة من عسكر عبد المؤمن قبل وصول ابي سعيد

بمزاج المدام بماء الغمام

وله فيه

ألا أيها الشيخ الامام ومن به
تبلج افق الدهر عن فائق البشر
لئن كنت في الدنيا وانت وشاحها
عيانا فان الدر في صدف البحر
ولم تصلك الدنيا لانك دونها
ولكن لب الشيء يحمى بالقشر
وقد صين نصل السيف تحت قرابه
كما صين نور العين بالجفن والشفر

ومن أعيان رعايا السلطان بنيسابور ابو نصر أحمد ابن علي بن اسمعيل الميكالي وهو صنيعة السلطان وشيخ مملكته • وجمال جملته • فضلا موفورا • وأدبا مشهورا • وعزائم معقودا • ومالا معدودا • ورأيا كالدري مشارا • وحزما كالرائد مغارا • ودهاء يبلغ الليل البهيم نهارا • ونظرا يتشف أستار المصائر • فيستكشف اسرار الضمائر • وشعرا نقي السبح والجوهر • ذكي المسك والعنبر • رضي المورد والمصدر • فمنه قوله

باني العلا والجد والاحسان
والفضل والمعروف اكرم بان
ليس البناء بمشيد المتشيده
مثل البناء يشاد بالاحسان
البر اكرم ما حوته حقيبة
والشكر اكرم ما حوته يدان
واذا الكريم مضى وولى عمره
كفل الثناء له بعمر ثاني

اليهم فاشتد القتال بينهم فانهزم عسكر عبد المؤمن وقدم ابو سعيد واقتتلوا أيضا فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الاعيان والفرسان المشهورين والرجالة والاجلاد حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذ ابو سعيد ولحق بمالقة وسمع عبد المؤمن الخبر وكان قد سار الى مدينة سلا فسير في الحال ابنه أبا يعقوب يوسف في عشرين ألف مقاتل فيهم جماعة من شيوخ الموحدين فجدوا المسير فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه الى غرناطة ليعين ابن همشك فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير فنزل ابن مردنيش في الشريعة بظاهرها ونزل العسكر الذي أمر به ابن همشك اولاوهم الفا فارس بظاهر القلعة الحمراء ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ووصل عسكر عبد المؤمن الى جبل قريب من غرناطة فاقاموا في سفحه أياما ثم سيروا سرية أربعة آلاف فارس فبيتوا العسكر الذي بظاهر القلعة الحمراء وقاتلوهم من جهاتهم فما لحقوا يركبون فقتلوهم عن آخرهم واقبل عسكر عبد المؤمن بجملته فنزلوا بضواحي غرناطة فعلم ابن مردنيش وابن همشك انهم لا طاقة لهم بهم ففروا في الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم واستولى الموحدون على غرناطة في باقي السنة المذكورة وعاد عبد المؤمن من مدينة سلا الى مراكش

(ذكر حصر نور الدين حارم)

في هذه السنة جمع نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الشام العساكر بحلب وسار الى قلعة حارم وهي للفرنج غربي حلب فحصرها وجد في قتالها فامتنعت عليه بحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج ورجالهم وشجعانهم فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا واستعدوا وساروا نحوه ليرحلوه عنها فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه اليه وراسلوه وتلطفوا الحال معه فلما رأى انه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيبونه الى المصاف عاد الى بلاده وممن كان معه في هذه الغزوة مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ الكناني وكان من الشجاعة في الغاية فلما عاد الى حلب دخل الى مسجد شيزر وكان قد دخله في العام الماضي سائرا الى الحج فلما دخله الآن كتب على حائطه

لك الحمد يا مولاي كم لك منة * علي وفضل لا يحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلا * من الغزو موفور النصيب من الاجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي * مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما * تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

(ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكي)

في هذه السنة في رجب ملك الخليفة المستنجد بالله قلعة الماهكي وسبب ذلك ان سنقر الهمذاني صاحبها اسلمها الى أحد مماليكه ومضى الى همذان فضعف هذا المملوك عن مقاومة ما حولها من التركمان والاكراد فاشير عليه ببيعها من الخليفة فراسل في ذلك فاستقرت على خمسة عشر الف دينار وسلاح وغير ذلك من الامتعة وعدة من القرى فسلمها وتسلم ما استقر له وأقام ببغداد وهذه القلعة لم تزل من أيام المقتدر بالله بايدي التركمان والاكراد الى الآن

(ذكر الحرب بين المسلمين والكرج)

فاما كتابته فالسحر الحلال * والعذب الزلال * فهي تحكي بما تحويه من لطف العباره * وحسن الاستعاره * ومعسول الاشارة والبشاره * رياض ميشاء الى قراره * ومن منثور كلامه رسائل منها ما كتب به الى شمس المعالي قابوس بن وشمكير اقرأنيه كاتبه بسم الله الرحمن الرحيم كتب العبد وحاله فيما يديه مولاه * من شرف اقباله ورضاه * ويفيضه عليه من ملابس فضله ونعماه * حال من تقبل عليه دنياه * ويسعد في ظل دولته بأولاه واخراه * والحمد لله رب العالمين وصل كتاب الامير موشحا بدرر خطابه * وغرر ايجابه * وبدائع بره وافضاله * وروائع انعامه واشباله * فيما اكرمني به من عز العياده * وألبسنيه من حلل الفوز والسعاده * وشرفني به على التهنئة على العافية المستفاده * فأوصل عزا يبقى على الايام أثره * ولا يخلق على مر الزمان ذكره ومفخره * وفهمه العبد فهم من آنس منه رشدا * واقتبس من اثنائه قوة وأيدا * ويحمد الله شكرا على ما افاض عليه من سجال السلامه * ومد عليه من ظلال الفضل والكرامه * ورغب اليه * في اسباغ العوارف عليه * وصرف المحاذر عنه فأما بما أهل الامير العبد له من

في هذه السنة في شعبان اجتمعت الكرج في خلق كثير يبلغون ثلاثين ألف مقاتل ودخلوا بلاد الاسلام وقصدوا مدينة دوين من اذربيجان فملكوها ونهبوها وقتلوا من أهلها ما يقاربها نحو عشرة آلاف قتيل وأخذوا النساء سبايا وأسروا كثيرا وأعروا النساء وقادوهن حفاة عراة وأحرقوا الجامع والمساجد فلما وصلوا الى بلادهم أنكر نساء الكرج ما فعلوا بنساء المسلمين وقلن لهم قد أحوجتم المسلمين الى أن يفعلوا بنا مثل ما فعلتم بنسائهم وكسونهن ولما بلغ الخبر الى شمس الدين ايلدكز صاحب اذربيجان والجبل واصفهان جمع عساكره وحشدها وانضاف اليه شاه أرمن بن سكمان القطبي صاحب خلاط وابن آقسنقر صاحب مراغة وغيرهما فاجتمعوا في عسكر كثير يزيدون على خمسين ألف مقاتل وساروا الى بلاد الكرج في صفر سنة ثمان وخمسين ونهبوها وسبوا النساء والصبيان وأسروا الرجال ولقيهم الكرج واقتتلوا أشد قتال صبر فيه الفريقان ودامت الحرب بينهم أكثر من شهر وكان الظفر للمسلين فانهزم الكرج وقتل منهم كثير وأسر كذلك وكان سبب الهزيمة ان بعض الكرج حضر عند ايلدكز فاسلم على يديه وقال له تعطيني عسكرا حتى أسير بهم في طريق أعرفها وأجيء الى الكرج من ورائهم وهم لا يشعرون فاستوثق منه وسير معه عسكرا وواعده يوما يصل فيه الى الكرج فلما كان ذلك اليوم قاتل المسلمون الكرج فبيناهم في القتال وصل ذلك الكرجي الذي أسلم ومعه العسكر وكبروا وحملوا على الكرج من ورائهم فانهزموا وكثر القتل فيهم والاسر وغنم المسلمون من أموالهم ما لا يدخل تحت الاحصاء لكثرته فانهم كانوا متيقنين الظفر لكثرتهم فخيب الله ظنهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام بلياليها وعاد المسلمون منصورين قاهرين

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة وصل الحجاج الى منى ولم يتم الحج لاكثر الناس لصدهم عن دخول مكة والطواف والسعي فمن دخل يوم النحر مكة طاف وسعى وكمل ومن تأخر عن ذلك منع دخول مكة لفتنة جرت بين أمير الحاج وأمير مكة كان سببها أن جماعة من عبيد مكة أفسدوا في الحاج بمنى فنفر عليهم بعض أصحاب أمير الحاج فقتلوا منهم جماعة ورجع من سلم الى مكة وجمعوا جمعا وأغاروا على جمال الحاج وأخذوا منها قريبا من ألف جمل فنادى أمير الحاج في جنده فركبوا بسلاحهم ووقع القتال بينهم فقتل جماعة ونهب جماعة من الحاج وأهل مكة فرجع أمير الحاج ولم يدخل مكة ولم يقم بالزاهر غير يوم واحد وعاد كثير من الناس رجالة لقلة الجمال ولقوا شدة وممن حج هذه السنة جدتنا أم أبينا ففاتها الطواف والسعي فاستفتت لها الشيخ الامام أبو القاسم بن البرزي فقال تدوم على ما بقي عليها من احرامها وان أحبت تفدي وتحل من احرامها الى قابل وتعود الى مكة فتطوف وتسعى فتكمل الحجة الاولى ثم تحرم احراما ثانيا وتعود الى عرفات فتقف وترمي الجمار وتطوف وتسعى فتصير لها حجة ثانية فبقيت على احرامها الى قابل وحجت وفعلت كما قال فتم حجها الاول والثاني وفيها نزل بخراسان برد كثير عظيم المقدار وانحر تيسابات وكان أكثره بجوين ونيسابور وما والاهما فأهلك الغلات ثم جاء بعده مطر كثير دام عشرة أيام وفيها في جمادى الآخرة وقع الحريق ببغداد احترق سوق الطيوريين والدور

بشريف كتابه * وأطلقت خطابه * ورقاه اليمن درجة العبادة أولا * ومنزلة التهنئة ثانيا * وانقاذ القاصد به ثالثا * فان ذلك من نتائج همته العاليه * ودواعي شيمته الزاكيه * التي تحدوه على أوليائه وخدمه * وتعطفه على أغذياء نعمه * فليس له في مقابلة ما أولاه * ومعارضة ما كساه * الا الشكر بيديه * والنشر بفيه * والرغبة الى الله تعالى بخلوصها في اطالة بقائه * وادامة عزه وعلائه * والنهضة بواجب خدمته * ومعرفة قدر نعمته عنده ورحمته * هذا ولولا أن العبد في مقابلة هذه النعمة على جلالة قدرها * ونباهة خطرها وذكرها * غير بذل المهجة والقرونة في الطاعة * واستنفاد الوسع والطاقة * غاية لبلغها تقربا الى حقوقه * بما يقتضيها * ويؤدي شرط العبودية فيها * وحكم على نفسه بالعجز والتقصير معها * واذ قد حرم المراد فما تمسك الا بالرغبة الى الله تعالى في أن يتولى من مكافأته بما لا يسمح به الا يده * ولا يفي به الا مجده * فهذا هو الكلام الذي ليس به عثار * ولا عليه غبار * قد ولي الفضل تحبيره * وولي العقل وضعه وتصويره * والقليل منه على الكثير دليل * وكلام الجليل كقدره جليل * كما قيل

التى تليه مقابله الى سوق الصفرية الحديد والخان الذى فى الرحبة ودكاكين البزوريين وغيرها وفيها توفى الكيا الصباحى صاحب ألموت مقدم الاسماعيلية وقام ابنه مقامه فاظهر التوبة وأعاد هو ومن معه الصلوات وصيام شهر رمضان وأرسلوا الى قزوين يطلبون من يصلى بهم و يعلمهم حدود الاسلام فارسلوا اليهم وفيها فى رمضان درس شرف الدين يوسف الدمشقى فى المدرسة النظامية ببغداد وكان مدرسا بمدرسة أبى حنيفة وكان موته فى ذى القعدة وفيها توفى صدقة بن وزير الواعظ وفيها فى المحرم توفى الشيخ عدى بن مسافر الزاهد المقيم ببلد الهكارية من أعمال الموصل وهو من الشام من بلد بعلبك فانتقل الى الموصل وتبعه أهل السواد والجبال بتلك النواحى وأطاعوه وحسنوا الظن فيه وهو مشهور جدا

(ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة)

(ذكر وزارة شاور للعاضد بمصر ثم وزارة الضرغام بعده)

فى هذه السنة فى صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوى صاحب مصر وكان ابتداء أمره ووزارته انه كان يخدم الصالح بن رزيك ولزمه فاقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الاعمال بعد الوزارة فلما ولى الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما جرح الصالح كان من جملة وصيته لولده العادل انه لا يغير على شاور فانى انا أقوى منه وقد ندمت على استعماله ولم يمكنى عزله فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون فلما توفى الصالح من جراحته وولى ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستعمال بعضهم مكانه وخوفوه منه ان أقره على عمله فارسل اليه بالعزل فجمع جموعا كثيرة وسار الى القاهرة بهم فهرب منه العادل بن الصالح بن رزيك فأخذ وقتل فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله تسع سنين وشهرا وأياما وصار شاور وزيرا وتلقب بامير الجيوش وأخذ أموال بنى رزيك وودائعهم وذخائرهم وأخذ منه أيضا طى والكامل ابنا شاور شيئا كثيرا وتفرق كثير منها وجحد وظهرت عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين الى الاتراك ثم ان الضرغام جمع جموعا كثيرة ونازع شاور فى الوزارة فى شهر رمضان وظهر أمره وانهزم شاور منه الى الشام على ما نذكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وصار ضرغام وزيرا كان هذه السنة ثلاثة وزراء العادل بن رزيك وشاور وضرغام فلما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الامراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد عن أيديهم

(ذكر وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف)

فى هذه السنة فى العشرين من جمادى الآخرة توفى عبد المؤمن بن على صاحب بلاد المغرب وافريقية والاندلس وكان قد سار من مراكش الى سلا فمرض بها ومات ولما حضره الموت جمع شيوخ الموحدين من أصحابه وقال لهم قد جربت ابنى محمدا فلم أره يصلح لهذا الامر وانما يصلح له ابنى يوسف وهو أولى بها فقدموه ووصاهم به وبايعوه ودعى بامير المؤمنين وكتموا موت عبد المؤمن وحمل من سلا فى محفة بصورة مريض الى ان وصل الى مراكش وكان ابنه

قليل منك يكفينى ولكن
قليلك لا يقال له قليل

وقد أكثر الشعراء فى مدحه لكنى اثبت أبياتا لابى بكر الخوارزمى من قصيدة فيه اولها

زف المنام الى طيف خياله
لو أن طيفا كان من ابداله
لو أن هذا الدهر يشكر لم يدع
شكر الامير وقد غدا من آله
لا يعرف الالحاح نائله ولا
سؤل امرئ يبها عن اسآله
الوفر عند نواله والنيل عند
سؤاله والموت عند صياله
والخلق من سؤاله والجود من
عذاله والدهر من عماله
وفعاله كفعاله وشماله
كيمينه ويمينه كشماله
تجمع الآمال فى أمواله
فيفرق الاموال فى آماله
لا علم الا عز فى عزه
لا حر الا حاله من حاله
وله علوم لو قسمن على الورى
ما زاد عاقله على جهاله
وخلائق لو انهن كواكب
اضحى السما فى الضوء مثل هلاله
وفصول قول هن اعذب مسمعا
من راحة المشغول من أشغاله
سمح البديهة ليس يمسك لفظه
فكأنما ألفاظه من ماله
وكأنما عزماته وسيوفه
من حدهن خلقن من اقباله
متبسم فى الخطب تحسب انه
من حسنه متبسم بفعاله

أبو حفص فى تلك المقامات حاجبا لابيه فبقى مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج فيقول للناس أمير المؤمنين أمر بكذا ويوسف يقعد مقعد أبيه الى ان كملت المبايعة له فى جميع البلاد واستقرت قواعد الامور له ثم أظهر موت أبيه عبد المؤمن فكانت ولايته ثلاثة وثلاثين سنة وشهورا وكان عاقلا حازما سديد الرأى حسن السياسة للامور كثير البذل للاموال الا انه كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويقويه ويلزم الناس فى سائر بلاده بالصلاة ومن رآه وقت الصلاة غير مصل قتل وجمع الناس بالغرب على مذهب مالك فى الفروع وعلى مذهب أبى الحسن الاشعرى فى الاصول وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين المرجع اليهم والكلام معهم ولهم

●(ذكر ملك المؤيد اعمال قومس والخطبة للسلطان ارسلان بخراسان)●

فى هذه السنة سار المؤيد أى ابه صاحب نيسابور الى بلاد قومس فملك بسطام ودامغان واستناب بقومس مملوكه تنكز فاقام تنكز بمدينة بسطام فجرى بين تنكز وبين شاه مازندران اختلاف أدى الى الحرب فجمع كل منهما عسكره والتقوا أوائل ذى الحجة فى هذه السنة واقتتلوا فانهزم عسكر مازندران وأخذت اسلابهم وقتل منهم طائفة كبيرة ولما ملك المؤيد بلاد قومس أرسل اليه السلطان ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه خلعا نفيسة وألوية معقودة وهدية جليلة وامره انهم باشماث بلاد خراسان ويتولى ذلك اجمع وان يخطب له فلبس المؤيد الخلع فخطب له فى البلاد التى هى بيده وكان السبب فى هذا اتابك شمس الدين ايلدكز فانه كان هو الذى يحكم فى مملكة ارسلان وليس لارسلان غير الاسم وكان بين ايلدكز وبين المؤيد مودة ذكرناها عند قتل المؤيد فلما اطاع المؤيد السلطان ارسلان خطب له ببلاده وهى قومس ونيسابور وطوس واعمال نيسابور جميعها ومن نسا الى طبس كنكلى وكان يخطب لنفسه بعد ارسلان وكانت الخطبة فى جرجان ودهستان لخوارزمشاه بن ارسلان بن اتسز وبعده للامير ايثاق وكانت الخطبة فى مرو وبلخ وهراة وسرخس وهذه البلاد بيد الغز الا هراة فانها بيد الامير ايتكين وهو مسالم للغز فكانوا يخطبون للسلطان سنجر فيقولون اللهم اغفر للسلطان السعيد المبارك سنجر وبعده للامير الذى هو الحاكم فى تلك البلاد

●(ذكر قتل الغز ملك الغور)●

فى هذه السنة فى رجب قتل سيف الدين محمد بن الحسين الغورى ملك الغور وقتله الغز وسبب ذلك انه جمع عساكره وحشدها فاكثر وسار من جبال الغور يريد الغز وهم ببلخ واجتمعوا وتقدموا اليه فاتفق ان ملك الغور خرج من معسكره فى جماعة من خاصته جريدة فسمع به امراء الغز فساروا يطلبونه مجدين قبل ان يعود الى معسكره فاوقعوا به فقاتلهم اشد قتال رآه الناس فقتل ومعه نفر ممن كان معه واسر طائفة وهربت طائفة فلحقوا بعسكرهم وعادوا الى بلادهم منهزمين لا يقف الاب على ابيه ولا الاخ على اخيه وتركوا كل ما معهم بحاله ونجوا بنفوسهم فكان عمر ملك الغور لما قتل نحو عشرين سنة وكان عادلا حسن السيرة فمن عدله وخوفه عاقبة الظلم انه حاصر اهل هراة فلما ملكها اراد عسكره ان ينهبوها فنزل على درب المدينة واحضر الاموال والثياب فاعطى جميع عسكره منها وقال هذا خير من ان تنهبوا

هبنى رفيت بجمله عن فضله
من ذا يفى بالشكر عن افضاله
(وله أيضا من قصيدة أولها)
تلك الديار نزيهة الاحقاب
منعت بحق منيع ساكنها الابي
والى الامير ابن الامير تواهقت
رزحى الركاب برازحى الركاب
لبسوا الدجى لبس الغراب لريشه
وغدوا الحاجتهم غدو غراب
والعبر يطرف والظلام كانه
قضلات عتب فى خلال عتاب
طلبوا امرأ انعامه مسروبة
ونواله فوضى بغير حساب
غدت المدائح وهى أسماء له
ولغيره اضحين كالالقاب
والمكرمات كثيرة الخطاب
الا انها تأبى على الخطاب
متبسم الحجاب مكتئب العدى
مثرى النديم مجازف الحساب
شيم أرق من الهوى وألذ من
خطأ العدو ورددته بصواب
وعزائم لو كن يوما أسهما
لنفذن فى الايام غير نوابى
قائمة الحركات الا انها
نازية الاقدام والالهاب
يخطرن بين سياسة ورياسة
ويدن بين مثوبة وعقاب
قد اصمت القائله صور النهى
وقوالب الاسماع والالباب
واذا اسلت لهمنا باواحدا
حل المؤمل منك الف جناب
وما آل ميكال الا كامال
أبو الطمعان القين
وانى من القوم الذين هم هم
اذا مات منا سيد قام صاحبه

أموال المسلمين وتسخطوا الله تعالى فان الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم ولما قتل عاد الغزالى طوس ووقد غنموا شيأ كثيرا من العسكر الغورى لان أهله تركوه ونجوا

(ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج)

فى هذه السنة انهزم نور الدين محمود بن زنكى من الفرنج تحت حصن الأكراد وهى الوقعة المعروفة بالبقيعة تحت حصن الاكراد محاصر اله وعازما على قصد طرابلس ومحاصرتها فبينما الناس يوما فى خيامهم وسط النهار لم يرعهم الا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذى عليه حصن الاكراد وذلك ان الفرنج اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهارا فانهم يكونون آمنين فركبوا من وقتهم ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم وساروا مجدين فلم يشعر بذلك المسلمون الا وقد قربوا منهم فارادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك فارسلوا الى نور الدين يعرفونه الحال فرهقهم الفرنج بالحملة فلم يثبت المسلمون وعادوا يطلبون معسكر المسلمين والفرنج فى ظهورهم فوصلوا معا الى العسكر النورى فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح الا وقد خالطوهم فاكثروا القتل والاسر وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومى فانه كان قد خرج من بلاده الى الساحل فى جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين فى زعمهم فلم يبقوا على أحد وقصدوا خيمة نور الدين وقد ركب فيها فرسه ونجا بنفسه ولسرعته ركب الفرس والشبحة فى رجله فنزل انسان كردى قطعها فنجا نور الدين وقتل الكردى فاحسن نور الدين الى مخلفيه ووقف عليهم الوقوف ونزل نور الدين على بحيرة قدس بالقرب من حمص وبينه وبين المعركة أربع فراسخ وتلاحق به من سلم من العسكر وقال له بعضهم ليس من الرأى ان تقيم ههنا فان الفرنج ربما حملهم الطمع على المجىء الينا فنؤخذ ونحن على هذا الحال فوبخه وأسكته وقال اذا كان معى ألف فارس لقيتهم ولا ابالى بهم ووالله لا استظل بسقف حتى آخذ بثارى وثار الاسلام ثم أرسل الى حلب ودمشق واحضر الاموال والثياب والخيام والسلاح والخيل فاعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه بقولهم فعاد العسكر كان لم تصبه هزيمة وكل من قتل أعطى اقطاعه لاولاده واما الفرنج فانهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لانها أقرب البلاد اليهم فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم قالوا لم يفعل هذا الا وعنده قوة يمنعنا بها ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه قال له بعضهم ان لك فى بلادك ادرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت فى هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك وقال والله انى لا ارجو النصر الا بأولئك فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم على فراشى بسهام لا تخطئ واصرفها الى من لا يقاتل عنى الا اذا رآنى بسهام قد تصيب وقد تخطئ وهؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال كيف يحل لى ان أعطيه غيرهم ثم ان الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجبهم وتركوا عند حصن الاكراد من يحميه وعادوا الى بلادهم

(ذكر اجلاء بنى أسد من العراق)

فى هذه السنة أمر الخليفة المستنجد بالله باهلاك بنى أسد أهل الحلة المزيدية لما ظهر من فسادهم ولما كان فى نفس الخليفة منهم من مساعدتهم السلطان محمد لما حصر بغداد فامر

نجوم سماء كلما غاب كوكب
بدا كوكب تأوى اليه كواكبه
اضاءت لهم احسابهم ووجوههم
دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
ومازال منا حيث كان مسود
تسير المنايا حيث سارت كتائبه
(ومما يعد من مفاخر مجيبان له) ابو الفضل وابو ابراهيم عبيد الله واسمعيل ابنا احمد كل منهما بدر فى ضيائه وعلائه * وبحر فى تياره وغنائه * غير ان أبا الفضل ابرع فى لطائف الادب * وأنظم لقلائد شعر العرب * وقد سار له من النظم والنثر ما يزرى حبره بوشى صنعاء * وزهره بروض ميثاء * (فمن فصول كلامه قوله) وصل كتاب الشيخ فأذعنت القلوب لفضله بالاعتراف * واختلفت الألسن فى وصفه ببدائع الاوصاف * فمن مدع انه رقية الوصل * وريقة النحل * ومتمثل انه عقد السحر * وعقد السحر * وسمط الدر * وقائل هو سلاف العنقود * ونظم العقود * فأما انا فتركت التمثيل * وسلكت التحصيل * وقلت هو سماء فضل جادت بصوب الحكم * ووشى طبع حاكه حسن القلم * ونسيم خلق تنفس عنه روض الكرم * (وأيضا له) وصل كتابك فكان احسن من روض

يزدن بن قماج بقتالهم واجلائهم من البلاد وكانوا منبسطين فى البطائح فلا يقدر عليهم فتوجه يزدن اليهم وجمع عساكر كثيرة من فارس وراجل وأرسل الى ابن معروف مقدم المنتفق وهو بأرض البصرة فجاء فى خلق كثير وحصرهم وسكر عنهم الماء وصابرهم مدة فأرسل الخليفة يعتب على يزدن ويعجزه وينسبه الى موافقته فى التشيع وكان يزدن يتشيع فجد هو وابن معروف فى قتالهم والتضييق عليهم وسد مسالكهم فى الماء فاستسلموا فاشتد القتل منهم فقتل منهم أربعة آلاف قتيل ونودى فيمن بقى من وجد بعد هذا فى الحلة المزيدية فقد حل دمه فتفرقوا فى البلاد ولم يبق منهم بالعراق من يعرف وسلمت بطائحهم الى ابن معروف وبلادهم

•(ذكر عدة حوادث)•

فى هذه السنة وقع فى بغداد حريق فى باب درب فراشا الى مشرعة الصباغين من الجانبين وفيها فى رجب توفى سديد الدولة أبو عبد الله بن عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم المعروف بابن الانبارى كاتب الانشاء بديوان الخلافة وكان فاضلا أديبا ذا تقدم كثير عند الخلفاء والسلاطين وخدم من سنة ثلاثين وخمسمائة الى الآن فى ديوان الخلافة وعاش حتى قارب تسعين سنة وتوفى فى رمضان هبة الله بن الفضل بن عبد العزيز بن محمد المتوثى وسمع الحديث وهو من الشعراء المشهورين الا انه كثير الهجو ومن شعره

يا من هجرت ولا تبالى • هل ترجع دولة الوصال
هل اطمع يا عذاب قلبى • ان ينعم فى هواك بالى
الطرف كما عهدت باك • والجسم كما ترين بال
ما ضرك ان تعلّلينى • فى الوصل بموعد المحال
اهواك وأنت حظ غيرى • يا قاتلتى فما احتيالى

وهى اكثر من هذا

(ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة)

•(ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين الى ديار مصر وعودهم عنها)•

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سير نور الدين محمود بن زنكى عسكرا كثيرا الى مصر وجعل عليهم الامير أسد الدين شيركوه بن شاذى وهو مقدم عسكره وأكبر امراء دولته وأشجعهم وسنذكر سنة أربع وستين سبب اتصاله بنور الدين وعلو شأنه عنده ان شاء الله تعالى وكان سبب ارسال هذا الجيش ان شاور وزير العاضد لدين الله العلوى صاحب مصر نازعه فى الوزارة ضرغام وغلب عليها فهرب شاور منه الى الشام ملتجئا الى نور الدين ومستجيرا به فأكرم مثواه وأحسن اليه وأنعم عليه وكان وصوله فى ربيع الاول من السنة وطلب منه ارسال العساكر معه الى مصر ليعود الى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر ويكون شيركوه مقيما بعساكره فى مصر ويتصرف هو بأمر نور الدين واختياره فبقى نور الدين يقدم الى هذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى فتارة يحمله رعاية قصد شاور بابه وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق وان الفرنج فيه وتخوف ان شاور ان استقرت قاعدته ربما لا يفى ثم قوى عزمه على ارسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وازاحة

الربيع ووريد الوشى الصنيع فلقيته بحلية الاحسان والابداع وحلية النواظر والاسماع ومسن الخواطر والطباع وصيقل الافكار والالباب ومعيار المعارف والآداب واجتليت منه جنة فضل ويتيمة مجد وعنية عقد ولطيمة خلق وعتيبة بر يجلو صفحة العهد ويجيل قدح الانس ويجل عن قدر الشكر كلام أعذب من رضاب المطر وأعبق من فتات المسك والعنبر يزرى بنور الخمائل وقد عطرتها انفاس الشمائل (ومن منثور ألفاظه) اخلاقك قد أخذت من الورد رقته ومن الذهب صفته اخلاق هى المسك لولا فارته والورد لولا مرارته والماء لولا اسراعه الى الكدر والروض لولا حاجته الى المطر ووجه البدر لولا محاقه والمشترى لولا احتراقه هو عار من العوار كاس من العلاء وله الشرف اليفاع والامر المطاع والعرض المصون والمال المضاع والنوال السكب والرأى العضب ونفسه الاباء المرة والكرم العذب وهو واحد البشر وثانى المطر وثالث الشمس والقمر • اهنى على دهر انه اذ غصن شبابى غض وريق • ونقل شبرابى غض وريق •

علانا وكان هوى أسد الدين فى ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى بمخافة فتجهز وسار واجتمعا وشاور فى صحبتهم فى جمادى الاولى من سنة تسع وخمسين وتقدم نور الدين الى شيركوه أن يعيد شاور الى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين الى طرف بلاد الفرنج مما يلى دمشق بعساكره ليمنع الفرنج من التعرض لاسد الدين ومن معه فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ووصل أسد الدين والعساكر معه الى مدينة بلبيس فخرج اليهم ناصر الدين اخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم وعاد الى القاهرة ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقى يومين ثم حمل ودفن فى القرافة وقتل أخوه فارس المسلمين وخلع على شاور مستهل رجب وأعيد الى الوزارة وتمكن منها وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة فغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضا وأرسل اليه يأمره بالعود الى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور اليه فلما رأى ذلك أرسل الى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فارسل شاور الى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكان الفرنج قد ايقنوا بالهلاك ان تم ملكه لها فلما ارسل شاور يطلب منهم ان يساعدوه على اخراج اسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا فى تلك الديار المصرية وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه وتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره الى اطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم ان الخطر فى مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر أشد فتركوا فى بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس فى الباقين الى مصر وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الفرنج فى البحر لزيارة البيت المقدس فاستعان بهم الفرنج الساحلية فاعانوهم فسار بعضهم معهم واقام بعضهم فى البلاد لحفظها فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس فاقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ونازلوا أسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة اشهر وهو ممتنع بها مع ان سورها قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل يحميها وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيأ فبينما هم كذلك اذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره الى بانياس على ما نذكره ان شاء الله تعالى فحينئذ سقط فى أيديهم وأرادوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين فى الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولان الاقوات والذخائر قلت عليه وخرج من بلبيس فى ذى الحجة فحدثنى من رأى اسد الدين حين خرج من بلبيس قال اخرج اصحابه بين يديه وبقى فى آخرهم وبيده لت من حديد يحمى ساقتهم والمسلمون والفرنج ينظرون اليه قال فاتاه فرنجى من الغرباء الذين خرجوا من البحر فقال له أما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وباصحابك ولا يبقى لكم بقية فقال شيركوه ياليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما افعله كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى شجعانهم

النعمة عروس مهرها الشكر * ونور صوانه النشر * النعمة عنده من لؤمه تكتسى أطمارا * وتشتكى غربة واسارا * ولى المغرور يرسف من الرعب فى حاق * ويجرى مع الريح فى طلق * دارت رحا الحرب بين أعمار تباح * ودماء تستباح * وأجسام تطاح * وأرواح تسفى بها الرياح * فالسيوف للهامات دامغه * والرماح فى الاكباد والغه * ومن نظمه قوله

لقد راعنى بدر الدجى بصدوده
ووكل أجفانى برعى كواكبه
فيا جزعى مهلا عساه يعود لى
ويا كبدى صبرا على ما كواك به

وقوله أيضا

ضاق صدرى فى هوى قمر
قمر القلب وما شعرا
ليت أجفانى به سعدت
فترى الجفن الذى فترا

وقوله أيضا

تفرق قلبى فى هواه فعنده
فريق وعندى شعبة وفريق
اذا ظمئت نفسى أقول له اسقنى
فان لم يكن راح لديك فريق

وقوله

أنكرت من أدمعى تترى سواكبها
سلى جفونى هل أبكى سواك بها

فقال بلادهم بنهالك من بقي والله لو أطاعني هؤلاء لخرجت اليكم من أوّل يوم ولكنهم امتنعوا فصلب على وجهه وقال كان العجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم ثم رجع عنه وسار شيركوه الى الشام فوصل سالما وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق في الطريق رصدا ليأخذوه أو ينالوا منه ظفرا فعلم بهم فعاد عن ذلك الطريق ففيه يقول عمارة

اخذتم عن الافرنج كل ثنية • وقلتم لأيدي الخيل مري على مري
لئن نصبوا في البر جسرا فانكم • عبرتم ببحر من حديد على الجسر

ولفظة مري في آخر البيت الاول اسم ملك الفرنج

•(ذكر هزيمة الفرنج وفتح حارم)•

في هذه السنة في شهر رمضان فتح نور الدين محمود بن زنكي قلعة حارم من الفرنج وسبب ذلك ان نور الدين لما عاد منهزما من البقيعة تحت حصن الاكراد كما ذكرناه قبل فرق الاموال والسلاح وغير ذلك من الآلات على ما تقدم فعاد العسكر كأنهم لم يصابوا واخذ في الاستعداد للجهاد والاخذ بثاره واتفق مسير بعض الفرنج مع ملكهم الى مصر كما ذكرناه فاراد ان يقصد بلادهم ليعودوا عن مصر فارسل الى اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وديار الجزيرة والى فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا والى نجم الدين البي صاحب ماردين وغيرهم من اصحاب الاطراف يستنجدهم فاما قطب الدين فانه جمع عسكره وسار مجدا وفي مقدمته زين الدين على أمير جيشه واما فخر الدين صاحب الحصن فبلغني عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه على أي شيء عزمت فقال على القعود فان نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة وهو يلقي نفسه في المهالك فكلهم وافقه على هذا الرأي فلما كان الغد أمر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك ما عدا مما بدا فارقناك امس على حالة فنراك اليوم على ضدها فقال ان نور الدين قد سلك معي طريقا ان لم انجده خرج أهل بلادي عن طاعتي واخرجوا البلاد عن يدي فانه قد كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والاسر ويستمد منهم الدعاء ويطلب ان يحثوا المسلمين على الغزاة فقد قعد كل واحد من اولئك ومعه اصحابه واتباعه وهم يقرؤن كتب نور الدين ويبكون ويلعنوني ويدعون علي فلا بد من المسير اليه ثم تجهز وسار بنفسه واما نجم الدين فانه سير عسكرا فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف اليها فاجتمع من بقي بالساحل من الفرنج فجاؤا في حدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم واقبلوا اليه من كل حدب ينسلون وكان المقدم عليهم البرنس بيمند صاحب انطاكية وقمص صاحب طرابلس واعمالها وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج والدوك وهو مقدم كبير من الروم وجمعوا الفارس والراجل فلما قاربوه رحل عن حارم الى ارتاح طمعا ان يتبعوه فيتمكن منهم لبعدهم عن بلادهم اذا لقوه فساروا فنزلوا على عم ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا الى حارم فلما عادوا تبعهم نور الدين في ابطال المسلمين على تعبية الحرب فلما تقاربوا اصطفوا للقتال فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن فانهزم المسلمون فيها وتبعهم الفرنج فقيل كانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي

وقوله

انذل في الهوى لما اكتوما
ونزداد حنين حر ويق جواه
فيراني أخاف دمعي عليه
ستراه يفشي الذي ستراه

وقوله

لنا صديق ان رأى
مهفهفا الاطه
فان يكن في دهرنا
ذو ابنة لاط بهو

وقوله

لا تعجبن بالحياة ذائقه
فكل نفس للمنون ذائقه

وقوله

وكل غني يتيه به غني
فرتجع لموت أو زوال
فهب جدي زوى لي الارض
طرا
أليس الموت يزوي ما زوى لي

ومن أفاضل العلوية أبو البركات علي بن الحسين بن علي بن جعفر بن محمد وهو الملقب بجور بن الحسين ابن علي وهو الملقب بالديباج المدفون بجرجان ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن امير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين

نسب توارث كابرا عن كابر
كالرمح أنبوبا على انبوب

قد جمع الله بين ديباجتي النظم والنثر فنثره منثور الرياض جادتها السحائب ونظمه منتظم العقود

دبروه وخوان يتبعهم الفرنج فبعدوا عن راجلهم فحمل عليهم من بقي من المسلمين بالسوف
ماذاعد فرسانهم لم يأتوا راجلا يلجؤن اليه ولا وزرا يعتمدون عليه وبعود المنهزمون فى آثارهم
فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فكان الامر على
ما دبروه فان الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف عليهم زين الدين على فى عسكر الموصل على راجل
الفرنج فأفناهم قتلا واسرا وعاد خيالتهم ولم يمعنوا فى الطلب خوفا على راجلهم فعاد المنهزمون
فى آثارهم فلما وصل الفرنج رأوا رجالهم قتلى واسرى فسقط فى ايديهم ورأوا أنهم قد هلكوا
وبقوا فى الوسط قد احدق بهم المسلمون من كل جانب فاشتدت الحرب وقامت على ساق وكثر
القتل فى الفرنج وتمت عليهم الهزيمة فعدل حينئذ المسلمون عن القتل الى الاسر فاسروا ما لا يحد
وفى جملة الاسرى صاحب انطاكية والقمص صاحب طرابلس وكان شيطان الفرنج واشدهم
شكيمة على المسلمين والدوك مقدم الروم وابن جوسلين وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف
قتيل واشار المسلمون على نور الدين بالمسير الى انطاكية وتملكها لخلوها من حام يحميها ومقاتل
يذب عنها فلم يفعل وقال أما المدينة فامرها سهل واما القلعة فمنيعة وربما سلموها الى ملك الروم
لان صاحبها ابن أخيه ومجاورة بيمند احب الى من مجاورة صاحب قسطنطينية وبث السرايا فى
تلك الاعمال فنهبوها واسروا أهلها وقتلوهم ثم انه فادى برنس بيمند صاحب انطاكية واشترى
من المسلمين خلقا كثيرا فاطلقهم

(ذكر ملك نور الدين قلعة بانياس من الفرنج أيضا)

فى ذى الحجة من هذه السنة فتح نور الدين محمود قلعة بانياس وهى بالقرب من دمشق وكانت بيد
الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ولما فتح حارم أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود
الى بلادهم واظهر انه يريد طبرية فجعل من بقى من الفرنج همتهم حفظها وتقويتها فسار محمود
الى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ونازلها وضيق عليها وقاتلها وكان فى جملة
عسكره أخوه نصرة الدين امير أميران فاصابه سهم فاذهب احدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له
لو كشف لك عن الاجر الذى اعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى وجد فى حصارها فسمع الفرنج
فجمعوا فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها على ان الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم
وأسرهم فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا وشاطر الفرنج فى أعمال طبرية وقرروا له على
الاعمال التى لم يشاطرهم عليها مالا فى كل سنة ووصل خبر ملك حارم وحصر بانياس الى الفرنج
بمصر فصالحوا شيركوه وعادوا ليدركوا بانياس فلم يصلوا الا وقد ملكها ولما عاد منها الى دمشق
كان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر وكان يسمى الجبل لكبره وحسنه فسقط من يده
فى شعراء بانياس وهى كثيرة الاشجار ملتفة الاغصان فلما أبعد عن المكان الذى ضاع فيه علم به
فأعاد اصحابه فى طلبه ودلهم على المكان الذى كان آخر عهده به فيه وقال أظنه هناك سقط فعادوا
اليه فوجدوه فقال بعض الشعراء الشاميين أظنه ابن منير يمدحه ويهنئه بهذه الغزاة
ويذكر الجبل الياقوت

ان يمتر الشكاك فيك بأنك الـ ... ـمهدى مطفى جمرة الدجال
فلعودة الجبل الذى اضللته ... بالامس بين غياطل وجبال

ذانها الصدر والترائب * فمن نثره فصل له أحب أن
تكون مكاتبتى للامير أنها
لم ترتع * وبكرا لم تفترع
وسائبة لا تركب ولا تحلب
فلا أشوبها بأرب * ولا
أتسبب اليها بسبب * فعل
من لا يشين ولا يطمع * ولا
يشوب دعواه عنت ولا
طمع * على أن الاضطرار *
يغبر فى وجه الاختيار *
والعذر فيه مقبول عند
ذوى الاخطار والاحرار *
وفلان يمت بحق الجوار *
ولقد نشر جرائد شكره *
وأظهر بحسن النشر خبايا
بره * فملأ الارض ثناء
والسماء دعاء * وعادة الامير
أن يحيى الآمال * ويسترق
الاحرار بالاموال * فليجعل
متكرما هذا الامل
محظوظا ولا يجعله محطوطا
ان شاء الله تعالى (وله أيضا)
رقعتى هذه وأنا عائد معود *
وقاصد بالزيارة مقصود *
اخاطب أصدقائى بما
اخاطب * وأكاتب اخوانى
بما أكاتب * معافى
وقده * وأرضى رعده *
تنتابنى الحمى * ولا تفارقنى
الشكوى * نفسى نفسان
ونفسى نفسان * كأن الدول
شاطرنى نصوله * فملت غرته
وحجوله * فالربيع بين عينى
وخيشومى * والصيف
كان فى صدرى وحلقى وفمى *

لم يعطها الاسليمان وقد * نبت الربا عوضك الاعمال
وحرى لسرير ملكك انه * كسريره عن كل حدعالى
فلو الجبار السبعة استوريته * وأمرتهن قذفنه فى الحال

ولما فتح الحصن كان معه ولد معين الدين أنز الذى سلم بانياس الى الفرنج فقال له المسلمين بعد الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال كيف ذاك قال لان اليوم برد الله جلد والدك من نار جهنم

• (ذكر اخذ الاتراك غزنة من ملكشاه وعوده اليها) •

فى هذه السنة قصد بلاد غزنة الاتراك المعروفون بغز ونهبوها وخربوها وقصدوا غزنة وبها صاحبها ملكشاه بن خسروشاه المحمودى فعلم انه لا طاقة له بهم ففارقها وسار الى مدينة لهاوور وملك الغز مدينة غزنة وكان المقيم بامرهم أميرا اسمه زنكى بن على بن خليفة الشيبانى ثم ان صاحبها ملكشاه جمع وعاد الى غزنة ففارقها زنكى وعاد ملكها ملكشاه ودخلها فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة وتمكن فى دار ملكه

• (ذكر وفاة جمال الدين الوزير وشىء من سيرته) •

فى هذه السنة توفى جمال الدين أبو جعفر محمد بن على بن ابى منصور الاصفهانى وزير قطب الدين صاحب الموصل فى شعبان مقبوضا وكان قد قبض عليه سنة ثمان وخمسين فبقى فى الحبس نحو سنة حكى لى انسان صوفى يقال له ابو القاسم كان مختصا بخدمته فى الحبس قال لم يزل مشغولا فى محبسه بامر آخرته وكان يقول كنت أخشى أن أنقل من الدست الى القبر فلما اتفق أن مرض قال لى فى بعض الايام يا أبا القاسم اذا جاء طائر أبيض الى الدار فعرفنى قال فقلت فى نفسى قد اختلط عقله فلما كان الغد أكثر السؤال عنه واذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط فقلت جاء الطائر فاستبشر ثم قال جاء الحق واقبل على الشهادة وذكر الله تعالى الى ان توفى فلما توفى طار ذلك الطائر فعلمت انه راى شيأ فى معناه ودفن بالموصل عند فتح الكرامى رحمة الله عليهما نحو سنة ثم نقل الى المدينة فدفن بالقرب من حرم النبى صلى الله عليه وسلم فى رباط بناه لنفسه وقال لابى القاسم بينى وبين أسد الدين شيركوه عهد من مات منا قبل صاحبه حمله الى المدينة فدفنه بها فى التربة التى عملها فاذا انا مت فامض اليه وذكره فلما توفى سار أبو القاسم الى شيركوه فى المعنى فقال له شيركوه كم تريد فقال أريد اجرة جمل يحمله وجمل يحمل زادى فانتهره وقال مثل جمال الدين يحمل هكذا الى مكة واعطاه مالا واماله الجمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين وجماعة يقرؤن عليه بين يدى تابوته اذا حمل واذا نزل عن الجمل واذا وصل الى مدينة يدخل أولئك القراء ينادون للصلاة عليه فيصلى عليه فى كل بلد يجتازون بها واعطاه أيضا مالا للصدقة عنه فصلى عليه فى تكريت وبغداد والحلة وفيد ومكة والمدينة وكان يجتمع له فى كل بلد من الخلق ما لا يحصى ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وانشد باعلى صوته

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما * سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى فتثنى رماله * عليه وبالنادى فتثنى أرامله

وما عرفت لهذه العلة سببا الا انى رأيت نفسى الحموية متشكيه فشاركتها فى شكواها ووجدت عين الكرم والكمال متاذيه فاحتملت عنها أذاها • وقلت ممتثلا لامتثالا

ونعود سيدنا وسيد غيرنا
ليت التشكى كان بالعواد

ثم ذكرت ما أعد الله تعالى للعباد من ثواب العلة فى المعاد فاستصغرت عند ذلك ما استعظمته وسهل مسلكى وان استوعرته • وقلت متع الله تلك النعمة من العلة • وأعاد الشيخ بها امانا من القلة • وأعمى عنه ناظر الزمان • ولاطرق الى فنائه طوارق الحدثان • وتمنيت انى واصلت غدوى ورواحى فى زيارة الشيخ مشاهدا الحال • واقبال صحو البرء والابلال • ولكن حيل بين العير والنزوان وعلى سائق حنده فانى أسترح الى خبر سلامته وأحصل لنفسى منه • وله أيده الله باهدائه الى بدونه • ورأيه فى الحاقى به • موفق ان شاء الله تعالى

ومن نظمه قوله

وأغيد مصار باللحاظ عينه
حكى بتثنيه من البان املودا
حلفت بذكراه عن الصبح ليله
أسامر والكاس والناى والعودا

فلم نر باكيا اكثر من ذلك اليوم فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم الشريف وبين قبره
وقبر النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر ذراعا وأما سيرته فكان رحمه الله أسخى الناس
واكثرهم بذلا للمال رحيما بالخلق متعطفا عليهم عادلا فيهم فمن أعماله الحسنة انه جدد بناء
مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا كثيرة جسيمة وبنى الحجر بجانب الكعبة وزخرف
الكعبة وذهبها وعملها بالرخام ولما اراد ذلك ارسل الى المقتفي لامر الله هدية جليلة وطلب منه
ذلك وأرسل الى الامير عيسى امير مكة هدية كبيرة وخلعا سنية منها عمامة شراها بثلثمائة دينار
حتى مكنه من ذلك وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات والدرج التي يصعد فيها اليه وكان
الناس يلقون شدة في صعودهم وعمل بعرفات أيضا مصانع للماء واجرى الماء اليها من نعمان في
طرق معمولة تحت الارض فخرج عليها مالا كثيرا وكان يجري الماء في المصانع كل سنة أيام عرفات
وبنى سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى فيد وبنى لها أيضا فصيلا وكان يخرج
على باب داره كل يوم للصعاليك والفقراء مائة دينار اميري هذا سوى الادرارات والتعهدات
للائمة والصالحين وارباب البيوت ومن ابنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه
على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس فقبض قبل ان يفرغ
وبنى عندها أيضا جسرا كذلك على النهر المعروف بالارماد وبنى الربط وقصده الناس من
اقطار الارض ويكفيه ان ابن الخجندي رئيس اصحاب الشافعي باصفهان قصده وابن الكافي
قاضي همذان فاخرج عليهما مالا عظيما وكانت صدقاته وصلاته من اقاصي خراسان الى حدود
اليمن وكان يشتري الاسرى كل سنة بعشرة آلاف دينار هذا من الشام حسب سوى ما يشتري
من الكرج حكى لي والدي عنه قال كثيرا ما كنت أرى جمال الدين اذا قدم اليه الطعام يأخذ
منه ومن الحلوى ويتركه في خبز بين يديه فكنت انا ومن يراه نظن انه يحمله الى ام ولده على فاتفق
انه في بعض السنين جاء الى الجزيرة مع قطب الدين وكنت اتولى ديوانها وحمل جاريته أم ولده
الى داري لتدخل الحمام فبقيت في الدار أياما فبينما انا عنده في الخيام وقد اكل الطعام فعل
كما كان يفعل ثم تفرق الناس فقمت فقال اقعد فقعدت فلما خلا المكان قال لي قد آثرتك اليوم
على نفسي فانني في الخيام ما يمكنني ان افعل ما كنت أفعله خذ هذا الخبز واحمله أنت في كمك في
هذا المنديل واترك الجاقة من رأسك وعد الى بيتك فاذا رأيت في طريقك فقيرا يقع في نفسك
انه مستحق فاقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام قال ففعلت ذلك وكان معي جمع كثير
ففرقتهم في الطريق لئلا يروني أفعل ذلك وبقيت في غلماني فرأيت في موضع النسا اعمى وعنده
اولاده وزوجته وهم من الفقر في حال شديد فنزلت عن دابتي اليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم
اياه وقلت للرجل تجيء غدا بكرة الى دار فلان أعني داري ولم أعرفه نفسي فانني آخذ لك من
صدقة جمال الدين شيئا ثم ركبت اليه العصر فلما رآني قال ما الذي فعلت في الذي قلت لك
فأخذت أذكر له شيئا يتعلق بديوانه فقال ليس عن هذا أسألك انما أسألك عن الطعام الذي
سلمته اليك فذكرت له الحال ففرح ثم قال بقي أنك لو قلت للرجل يجيء اليك هو واهله فتكسوهم
وتعطيهم دنانير وتجري لهم كل شهر دنانير قال فقلت له قد قلت للرجل حتى يجيء الي قال فازداد
فرحا وفعلت بالرجل ما قال ولم يزل يصل اليه رسمه حتى قبض وله من هذا كثير فمن ذلك انه تصدق

ترى أنجم الجوزاء والنجم فوقها
كباسط كف فيه لقطت عنقودا
وكتب الى أبي بكر الخوارزمي
لئن كان ذنبي أنني اعتللت
فذلك ذنب صغير صغير
وان كان هجري من أجله
فذلك ظلم كبير كبير
صدودك عن صدود الحبيـ
وصدّ سوالك يسير يسير
فزرني فاني لا تجد شاكرا
لديه القليل كثير كثير
(وله في وصف النقانق)
فان كنت تهوى اليوم اكل النقانق
تبادر الى أمثال جيد القرانق
الى جامع اللذات طيبا وجودة
قضى حقه طاه بصنعة حاذق
تراه على السفود عند صلاته
كزنجية زينت بحلى المخانق
فبعض تدلى كالوشاح وبعضه
منوط عليه في محل المناطق
فانجح بقيت الخير في حاجة امرئ
وفي بشرط الود غير مماذق
(ومن افاضل اضرابهم القاضي ابو القاسم علي بن الحسين الداودي بهراة)
وهو عندي ممن يستحق أن يقال فيه ما قاله الصاحب لبعض من كان يواليه *
لولا أن قدرة الله عندي
جنس واحد لقلت ليس
في القدرة وجود مثله *
في كماله وفضله * جاوز

بثيابه من على بدنه فى بعض السنين التى تعذرت الاقوات فيها

(ذكر اجلاء القارغلية من وراء النهر)

كان خان خانان الصينى ملك الخطا قد فوّض ولاية سمرقند وبخارا الى الخان جغرى خان بن حسن تكين واستعمله عليهما وهو من بيت الملك قديم الابوة فبقى فيهما مدبرا لامورها فلما كان الآن أرسل اليه ملك الخطا باجلاء الاتراك القارغلية من أعمال بخارا وسمرقند الى كاشغر وأن يتركوا حمل السلاح ويشتغلوا بالزراعة وغيرها من الاعمال فتقدم جغرى خان اليهم بذلك فامتنعوا فالزمهم وألح عليهم بالانتقال فاجتمعوا وصارت كلمتهم واحدة فكثروا وساروا الى بخارا فارسل الفقيه محمد بن عمر بن برهان الدين عبد العزيز بن مازة رئيس بخارا الى جغرى خان يعلمه ذلك ويحثه على الوصول اليهم بعساكره قبل ان يعظم شرهم وينهبوا البلاد وارسل اليهم ابن مازة يقول لهم ان الكفار بالامس لما طرقوا هذه البلاد امتنعوا عن النهب والقتل وأنتم مسلمون غزاة يقبح بكم مد الايدى الى الاموال والدماء وانا أبذل لكم من الاموال ما ترضون به لتكفوا عن النهب والغارة فترددت الرسل بينهم فى تقرير القاعدة وابن مازة يطاولهم ويمادى الايام الى ان وصل جغرى خان فلم يشعر الاتراك القارغلية الا وقد دهمهم جغرى خان فى جيوشه وجموعه بغتة ووضع السيف فيهم فانهزموا وتفرقوا وكثر القتل فيهم والنهب واختفى طائفة منهم فى الغياض والآجام ثم ظفر بهم أصحاب جغرى خان فقطعوا دابرهم ودفعوا عن بخارا ونواحيها شرهم وخلت الارض منهم

(ذكر استيلاء سنقر على الطالقان وغرشستان)

فى هذه السنة استولى الامير صلاح الدين سنقر وهو من مماليك السنجرية على بلاد الطالقان واغار على بلد غرشستان وتابع الغارات عليها حتى ملكهما وصار الولايتان فى حكمه وله فيها حصون منيعة وقلاع حصينة وصالح الامراء الغزية وحمل لهم الاتاوة كل سنة

(ذكر قتل صاحب هراة)

كان صاحب هراة ايتكين بينه وبين الغز مهادنة فلما توفى ملك الغور محمد طمع فى بلادهم فغزاهم غير مرة ونهب وأغار فلما كان فى شهر رمضان من هذه السنة جمع ايتكين جموعه وسار الى بلاد الغور وساروا الى باميان والى ولاية بست والرخج فقاتله صاحبها المغرل تكين برتقش العلكى من قبل الغورية فظهر والى باميان واستولى على بست والرخج فسلمها الى بعض أولاد ملوك الغور وأما ايتكين فانه توغل فى بلاد الغور فاتاه أهلها وقاتلوه وصدقوه القتال فانهزم عسكره وقتل هو فى المعركة

(ذكر ملك شاه مازندران قومس وبسطام)

قد ذكرنا استيلاء المؤيد صاحب نيسابور على قومس وبسطام وتلك البلاد وأنه استناب بها مملوكه تنكز فلما كان هذه السنة جهز شاه مازندران جيشا واستعمل عليهم أميرا له يعرف بسابق الدين القزوينى فسار الى دامغان فملكها فجمع تنكز من عنده من العساكر وسار اليه الى دامغان فخرج اليه القزوينى فوصل الى تنكز على غرة منه فلم يشعر هو وعسكره الا وقد كبسهم القزوينى ووضع السيف فيهم فتفرقوا وولوا منهزمين واستولى عسكر شاه مازندران

السبعين * وناهز الثمانين *
واحد الايام منثورا
ومنظوما * وثانى الغمام
معقولا ومعلوما * شب الحلم
خادما وشاب على العلا
مخدوما فن منثور كلامه
فصل لمن كتاب وصلت
ملطفة الشيخ فالطفت لفائل
برده * ووجه بصبغ الارتياح
ورده * بخبر سلامته التى
نسيمها أندى نسيم الجنان
والوسيلة الى السلوان (وله)
فصل كيف لا أعتد بصنع
الله لى فى خليل ودّه * وعقد
عهده * وقد قبلنى فى الله أخا
بين عز الاخاء * وعدم بين
الاوداء الوفاء * وكاد
لا يصدق فى وجودهما رائد
ولا يطلع بهما مخيل ولا ناشد
واصبحت المصافاة مخايله
وبشائره * والمخالصة متكاثرة
ومتناصره * وقد كان المصافون
فى الله اقل من القليل
والاسلام عليه رونق
الشباب * وهو فى بردة
قشيبه * (وله) فصل من كتاب
كلامى فى مخاطبة الشيخ
... لا لانعكاس شعاع الناظر
... وردا القوارة ماء الغمام
... ساطر على المذهب الذى
... كره على بن الجهم فى صفة
... الفوارة
... على المزن ما أسبلت
... على الارض من صوب
... طاردا
...) فصل كان كل مجلس من

على تلك البلاد وعاد تنكز الى المؤيد صاحب نيسابور واشتغل بالغارة على بسطام وبلاد قومس

(ذكر عصيان غمارة بالغرب)

لما تحقق الناس موت عبد المؤمن سنة تسع وخمسين ثارت قبائل غمارة مع مفتاح بن عمرو وكان مقدما كبيرا وتبعوه بأجمعهم وامتنعوا فى جبالهم وهى معاقل مانعة وهم أمم جمة فجهز اليهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ومعه أخواه عمرو وعثمان فى جيش كبير من الموحدين والعرب وتقدموا اليهم فاقتتلوا سنة احدى وستين وخمسمائة فانهزمت غمارة وقتل منهم كثير وفيمن قتل مفتاح بن عمرو مقدمهم وجماعة من اعيانهم ومقدميهم وملكوا بلادهم عنوة وكان هنالك قبائل كثيرة يريدون الفتنة فانتظر واما يكون من غمارة فلما انتلوا اذلت تلك القبائل وانقادوا للطاعة ولم يبق متحرك لفتنة ومعصية فسكنت الدهماء فى جميع المغرب

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة أغار الامير محمد بن أنز على بلد الاسماعيلية بخراسان وأهلها غافلون فقتل منهم وغنم وأسر وسبى وأكثر وملأ أصحابه أيديهم من ذلك وفيها توفى ابو الفضل نصر بن خلف ملك سجستان وعمره اكثر من مائة سنة ومدة ملكه ثمانون سنة وملك بعده ابنه شمس الدين ابو الفتح احمد بن نصر وكان ابو الفضل ملكا عادلا عفيفا عن رعيته وله آثار حسنة فى نصرة السلطان سنجر فى غير موقف وفيها اخرج ملك الروم من القسطنطينية فى عساكر لا تحصى وقصد بلاد الاسلام التى بيد قلج أرسلان وابن دانشمند فاجتمع التركمان فى تلك البلاد فى جمع كبير فكانوا يغيرون على اطراف عسكره ليلا فاذا اصبح لا يرى أحدا وكثر القتل فى الروم حتى بلغت عدة القتلى عشرات ألوف فعاد الى القسطنطينية ولما عاد ملك المسلمون منه عدة حصون وفيها توفى الامام عمر الخوارزمى خطيب بلخ ومفتيها والقاضى أبو بكر المحمودى صاحب التصانيف والاشعار وله مقامات بالفارسية على نمط مقامات الحريرى بالعربية

(ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة)

(ذكر وفاة شاه مازندران وملك ابنه بعده)

فى هذه السنة ثامن ربيع الاول توفى شاه مازندران رستم بن على بن شهريار بن قارن ولما توفى كتم ابنه علاء الدين الحسن موته اياما حتى استولى على سائر الحصون والبلاد ثم أظهره فلما اظهر خبر وفاته أظهر ايناق صاحب جرجان ودهستان المنازعة لولده فى الملك ولم يرع حق أبيه عليه فانه لم يزل يذب عنه ويحميه اذا التجأ اليه ولكن الملك عقيم ولم يحصل من منازعته على شئ غير سوء السمعة وقبح الاحدوثة

(ذكر حصر عسكر المؤيد نسا ورحيلهم عنها)

كان المؤيد قد سير جيشا الى مدينة نسا فحصروها الى جمادى الاولى فى هذه السنة فسير خوارزمشاه بن أرسلان بن اتسز جيشا الى نسا فلما قاربوها رحل عنها عسكر المؤيد وعادوا الى نيسابور اواخر جمادى الاولى وسار عسكر المؤيد الى عسكر خوارزم لانهم توجهوا الى نيسابور فتقدم العسكر المؤيدى ليردوهم عنها فلما سمع العسكر الخوارزمى بهم عاد عنهم وصار صاحب نسا فى طاعة خوارزمشاه والخطبة له فيها وسار عسكر خوارزم الى دهستان

مجالسه للأنس نزوقاه وللازديار مشوقاه فكان حريا مظنما * موقدا مطافئا * ومما انشدت له من قلائد شعره وانه كانت كالحصى تفصيلا * تجل عن الاحصاء جملة وتفصيلا * قوله

ربما اصر الصديق المقل
عن حقوق بمن لا يستقل

وانى قل نائل فصفاء
فى وداد وخلة لا يقل

أرخ سترا على حقارة برى
هتك ستر الصديق ليس يحل

وقوله

قالوا ترفق فى الامور فانه
نجح وحرى الدر بالابساس

ولقد رفقت فما حصلت بطائل
ما ينفع الابساس بالاتياس

وقوله

واخلاق كاطراف الزجاج
رفقت بمن رفقك بالزجاج

الى ان عدن لى زيدا بشهد
كذلك تكون عاقبة العلاج

وقوله فى مرثية أبى سليمان الخطابى

انظروا كيف تخمد الانوار
انظروا كيف تسقط الاقمار

هكذا هكذا تزول الرواسى
هكذا فى الثرى تغيض البحار

أحمد الدين والمروأة والفضل
رمته بسهمها الاقدار

مات من لم يكن لدنياه فيك
بحياه ولا عليه اقتدار

فالتجأ صاحبها الامير اينانج الى المؤيد صاحب نيسابور بعد تمكن الوحشة بينهما فقبله المؤيد أحسن قبول وسير اليه جيشا كثيفا فاقاموا عنده حتى دفع الضرر عن نفسه وبلده من جهة طبرستان وأما دهستان فان عسكر خوارزم غلبوا عليها وصار لهم فيها شحنة

•(ذكر استيلاء المؤيد على هراة)•

قد ذكرنا قتل صاحب هراة سنة تسع وخمسين فلما قتل تجهز الامراء الغزية وساروا الى هراة وحصروها وقد ولي أمرها انسان يلقب أثير الدين وكان له ميل الى الغز وهو يعاديهم ظاهرا ويراسلهم باطنا فهلك بهذا السبب خلق كثير من أهل هراة فاجتمع اليها أهلها فقتلوه وقام مقامه أبو الفتوح بن علي بن فضل الله الطغرائي فأرسل أهلها الى المؤيد أي أبه صاحب نيسابور بالطاعة والانقياد اليه فسير اليهم مملوكه سيف الدين تنكز في جيش وسير جيشا آخر أغاروا على سرخس ومرو فأخذوا دواب الغز وعادوا سالمين فلما سمع الغز بذلك رحلوا عن هراة الى مرو

•(ذكر الحرب بين قلج ارسلان وبين ابن الدانشمند)•

في هذه السنة كانت الفتنة بين الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وما يجاورها من بلد الروم وبين ياغي أرسلان بن دانشمند صاحب ملطية وما يجاورها من بلد الروم وجرى بينهما حرب شديدة وسببها ان قلج أرسلان تزوج ابنة الملك صلتق بن علي بن أبي القاسم فسيرت الزوجة الى قلج أرسلان مع جهاز كثير لا يعلم قدره وأغار ياغي صاحب ملطية عليه وأخذ العروس وما معها وأراد أن يزوجها بابن أخيه ذي النون بن محمد بن دانشمند فأمرها بالردة عن الاسلام فتزوجها من ابن أخيه فجمع قلج أرسلان عسكره وسار الى ابن دانشمند فالتقيا واقتتلا فانهزم قلج أرسلان والتجأ الى ملك الروم واستنصره فأرسل اليه جيشا كثيرا فمات ياغي أرسلان بن دانشمند في تلك الايام وملك قلج ارسلان بعض بلاده واصطلح هو والملك ابراهيم بن محمد بن دانشمند لانه ملك البلاد بعد عمه ياغي أرسلان واستولى ذو النون ابن محمد بن دانشمند على مدينة قيسارية وملك شاهانشاه بن مسعود أخو قلج أرسلان على مدينة انكورية واستقرت القواعد بينهم واتفقوا

•(ذكر الفتنة بين نور الدين وقلج أرسلان)•

في هذه السنة كانت وحشة متأكدة بين نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وبين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان صاحب الروم أدت الى الحرب والتضاغن فلما بلغ خبرها الى مصر كتب الصالح بن رزيك وزير صاحب مصر الى قلج أرسلان ينهاه عن ذلك ويأمره بموافقته وكتب فيه شعرا

تقول ولكن اين من يتفهم • ويعلم وجه الرأي والرأي مبهم
وما كل من قاس الامور وساسها • يوفق للامر الذي هو أحزم
وما احد في الملك يبقى مخلدا • وما احد مما قضى الله يسلم
أمن بعد ما ذاق العدا طعم حربكم • بفيهم وكانت وهي صاب وعلقم
رجعتم الى حكم التنافس بينكم • وفيكم من الشحناء نار تضرم
أما عندكم من يتقي الله وحده • أما في رعاياكم من الناس مسلم

أبا القاسم استعبدت وذي بنائل
ثلاه بلا من لبرك طارف
واضعفت شكري حين ضاعفت أنعما
وقد يضعف النبت الندى المتضاعف
أتاني كتاب منك فيه طرائف
تقبل من اطرافهن الطرائف
صحيفة احسان تخر لسنها
سجودا اذا ما لاح فيها الصحائف
فواصلني منها شباب مساعد
وطالعني منها زمان مساعف
وأصبح دهري عادلا وهو عاسف
وعادت رياه ريحه وهو عاصف
ومن أعيان رعايا السامان بناحية طوس وان كانت نيسابور دار قراره • ومعتقد ضياعه وعقاره • أبو جعفر محمد بن موسى بن أحمد بن القاسم بن حمزة بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم اجمعين
نسب كأن عليه من شمس الضحى
نورا ومن فلق الصباح عمودا
وقد خدم ملوك آل سامان وعاشر وزراءهم وكتابهم والتقط محاسنهم وآدابهم فالفاظه ينابيع العلوم • وأقواله مراسيح العقول • ومجالسه حدائق الجد والهزل تعالوا

تعالوا العمل الله ينصر دينه * اذا ما نصرنا الدين نحن وانتم

وننهض نحو الكافرين بعزمة * بامثالها تحوى البلاد وتقسم

وهى أطول من هذا هكذا ذكر بعض العلماء هذه الحادثة وان الصالح ارسل بهذا الشعر فان كان الشعر للصالح فينبغى أن تكون الحادثة قبل هذا التاريخ ويحتمل ان يكون هذا التنافس كان أيام الصالح فكتب الابيات ثم امتد الى الآن

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى صفر وقع باصفهان فتنة عظيمة بين صدر الدين عبد اللطيف ابن الخجندى وغيره من اصحاب المذاهب بسبب التعصب للمذاهب فدام القتال بين الطائفتين ثمانية ايام متتابعة قتل فيها خلق كثير واحترق وهدم كثير من الدور والاسواق ثم افترقوا على أقبح صورة وفيها بنى الاسماعيلية قلعة بالقرب من قزوين فقيل لشمس الدين ايلدكز عنها فلم يكن له انكار لهذه الحال خوفا من شرهم وغائلتهم فتقدموا بعد ذلك الى قزوين فحصروها وقاتلهم أهلها أشد قتال رآه الناس وحكى لى بعض اصدقائنا من مشايخنا من الائمة الفضلاء قال كنت بقزوين اشتغل بالعلم وكان بها انسان يقود جمعا كبيرا وكان موصوفا بالشجاعة وله عصابة حمراء اذا قاتل عصب بها رأسه قال فكنت احبه واشتهى الجلوس معه قال فبينما انا عنده يوما واذا هو يقول كانى بالملاحدة وقد قصدوا البلد غدا فخرجنا اليهم وقاتلناهم فكنت اول الناس وانا متعصب بهذه العصابة فقاتلناهم فلم يقتل غيرى ثم ترجع الملاحدة ويرجع اهل البلد قال فوالله لما كان الغد اذ قد وقع الصوت بوصول الملاحدة فخرج الناس قال فذكرت قول الرجل فخرجت والله وليس لى همة الا انى انظر هل يصح ما قال ام لا قال فلم يكن الا قليل حتى عاد الناس وهو محمول على ايديهم قتيلا بعصابته الحمراء وذكروا انه لم يقتل بينهم غيره فبقيت متعجبا من قوله كيف صح ولم يتغير منه شئ ومن اين له هذا اليقين ولما حكى لى هذه الحكاية لم اسأله عن تاريخها وانما كان فى هذه المدة فى تلك البلاد فلهذا اثبتها هذه السنة على الظن والتخمين وفيها قبض المؤيد اى ابه صاحب نيسابور على وزيره ضياء الملك محمد بن أبى طالب سعد بن أبى القاسم محمود الرازى وحبسه واستوزر بعده نصير الدين ابا بكر محمد بن ابى نصر محمد المستوفى وهو من اعيان الدولة السنجرية وفى هذه السنة وردت الاخبار ان الناس حجوا سنة تسع وخمسين واقواشدة وانقطع منهم خلق كثير فى فيد والثعلبية وواقصة وغيرها وهلك كثير ولم يمض الحجاج الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم لهذه الاسباب واشتد الغلاء فيها وعدم ما يقتات ووقع الوباء فى البادية وهلك منهم عالم لا يحصون وهلكت مواشيهم وكانت الاسعار بمكة غالية وفيها فى صفر قبض المستنجد بالله على الامير توبة بن العقيلى وكان قد قرب منه قربا عظيما بحيث يخلو معه واحبه المستنجد محبة كثيرة فحسده الوزير ابن هبيرة فوضع كتبا من العجم مع قوم وامرهم ان يتعرضوا فيؤخذوا ففعلوا ذلك واخذوا واحضروا عند الخليفة فاظهروا الكتب بعد الامتناع الشديد فلما وقف الخليفة عليها خرج الى نهر الملك يتصيد وكانت حلل توبة على الفرات فحضر عنده فامر بالقبض عليه فقبض وادخل بغداد ذليلا وحبس فكان آخر العهد به فلم يمتع الوزير بعده بالحياة بل مات بعد ثلاثة اشهر وكان توبة من اكمل العرب مروأة وعقلا وسخاء واجازة واجتمع فيه

وجوامع الكلام الفصل فلم تبق يتيمة خطاب * ولا كريمة صواب * ولا غرة حكمه * ولا درة نكته * ولا طرفة حكايه * ولا نقرة روايه * الا وهى عرضة خاطره ونهزة هاجسه * ونصب تذكره * ومثال تصوره * ولا تصدأ صفيحة حفظه * ولا تدرس صحيفة ذكره * ولا يكسف بدر معارفه * ولا ينزف بحر لطائفه * ثم هو واحد خراسان من بين الاشراف العلوية فى قوة الحال * وسعة المجال * واتساع رقعة الضياع * وارتفاع قدر الارتفاع * واشتداد باع العز وامتداد شعاع الجاه والقدر وقد كتبت عنه من نوادر الاخبار والاشعار ما حكيت بعضه فى كتابى الموسوم بلطائف الكتاب وسأورد الآن نكتا مما قاله وقيل فيه * ابانة عن غرر معاليه * فمن شعره قوله

وشادن وجهه بالحسن مخطوط

وخده بمداد الخال منقوط

تراه قد جمع الضدين فى قرن

فالخصر مختصر والردف مبسوط

لو كان أدركه لوط النبى لما

نهى الورى أبدا عن مثله لوط

من خلال الكمال ما تفرق في الناس وفيها في ربيع الاول توفي الشهاب محمود بن عبد العزيز الحامدي الهروي وزير السلطان ارسلان ووزير اتابك شمس الدين ايلدكز وفيها توفي عون الدين الوزير ابن هبيرة واسمه يحيى بن محمد بن المظفر وزير الخليفة وكان موته في جمادى الاولى ومولده سنة اسبعين واربعمائة ودفن بالمدرسة التي بناها الحنابلة بباب البصرة وكان حنبلي المذهب دينا خيرا عالما يسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم وله فيه التصانيف الحسنة وكان له رأي سديد ونافق على المقتفي نفاقا عظيما حتى ان المقتفي كان يقول لم يزر لبني العباس مثله ولما مات قبض على اولاده واهله وتوفي بها فيها السنة محمد بن سعيد البغدادي بالموصل وله شعر حسن فمن قوله

افدي الذي وكلني حبه * بطول اعلالي وامراضي
ولست ادري بعد ذا كله * اساخط مولاي ام راضي

وفيها توفي الشيخ الامام ابو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزي الشافعي تفقه على الفقيه الكيا الهراسي وكان واحد عصره في الفقه تاتيه الفتاوى من العراق وخراسان وسائر البلاد وهو من جزيرة ابن عمر

(ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة)

(ذكر فتح المنيطرة من الفرنج)

في هذه السنة فتح نور الدين محمود بن زنكي حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الفرنج ولم يحشد له ولا جمع عساكره وانما سار اليه جريدة على غرة منهم وعلم انه ان جمع العساكر حذروا فسار اليهم جريدة وانتهز الفرصة وحصره وجد في قتاله فاخذه عنوة وقهرا وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة فان الذين به كانوا آمنين فاخذهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون ولم يجتمع الفرنج لدفعه الا وقد ملكه ولو علموا انه جريدة في قلة من العساكر لاسرعوا اليه وانما ظنوا انه في جمع كثير فلما ملكه تفرقوا وايسوا من رده

(ذكر قتل خطلوبرس مقطع واسط)

في هذه السنة قتل خطلوبرس مقطع واسط قتله ابن اخي شملة صاحب خوزستان وسبب ذلك ان ابن شنكا وهو ابن اخي شملة كان قد صاهر منكبرس مقطع البصرة فاتفق ان المستنجد بالله قتل منكبرس سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما قتل قصد ابن شنكا البصرة ونهب قراها فارسل من بغداد الى كشتكين صاحب البصرة بمحاربة ابن شنكا فقال انا عامل لست بصاحب جيش يعني انه ضامن لا يقدر على اقامة عسكر فطمع ابن شنكا واصعد الى واسط ونهب سوادها فجمع خطلوبرس مقطعها جمعا وخرج الى قتاله وكاتب ابن شنكا الامراء الذين مع خطلوبرس فاستمالهم ثم قاتلهم فانهزم عسكره فقتل واخذ ابن شنكا علم خطلوبرس فنصبه فلما رآه اصحابه ظنوه باقيا فجاءوا يعودون اليه وكل من رجع اخذه ابن شنكا فقتله او اسره

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة خرج الكرج في جمع كثير واغاروا على بلاد ... حتى بلغوا كنجة فقتلوا واسروا وسبوا كثيرا ونهبوا ما لا يحصى وفيها توفي الحسن بن العباس بن رستم ابو عبد الله الاصفهاني

وقوله
قد بت غزالي فاه وملكي حقيقة
يلذ به عيشي اذا ما بقي هم
بجيل محياه وكادعص ردفه
لطيف محياه ولبس لمخصر
(ومنه) يقول حال الجاهل في التدبير * كحال الحير* ماله اهمية غير اعتلاف التبن * واتيان الاتن *
(وبرقى) حديث الوقود والشمس في الشتاء فقال مرعى ولا كالسعدان هيهات ان تقع الام الرابة من الام البارة *يعني ان الوقود يلفح ما يقابل البدن بشرره * ويدع سائره على خصره * واما الشمس فانها تقسم الدفء على البدن بالسواء ويشترك فيه ظاهر الاعضاء * وباطن الاحشاء * وقد اكثر الشعراء والادباء فيه فمن ذلك قول ابي الفتح البستي
انا السيد الشريف غلام
حيثما كان فليبلغ سلامي
واذا كنت للشريف غلاما
فانا الحر والزمان غلامي
(ولابي الفضل) احمد بن الحسين الهمذاني المعروف ببديع الزمان
أناني اعتقادي للتسنن
رافضي في ولائك
وان اشتغلت بهم فلا
* فلست اغفل عن اولئك

الرستمي الشيخ الصالح وهو مشهور يروى عن أحمد بن خلف وغيره وفيها في ربيع الآخر توفي الشيخ عبد القادر بن ابي صالح أبو محمد الجيلي المقيم ببغداد ومولده سنة سبعين واربعمائة وكان من الصلاح على حال وهو حنبلي المذهب ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد

(ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة)

(ذكر عود اسد الدين شيركوه الى مصر)

قد ذكرنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة مسير اسد الدين شيركوه الى مصر وما كان منه وعوده الى الشام فلما وصل الى الشام أقام على حاله في خدمة نور الدين الى الآن وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها و بقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير فلما كان هذه السنة تجهز وسار في ربيع الآخر في جيش قوي وسير معه نور الدين جماعة من الامراء فبلغت عدتهم الفي فارس وكان كارها لذلك ولكن لما رأى جد أسد الدين في المسير لم يمكنه الا ان يسير معه جمعا خوفا من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام فلما اجتمع معه عسكره سار الى مصر على البر وترك بلاد الفرنج على يمينه فوصل الديار المصرية فقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربي ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف في البلاد الغربية وحكم عليها واقام نيفا وخمسين يوما وكان شاور لما بلغه مجيء اسد الدين اليهم قد ارسل الى الفرنج يستنجدهم فاتوه على الصعب والذلول طمعا في ملكها وخوفا ان يملكها اسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربي وكان اسد الدين وعساكره قد ساروا الى الصعيد فبلغ مكانا يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه فادركوه بها في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان ارسل الى المصريين والفرنج جواسيس فعادوا اليه واخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم في طلبه فعزم على قتالهم الا انه خاف من اصحابه ان تضعف نفوسهم عن القتال في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه اقرب من سلامتهم لقلة عددهم وبعدهم عن اوطانهم وبلادهم وخطر الطريق فاستشارهم فكلهم اشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقي والعود الى الشام وقالوا ان نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على الظن فالى اين نلتجئ وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا فقام امير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب شقيف وكان شجاعا وقال من يخاف القتل والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته والله ان عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن ما لنا من اقطاع وجامكية وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا ويقول تاخذون اموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر الى الكفار والحق بيده فقال اسد الدين هذا الرأي وبه اعمل وقال ابن اخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال فاقام بمكانه حتى ادركه المصريون والفرنج وهو على تعبية وجعل الاثقال في القلب يتكثر بها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فينهبها اهل البلاد وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولمن معه ان المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظنا منهم اني فيه فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين ايديهم فاذا عادوا عنكم

يا عقد منتظم النبوة
بيت تحتلف الملائك
يا ابن القواطم والعواتك
والترائك والارائك
أنا حائك ان لم أكن
عبد العبيد لك وابن حائك
(ولبعض أهل العصر فيه)
عيد البرية عيد المهرجان أتى
أهلا بعيد أتى عيدا يهنيه
العيد لا ثوى يبقى الى امد
وعيدنا دائم الايام باقيه
لا زال سيدنا في ظل دولته
وظله دائما يمسي يواليه
محكما في رقاب الارض قدرته
يجني له ثمر الاقبال جانيه
أعشاره المجد والبشرى
جلائبه
خراجه الدهر والدنيا
جواليه
و بني بنيسابور دارا فتنافس
أهل العصر في ذكرها *
ووصف شرفها وسناها *
فمن ذلك قول البديع
الهمذاني
دار قسمت عراصها
تحكي الاباطح والرصافه
بين المروأة والنبوة
والخلافة والضيافه
فيها المصاحف والمعا * زف
والسوالف والسلافه
لا زلت يا دار الكرا * م
مصونة عن كل آفه
(وفيها لابي عبد الله الغواص)
يا دار سعد قد علت شرفاتها
بنيت شبيهة قبلة للناس

فارجعوا في أعقابهم واختار هو من شجعان عسكره جماعة يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ووقفهم في الميمنة فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين وتبعهم الفرنج فحمل حينئذ اسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فاثخن واكثر القتل والاسر فلما عاد الفرنج من اثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوما والارض منهم قفرا فانهزموا ايضا وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ان الفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل

(ذكر ملك اسد الدين الاسكندرية وعوده الى الشام)

لما انهزم المصريون والفرنج من اسد الدين بالبابين سار الى ثغر الاسكندرية وجبى ما في القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من اهلها سلموها اليه فاستناب بها صلاح الدين ابن اخيه وعاد الى الصعيد فملكه وجبى امواله واقام به حتى صام رمضان واما المصريون والفرنج فانهم عادوا واجتمعوا على القاهرة واصلحوا حال عساكرهم وجمعوا وساروا الى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد الحصار وقل الطعام على من بها فصبر أهلها على ذلك وسار أسد الدين من الصعيد اليهم وكان شاور قد افسد بعض من معه من التركمان فوصل رسل الفرنج والمصريين يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما اخذه من البلاد فاجابهم الى ذلك وشرط على الفرنج ان لا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة فاجابوا الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية في نصف شوال ووصل شيركوه الى دمشق ثامن عشر ذي القعدة واما الفرنج فانهم استقر بينهم وبين المصريين ان يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار هذا كله استقر مع شاور فان العاضد لم يكن له معه حكم لانه قد حجر عليه وحجبه عن الامور كلها وعاد الفرنج الى بلادهم بالساحل الشامي وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور قد ارسل الى نور الدين مع بعض الامراء ينهي محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته وضمن على نفسه انه يفعل هذا ويبذل مالا يحمله كل سنة فاجابه الى ذلك وحمل اليه مالا جزيلا فبقي الامر على ذلك الى ان قصد الفرنج مصر سنة اربع وستين وخمسمائة فكان ما نذكره هناك ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك نور الدين صافيتا وعريمة)

في هذه السنة جمع نور الدين العساكر فسار اليه اخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا على حمص فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج فاجتازوا على حصن الاكراد فاغاروا ونهبوا وقصدوا عرقة فنازلوها وحصروها وحصروا حلبة واخذوها وخربوها وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرب البلاد وفتحوا العريمة وصافيتا وعادوا الى حمص فصاموا بها رمضان ثم ساروا الى بانياس وقصدوا حصن هونين وهو للفرنج ايضا من امنع حصونهم ومعاقلهم فانهزم الفرنج عنه واحرقوه فوصل نور الدين من الغد فهدم سوره جميعه واراد

الدخول

لوروده قفا ولكشف ملمة
او بذل مال او ادارة كاس
(ومن أعيان نجوم الدولة أبو نصر) أحمد بن محمد بن عبد الصمد الشيرازي الكاتب ابن الكاتب والثاقب ابن الثاقب * والبحر ابن السحاب * والبدر ابن الشهاب * والنار التي لا يخمدها المآخذ كاه * والسيف الذي لا يبالي القراب مضاء * والسعد الذي يلي وتد السماء كاه * فعطارد تلميذ افادته * والمشتري مشتري سعادته * وثاقب النجم عبد دهائه * وشارق الشمس خادم سنائه وروائه * خدم أبوه أبو طاهر حسام الدولة أبا العباس تاشا على ديوان أسراره بارعا في الصناعه * متعاليا في البراعه * مخلوقا لفصل القول * مرموقا بعين الطول * يناضل الصاحب اسمعيل بن عباد فيخرق عليه قرطاس الادب ويساجله فيملأ الدلو الى عقد الكرب * مصعب لا المصعب يضاهيه * ولا الموصلي يباهيه * ولا الفارسي يدانيه * ولا اليسعي يسعى بعض مساعيه * يجانس أنجم الشعرى نثره * ويشاكل شعرى الحرب شعره

(فمما بلغني عنه قوله)
بحسام دولته وصاحب جيشه وحاجب سدته أبي العباس واراد الله سعادة هذا الفاضل فهداه نهج أبيه وعداه موقف التشبيه فنماءه نمو الاشاء * على طيب التربة والماء * ليس نمو القامة والضخامة لكن نمو هلال الظلم * وشبوب النار فوق العلم * وصفاء الجوهر شوما على القدم * واختص بخدمة الامير الجليل أبي سعيد التونتاش خوارزمشاه انه هو تاج الحجاب * وناظر عين الباب * فأعداه عنه حتى لبس الملك فضفاضا وغنى عن السواد وان كان عليه بياضا * وانتقل بانتقاله عن سمت الكتابه * الى رتبة الوزارة * وعن حضيض الخدمه الى يفاع الشركه في الاماره فلم يشركه من أبناء جنسه في البلاغة اثنان * وساد حتى أعيا من عبد المدان مدان فما وقع الي من سحر قلمه * وحر كلمه * من كتاب خاطب به بعض اخوانه لعل الدهقان * يظنني أو رمح مساعدة الزمان * مباعدة الاخوان * وارضى من صدر الوزاره * بقلب كالحجاره * فلم يزل يلي المراتب

الدخول الى بيروت فتجدد في العسكر خلف اوجب التفرق فعاد قطب الدين الى الموصل واعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات وكانت له فاخذها في طريقه وعاد الى الموصل

(ذكر قصد ابن شنكا البصرة)

في هذه السنة عاود ابن شنكا قصد البصرة ونهب بلدها وخربه من الجهة الشرقية وسار الى مطارا فخرج اليه كشتكين صاحب البصرة وواقعه فاجتمع بشرف الدين ابي جعفر بن البلدي الناظر فيها ومعهما مقطعها ارغش واتصلت الاخبار بان ابن شنكا واصل الى واسط فخاف الناس منه خوفا شديدا فلم يصل اليها

(ذكر قصد شملة العراق)

في هذه السنة وصل شملة صاحب خوزستان الى قلعة الماهكي من اعمال بغداد وارسل الى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيأ من البلاد ويشتط في الطلب فسير الخليفة اكثر عساكره اليه ليمنعوه وارسل اليه يوسف الدمشقي يلومه ويحذره عاقبة فعله فاعتذر بان ايلدكز والسلطان ارسلان شاه اقطعا الملك الذي عنده وهو ولد ملكشاه البصرة وواسط وعرض التوقيع بذلك وقال انا اقنع بثلث ذلك فعاد الدمشقي بذلك فامر الخليفة بلعنه وانه من الخوارج وجمعت العساكر وسيرت الى ارغش المسترشدي وكان بالنعمانية هو وشرف الدين ابو جعفر ابن البلدي ناظر واسط مقابل شملة ثم ان شملة ارسل قلج ابن اخيه في طائفة من العسكر لقتال طائفة من الاكراد فركب ارغش في بعض العسكر الذي عنده وسار الى قلج فحاربه فاسر قلج وبعض اصحابه وسيرهم الى بغداد وبلغ شملة وطلب الصلح فلم تقع الاجابة اليه ثم ان ارغش سقط عن فرسه بعد الوقعة فمات وبقي شملة مقيما مقابل عسكر الخليفة فلما علم انه لا قدرة له عليهم رحل وعاد الى بلاده وكانت مدة سفره اربعة اشهر

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة عصى غازي ابن حسان المنبجي على نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وكان نور الدين قد اقطعه مدينة منبج فامتنع عليه فيها فسير اليه عسكرا فحصروه واخذوها منه واقطعها نور الدين اخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عادلا خيرا محسنا الى الرعية جميل السيرة فبقي فيها الى ان اخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وفيها توفي فخر الدين ارسلان بن داود بن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا وكرتبرت ديار بكر ولما اشتد مرضه ارسل الى نور الدين محمود صاحب الشام يقول له بيننا صحبة في جهاد الكفار اريد ان ترعى بها اولادي ثم توفي وملك بعده ولده محمد فقام نور الدين الشامي بنصرته والذب عنه بحيث ان اخاه قطب الدين مودودا صاحب الموصل اراد قصد بلاده فارسل اليه اخوه نور الدين ينهاه ويقول له ان قصدته او تعرضت الى بلاده منعتك قهرا فامتنع من قصده وفيها توفي أبو المعالي محمد بن الحسين بن حمدون الكاتب ببغداد وكان على ديوان الزمام فقبض عليه فمات محبوسا وفيها توفي قايماز المسترشدي والد الامير يزدن وهو من اكابر الامراء ببغداد

(ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة)

(ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين في البلاد)

في هذه السنة فارق زين الدين علي بن بكتكين النائب عن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل خدمة صاحبه بالموصل وسار الى اربل وكان هو الحاكم في الدولة واكثر البلاد بيده منها اربل وفيه بيته وأولاده وخزائنه ومنها شهرزور وجميع القلاع التي معها وجميع بلد الهكارية وقلاعه منه العمادية وغيرها وبلد الحميدية وتكريت وسنجار وحران وقلعة الموصل هو بها وكان قد اصابه طرش وعمى أيضا فلما عزم على مفارقة الموصل الى بيته باربل سلم جميع ما كان بيده من البلاد الى قطب الدين مودود وبقي معه اربل حسب وكان شجاعا عاقلا حسن السيرة سليم القلب ميمون النقيبة لم ينهزم من حرب قط وكان كريما كثير العطاء للجند وغيرهم مدحه الحيص بيص بقصيدة فلما أراد ان ينشد قال أنا لا أعرف ما يقول ولكني اعلم انه يريد شيأ فامر له بخمسمائة دينار وفرس وخلعة مجموع ذلك ألف دينار ولم يزل باربل الى ان مات بها في هذه السنة ولما فارق زين الدين قلعة الموصل سلمها قطب الدين الى فخر الدين عبد المسيح وحكمه في البلاد فعمر القلعة وكانت خرابا لان زين الدين كان قليل الالتفات الى العمارة وسار عبد المسيح سيرة شديدة وسياسة عظيمة وهو خصي أبيض من مماليك زنكي اتابك عماد الدين

•(ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة)•

في هذه السنة ارسل آقسنقر الاحمديلي صاحب مراغة الى بغداد يسأل ان يخطب للملك الذي هو عنده وهو ولد السلطان محمد شاه و يبذل انه لا يطأ أرض العراق ولا يطلب شيأ غير ذلك وبذل مالا يحمله اذا اجيب الى ما التمسه فاجيب بتطييب قلبه وبلغ الخبر ايلدكز صاحب البلاد فساءه ذلك وجهز عسكرا كثيفا وجعل المقدم عليهم ابنه البهلوان وسيرهم الى آقسنقر فوقعت بينهم حرب اجلت عن هزيمة آقسنقر وتحصنه بمراغة ونازله البهلوان وحصره وضيق عليه ثم ترددت الرسل بينهم فاصطلحوا وعاد البهلوان الى ابيه بهمذان.

•(ذكر عدة حوادث)•

في هذه السنة استوزر الخليفة المستنجد بالله شرف الدين ابا جعفر احمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي وكان ناظرا بواسط ابان في ولايته عن كفاية عظيمة فاحضره الخليفة واستوزره وكان عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء قد تحكم تحكما عظيما فتقدم الخليفة الى ابن البلدي بكف يده وايدي أهله واصحابه ففعل ذلك ووكل بتاج الدين أخي استاذ الدار وطالبه بحساب نهر الملك لانه كان يتولاه من ايام المقتفي وكذلك فعل بغيره فحصل بذلك اموالا جمة وخاف استاذ الدار على نفسه فحمل مالا كثيرا وفي هذه السنة توفي عبد الكريم بن محمد بن منصور ابو سعيد بن ابي المظفر السمعاني المروزي الفقيه الشافعي وكان مكثرا من سماع الحديث سافر في طلبه وسمع منه ما لم يسمعه غيره ورحل الى ما وراء النهر وخراسان دفعات ودخل الى بلد الجبل واصفهان والعراق والموصل والجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد وله التصانيف المشهورة منها ذيل تاريخ بغداد وتاريخ مدينة مرو وكتاب النسب وغير ذلك احسن فيها ما شاء وجمع مشيخته فزادت عدتهم على اربعة آلاف شيخ وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي فقطعه ومن جملة قوله فيه انه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به الى فوق نهر عيسى فيقول حدثني

خلالا للمقود • قطاعا للاوامر والعهود • كلا الى ما ازداد ارتفاعا • الا ازددت للصديق اتضاعا • ولا آثال على الايام رتبه • الا ازددت الى الاخوان قربه • غيري من يطلقه الزمان • ويبدله السلطان • ويذم عهده الاخوان • على أني ما نسيت عهد الرتباسيت • وقلعت اخية الوفاء دون من آنست • فلست أنسى عهده • ولا ارضى قطيعته وهجره • أني وقد قيدني باياديه الزهر • واسترقني بمعاليه الغر • فما ارى له بديلا • ولا املك عنه تحويلا • اعاذني الله مما بقيت من صدوده • ولا سلبني طيب الانس بعيشه وجوده • وهذا القدر على مبلغ القدرة دال • ولاميز البارع متى قصد الانصاف في المدح والتقريظ مجال • فهؤلاء اعيان رعايا السلطان في الفضل الواسع • والادب الجامع • ووراءهم من اعلام البراعه • واحداث الصناعه • من يضعف ذكرهم عن الغرض المقصود بهذا الكتاب ولم استقر اسامي المذكورين الانهم بالاضافة الى سائر اعيان البلاد • افراد

فلان بما وراء النهر وهذا بارد جدا فان الرجل سافر الى ما وراء النهر وسمع فى عامة بلاده من
عامة شيوخه فاى حاجة به الى هذا التدليس البارد وانما ذنبه عند ابن الجوزى انه شافعى
وله اسوة بغيره فان ابن الجوزى لم يبق على احد الا مكسرى الحنابلة وفيها توفى قاضى القضاة
ابو البركات جعفر بن عبد الواحد الثقفى فى جمادى الآخرة وفيها توفى يوسف الدمشقى مدرس
النظامية بخوزستان وكان قد سار رسولا الى شملة وفيها توفى الشيخ ابو النجيب السهروردى
الصوفى الفقيه وكان من الصالحين المشهورين ودفن ببغداد

(ثم دخلت سنة اربع وستين وخمسمائة)

(ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر)

فى هذه السنة ملك نور الدين محمود بن زنكى قلعة جعبر اخذها من صاحبها شهاب الدين مالك
بن على بن مالك العقيلى وكانت بيده وبيد آبائه من قبله من ايام السلطان ملكشاه وقد تقدم
ذكر ذلك وهى من أمنع القلاع واحصنها مطلة على الفرات من الجانب الشرقى واما سبب ملكها
فان صاحبها نزل منها يتصيد فاخذه بنو كلاب وحملوه الى نور الدين فى رجب سنة ثلاث وستين
فاعتقله واحسن اليه ورغبه فى الاقطاع والمال ليسلم اليه القلعة فلم يفعل فعدل الى الشدة
والعنف وتهدده فلم يفعل فسير اليها نور الدين عسكرا مقدمه الامير فخر الدين مسعود بن على
الزعفرانى فحصرها مدة فلم يظفر منها بشئ فامدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الامير مجد
الدين ابا بكر المعروف بابن الداية وهو رضيع نور الدين واكبر امرائه فحصرها ايضا فلم ير له فيها
مطمعا فسلك مع صاحبها طريق اللين واشار عليه ان يأخذ من نور الدين العوض ولا يخاطر
فى حفظها بنفسه فقبل قوله وسلمها فاخذ عنها سروج واعمالها والملاحة التى بين بلد حلب
وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة وهذا اقطاع عظيم جدا الا انه لا حصن فيه وهذا آخر
امر بنى مالك بالقلعة ولكل امر امد ولكل ولاية نهاية وبلغنى انه قيل لصاحبها ايما أحب اليك
واحسن مقاما سروج والشام أم القلعة فقال هذه اكثر مالا واما العز ففارقناه بالقلعة

(ذكر ملك اسد الدين مصر وقتل شاور)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار أسد الدين شيركوه بن شاذى الى ديار مصر فملكها ومعه
العساكر النورية وسبب ذلك ما ذكرناه من تمكن الفرنج من البلاد المصرية وانهم جعلوا لهم
فى القاهرة شحنة وتسلموا ابوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم واعيان فرسانهم وحكموا
على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالاذى العظيم فلما رأوا ذلك وان البلاد ليس فيها من يردهم
ارسلوا الى ملك الفرنج بالشام وهو مرى ولم يكن للفرنج مذ ظهروا بالشام مثله شجاعة ومكرا
ودهاء يستدعونه ليملكها واعلموه خلوها من موانع وهونوا امرها عليه فلم يجبهم فاجتمع اليه
فرسان الفرنج وذوو الرأى منهم واشاروا عليه بقصدها وتملكها فقال لهم الرأى عندى اننا
لا نقصدها ولا طعمة لنا فيها واموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين وان نحن قصدناها
لنملكها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلون دونها ويحملهم
الخوف منا على تسليمها الى نور الدين ولئن صار له فيها مثل اسد الدين فهو هلاك الفرنج
واجلاؤهم من أرض الشام فلم يقبلوا قوله وقالوا انها لا مانع فيها ولا حامى والى ان يتجهز

فى ارتفاع المراتب * واتساع المطارح والرغائب * واضطراب الصيت فى الآفاق * وصوغ الايادى قلائد الاعناق * (وسنعود) الى ذكر السلطان يمين الدولة وأمين الملة ووقائعه التى رضيتها حدود الظبات * وأسخطتها نفوس العداة * فنحكى كل وقعة الى وقعتها ويومها * ونلحق شرح حالها بقومها * الى ان نوفى الكلام حقه من الاشباع فى ذكر الحروب التى جرت بين السلطان يمين الدولة وامين الملة وبين ايلك الخان والله المستعان *

(ذكر غزوة بهاطية)

لما فرغ السلطان يمين الدولة وامين الملة من أمر سجستان وسكن له نابضها * وانجاب عنه عارضها * ارتاح لغزوة بهاطية بجر الجحافل مسومين بشعار الهداة التقاه * ورايات الحماة الكماة * حتى عبر سيحون من وراء الملتان الى مدينة بهاطية فالفاها ذات سور * تزل عن موازاتها اجنحة النسور * قد احاط بها خندق كالبحر المحيط فى الغور البعيد والعرض البسيط وهى مشحونة بملء الوهم من عدة وعديد * ومعمول من

عسكر نور الدين ويسير اليها فتكون ضن قد ملكناها وفرغنا من امرها وحينئذ تمنى نور الدين منا السلامة فسار معهم على كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون انهم يريدون قصد مدينة حصر فلما سمع نور الدين شرع ايضا يجمع عساكره وامرهم بالقدوم عليه وجد الفرنج فى السير الى مصر فقدموها ونازلوا مدينة بلبيس وملكوها قهرا مستهل صفر ونهبوها وقتلوا فيها واسروا وكان جماعة من اعيان المصريين قد كاتبوا الفرنج ووعدوهم النصرة عداوة منهم لشاور ومنهم ابن الخياط وابن فرجلة فقوى جنان الفرنج وساروا من بلبيس الى مصر فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها فخاف الناس منهم ان يفعلوا بهم كما فعلوا باهل بلبيس فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه فلو ان الفرنج احسنوا السيرة فى بلبيس ملكوا مصر والقاهرة ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك اى ما فعلوا ليقضى الله امرا كان مفعولا وامر شاور باحراق مدينة مصر تاسع صفر وامر اهلها بالانتقال منها الى القاهرة وان ينهب البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر اهلها وذهبت اموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم خوفا ان يملكها الفرنج فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوما وارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج وارسل فى الكتب شعور النساء وقال هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج فشرع فى تسيير الجيوش واما الفرنج فانهم اشتدوا فى حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هو المتولى للامر والعساكر والقتال فضاق به الامر وضعف عن ردهم فاخلد الى اعمال الحيلة فارسل الى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته له قديما وان هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد وانما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين فاجابه الى ذلك على ان يعطوه ألف ألف دينار مصرية يعجل البعض ويمهل بالبعض فاستقرت القاعدة على ذلك ورأى الفرنج ان البلاد قد امتنعت عليه وربما سلمت الى نور الدين فاجابوا كارهين وقالوا نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لا نبالى معها بنور الدين ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين فعجل لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريبا وجعل شاور يجمع لهم المال من اهل القاهرة ومصر فلم يتحصل له الا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار وسببه ان أهل مصر كانوا قد احترقت دورهم وما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرون على الاقوات فضلا عن الاقساط واما اهل القاهرة فالاغلب على أهلها الجند وغلمانهم فلهذا تعذرت عليهم الاموال وهم فى خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وان يكون اسد الدين مقيما عندهم فى عسكر واقطاعهم من البلاد المصرية ايضا خارجا عن الثلث الذى لهم وكان نور الدين لما وصله كتب العاضد بحلب ارسل الى اسد الدين يستدعيه اليه فخرج القاصد فى طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت اقطاعه وكان سبب وصوله ان كتب المصريين وصلته ايضا فى المعنى فسار ايضا الى نور الدين واجتمع به وعجب نور الدين من حضوره فى الحال وسره ذلك وتفاءل به وامر بالتجهيز الى مصر واعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير ذلك وحكمه فى العسكر والخزائن واختار من العسكر الفى فارس واخذ المال وجمع ستة آلاف

حديده وكل فيل كشيطان مريد • وعظتهم يوشد المعروف يجهر افا ستخفته العزة والغرور • بما حوته يده للبروز من وراء السور مهولا بأعداد رجاله • واستقاض افياله • ومتطاولا بباع الاقتدار فى قتاله • وحشا السلطان عليه نار الحرب ثلاثة أيام بلياليها يرميه بالصواعق • من ظبا السيوف البوارق • ويقذفه بالشهب اللوامع • من شبا الرماح الشوارع • وواصلها عليهم صبيحة الرابع • بضرب يطير الحواجب عن العيون • ويزيل القبائل عن الشؤون ورشق يدع الاجساد مناخل بل مناخر • فيدا انقبرت عروقها • وأعيت على السكر بثوقها • حتى اذا توجت الشمس هام النهار • أهاب بالشد على الكفار الفجار • فتجاوبت نغم التكبير استنزالا لنصر الله • وتنجزا لصادق وعد الله • وحمل أولياء الله • على ذوى الافك والشرك حملة كشفت صفوفهم • وارغمت بالذل أنوفهم • واقبل السلطان كالفحل المشق يضرب باليدين • ويقد الدراع بنصفين • ويسق

فارس وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل الى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس ممن مع اسد الدين عشرين دينارا معونة غير محسوبة من جامكيته واضاف الى اسد الدين جماعة اخرى من الامراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقى وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى وصلاح الدين يوسف ابن ايوب اخى شيركوه على كره منه وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيأ وهو شر لكم احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه وسيرد ذلك عند موت شيركوه ان شاء الله تعالى وسار اسد الدين شيركوه من رأس الماء مجدا منتصف ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الفرنج الى بلادهم بخفى حنين خائبين مما املوا وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك وامر بضرب البشائر فى البلاد وبث رسله فى الآفاق مبشرين بذلك فانه كان فتحا جديدا لمصر وحفظا لبلاد الشام وغيرها فاما اسد الدين فانه وصل الى القاهرة سابع جمادى الآخرة ودخل اليها واجتمع بالعاضد لدين الله وخلع عليه وعاد الى خيامه بالخلعة العاضدية وفرح به اهل مصر واجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لانه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم فلم يتجاسر على اظهار ما فى نفسه وشرع يماطل اسد الدين فى تقرير ما كان بذل لنور الدين من المال واقطاع الجند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى اسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه وما يعدهم الشيطان الا غرورا ثم انه عزم على ان يعمل دعوة يدعو اليها اسد الدين والامراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنج فنهاه ابنه الكامل وقال له والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن شيركوه فقال له ابوه والله لئن لم تفعل هذا لنقتلن جميعا فقال صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج فانه ليس بينك وبين عود الفرنج الا ان يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد الى نور الدين لم يرسل معه فارسا واحدا ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه ولما رأى العسكر النورى مطل شاور وخافوا شره فاتفق صلاح الدين يوسف بن ايوب وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور وفنهاهم اسد الدين فسكنوا وهم على ذلك العزم من قتله فاتفق ان شاور قصد عسكر اسد الدين على عادته فلم يجده فى الخيام كان قد مضى يزور قبر الشافعى رضى الله تعالى عنه فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك فى جمع من العسكر وخدموه واعلموه بان شيركوه فى زيارة قبر الامام الشافعى فقال نمضى اليه فساروا جميعا فسايره صلاح الدين وجرديك وألقوه الى الارض عن فرسه فهرب اصحابه عنه فاخذ اسيرا فلم يمكنهم قتله بغير امر اسد الدين فتوكلوا بحفظه وسيروا أعلموا اسد الدين فحضر ولم يمكنه الا اتمام ما عملوه وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فارسل الى اسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فقتل وارسل رأسه الى العاضد فى السابع عشر من ربيع الآخر ودخل اسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم امير المؤمنين يعنى العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق الناس عنه اليها فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور امير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة وهى التى كان

ظمأ الكفر من كؤس الحين * وملك عليهم فى تلك الشدة الواحدة عدة من القلل التى كان يعتقدها الكافر حصونا لقلبه * وبعدها سكونا لقالبه * وتماوج الفريقان فى غمار تلك الجملة بين نقف ينثر أدمغة الهام * وطعن ينزف حشاشة الاجسام * وأعلى الله راية السلطان * بل راية الدين والايمان * وأهب ريح النصر رخاء * وأعاد شدة العيش رخاء * فولى المشركون نحو المدينة اعتصاما بسورها * وانحصارا فى دورها * فأعجلهم الطلب عن الاحتياط وملك عليهم مداخل الحصار وتعاون افناء العسكر على سدم خنادقه * وهدم وثائقه تضافروا على تفسيح مضائقه وتفتيح مغالقه * وقد كان بجهرا حين غلت مراجل الحرب * واختلت مناجل الطعن والضرب * احس بالهون والعطب * وشام برق الويل والحرب * فاندس فى عصابة من رجالة رجاله للاحتجاز ببعض الغياض والاستناد الى شعف بعض تلك الجبال فسرب السلطان كوكبة من خواصه فى

فمع اشاور قل زلم امايقصد عليه واستقر في الامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع
واستعمل على الاعمال من يثق اليه من اصحابه واقطع البلاد لعساكره واما الكامل بن شاور
فانه لما قتل ابوه دخل القصر هو واخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم فكان شيركوه
يتأسف عليه كيف عدم لانه بلغه ما كان منه مع ابيه في منعه من قتل شيركوه وكان يقول
وددت انه بقي لاحسن اليه بجزاء لصنيعه

(ذكر وفاة اسد الدين شيركوه)

لما ثبت قدم اسد الدين وظن انه لم يبق له منازع اتاه اجله حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم
بغتة فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة اربع وستين وخمسمائة
وكانت ولايته شهرين وخمسة ايام واما ابتداء امره وسبب اتصاله بنور الدين فانه كان هو
واخوه نجم الدين ايوب ابنا شاذي من بلد دوين من اذربيجان واصلهما من الاكراد الروادية
وهذا القبيل هم اشرف الاكراد فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد فرأى
من نجم الدين عقلا ورأيا وحسن سيرة وكان اكبر من شيركوه فجعله مستحفظا لقلعة تكريت
وهي له فسار اليها ومعه اخوه شيركوه فلما انهزم اتابك الشهيد زنكي بن آقسنقر بالعراق من
قراجا الساقي على ما ذكرناه سنة ست وعشرين وخمسمائة وصل منهزما الى تكريت فخدمه نجم
الدين واقام له السفن فعبر دجلة هناك وتبعه اصحابه فاحسن ايوب صحبتهم وسيرهم ثم ان شيركوه
قتل انسانا بتكريت للاحنة جرت بينهما فاخرجهما بهروز من القلعة فسارا الى الشهيد
زنكي فاحسن اليهما وعرف لهما خدمتهما واقطعهما اقطاعا حسنا فلما ملك قلعة بعلبك جعل
ايوب مستحفظا بها فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق بعلبك وهو بها فضاق عليه الامر
وكان سيف الدين غازي بن زنكي مشغولا عنه باصلاح البلاد فاضطر الى تسليمها اليهم فسلمها
على اقطاع ذكره فاجيب الى ذلك وصار من اكبر الامراء بدمشق واتصل اخوه اسد الدين
شيركوه بنور الدين محمود بعد قتل زنكي وكان يخدمه في ايام والده فقربه وقدمه ورأى منه
شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره فلما
اراد نور الدين ملك دمشق امره فراسل اخاه ايوب وهو بها وطلب منه المساعدة على فتحها
فاجاب الى ذلك على ما يريده منه على اقطاع ذكره له ولاخيه وقرى يتملكانها فاعطاهما ما طلبا
وفتح دمشق على ما ذكرناه ووفى لهما وصارا اعظم امراء دولته فلما اراد ان يرسل العساكر
الى مصر لم ير لهذا الامر العظيم والمقام الخطير غيره فارسله ففعل ما ذكرناه اولا وآخرا والله

(ذكر ملك صلاح الدين مصر)

لما توفي اسد الدين شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن اخيه ايوب بن شاذي قد سار معه على
كره منه للمسير حكى لي عنه بعض اصدقائنا ممن كان قريبا اليه خصيصا به قال لما وردت كتب
العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج ويطلب ارسال العساكر احضرني واعلمني الحال
وقال تمضي الى عمك اسد الدين بحمص مع رسولي اليه لتحضره وتحثه على الاسراع فما يحتمل
الامر التأخير ففعلت وخرجنا من حلب فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادما في هذا
المعنى فامره نور الدين بالمسير فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي الي فقال لي تجهز يا يوسف

واساطة
[illegible] الاعناق
وكسر [illegible] حدود البواتر
الرقاق فلما رأى بجهرا
ما دهاه عمد الى خضر في
خضره فهتك به حجاب
صدره وانتقل الى نار الله
الموقدة التي تطلع على
الافئدة جزاء لمن كان
كفر وتولى ووجد الاولى
ولا صام ولا صلى ولا سبح
ربه الاعلى ثم واقبل
عسكر السلطان فقتلوا
الجماعة [illegible] واغتنموا
الاموال الحاصلة ونص
السلطان مائة وعشرون
رأسا من الفيلة بعمارتها
من ذخائر الاموال والاسلحة
ملكا عز على غيره مناله
وملكا تطاول على حاله
[illegible] وقام بوساطته
الى ان ما رهامن الشماس
أولئك الارجاس وادناس
أولئك الانكاس ونصب
بهاما بعلم دولة الدين شق
الاسلام ثم كر الى غزنة موفور
العلاء منصور اللواء
عالي الرأى سائر المدد على
خط الاستواء الا انه
وافق منصرفه هوا في
امطار وطوامي انهار
وقوارع جبال وقوارع
انداد واقبال فاستغرق
الغرق جل اثقاله وشمل

فقلت والله لو اعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا انساه ابدا فقال لنور الدين لابد من مسيره معي فتأمره فامر نور الدين وانا استقيل وانقضى المجلس وتجهز اسد الدين ولم يبق غير المسير قال لي نور الدين لابد من مسيرك مع عمك فشكوت اليه الضائقة وعدم البرك فاعطاني ما تجهزت به فكانما اساق الى الموت فسرت معه وملكها ثم توفي فملكني الله تعالى ما لا كنت اطمع في بعضه واما كيفية ولايته فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم عين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع اصحابه ليغالب عليها فارسل العاضد الى صلاح الدين احضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وكان الذي حمله على ذلك ان اصحابه قالوا له ليس في الجماعة اضعف ولا اصغر سنا من يوسف والرأي أن يولى فانه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم الينا فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجه فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطعه احد من اولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم ولا خدموه وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع المشطوب حتى اماله اليه وقال له ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما ثم قصد الحارمي وقال هذا صلاح الدين هو ابن اختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر فلا تكن اول من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك فمال اليه ايضا ثم فعل مثل هذا بالباقين وكلهم اطاع غير عين الدولة الياروقي فانه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الى نور الدين بالشام ومعه غيره من الامراء وثبت قدم صلاح الدين ومع هذا فهو نائب عن نور الدين وكان نور الدين يكاتبه بالامير الاسفهسلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن ان يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الامير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال فمالوا اليه واحبوه وضعف امر العاضد ثم ارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله فارسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته وكلهم فعل ذلك واخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاها اهله والامراء الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطاعة قد اعتبرت التواريخ فرأيت كثيرا من التواريخ الاسلامية التي يمكن ضبطها ورأيت كثيرا من يبتدئ الملك تنتقل الدولة عن صلبه الى بعض اهله واقاربه منهم اول الاسلام معاوية بن ابي سفيان اول من ملك من اهل بيته فتنقل الملك من اعقابه الى بني مروان من بني عمه ثم من بعده السفاح اول من ملك من بني العباس انتقل الملك من اعقابه الى اخيه المنصور ثم السامانية اول من استبد منهم نصر بن احمد فانتقل الملك عنه الى اخيه اسمعيل بن احمد واعقابه ثم يعقوب الصفار وهو اول من ملك من اهل بيته فانتقل الملك الى اخيه عمرو واعقابه ثم عماد الدولة ابن بويه اول من ملك من اهله انتقل الملك عنه الى اخويه ركن الدولة ومعز الدولة ثم خلص في عقب ركن الدولة ومعز الدولة ثم خلص في اعقاب ركن الدولة ثم الدولة السلجوقية اول من ملك منهم طغرلبك انتقل الملك الى اولاد اخيه داود ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك الى اعقاب

التغرق جملة من رجاله * ووقاه الله تعالى آفة * تلك المسافة * ومهالك * تلك المسالك * وهو يتولى الصالحين وقد كان ابو الفتح علي بن محمد البستي يشكر حركات السلطان في نفسه في تلك المقاصد * برأي يستمليه من عطارد * وحقا لقد كان يقول * ما تشهد به العقول * ولكن اذا جاء بهرام * والسيف الحسام * والبطش والاقدام فقد سقط الكلام * وبطلت الصحائف والاقلام وانشد ابو الفتح البستي في هذا الباب لنفسه قوله

الا ابلغ السلطان عني نصيحة
يشيعها ودور أي محنك
تجاوزت اوج الشمس عزا ورفعة
وذللت قسرا كل من قد تملكوا
فاحركات متعبات تديمها
تأن فأوج الشمس لا يتحرك

وهذه مسئلة تتنازعها الاوائل فمنهم من يجعل لأوج الشمس حركة كسائر حركات الاوجات فاما المحققون فقد انكروه ببراهين هندسية * واشكال برهانية

اخيه ايوب ثم ان صلاح الدين لما انشأ الدولة وعظمها وصار كأنه اول لها انتقل الملك الى اعقاب اخيه العادل ولم يبق بيد اعقابه غير حلب وهذه اعظم الدول الاسلامية ولولا خوف التطويل لذكرنا كثيرا من هذا والذي اظنه السبب في ذلك ان الذي يكون اول دولة يكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فلهذا يحرمه الله اعقابه ومن يفعل ذلك من اجلهم عقوبة له

●(ذكر وقعة السودان بمصر)●

في هذه السنة في اوائل ذي القعدة قتل مؤتمن الخلافة وهو خصي كان بقصر العاضد اليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم الى البلاد والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع انسان يثقون اليه واقاموا ينتظرون جوابه وسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فلقيه انسان تركماني فرأى معه نعلين جديدين فاخذهما منه وقال في نفسه لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فانه رث الهيئة وارتاب به وبهما فأتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه وكان مقصود مؤتمن الخلافة ان يتحرك الفرنج الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها خرج صلاح الدين في العساكر الى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون باجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره والفرنج من بين يديه فلا يبقى لهم باقية فلما قرأ الكتاب سأل عن كاتبه فقيل رجل يهودي فاحضر فامر بضربه وتقريره فابتدأ واسلم واخبره الخبر واخفى صلاح الدين الحال واستشعر مؤتمن الخلافة فلازم القصر ولم يخرج منه خوفا واذا خرج لم يبعد من صلاح الدين وصلاح الدين لا يظهر له شيئا من الطلب لئلا ينكر ذلك فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له تعرف بالخرقانية للتنزه فلما علم به صلاح الدين ارسل اليه جماعة فاخذوه وقتلوه واتوا برأسه وعزل جميع الخدم الذين يتولون امر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصي ابيض وكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير الا بامره فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة الجنسية ولانه كان يتعصب لهم فحشدوا واجمعوا وازادت عدتهم على خمسين الفا وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر ايضا وقاتلوهم بين القصرين وكثر القتل في الفريقين فارسل صلاح الدين الى محلتهم المعروفة بالمنصورة فاحرقها على اموالهم واولادهم فلما اتاهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف واخذت عليهم افواه السكك فطلبوا الامان بعد ان كثر فيهم القتل فاجيبوا الى ذلك فاخرجوا من مصر الى الجيزة فعبر اليهم شمس الدولة اخو صلاح الدين الاكبر في طائفة من العسكر فابادهم بالسيف ولم يبق منهم الا القليل الشريد وكفى الله تعالى شرهم والله اعلم

●(ذكر ملك شملة فارس واخراجه عنها)●

في هذه السنة ملك شملة صاحب خوزستان بلاد فارس واخرج عنها وسبب ذلك ان زنكي بن دكلا صاحبها اساء السيرة مع عسكره فارسلوا الى شملة بخوزستان وحسنوا له قصد فارس فجمع عساكره وتجهز وسار اليها فخرج اليه زنكي بن دكلا ووقعت بينهم حرب تأخر فيها اصحاب زنكي عنه فانهزم في شرذمة من عسكره ونجا بنفسه وقصد الاكراد الشوانكار والتجأ اليهم

فاجاره

(ذكر غزوة الملتان) قد كان بلغ السلطان يمين الدولة وامين الملة حال والي الملتان ابي الفتوح في خبث نحلته ودخل دخلته وخبث اعتقاده • وقبح الحاده ودعائه الى مثل رأيه اهل بلاده • فانف للدين من مقارنته على فظاعة شره • وشناعة امره • واستخار الله تعالى الخائر في قصده لاستتابته • وتقديم حكم الله تعالى في الايقاع به • وامر بضم الاطراف وكفت الذيول • وجمع الخيول الى الخيول • وضوى اليه من مطوعة المسلمين من ختم الله لهم بصالح العمل • واكرمهم باحدى الحسنيين في الازل وثار بهم نحو الملتان عند موج الربيع بسيول الانواء • وبيع الانهار بفضول الانداء • وامتناع سيحون واخواتها على ركبها • واستصعاب متونها على اصحابها • فطلب السلطان الى انندبال عظيم الهند ان يطرق له في مملكته الى مقصده فتنع وتمرد • واخذته العزة بالاثم فابى وتشدد • ورأى السلطان غمرة الرأي في

فاجاره صاحبها واحسن ضيافته ونزل شملة ببلاد فارس فلكها فاساء السيرة الى اهلها ونهب ابن اخيه ابن شنكا البلاد فتغيرت بواطن اهلها عليه واجتمع الى زنكي بعض العسكر الذين خامر واعليه المار ذوامن سوء سيرة شملة واستعاد زنكي بلاده ورجع الى ملكه وعاد شملة الى بلاد خوزستان

(ذكر ملك ايلدكز الرى)

فى هذه السنة ملك ايلدكز مدينة الرى والبلاد التى كانت بيد اينانج وسبب ذلك ان ايلدكز كان قد استقر الامر بينه وبين اينانج على مال يؤديه الى ايلدكز فنعه سنتين فارسل ايلدكز يطلب المال فاعتذر بكثرة غلمانه وحاشيته فتجهز ايلدكز وقصد الرى فالتقاه اينانج وحاربه حربا عظيما فانهزم اينانج ومضى منهزما فتحصن بقلعة طبرك فحصرها ايلدكز فيها وراسل سرا جماعة من مماليكه فاطمعهم فى الاقطاعات والاموال والاحسان العظيم ليقتلوا اينانج فقتلوه وكانوا جماعة كثيرة وسلموا البلاد الى ايلدكز فرتب فيه عمر بن على ياغ وعاد الى همذان ولم يف للغلمان الذين قتلوا اينانج وسلموا البلد اليه بما وعدهم وقال مثل هؤلاء ينبغى ان لا يستخدموا وأبعدهم عنه فتفرقوا فى البلاد فسار بعضهم وهو الذى تولى قتله الى خوارزمشاه فصلبه خوارزمشاه نكالا لما فعل بصاحبه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة رؤى فى دار الخليفة رجل غريب فى الطريق التى يركب فيه وفى يده سكين صغيرة وفى يده الاخرى سكين كبيرة فاخذوه وقرروه فقال انا من حلب فحبس وعوقب البواب ولم يعلم من أين دخل وفيها قبض ابن البلدى وزير الخليفة على الحسين بن محمد المعروف بابن السيقى وعلى اخيه الاصغر وكانا ابنى عمة عضد الدين استاذ الدار وكان الاصغر عامل البيمارستان فقطعت يده ورجله قيل كان عنده صنج يقبض بها ويحمل الى الديوان بالصنج الصحيحة وقيل غير ذلك وحمل الى البيمارستان فمات به وكان شاعرا فمن شعره وهو محبوس هذه الابيات

سلام على اهلى وصحبى وجلاسى * ومن فى فؤادى ذكرهم راسب راسى
اعالج فيكم كل هم ولا أرى * لداءهم وى غير رؤيتكم آسى
لقد ابدت الايام لى كل شدة * تشيب لها الا كباد فضلا عن الراس
فيا ابنة عبد الله صبرا على الذى * لقيت فهذا الحكم من مالك الناس
فلو ابصرت عيناك ذلى بكيت لى * بدمع سوى بالمدامع رجاس
اقول لقلبى والهموم تنوشه * وقد حدثته النفس بالضر والباس
فلوهم طيف من خيالى يزوركم * لمانعه دون المغالق حراسى
وما حذرى الاعلى النفس لا على * سواها الانى حلف فقر وافلاس

وفيها توفى المعمر بن عبد الواحد بن رجا ابو احمد الاصفهانى الحافظ يروى عن اصحاب ابى نعيم وكان موته بالبادية ذاهبا الى الحج فى ذى القعدة وفى رجب منها توفى الشيخ ابو محمد الفارقى المتكلم على الناس وكان احد الزهاد له كرامات كثيرة وكان يتكلم على الخاطر وكلامه مجموع مشهور وفيها مات جعيفر الرقاص من ندماء دار الخلافة وفى شوال منها توفى القاضى ابو

دهمة ذلك الخطب ان يبدأ به * على عزة جانبه * فبذل صليبه * ويبيع غريفه * ويعزق لفه وافيفه جامعا بين غزوتين * وقاطفا جنى الجنتين * فبسط عليه ايدى القتل والايشاق * والنهب والارهاق * والهدم والاحراق * يلجئه من مضيق الى مضيق * وينقيه من طريق الى طريق * طاويا عليه بلاده طى التجار بحضرموت برودا الى ان ضجرت القنا من هنك حلق الدروع * وسكرت الظبا من رشف عاق الاحشاء والضلوع * وركب اثره فى اغوار دياره * واعماق رباعه * يتحسس دمات السهول وقضض الاماعز * ويقرى عليه وسوش الحق بين ضيق المداخل ورحب المفاوز * حتى اضرته تشمير ولما سمع ابو الفتوح والى الملتان بما جرى من امر عظيم الهند وهو الوجيه الرفيع * والسيد المنيع والسيف الصنيع * قاس باعه بشبره * وذراعه بفتره *

الحسن على بن يحيى القرشى الدمشقى وفى ذى الحجة توفى نجم الدين بن محمد بن على بن القاسم الشهرزورى قاضى الموصل وولى ابنه حجة الدين عبد القاهر القضاء

•(ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة)•

•(ذكر حصر الفرنج دمياط)•

فى هذه السنة فى صفر نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية وحصروها وكان الفرنج بالشام لما ملك اسد الدين شيركوه مصر قد خافوه وايقنوا بالهلاك وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والاندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك الاتراك مصر وانهم خائفون على البيت المقدس منهم فارسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة فامدوهم بالاموال والرجال والسلاح واتعدوا النزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به الديار المصرية فرد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا فلما أن دخلوا كان اسد الدين قد مات وملك صلاح الدين فاجتمعوا عليها وحصروها وضيقوا على من بها فارسل اليها صلاح الدين العساكر فى النيل وحشر فيها كل من عنده وامدهم بالاموال والسلاح والذخائر وارسل الى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول انى ان تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج وان سرت اليها خلفنى المصريون فى اهلها بالشر وخرجوا عن طاعتى وساروا فى اثرى والفرنج أمامى فلا يبقى لنا باقية فسير نور الدين العساكر اليه أرسالا يتلو بعضها بعضا ثم سار هو بنفسه الى بلاد الفرنج الشامية فنهبها وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من مانع فلما رأى الفرنج تتابع العساكر الى مصر ودخول نور الدين الى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا خائبين لم يظفروا بشئ ووجدوا بلادهم خرابا واهلها بين قتيل واسير فكانوا موضع المثل خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا اذنين وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما اخرج فيها صلاح الدين اموالا لا تحصى حكى انه قال ما رأيت اكرم من العاضد ارسل الى مدة مقام الفرنج على دمياط الف الف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها

•(ذكر حصر نور الدين الكرك)•

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة سار نور الدين الى بلد الفرنج فحصر الكرك وهو من امنع المعاقل على طرف البر وكان سبب ذلك ان صلاح الدين ارسل الى نور الدين يطلب ان يرسل اليه والده نجم الدين ايوب فجهزه نور الدين وسيره وسير معه عسكرا واجتمع معهم من التجار خلق كثير وانضاف اليهم من كان له مع صلاح الدين انس وصحبة فخاف نور الدين عليهم من الفرنج فسار فى عساكره الى الكرك فحصره وضيق عليه ونصب عليه المجانيق فاتاه الخبر ان الفرنج قد جمعوا له وساروا اليه وقد جعلوا فى مقدمتهم اليه ابن هنفرى وقريب بن الرقيق وهما فارسا الفرنج فى وقتهما فرحل نور الدين نحو هذين المقدمين ليلقاهما ومن معهما قبل ان يلحق بهما باقى الفرنج فلما قاربهم رجعا القهقرى واجتمعا بباقى الفرنج وسلك نور الدين وسط بلادهم ينهب ويحرق ما على طريقه من القرى الى ان وصل الى بلاد الاسلام فنزل على عشترا واقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم فاقام هو حتى اتاهم خبر الزلزلة الحادثة فرحل

واين ابن الحسن الكبال لا تنال بهضبات القور • او زرق البراة لا تنال بغاث الطيور • فصل نقل امواله على ظهور وقيلته الى سرنديب واخلى المتان للسلطان يفصل فيها ما يشاء فثنى العنان اليها • وتوجه اليها مستعينا بالله على من احدث فى دينه • وحدث بتوهينه • فاذا اهلها فى ضلالتهم يتخبطون • وفى طغيانهم يعمهون • يريدون ليطفؤا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون • فضرب عليهم بجران المحاصرة وكلكل المناجزة والمشاجرة جز الغلاصم • وبتكا للايدى من المعاصم • وارصاد الهم بالقاطرات القواصم • حتى افتتحها عنوة • وتصنها عقابا وسطوة والزمهم عشرين ألف ألف درهم يرحضون بها دنس استيصالهم • ويفدون من انفسهم جهنة استثمارهم وابادتهم • وعبر ذكرها آتاه الله من نصرة الدين • وآثار معالم اليقين عرض البحر الى ديارات مصر حتى درستها مقاماته التى لم يروها عن ذى القرنين • الى حيث

واما نجم الدين ايوب فانه وصل الى مصر سالما هو ومن معه وخرج العاضد لدين الله فتلقاه اكراما له

(ذكر غزوة لسرية نورية)

كان شهاب الدين الياس بن ايلغازي بن ارتق صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره وهو في مائتي فارس الى نور الدين وهو بعشترا فلما وصل الى قرية اللبوة وهي من عمل بعلبك ركب متصيدا فصادف ثلثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للاغارة على بلاد الاسلام سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان لاسيما المسلمون فان الف فارس لا يصبرون لحملة ثلثمائة فارس افرنجية وكثر القتلى بين الطائفتين فانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر فلم يفلت منهم الا من لا يعتد به وسار شهاب الدين برؤس القتلى وبالاسرى الى نور الدين فركب نور الدين والعسكر فلقوهم فرأى نور الدين في الرؤس رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد وكان من الشجاعة بمحل كبير وكان شجى في حلوق المسلمين

(ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام)

في هذه السنة ايضا ثاني عشر شوال كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير الناس مثلها وعمت اكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها من البلاد واشدها كان بالشام فخربت كثيرا من دمشق وبعلبك وحمص وحماة وشيزر وبعرين وحلب وغيرها وتهدمت اسوارها وقلاعها وسقطت الدور على اهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحد فلما اتاه الخبر سار الى بعلبك ليعمر ما انهدم من سورها وقلعتها فلما وصلها اتاه خبر باقي البلاد وخراب اسوارها وقلاعها وخلوها من اهلها فجعل ببعلبك من يعمرها ويحفظها وسار الى حمص ففعل مثل ذلك ثم الى حماة ثم الى بعرين وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج ثم اتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد فانها كانت قد اتت عليها وبلغ الرعب ممن نجا كل مبلغ وكانوا لا يقدرون يأوون مساكنهم خوفا من الزلزلة فاقام بظاهرها وباشر عمارتها بنفسه فلم يزل كذلك حتى احكم اسوار البلاد وجوامعها واما بلاد الفرنج فان الزلازل ايضا عملت بها كذلك فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفا من نور الدين عليها فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده خوفا من الآخر

(ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكي وملك ابنه سيف الدين غازي)

في هذه السنة في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل وكان مرضه حمى حادة ولما اشتد مرضه وصى بالملك بعده لابنه الاكبر عماد الدين زنكي وعدل عنه الى ابنه الآخر سيف الدين غازي وانما صرف الملك عن ابنه الاكبر عماد الدين زنكي بن مودود لان القيم بامور دولته والمقدم فيها كان خادما له يقال له فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين لانه كان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ولانه زوج ابنته وكان نور الدين يبغض عبد المسيح فاتفق فخر الدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي وهي والدة سيف الدين على صرف الملك عن عماد الدين الى سيف الدين فدخل عماد الدين الى عمه نور الدين مستنصرا به ليعينه على اخذ الملك لنفسه وتوفي قطب الدين وعمره نحو اربعين سنة وكان ملكه

انتهى من امر السديد فارتدت فرائص السند واخواتها حذار بطشه وانتقامه وخفقت بها نجوى الالحاد*وطمست صوى الغي والعناد*ولله ابو تمام حيث يقول

كرمت غزوتاك بالامس والخيل*
دقاق والخطب غير دقيق
حين لا جلدة السماء بخضرا
* ولا وجه شتوة بطليق
ان ايامك الحسان من الرو
م لجر الصبوح جر الغبوق
معلمات كانها بالدم المهـ
راق ايام النحر والتشريق

(ذكر عبور عسكر ايلك الخان نحو خراسان)

وقد كانت الحال في الالفة قائمة بين السلطان *يمين الدولة وامين الملة* وبين ايلك الخان*الى ان دبت

احدى وعشرين سنة وخمسة اشهر ونصفا وكان فخر الدين هو المدبر للامور والحاكم في الدولة وكان قطب الدين من احسن الملوك سيرة واعفهم عن أموال رعيته محسنا اليهم كثير الانعام عليهم محبوبا الى كبيرهم وصغيرهم عطوفا على شريفهم ووضيعهم كريم الاخلاق حسن الصحبة لهم فكان القائل اراده بقوله

خلق كماء المزن طيب مذاقة * والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع * عمن جنى والسيف غير حليم
كالغيث الا أن وابل جوده * ابدا وجود الغيث غير مقيم
كالدهر الا أنه ذو رحمة * والدهر قاسي القلب غير رحيم

وكان سريع الانفعال للخير بطيأ عن الشر جم المناقب قليل المعايب رحمه الله ورضي عنه وعن جميع المسلمين بمنه وكرمه انه جواد كريم

(ذكر حالة ينبغي للملوك ان يحترزوا من مثلها)

حدثني والدي رحمه الله قال كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمتم فلما كان قبل موته بيسير أتانا كتاب من الديوان بالموصل يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة وهذه العقيمة هي قرية تحاذي الجزيرة منها دجلة ولها بساتين كثيرة بعضها يسح فيؤخذ منه على كل جريب شئ معلوم وبعضها عليه خراج وبعضها مطلق عن الجميع قال وكان لي فيها ملك كثير فكنت اقول ان المصلحة ان لا يغير على الناس شئ وما اقول هذا الاجل ملكي فاني انا اسمح ملكي وانما اريد ان يدوم الدعاء من الناس للدولة فجاءني كتاب النائب يقول لا بد من المساحة قال فاظهرت الامر وكان بها قوم صالحون لي بهم انس وبيننا مودة فجاءني الناس كلهم وأولئك معهم يطلبون المراجعة فاعلمتهم اني راجعت وما اجبت الى ذلك فجاءني منهم رجلان اعرف صلاحهما وطلبا مني المعاودة ومخاطبة ثانية فقلت فاصروا على المساحة فعرفتهم الحال قال فلما مضى الا عدة ايام واذ قد جاءني الرجلان فلما رأيتهما ظننت انهما يطلبان المعاودة فعجبت منهما واخذت أعتذر اليهما فقالا ما جئنا اليك في هذا وانما جئنا نعرفك أن حاجتنا قضيت قال فظننت انهما قد ارسلا الى الموصل الى من يشفع لهما فقلت من الذي خاطب في هذا بالموصل فقالا ان حاجتنا قد قضيت من السماء والكافة اهل العقيمة قال فظننت أن هذا مما قد حدثتهما نفوسهما ثم قاما عني فلم يمض غير عشرة ايام واذا قد جاءنا كتاب من الموصل يأمرون باطلاق المساجين والمحبوسين والمكوس ويأمرون بالصدقة ويقال ان السلطان يعني قطب الدين مريض يعني على حالة شديدة ثم بعد يومين او ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته فعجبت من قولهما واعتقدته كرامة لهما فصار والدي بعد ذلك يكثر اكرامهما واحترامهما ويزورهما

(ذكر الحرب بين عساكر ابن عبد المؤمن وابن مردنيش)

كان محمد بن سعد بن مردنيش ملك شرق الاندلس قد اتفق هو والفرنج وامتنع على عبد المؤمن وابنه بعده فاستفحل امره لاسيما بعد وفاة عبد المؤمن فلما كان هذه السنة جهز اليه يوسف بن عبد المؤمن العساكر فجاسوا بلاده وخربوها واخذوا مدينتين من بلاده واخافوا عساكره وجنوده واقاموا ببلاده مدة ينتقلون فيها ويجبون اموالها

عقارب الفساد في ذات البين واضطرب الحبل الساكن واشتعل الجمر الهامد ورأى ايلك فرصة الجماهر * بسر المكاشر * حتى اذا صعد السلطان * صعد المتان * وغارت نجوم تلك البلاد راياته * وخفقت عن اعيان رجاله ولاياته * سرب سباشي تكين صاحب جيشه وأحد قراباته * الى كوز خراسان في معظم اجناده * وشحن بلخ بجعفر تكين وعدة من قواده وكان والي طوس ارسلان الجاذب مقيما بها راء مأمورا بالاعتياز الى غزنة متى هجم ناجم عناد او نعق ناعق بفساد فاسرع الانقلاب اليها اخذا بثقة الحزم في ترك القتال

(ذكر وفاة صاحب كرمان والخلف بين اولاده)

فى هذه السنة توفى الملك طغرل بن قاورت صاحب كرمان واختلف أولاده بهرام شاه وارسلان شاه وهو الاكبر وجرى بينهما قتال انهزم فيه بهرام شاه الى خراسان فدخل على المؤيد صاحب نيسابور واستنجده فانجده بعساكر سار بها الى كرمان فجرى بين الاخوين حرب ظفر فيها بهرام شاه وهرب ارسلان شاه فقصد اصفهان مستجيرا بايلدكز فانفذ معه عسكرا واستنقذوا البلاد من بهرام شاه وسلموها الى اخيه ارسلان شاه فعاد بهرام شاه الى نيسابور مستجيرا بالمؤيد صاحبها فاقام عنده فاتفق أن اخاه ارسلان شاه مات فسار الى كرمان فملكها واقام بها بغير منازع

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كثرت الاذية من عبد الملك بن محمد بن عطاء وتطرق الى بلاد حلوان ونهب وأفسد وأخذ من الحجاج فانفذ اليه من بغداد عسكر فنازلوه فى قلاعه وضايقوه ونهبوا امواله واموال أهله حتى أذعن بالطاعة ولا يعاود اذى الحجاج ولا غيرهم فعاد عنهم العسكر وفيها توفى مجد الدين أبو بكر بن الداية وهو رضيع نور الدين وكان أعظم الامراء منزلة عنده وله فى اقطاعه حلب وحارم وقلعة جعبر فلما توفى رد نور الدين ما كان له الى أخيه شمس الدين على بن الداية وفيها فى شعبان توفى أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيلى وهو من مشهورى المحدثين (الجيلى) بالجيم والياء تحتها اثنتان

(ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة)

(ذكر وفاة المستنجد بالله)

فى هذه السنة تاسع ربيع الآخر توفى المستنجد بالله ابو المظفر يوسف بن المقتفى لامر الله أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله وقد تقدم باقى النسب فى غير موضع وأمه ام ولد اسمها طاوس وقيل نرجس رومية ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وكان أسمر تام القامة طويل اللحية وكان سبب موته انه مرض واشتد مرضه وكان قد خافه استاذ الدار عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز المقتفوى وهو حينئذ أكبر أمير ببغداد فلما اشتد مرض الخليفة اتفقا ووضعا الطبيب على ان يصف له ما يؤذيه فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه ثم انه دخل واغلق عليه بابه فمات وهكذا سمعت عن غير واحد ممن يعلم الحال وقيل ان الخليفة كتب الى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على استاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن صفية باستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول انى أوصلت الخط الى الوزير ففعل ذلك وحضر استاذ الدار قطب الدين ويزدن وأخاه تنامش وعرض الخط عليهم فاتفقوا على قتل الخليفة فدخل اليه يزدن وقايماز الحميدى فحملاه الى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح الى ان مات رحمه الله وكان وزيره أبا جعفر بن البلدى وبينه وبين استاذ الدار وبين قطب الدين عداوة مستحكمة لان المستنجد بالله كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فكانا يظنان انه هو الذى يسعى بهما فلما مرض المستنجد وأرجف بموته ركب الوزير ومعه الامراء والاجناد وغيرهما بالعدد فلم يتحقق عنده خبر

وتربصا بالحل غاية النصال ووردسباشى تكين هراة فاستوطنها وندب الحسين ابن نصر اصحابة الديوان بنيسابور فرتب الاعمال وواصل الاستخراج ومايلهم كثير من أعيان خراسان لاستخفاء خبر السلطان* من جانب الملتان* وتناقل الالسنة أهواء القلوب ونوازع النفوس أخابير زور* وأراجيف غرور* وأمر الوزير أبو العباس الفضل ابن أحمد بالاحتياط على الطرق بين غزنة وحدود باميان وبخهير وسدها بحماة الرجال على حصانة مداخلها* وصعوبة مراكبها* وطير البريد الى السلطان بما انبث فى أطراف البلاد من حيات العداه* وعقارب الغواه* فأعجلته بديهة البلاغ عن استتمامه* وأزعجته غلبة الحمية عن مقامه* فركب ركوب الريح العاصف كأنه الجهام البارق* يطوى الارض طى المهارق* بين ايضاع وايجاف* واهتداء واعتساف* وبين سهول وظراب* وسهوب وشعاب* حتى ألقى عصا القرار بغزنة وأقام العطاء لابناء دولته* وانشاء جملته* وملأ ايديهم بالعطايا* والرغائب* وأزاح عللهم فى المطايا* والركائب*

مرتة فأرسل اليه عضد الدين يقول ان امير المؤمنين قد خف ما به من المرض وأقبلت العافية فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فربما أنكر عليه ذلك فعاد الى داره وتفرق الناس عنه وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعدا الهرب لما ركب الوزير فلما منعه ان دخل الدار أن يأخذهما فلما عاد اغلق استاذ الدار أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضر هو وقطب الدين ابنه أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضيء بأمر الله وشرطا عليه شروطا ان يكون عضد الدين وزيرا وابنه كمال الدين استاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم الى ذلك ولم يل الخلافة من اسمه الحسن الا الحسن بن علي بن ابي طالب والمستضيء بأمر الله واتفقا في الكنية والكرم فبايعه اهل بيته البيعة الخاصة يوم توفي أبوه وبايعه الناس من الغد في التاج بيعة عامة وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه وفرق أموالا جليلة المقدار وعلم الوزير ابن البلدي فسقط في يده وقرع سنه ندما على ما فرط في عوده حيث لا ينفعه وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء فمضى الى دار الخلافة فلما دخلها صرف الى موضع وقتل وقطع قطعا وألقي في دجلة رحمه الله وأخذ جميع ما في داره فرأوا فيها خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض عليهما وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليه عرفا براءته مما كانا يظنان فيه فندما حيث فرطا في قتله وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا فيهم كثير الرفق بهم وأطلق كثيرا من المكوس ولم يترك بالعراق منها شيأ وكان شديدا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس (بلغني) انه قبض على انسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي انسانا آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه ورد كثيرا من الاموال على أصحابها أيضا وقبض على القاضي ابن المرخم وأخذ منه مالا كثيرا فأعاده على أصحابه ايضا وكان ابن المرخم ظالما جائرا في أحكامه

(ذكر ملك نور الدين الموصل واقرار سيف الدين عليها)

لما بلغ نور الدين محمودا وفاة أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وملك ولده سيف الدين غازي الموصل والبلاد التي كانت لابيه بعد وفاته وقيام فخر الدين عبد المسيح بالامر معه وتحكمه عليه وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه عنه من خشونة سياسته فقال أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم وسار عند انقضاء العزاء جريدة في قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر مستهل المحرم من هذه السنة وقصد الرقة فحصرها وأخذها ثم سار الى الخابور فملكه جميعه وملك نصيبين واقام بها يجمع العساكر فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا ارسلان بن داود صاحب حصن كيفا وكثر جمعه وكان قد ترك أكثر عساكره بالشام لحفظ ثغوره فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار فحصرها ونصب عليها المجانيق وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين وكان قد جاءته كتب الامراء الذين بالموصل سرا يبذلون له الطاعة ويحثونه على الوصول اليهم فسار الى الموصل فأتى مدينة بلد وعبر دجلة عندها مخاضة الى الجانب الشرقي وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل ومن العجب ان يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة وكان سيف الدين غازي قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين الى

واستنفر الاتراك الخلجية اسلاس القياد وابناء الصوارم الذكور فنفر منهم جن على جن وان كانوا بشر كانما خيطوا عليها بالابر وباشر فيروز بلج وبها ابجعفر تكين فاسرع الكر الى ترمذ اشفاقا من ضغمة الضيغم الخادر واحتراسا من وثبة الارقم الثائر واستقر السلطان ببلخ موفور الانس والجذل كما تجتلي صفحة الشمس من برج الحمل وأمر باتباع سباشي تكين بارسلان الجاذب فاتبعه في زهاء عشرة آلاف من ابناء الكفاح ومجة الارواح بأشطان الرماح وسارع سباشي تكين نحو الوادي للعبور فلم ترعه الا العاديات ضوابح والموريات قوادح فكر على أدراجه سائرا عائرا وعاف الى مرو على أن ينسرح منها الى الشط على سمت المفازة فاذا الآبار مردومه والمناهل مطمومه ووديقة الصيف مسجوره وأذيال السوافي على المعالم مجروره فانثنى الى سرخس وبها الخمس بن طاق وتبعته الاتراك الغزية فاحداقا به حدا فاستد عليه باب الهرب وضيق دونهم

اتابك شمس الدين ايلدكز صاحب همذان وبلد الجبل واذربيجان واصفهان والرى وتلك
الاعمال يستنجده على عمه نور الدين فارسل ايلدكز رسولا الى نور الدين ينهاه عن التعرض الى
الموصل ويقول له ان هذه البلاد للسلطان فلا تقصدها فلم يلتفت اليه وقال للرسول قل
لصاحبك انا اصلح لاولاد اخى منك فلم تدخل نفسك بيننا وعند الفراغ من اصلاح بلادهم
يكون الحديث معك على باب همذان فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة واهملت الثغور
حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا ولى مثل ربع بلادك بالفرنج وهم أشجع العالم فأخذت
معظم بلادهم وأسرت ملوكهم ولا يجمل بى السكوت عنك فانه يجب علينا القيام بحفظ
ما أهملت وازالة الظلم عن المسلمين فأقام نور الدين على الموصل فعزم من بها من الامراء على
مجاهرة فخر الدين عبد المسيح بالعصيان وتسليم البلد الى نور الدين فعلم ذلك فارسل الى نور الدين
فى تسليم البلد اليه على ان يقره بيد سيف الدين ويطلب لنفسه الامان ولماله وأجابه الى ذلك
وشرط ان فخر الدين يأخذه معه الى الشام ويعطيه عنده اقطاعا يرضيه فتسلم البلد ثالث عشر
جمادى الاولى من هذه السنة ودخل القلعة من باب السر لانه لما بلغه عصيان عبد المسيح عليه
حلف ان لا يدخلها الا من احصن موضع فيها ولما ملكها أطلق ما بها من المكوس وغيرها من
ابواب المظالم وكذلك فعل بنصيبين وسنجار والخابور وهكذا كان جميع بلاده من الشام ومصر
ووصله وهو على الموصل يحاصرها خلعة من الخليفة المستضىء بأمر الله فلبسها ولما ملك
الموصل خلعها على سيف الدين ابن أخيه وأمر وهو بالموصل بعمارة الجامع النورى وركب
هو بنفسه الى موضعه فرآه وصعد منارة مسجد أبى حاضر فاشرف منها على موضع الجامع فأمر
أن يضاف الى الارض التى شاهدها ما يجاورها من الدور والحوانيت وأن لا يؤخذ منها شئ بغير
اختيار أصحابه وولى الشيخ محمد الملا عمارته وكان من الصالحين الاخيار فاشترى الاملاك من
أصحابها بأوفر الاثمان وعمره فخرج عليه أموال كثيرة وفرغ من عمارته سنة ثمان وستين
وخمسمائة وأما نور الدين فانه عاد الى الشام واستناب فى قلعة الموصل خصيا كان له اسمه كمشتكين
ولقبه سعد الدين وأمر سيف الدين أن لا ينفرد عنه بقليل من الامور ولا بكثير وحكمه واقطع
مدينة سنجار لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين فلما فعل ذلك قال كمال الدين ابن الشهرزورى
هذا طريق الى أذى يحصل بيت أتابك لان عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين وسيف
الدين هو الملك لا يرى الاغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف ويطمع الاعداء فكان كذلك على
ما نذكره سنة سبعين وخمسمائة وكان مقام نور الدين بالموصل أربعة وعشرين يوما واستصحب
معه فخر الدين عبد المسيح وغير اسمه فسماه عبد الله وأقطعه اقطاعا كبيرا

(ذكر غزو صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح ايلة)

وفى هذه السنة سار صلاح الدين ايضا عن مصر الى بلاد الفرنج فاغار على اعمال عسقلان
والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنج فى قلة من العسكر مسرعين لرده عن
البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنج بعد أن اشرف ان يؤخذ أسيرا وعاد الى مصر وعمل
مراكب مفصلة وحملها قطعا على الجمال فى البر وقصد ايلة فجمع قطع المراكب وألقاها فى
البحر وحصر ايلة برا وبحرا وفتحها فى العشر الاول من ربيع الآخر واستباح أهلها وما فيها

وبجه الجبال والمسارب *
فما نعسه ما قدر ثم ظفر به
سباشى تكين * فقيده
بنصيبين * بعد أن قتل منهم
مقتلة عظيمة من الجانبين *
وانجلى له ارتداف أرسلان
الجاذب اياه عن فضل المقام
* وروح الاستجمام *
فارتحل الى أبيورد ومنها
الى نسا وبينهما مرحلة
واحدة كلما صدر هذا ورد
ذاك ومتى ظعن ذاك أناخ
هذا يتقاسمان امداد
الطلب والهرب جماما *
ولا يردان المياه الا لماما *
وقد كان سباشى تكين قد
حصل صدرا من المال
والاسلحة من نواحى هراة
وغيرها فصارت عقلة له
دون الخفوق فى وجه النجاة
فهو يتيامن مرة ويتيامر
أخرى منكوسا على رأسه
لا يرفعه خوف العار عن
استلام ما بردت به يداه
وأعياه الخلاص بحشاشة
النفس آخرا الا بافرازه
وتفريغ الخاطر عن الشغل
به ولما قرب ارسلان
الجاذب من نسا رحل
متوجها نحو سيبار وأزعجه
الطلب نحو جرجان فركب
قلال تلك الجبال بين الآجام
الملتفة * والغياض
المحتفة * والطارق الضيقة *
والمخارم المضطربة * وتساقط
البكر كابية على ايقانه *

وعاد الى مصر

(ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة)

كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية وأزال ما كان فيها من الظلم وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضا وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة وأقام قاضيا شافعيا في مصر فاستناب القضاة الشافعية في جميع البلاد في العشرين من جمادى الآخرة

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة اشترى تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين منازل العز بمصر وبناها مدرسة للشافعية وفيها أغار شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين على الأعراب الذين بالصعيد وكانوا قد أفسدوا في البلاد ومدوا أيديهم فكفوا عما كانوا يفعلونه وفيها مات القاضي ابن الخلال من أعيان الكتاب المصريين وفضلائهم وكان صاحب ديوان الانشاء بها وفيها وقع حريق ببغداد في درب المطبخ وفي خرابة ابن جردة وفيها توفي الامير نصر بن المستظهر بالله عم المستنجد بالله وهو آخر من مات من أولاد المستظهر بالله وكان موته في ذي القعدة ودفن في الترب بالرصافة وفيها جعل ظهير الدين أبو بكر نصر بن العطار صاحب المخزن ببغداد ولقب ظهير الدين وفيها حج بالناس الامير طاشتكين المستنجدي وكان نعم الامير رحمه الله

(ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة)

(ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية)

في هذه السنة في ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن يوسف ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الطاهر اسمعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي بالله أبي محمد عبيد الله وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة وخوطبوا بامرة المؤمنين وكان سبب الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة بها العاضد وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش وهو خصي كان من أعيان الأمراء الأسدية كلهم يرجعون اليه فكتب اليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم لميلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفا من نور الدين فانه كان يخافه أن يدخل الى الديار المصرية يأخذها منه فكان يريد أن يكون العاضد معه حتى ان قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره ولج عليه بقطع خطبته وألزمه إلزاما لا فسحة له في مخالفته وكان على الحقيقة نائب نور الدين واتفق ان العاضد مرض هذا الوقت مرضا شديدا فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فمنهم من أشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافهم الا انه ما يمكنه الا امتثال أمر

واثنا رنياله * حتى فشت
نكايتهم فيه واستأمن
الى شمس المعالي قابوس
ابن وشمكير طوائف من
اهل جملته لعدم المراكب *
وذهاب المراتب * وانتقل
هو على سمت دهستان
حتى عاد الى نسا وجمع
ما بقي عليه من تلك الاثقال
قاصدا بها الى خوارزمشاه
أبي الحسن علي بن مأمون
وكتب اليه يستودعه اياها
امانة لايلك الخان وحذره
ان يمد اليها بغير الصيانة
يده واعتصم ارجاله عسكره
والعجزة منهم عن صحبته
واقتحم المفازة متوجها
نحو مرو وكان السلطان
قد انحدر الى طوس مراعيا
ما يسفر عنه ركض
ارسلان الجاذب على اثره
والصاقه الطلب الحثيث به
فلما بلغه ركوب سباشي
تكين عرض المفازة اسرى
على طريق مرو معارضا له
في مسيره * وناقضا عليه
قوي تدبيره * فوصل اليه
بخلصه عن وعثاء * تلك
البيداء * ورماه بأبي
عبد الله محمد بن ابراهيم
الطائي زعيم العرب وسائر
قواد رجال يرون الملاحم
ولائم * والوقائع * غنائم *
وسيوف الضراب عرائس *
وصفوف الكماة فرائس *
فكان كما قال سعيد

نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان أعجمي يعرف بالامير العالم رأيته انا بالموصل فلما رأى
ما هم فيه من الاحجام وان أحدا لا يتجاسر يخطب للعباسي قال أنا أبتدئ بالخطبة له فلما كان اول
جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيها عنزان وكتب
بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من اهله وأصحابه
بقطع الخطبة وقالوا ان عوفي فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته
فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر
الخلافة وعلى جميع ما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتبه قبل موت العاضد فحمل
الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة
والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فمنه الحبل
الياقوت وزنه سبعة عشر درهما او سبعة عشر مثقالا انا الاشك فاني رأيته ووزنته واللؤلؤ
الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع اصابع في عرض عقد كبير ووجد
فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحافظ فلما رأوه ظنوه عمل لاجل اللعب
فيه فسخروا من العاضد فأخذه انسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك وكان
كل من ضرب به ضرط فالقاه أحدهم فكسره فاذا الطبل لاجل القولنج فندموا على كسره لما
قيل لهم ذلك وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يعد فباع جميع ما فيه ونقل أهل
العاضد الى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد
فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالامس فسبحان
الحي الدائم الذي لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حماه ولما اشتد مرض
العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفي علم صدقه
فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيرا بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده
وكان في نسبه تسع خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزيز
والمعز والمنصور والقائم والمهدي ومنهم من لم يخطب له بالخلافة أبوه يوسف بن الحافظ
وجد أبيه وهو الامير أبو القاسم محمد بن المستنصر وبقي من خطب له بالخلافة وليس من آبائه
المستعلي والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة
منهم بافريقية المهدي والقائم والمنصور والمعز الى أن سار الى مصر ومنهم بمصر المعز
المذكور وهو أول من خرج اليها من افريقية والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر
والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد وجميع مدة ملكهم من حين
ظهر المهدي بسجلماسة في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين الى ان توفي العاضد مائتان
واثنتان وسبعون سنة وشهر تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تعط الا واستردت ولم تحل الا وتمررت
ولم تصف الا وتكدرت بل صفوها لا يخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو نسأل الله
تعالى أن يقبل بقلوبنا اليه ويرينا الدنيا حقيقة ويزهدنا فيها ويرغبنا في الآخرة انه
سميع الدعاء قريب من الاجابة ولما وصلت البشارة الى بغداد بذلك ضربت البشائر بها عدة
ايام وزينت بغداد وظهر من الفرح والجذل ما لا حد عليه وسيرت الخلع مع عماد الدين

فررت من معن وأفلاسه
الى اليزيدي أبي واقد
فكنت كالساعي الى مثعب
موائلا من سبل الراعد
وأحاطت به السيوف حيث
لا ماء الا منابع الافواه
وهي عاصيه * ولا مرعى الا
شكائم اللجم وهي عاضيه *
وأسر أخو سباشي تكين
في زهاء سبعمائة من
وجوه الافراد * وروت
القواد * وامر السلطان
بتراجع اوليائهم فأفرغت
قيود الكعابهم * وجوامع
لرقابهم * وحملهم الى غزنة
ليرى أهلها حسن صنع الله
تعالى فيمن شاقه * ونقض
عهده وميثاقه * وتجاسباشي
تكين في خف من العدد
بجريعة الذقن فعبر جيحون
الى ايلك الخان وقد كان
ايلك الخان عبر جعفر تكين
أخاه في زهاء ستة آلاف
رجل الى بلخ ثانيا الاستفساد
عزيمة السلطان في قصد
سباشي تكين واخواجه
ثانيا فتراوت بهم حتى فرغ
الخاطر من أمره * ووضع
ما أنقضه من الشغل به عن
ظهره * ثم ثنى العنان اليهم
شد أغص الهواء بغباره *
واستغرق أوقات ليله
ونهاره * فلم يرعهم الا راياته
بأجنحة النجاح طائره *
وخيوله في صهيل المراح

صندل وهو من خواص الخدم المقتفوية والمقدمين في الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار
صندل الى نور الدين وألبسه الخلعة وسير الخلعة التي لصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية
والاعلام السود ثم ان هذا صندل صار استاذ دار الخليفة المستضيء بامر الله ببغداد وكان
يدري الفقه على مذهب الشافعي وسمع الحديث ورواه ويعرف أشياء حسنة وفيه دين
وله معروف كثير وهو من محاسن بغداد

(ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا)

في هذه السنة جرت أمور أوجبت ان تأثر نور الدين من صلاح الدين ولم يظهر ذلك وكان سببه ان
صلاح الدين يوسف بن ايوب سار عن مصر في صفر من هذه السنة الى بلاد الفرنج غازيا ونازل
حصن الشوبك وبينه وبين الكرك يوم وحصره وضيق على من به من الفرنج وأدام القتال
وطلبوا الامان واستمهلوه عشرة أيام فاجابهم الى ذلك فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين
سار عن دمشق قاصدا بلاد الفرنج أيضا ليدخل اليه من جهة أخرى فقيل لصلاح الدين ان
دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها
ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين وان جاء نور الدين
اليك وأنت ههنا فلا بد لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء ان شاء
تركك أو لا فقد لا تقدر على الامتناع عليه والمصلحة الرجوع الى مصر فرحل عن الشوبك عائدا
الى مصر ولم يأخذه من الفرنج وكتب الى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لامور
بلغته عن بعض شيعته العلويين وانهم عازمون على الوثوب بها وانه يخاف عليها من البعد عنها
ان يقوم اهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة وأطال الاعتذار فلم يقبلها نور الدين
منه وتغير عليه وعزم على قصد مصر واخراجه عنها وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر فجمع
اهله وفيهم أبوه نجم الدين ايوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الامراء واعلمهم ما بلغه
من عزم نور الدين وحركته اليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة واحدة فقام تقي الدين عمر ابن
أخي صلاح الدين فقال اذا جاء قاتلناه وصددناه عن البلاد ووافقه غيره من أهلهم فشتمهم نجم
الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وشتم تقي الدين واقعده وقال لصلاح الدين انا أبوك وهذا
خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين
لم يمكنا الا ان نقبل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما
ظنك بغيرنا وكل من تراه عندك من الامراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على
سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فان أراد عزلنا سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب
كتابا مع نجاب تقول فيه بلغني أنك تريد الحركة لاجل البلاد فأي حاجة الى هذا يرسل المولى
نجابا يضع في رقبتي منديلا ويأخذني اليك وما ههنا من يمتنع وقام الامراء وغيرهم وتفرقوا
على هذا فلما خلا به ايوب قال له بأي عقل فعلت هذا أما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على
منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه اليه وحينئذ لا تقوى عليه وأما الآن اذا بلغه ما جرى
وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب
السكر لقاتلته انا عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين ما أشار به فترك نور الدين قصده

سائرة * ولكن لوسم السلطان
فلما رأوا الكمين * انثالوا
منهزمين * يتحسسون دعوة
الخلاص بآمين آمين *
وتبعهم صاحب الجيش أبو
المظفر نصر بن ناصر الدين
سبكتكين على ساحل جيحون
كاسرا لأدبارهم * ومختاق
عمارهم * الى ان عبروا فسلمت
خراسان من عيث سوادهم *
وخلت عن مبثوث جرادهم
فاضطرب ايلك حنقا لما
جرى على عسكره من
الضغطة الكبيرة * والصدمة
المبيرة * فاستعان بقدرخان
ابن بغراخان لقرابة بينهما
وكيده ورحله وشيجة *
واستجره بحفي مسئلته
الى أخذ ثاره * مستظهرا
بنصرته واظهاره * فاستجاش
أحياء الترك من مكانها *
وحشر بني خاقان من أقصى
بلدانها * واستنفر دهاقين
ماوراء النهر * في جيوش
تجل عن الحد والحصر *
وسار في خمسين ألفا أو
يزيدون * حتى عبر جيحون *
مدلا بعسكره المائج *
وبلبله الهائج * ومعتضدا
بقدر خان ملك الترك ذي
العدة والعديد * والبأس
الشديد * والايد المتين *
والبسطة في المال
والرجال * والتمكين في
رجال كالجبال القرائح *
فوق الصخور المواتح *

واشتغل بغيره فكان الامر كما ظنه أيوب فتوفى نور الدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها

(ذكر غزوة الى الفرنج بالشأم)

وفى هذه السنة خرج مركبان من مصر الى الشأم فارسيا بمدينة لاذقية فاخذهما الفرنج وهما مملوآتان من الامتعة والتجارة وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكثوا وغدروا فارسل نور الدين اليهم فى المعنى واعادة ما أخذوه من أموال التجارة فغالطوه واحتجوا بامور منها ان المركبين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء وكان الشرط ان كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه فلم يقبل مغالطتهم وجمع العساكر وبث السرايا فى بلادهم بعضها نحو انطاكية وبعضها نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيثا وعريمة فاخذهما عنوة ونهب وخرب وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا اليه وهو بعرقة فسار فى العساكر جميعها الى ان قارب طرابلس ينهب ويخرب ويحرق ويقتل وأما الذين ساروا الى انطاكية فنهلوا فى ولاية طرابلس مثل ما فعل فى ولاية طرابلس فراجعه الفرنج وبذلوا جميع ما اخذوه من المركبين وتجديد الهدنة معهم فأجابهم الى ذلك وأعادوا ما أخذوا وهم صاغرون وقد خربت بلادهم وغنمت أموالهم

(ذكر وفاة ابن مردنيش وملك يوسف بن عبد المؤمن بلاده)

فى هذه السنة توفى الامير محمد بن سعد بن مردنيش صاحب البلاد بشرق الاندلس وهى مرسية وبلنسية وغيرهما ووصى أولاده ان يقصدوا بعد موته الامير أبا يعقوب وكان قد اجتاز الى الاندلس فى مائة ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش فحين رآهم يوسف فرح بهم وسره قدومهم عليه وتسلم بلادهم وتزوج أختهم وأكرمهم وعظم أمرهم ووصلهم بالاموال الجزيلة وأقاموا معه

(ذكر عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خوارزمشاه)

فى هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم فسمع صاحبها خوارزمشاه ايل ارسلان ابن اتسز فجمع عساكره وسار الى امويه ليقاتلهم ويصدهم فمرض وأقام بها وسير بعض جيشه مع أمير كبير اليهم فلقيهم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الخوارزميون وأسر مقدمهم ورجع به الخطا الى ماوراء النهر وعاد خوارزمشاه الى خوارزم مريضا

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة اتخذ نور الدين بالشأم الحمام الهوادى وهى التى يقال لها المناسيب وهى تطير من البلاد البعيدة الى أوكارها وجعلها فى جميع بلاده وسبب ذلك انه لما اتسعت بلاده وطالت مملكته وعرضت أكنافها وتباعدت أواثلها عن أواخرها ثم انها جاورت بلاد الفرنج وكانوا ربما نازلوا حصنا من ثغوره فالى ان يصل الخبر ويصل اليهم قد بلغوا غرضهم منه آمر بالحمام ليصل الخبر اليه فى يومه وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها واقامتها فحصل منها الراحة العظيمة والنفع الكبير للمسلمين . وفيها عزل الخليفة المستضىء بامر الله وزيره عضد الدين أبا الفرج بن رئيس الرؤساء لان قطب الدين قايماز الزمه بعزله فلم يمكنه مخالفته وفيها مات ابو محمد

عراض الوجوه خزر العيون فطس الانوف * خفاف الشعور حداد السيوف * سود الثياب من حاق الدروع يحملون حمايا كخراطيم الفيول * محشوة بنبال كأنياب الغول * ولما سمع السلطان بعبوره * فى جمهوره * وكان اذ ذاك بطخيرستان سبقه الى بلخ فاستوطنها قاطعا عنها طمعه * ومالكا عليه تجارة ومنتجعه * واستعد للحرب فخرج السلطان فى عساكر الترك والهند والخلج والافغانية والغزنوية أنشاء الجد والصدق * وأبناء المشق والرشق * الى معسكر له على أربعة فراسخ من البلد يعرف بقنطرة جرخيان وسيع المجال * على الرجال * رحب الفضاء * على الدهماء * وزحف ايلك الى محاذاته فى عدده الدهم وعسكره الجسر فتطارد الفرسان * وتجالد الشجعان * صحابة يومهم على رسم الطلائع * أمام الوقائع * الى أن كفهم حاجز الليل وأصبح الناس على ميعاد الحرب فعبى السلطان رجاله صفوفا كالجبال الراسيات * والبحار الزاخرات * ورتب فى القلب أخاه صاحب الجيش نصرا ووالى الجوزجان ابانصر

عبد الله بن أحمد الخشاب النحوي وكان قيما بالعربية وسمع الحديث وفيها مات البروي الفقيه الشافعي تفقه على محمد بن يحيى وقدم بغداد ووعظ وكان يذم الحنابلة وكثرت أتباعه فأصابه اسهال فمات هو وجماعة من أصحابه فقيل ان الحنابلة أهدوا اليه حلواء فأكل منها فمات وكل من أكل منها وفيها مات القرطبي أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الازدي الاندلسي وكان اماما في القراءة والنحو وغيره من العلوم زاهدا عابدا انتفع به الناس في كثير من البلاد ولا سيما أهل الموصل فانه أقام بها وفيها توفي رحمه الله

(ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة)

(ذكر وفاة خوارزمشاه ايل ارسلان وملك ولده سلطانشاه وبعده ولده الآخر تكش وقتل المؤيد وملك ابنه)

في هذه السنة توفي خوارزمشاه ايل ارسلان بن اتسز بن محمد بن انوشتكين وقد عاد من قتال الخطا مريضا فتوفي وملك بعده سلطانشاه محمود ودبرت والدته المملكة والعساكر وكان ابنه الاكبر علاء الدين تكش مقيما في الجند قد اقطعه أبوه اياها فلما بلغه موت أبيه وتولية أخيه الصغير أنف من ذلك وقصد ملك الخطا واستمده على أخيه وأطمعه في الاموال وذخائر خوارزم فسير معه جيشا كثيفا قدمهم قرما فساروا حتى قاربوا خوارزم فخرج سلطانشاه وأمه الى المؤيد وأهدى له هدية جليلة المقدار ووعده أموال خوارزم وذخائرها فاغتر بقوله وجمع جيوشه وسار معه حتى بلغ سوبرلي بلدة على عشرين فرسخا من خوارزم وكان تكش قد عسكر بالقرب منها فتقدم اليهم فلما تراءى الجمعان انهزم عسكر المؤيد وكسر المؤيد وأخذ أسيرا وجيء به الى خوارزمشاه تكش فأمر بقتله فقتل بين يديه صبرا وهرب سلطانشاه وأمه الى دهستان فقصده خوارزمشاه تكش فافتتح المدينة عنوة فهرب سلطانشاه وأخذت أمه فقتلها تكش وعاد الى خوارزم ولما عاد المنهزمون الى نيسابور ملكوا طغانشاه أبا بكر ابن المؤيد واتصل به سلطانشاه ثم سار من هناك الى غياث الدين ملك الغورية فأكرمه وعظمه وأحسن ضيافته وأما علاء الدين تكش فانه لما ثبت قدمه بخوارزم اتصلت به رسل الخطا بالاقتراحات والتحكم كعادتهم فأخذته حمية الملك والدين وقتل أحد أقارب الملك وكان قد ورد اليه ومعه جماعة أرسلهم ملكهم في مطالبة خوارزمشاه بالمال فأمر خوارزمشاه أعيان خوارزم فقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا فلم يسلم منهم أحد ونبذوا الى ملك الخطا عهده وبلغ ذلك سلطانشاه فسار الى ملك الخطا واغتنم الفرصة بهذه الحال واستنجده على أخيه علاء الدين تكش وزعم له أن أهل خوارزم معه يريدونه ويختارون ملكه عليهم ولو رأوه لسلموا البلاد اليه فسير معه جيشا كثيرا من الخطا مع قرما أيضا فوصلوا الى خوارزم فحصروها فأمر خوارزمشاه علاء الدين باجراء ماء جيحون عليهم فكادوا يغرقون فرحلوا ولم يبلغوا منها غرضا ولحقهم الندم حيث لم ينفعهم ولاموا سلطانشاه وعنفوه فقال لقرما لو أرسلت معي جيشا الى مرو فاستخلصتها من يد دينار الغزي وكان قد استولى عليها من حين كانت فتنة الغز الى الآن فسير معه جيشا فنزل على سرخس على غرة من أهلها وهجم على الغز فقتل مقتلة عظيمة فلم يتركوا بها احدا منهم وألقى دينار ملكهم نفسه في خندق القلعة فأخرج منه ودخل القلعة

أحمد بن محمد القريفوقي وأبا عبد الله محمد بن ابراهيم الطائي في كماة الاكراد والعرب وسائر جماهير الجنود * وسائر الجنود * ورتب في الميمنة حاجبه الكبير أبا سعيد التونتاش فيمن برسمه من أعيان الرجال * وفرسان الزحف والصيال * ورتب للميسرة أرسلان الجاذب فيمن تحت قيادته من نجوم الابطال * ورجوم القتال * وحصن الصفوف بزهاء خمسمائة من فيلته التي تحسد الجبال من أثقالها * وترجح الارض بزلزالها * وأقبل ايلك فشحن قلبه بخواص غلمانه * وأعلام فرسانه وولى قدرخان ميمنته في أتراك الختن * بين آجام العوامل والجنن * وشحن بجعفر تكين ميسرته بكل أليس كالشجاع المحرج والحسام المرهف بين وقايات الزغف والجحف وتحامل بعضهم على بعض تخيلت المعركة سماء غمامها مثار القسطل * وبروقها بريق البيض والاسل * ورعودها صليل السلاح * ورشاشها صبيب الجراح * واستنزل ايلك عن صهوات الخيول الى صعيد الارض زهاء ألف غلام يفلقون الشعور انصافا ويتصيدون ونباتها

وتحصن بها وسار سلطان شاه الى مرو فملكها وعاد الخطا الى ماوراء النهر وجعل سلطان شاه دأبه قتال الغز والقتل فيهم والنهب منهم فلما عجز دينار عن مقاومته أرسل الى نيسابور الى طغان شاه ابن المؤيد يقول له ليرسل اليه من يسلم اليه قلعة سرخس فأرسل اليه جيشا مع أمير اسمه قراقوش فسلم اليه دينار القلعة ولحق بطغان شاه فقصد سلطان شاه سرخس وحصر قلعتها وبلغ ذلك طغان شاه فجمع جيوشه وقصد سرخس فلما التقى هو وسلطان شاه فر طغان شاه الى نيسابور وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة فأخلى قراقوش قلعة سرخس ولحق بصاحبه وملكها سلطان شاه ثم أخذ طوس والزام وضيق الامر على طغان شاه بعلو همته وقلة قراره وحرصه على طلب الملك وكان طغان شاه يحب الدعة ومعاقرة الخمر فلم يزل الحال كذلك الى أن مات طغان شاه سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة في المحرم وملك ابنه سنجر شاه فغلب عليه مملوك جده المؤيد اسمه منكلى تكين فتفرق الامراء أنفة من تحكمه واتصل أكثرهم بسلطان شاه وسار الملك دينار الى كرمان ومعه الغز فملكها وأما منكلى تكين فانه أساء السيرة في الرعية وأخذ أموالهم وقتل بعض الامراء فسمع خوارزمشاه بذلك فسار اليه فحصره بنيسابور في ربيع الاول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة فحصرها شهرين فلم يظفر بها وعاد الى خوارزم ثم رجع سنة ثلاث وثمانين الى نيسابور فحصرها وطلبوا منه الامان فأمنهم فسلموا البلد اليه فقتل منكلى تكين وأخذ سنجر شاه وأكرمه وأنزله بخوارزم وأحسن اليه فأرسل الى نيسابور يستميل أهلها ليعود اليهم فسمع به خوارزمشاه فأخذ سنجر شاه فسمله وكان قد تزوج بأمه وزوجه بابنته فماتت فزوجه بأخته وبقي عنده الى أن مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة ذكر هذا ابو الحسن ابن ابى القاسم البيهقي في كتاب مشارب التجارب وقد ذكر غيره من العلماء بالتواريخ هذه الحوادث مخالفة لهذا في بعض الامور مع تقديم وتأخير ونحن نوردها فقال ان تكش خوارزمشاه بن ارسلان أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم وكان قد ملكها بعد موت أبيه فجاء الى مرو فملكها وأزاح الغز عنها فخرجوا أياما ثم عادوا عليه فأخرجوه منها وانتهبوا خزائنه وقتلوا أكثر رجاله فعبر الى الخطا فاستنجدهم وضمن لهم مالا وجاء بجيش عظيم فأخرج الغز عن مرو وسرخس ونسا وابيورد وملكها ورد الخطا فلما أبعدوا كاتب غياث الدين الغوري يطلب منه أن ينزل عن هراة وبوشنج وباذغيس وما والاها ويتوعده ان هو لم ينزل عن ذلك فأجابه غياث الدين يطلب منه اقامة الخطبة له بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان فلما سمع الرسالة سار عن مرو وشن الغارات على باذغيس وبيوار وما والاها وحصر بوشنج ونهب الرساتيق وصادر الرعايا فلما سمع غياث الدين ذلك لم يرض لنفسه أن يسير هو بل سير ملك سجستان وكاتب ابن اخته بهاء الدين سام صاحب باميان بالحاق به لان أخاه شهاب الدين كان بالهند والزمان شتاء فجاء بهاء الدين ابن أخت غياث الدين وملك سجستان ومن معهما من العساكر ووافق ذلك وصول سلطان شاه الى هراة فلما علم بوصولهم عاد الى مرو من غير أن يقاتلها وأحرق كل ما مر به من البلاد ونهب وأقام بمرو الى الربيع وأعاد مراسلة غياث الدين في المعنى فأرسل الى أخيه شهاب الدين يعرفه الحال فنادى في عساكره الرحيل ساعته وعاد الى خراسان واجتمع هو وأخوه غياث الدين وملك سجستان وغيرهم من العساكر وقصدوا

بالنبال * تجافف الفيول * وشقوا بالنصال * سرابيل الخيول * ولما جد الامر * واحتد الجمر * واستعضل الداء * واستفحل الاعداء * وزخر وادى الخطب بمده * وكاد يخرج بادي الشر عن حده * نزل السلطان الى صعيد ربوة كان تشرفها لتدبر عصفات الحرب * وتلافي نزفات ذلك المركب الصعب * فوضع لله خده * وعفر شعره * وأرسل دمعه * وقدم نذره * ودعا الله تعالى أن يحرس ملكه * ويحسن فلجه ونصره * ثم وثب الى قعدته من فيلته المغتلمة فحمل بها وبسائر خاصته * على قلب ايلك فأهوى الفيل الى صاحب رايته * فاختطفه بهامش سرجه * ورمى به في الهواء من فوقه * وتخالل الآخرين حطما بخرطومه وشكا بأنيابه * ودوسا بأظلافه * وامثال أولياء السلطان على الآخرين بسيوف تلغ في الدماء * وترشف احساء الاحشاء * فطارت قلوبهم هواء * واستحالت قواهم هباء * وولوا على أعقابهم نافرين * وتبعهم الطلب بطلبات القسر والقهر * الى أن لفظتهم خراسان الى ماوراء النهر * ولقد

سلطان شاه فلما علم ذلك جمع عساكره واجتمع عليه من الغز والمفسدين وقطاع الطريق ومن عنده طمع خلق كثير فنزل غياث الدين ومن معه في الطالقان ونزل سلطان شاه بمرو الروذ وتقدم عسكر الغورية اليه وتواعدوا المصاف وبقوا كذلك شهرين والرسل تتردد بين غياث الدين وبين سلطان شاه وشهاب الدين يطلب من اخيه غياث الدين الاذن في الحرب فلا يتركه وتقرر الامر على أن يسلم غياث الدين الى سلطان شاه بوشنج وبادغيس وقلاع بيوار وكره ذلك شهاب الدين وبهاء الدين صاحب باميان الا انهما لم يخالفا غياث الدين وفي آخر الامر حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين وحضر الامراء ليكتب العهد فقال الرسول ان سلطان شاه يطلب ان يحضر شهاب الدين وبهاء الدين هذا الامر فأرسل غياث الدين اليهما فأعادا الجواب انتما الملك ومهما تفعله لا يمكننا مخالفتك فبينما الناس مجتمعون في تحرير الامر واذ قد اقبل مجد الدين العلوي الهروي اليه وكان خصيصا بغياث الدين بحيث يقول في ملكه ما يختار فلا يخالف فجاء العلوي ويده في يد ألب غازي ابن أخت غياث الدين وقد كتبوا الكتاب وقد احضر غياث الدين أخاه شهاب الدين وبهاء الدين سام ملك الباميان فجاء العلوي كأنه يسار غياث الدين ووقف في وسط الحلقة وقال للرسول يا فلان تقول لسلطان شاه قد تم لك الصلح من جانب السلطان الاعظم ومن شهاب الدين وبهاء الدين ويقول لك العلوي خصمك أنا ومولانا ألب غازي بيننا وبينك السيف ثم صرخ صرخة ومزق ثيابه وحثى التراب على رأسه وأقبل على غياث الدين وقال له هذا واحد طرده أخوه وأخرجه فريدا وحيدا لم تتركه يأخذ ممالكنا بأسيافنا من الغز والاتراك والسنجرية فاذا سمع هذا عنا يجيء أخوه ويطلب منازعته والهند وجميع ما بيدك فبرك غياث الدين رأسه ولم ينطق بكلمة فقال ملك سجستان للعلوي اترك الامر يصلح فلما لم يتكلم غياث الدين بمنع العلوي قال شهاب الدين لمماليكه وشيعته نادوا في العسكر بالتهيؤ للحرب والتقدم الى مرو الروذ وقام وأنشد العلوي بيتا من الشعر معناه أن الموت تحت السيوف أسهل من الرضا بالدنية فرجع الرسول الى سلطان شاه وأعلمه الحال فرتب عساكره للمصاف والتقى الفريقان واقتتلوا فصبروا للحرب فانهزم سلطان شاه وعسكره وأخذ أكثر أصحابه اسارى فأطلقهم غياث الدين ودخل سلطان شاه مرو في عشرين فارسا ولحق به من أصحابه نحو ألف وخمسمائة فارس ولما سمع خوارزم شاه تكش بالخبر لاخيه سار من خوارزم في ألفي فارس وأرسل الى جيحون ثلاثة آلاف فارس يقطعون الطريق على أخيه ان أراد الخطا وجد في السير ليقبض على أخيه قبل ان يقوى فأتت الاخبار سلطان شاه فلما لم يقدر على عبور جيحون الى الخطا سار الى غياث الدين وكتب اليه يعلمه قصده اليه فكتب الى هراة وغيرها من بلاده باكرامه واحترامه وحمل الاقامات اليه ففعل به ذلك وقدم على غياث الدين فلقيه وأكرمه وأنزله معه في داره وأنزل أصحاب سلطان شاه كل انسان منهم عند من هو في طبقته فأنزل الوزير عند وزيره والعارض عند عارضه وكذلك غيره وأقام عنده حتى انسلخ الشتاء فأرسل علاء الدين بن خوارزم شاه الى غياث الدين يذكر ما صنعه أخوه سلطان شاه من تخريب بلاده وجمع العساكر عليه ويشير بالقبض عليه ورده اليه فأنزل الرسول وأنفذ الى كاتب نائبه بهراة يخبره ان كتاب خوارزم شاه جاء يتهدده فأجابه انه لا يظهر لخوارزم شاه انه

أحسن السلامي في قوله فكأنما وصف حاله ومدح آثاره وأفعاله

يا سيف دين الله ما أرضى العدا ... لو أن سيفك مثل عدلك يعدل
ما إن شققت لهم سنانا في الوغى ... الا الآمال عليه منهم أبطل
والروض من زهر الحديد مضرج ... والماء من ماء الترائب أشكل
والنقع ثوب بالنسور مطرز ... والارض فرش بالجياد مخمل
تهفو العقاب على العقاب ويلتقي ... بين الفوارس أجدل ويجدل
ومطور خيلك انما ألفاتها ... سمر تنقط بالدماء وتشكل

وامتدح عند ذلك السلطان يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم الحسن بن عبد الله المستوفي بقصيدة أولها

ظهر الحق ثابت الاركان ... صاعد النجم عالي البنيان
وهوى للردى ذوو الشك والبغي ... وأهل الضلال والطغيان
ما الذي غركم بجمع الحشود ... انحيازه بكل مكان
بأبي القاسم المظفر ظل الله ... في الارض صفوة المنان

اعلمه بالحال وأحضر الرسول وقال له يقول لعلاء الدين أما قولك ان سلطان شاه أخرب البلاد وأراد ملكها فلعمري انه ملك وابن ملك وله همة عالية واذا أراد الملك فله اراده والامور مدبر توصلها الى مستحقها وقد التجأ الى وينبغي ان تنزاح عن بلاده وتعطيه نصيبه مما خلف أبوه ومن الاملاك التي خلف والاموال وأحلف لكما يمينا على المودة والمصافاة وتخطب لي بخوارزم وتزوج أخي شهاب الدين بأختك فلما سمع خوارزمشاه الرسالة امتعض لذلك وكتب الى غياث الدين كتابا يتهدده بقصد بلاده فجهز غياث الدين العساكر مع ابن اخت ألب غازى وصاحب سجستان وسيرهما مع سلطان شاه الى خوارزم وكتب الى المؤيد صاحب نيسابور يستنجده وكان قد صار بينهما مصاهرة زوج المؤيد ابنه طغان شاه بابنة غياث الدين فجمع المؤيد عساكره وأقام بظاهر نيسابور على طريق خوارزم وكان خوارزمشاه قد سار عن خوارزم الى لقاء عسكر الغورية الذين مع اخيه سلطان شاه وقد نزلوا بطرف الرمل فبينما هو في مسيره اتاه خبر المؤيد انه قد جمع عساكره وانه على قصد خوارزم اذا فارقها فوقع في قلبه وعاد الى خوارزم فأخذ امواله وذخائره وعبر جيحون الى الخطا وأخلى خوارزم فوقع بها خبط عظيم فحضر جماعة من أعيانها عند ألب غازى وسألوه ارسال امير معهم يضبط البلد فخاف أن تكون مكيدة فلم يفعل فبينما هم على ذلك توفى سلطان شاه سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فكتب ألب غازى الى غياث الدين يعلمه الخبر فكتب اليه يأمره بالعود اليه فرجع ومعه اصحاب سلطان شاه فأمر غياث الدين بأن يستخدموا وأقطع الاجناد الاقطاعات الجيدة وكلهم قابل احسانه بكفران وسنذكر باقى اخبارهم ولما سمع خوارزمشاه تكش بوفاة اخيه عاد الى خوارزم وأرسل الى سرخس ومرو وشحناه فجهز اليهم أميرهراة عمر المرغنى جيشا فأخرجوهم وقال حتى نستأذن السلطان غياث الدين وأرسل خوارزمشاه رسولا الى غياث الدين يطلب الصلح والمصاهرة وسير مع رسوله جماعة من فقهاء خراسان والعلويين ومعهم وجيه الدين محمود بن محمود وهو الذى جعل غياث الدين شافعيا وكان له عنده منزلة كبيرة فوعظوه وخوفوه الله تعالى واعلموه ان خوارزمشاه يراسلهم يتهددهم بأنه يجيء بالاتراك والخطا ويستبيح حريمهم واموالهم وقالوا له اما ان تحضر أنت بنفسك وتجعل مرو دار ملكك حتى ينقطع طمع الكافرين ويأمن اهلها واما ان تصالح خوارزمشاه فاجاب الى الصلح وترك معارضة البلاد فلما سمع من بخراسان من الغز بذلك طمعوا فى البلاد فعاودوا النهب والاحراق والتخريب فسمع خوارزمشاه فجمع عساكره وحضر بخراسان ودخل مرو وسرخس ونسا وابيورد وغيرها وأصلح البلاد وتطرق الى طوس وهى للمؤيد صاحب نيسابور فجمع المؤيد جيوشه وسار اليه فلما سمع خوارزمشاه بمسيره اليه عاد الى خوارزم فلما وصل الى الرمل أقام بطرفه فلما سمع المؤيد بعودة خوارزمشاه طمع فيه وتبعه فلما سمع خوارزمشاه بذلك ارسل الى المناهل التى فى البرية فألقى فيها الجيف والتراب بحيث لم يمكن الانتفاع بها فلما توسط المؤيد البرية طلب الماء فلم يجده فجاء خوارزمشاه اليه وهو على تلك الحال ومعه الماء على الجمال فأحاط به فأما عسكره فاستسلموا بأسرهم وجيء بالمؤيد أسيرا الى خوارزمشاه فأمر بضرب عنقه فقال له يا مخنث هذا فعال الناس فلم يلتفت اليه وقتله وحمل رأسه الى خوارزم فلما قتل ملك نيسابور ملك ما كان له ابنه

من مناويه نهزة للمنايا
غرض للحتوف والاحزان
ملك صار من مضى من ملوك
الارض لفظا وجاء عين
المعانى
فخر المشرقان بالحظ منه
فاستطالا فاشتاقه المغربان
جمع الله فيه وهو قدير
عالما الكمال فى جثمان
سيفه والمنون طرفا رهان
نحو حلق العدو يبتدران
خدعينى بأن سيخضع حقا
لليمينى كل سيف يمانى
لو عصا خروع تسمى اليمينية
ظلت تحك فى السندان
انما سيفه شبيه عصا موسى
ابن عمران صاحب الثعبان
وقراجوا اياتكم كيد سحر
فاذا جاءت العصا فهو فان
ملك وهو فى الحقيقة عندى
ملك صيغ صيغة الانسان
ملك عادل فأدنى ضعيف
وأخوه فى حكمه سيان
أخذ الهند بالعانى ويحوى
عنا ان أراد بالهندوانى
غاب عن غابة الهزبر لغزو
الهند مستنزلا رضا
الرحمن
فسبى واستباح واجتاح منهم
وأحل النكال بالاوثان
وانثنى قافلا وقد ملأ
الايدى
فيا وفاز بالرضوان
فسطا بأسه بطاغية الترك
وأهل الشقاق والعصيان
طلعت راية له فتولوا

طغان شاه فلما كان من قابل جمع خوارزمشاه عساكره وسار الى نيسابور فحاصرها وقاتلها فتبعه طغان شاه واخذه وزوجه اخته وحمله معه الى خوارزم وملك نيسابور وما كان لطغان شاه وقوى امره هذا الذى ذكره فى هذه الرواية يخالف لما تقدم ولو أمكن الجمع بين الروايتين لفعلت فان أحدهما قد قدم ما أخره الآخر فلهذا أوردنا جميع ما قاله ولبعد البلاد عنا لم نعلم أى القولين أصح لنذكره ونترك الآخر وانما أوردتها فى موضع واحد لان أيام سلطان شاه لم تطل له ولا عقابه حتى تتفرق على السنين فلهذا أوردتها متتابعة

(ذكر غارة الفرنج على بلد حوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج)

فى هذه السنة فى ربيع الاول اجتمعت الفرنج وساروا الى بلد حوران من أعمال دمشق للغارة عليه وبلغ الخبر الى نور الدين وكان قد برز ونزل هو وعسكره بالكسوة فسار اليهم مجدا وقدم بجموعه عليهم فلما علموا بقربه منهم دخلوا الى السواد وهو من أعمال دمشق أيضا ولحقهم المسلمون فتخطفوا من ساقتهم ونالوا منهم وسار نور الدين فنزل فى عشترا وسير منها سرية الى أعمال طبرية فشنوا الغارات عليها فنهبوا وسبوا واحرقوا وخربوا فسمع الفرنج ذلك فرحلوا اليهم ليمنعوا عن بلادهم فلما وصلوا كان قد فرغ المسلمون من نهبهم وغنيمتهم وعادوا وعبروا النهر وأدركهم الفرنج فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم فقاتلوهم فاشتد القتال وصبر الفريقان الفرنج يرومون ان يلحقوا الغنيمة فيردوها والمسلمون يريدون ان يمنعوهم عنها ليتجو بها من قد سار معها فلما طال القتال بينهم وأبعدت الغنيمة وسلمت مع المسلمين عاد الفرنج ولم يقدروا أن يستردوا منها شيأ

(ذكر مسير شمس الدولة الى بلد النوبة)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الاكبر من مصر الى بلاد النوبة فوصل الى أول بلادهم ليتغلب عليه ويملكه وكان سبب ذلك ان صلاح الدين واهله كانوا يعلمون ان نور الدين كان على عزم الدخول الى مصر فاستقر الرأى بينهم أنهم يتملكون اما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى اذا وصل اليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد فان قووا على منعه اقاموا بمصر وان عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التى قد افتتحوها فجهز شمس الدولة وسار الى اسوان ومنها الى بلاد النوبة فنازل قلعة اسمها ابريم فحصرها وقاتله أهلها فلم يكن لهم بقتال العسكر الاسلامى قوة لانهم ليس لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب فسلموها فملكها واقام بها ولم ير للبلاد دخلا يرغب فيه وتحتمل المشقة لاجله وقوتهم الذرة فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد الى مصر بما غنم وكان عامة غنيمتهم العبيد والجوارى

(ذكر ظفر مليح بن ليون بالروم)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى هزم مليح بن ليون الارمنى صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب عسكر الروم من القسطنطينية وسبب ذلك ان نور الدين كان قد استخدم مليحا المذكور وأقطعه اقطاعا سنيا وكان ملازم الخدمة لنور الدين يشاهد الحروب ويجمع الفرنج ويباشرها وكان هذا من جيد الرأى وصائبه فان نور الدين لما قيل له فى معنى استخدامه واعطائه

كم أبادوا ثلاثين ضان
كم قتيل وكم جريح وغرق
واسير فى القد ذى رسفان
طار أيدى سباعها كم ظنوا
انهم ملكوا على البلدان
خطبوا الملك فاعترتهم خطوب
جرعتهم مرارة الحدثان
بخوارزم فى السجون الوف
والوف تهيم فى جرجان
وعمرو وف القفار الى
بيستون
قتلى مأكل الحيتان
جزر للسباع فى كل فج
طعم للنسور والعقبان
بارك الله ربنا فى خميس
ردعنا خمسين ألف عنان
شربوا السم عام أول لما
بعثوا الشقاء بالاخوان
ثم عادوا فى العام بالعسكر
الجشر وبالحور والملاح
الحسان
فأتى المرد فوق جرد المذاكى
من خناذيذ أو من الخصيان
بوجوه مضيئة كبدور
طلعت جنح ليلها الاضحيان
صادروا العصر بالزجاج
وظنوا
ان يصيدوا الاسود بالغزلان
قد لعمرى يكون ذاك ولكن
ليس فى كل موقف ومكان
هو شمس النهار فوق سرير
الملك
فى صدره من الايوان
وكتب ابو الفضل الهمذانى
البديع الى الشيخ الوزير ابى
العباس هذا ورب الكعبة

الاقطاع فى بلاد الشام قال أستعين به على قتال أهل ملته وأريح طائفة من عسكرى تكون بازائه لمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له وكان مليح ايضا يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الارمن والروم وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فأخذها مليح منهم لانها تجاور بلاده فسير اليه ملك الروم جيشا كثيفا وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه فلقيهم مليح ومعه طائفة من عسكر نور الدين فقاتلهم وصدقهم القتال وصابرهم فانهزمت الروم وكثر فيهم القتل والاسر وقويت شوكة مليح وانقطع أمل الروم من تلك البلاد وأرسل مليح الى نور الدين كثيرا من غنائمهم ومن الاسرى ثلاثين رجلا من مشهوريهم وأعيانهم فسير نور الدين بعض ذلك الى الخليفة المستضىء بأمر الله وكتب يعتد بهذا الفتح لان بعض جنده فعلوه

(ذكر وفاة ايلدكز)

فى هذه السنة توفى اتابك شمس الدين ايلدكز بهمذان وملك بعده ابنه محمد البهلوان ولم يختلف عليه أحد وكان ايلدكز هذا مملوكا للكمال السميرمى وزير السلطان محمود فلما قتل الكمال كما ذكرناه سار ايلدكز الى السلطان محمود فلما ولى السلطان مسعود السلطنة ولاه ارانية فمضى اليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره ثم ملك أكثر اذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها واصفهان والرى وما والاها من البلاد وخطب بالسلطنة لابن امرأته ارسلانشاه بن طغرل وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الاتباع واتسع ملكه من باب تفليس الى مكران ولم يكن للسلطان ارسلان معه حكم انما كان له جراية تصل اليه وبلغ من تحكمه عليه انه شرب ليلة فوهب ما فى خزانته وكان كثيرا فلما سمع ايلدكز بذلك استعاده جميعا وقال له متى أخرجت المال فى غير وجهه أخذته أيضا من غير وجهه وظلمت الرعية وكان ايلدكز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكاويهم وينصف بعضهم من بعض

(ذكر وصول الترك الى افريقية وملكهم طرابلس وغيرها)

فى هذه السنة سار طائفة من الترك من ديار مصر مع قراقوش مملوك تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين يوسف بن أيوب الى جبال نفوسة واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط وهو من أعيان الامراء هناك وكان خارجا عن طاعة عبد المؤمن فاتفقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيقا على أهلها ثم فتحت فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهله قصرها وملك كثيرا من بلاد افريقية ما خلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس وما والاها من القرى والمواضع وصار مع قراقوش عسكر كثير فحكم على تلك البلاد بمساعدة العرب بما جبلت عليه من التخريب والنهب والافساد بقطع الاشجار والثمار وغير ذلك فجمع بها أموالا عظيمة وجعلها بمدينة قابس وقويت نفسه وحدثته بالاستيلاء على جميع افريقية لبعد ابى يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها عنها وكان ما سنذكره ان شاء الله

(ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس)

فى هذه السنة جمع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عساكره وسار من اشبيلية الى الغزو فقصد بلاد الفرنج ونزل على مدينة رندى وهى بالقرب من طليطلة شرقا منها وحصرها

* اخرمانى الجعبة * لقد أصبت من رامى القارة * وبخا السيف ما قال ابن ذارة * ثم لا تزود بعدها الترك * ولا تحلم بعدها الملك * لقد كايس السلطان اذ عفر لله شعره * وعرض على الله فقره * وفوض الى الله أمره * وأخلص لله نذره * وناهض بالله خصمه * وسأل الله حوله * ولم يعجبه كثرة الملا حوله * فشد الله بذلك ازره * وقوى أمره * وأعز نصره * وأقطعه عصره * وأطعمه ملكه * وأورثه أرضه * ان الظفر بأسبابه * والموفق يأتى الامر من بابه

(وله فصل منه) انه الجلاد ثم البلاد مساكنكم لا يحطمنكم سليمان كتب الله ليغلبن السلطان وراءك

ان السيف أمامك وخافك فان الموت قدامك
وأرضك أرضك ان تأتنا تنم نومة ليس فيها حلم

ان المغازى * قد عادت مخازى * ألا رب ركض نادم * ورب شوط ظالم * ورب عبور الى ثبور * ورب طمع يهدى الى طبع * ألا ان هذا الفتح فتح حفظ على الشريعة ماءها * وعلى السنة دماءها * وعلى النفوس ذماءها * وعلى الاموال غناءها * وعلى الحرم غطاءها * اعاد الله به البلاد خلقا جديدا * وأنشأ الناس نشأ حديثا * وعقد الملك عقدا طريفا * فما أولى يومه أن يتخذ عيدا * ويجعل فى المتصرفات تاريخا جديدا * وليس

واجتمعت الفرنج على ابن الفنش ملك طليطلة فى جمع كثير فلم يقدموا على لقاء المسلمين فاتفق ان الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الاقوات عندهم وهم فى جمع كثير فاضطروا الى مفارقة بلاد الفرنج فعادوا الى اشبيلية وأقام بها ويها الى سنة احدى وسبعين وخمسمائة وهو على ذلك يجهز العساكر ويسيرها الى غزو بلاد الفرنج فى كل وقت فكان فيها عدة وقائع وغزوات ظهر فيها العرب من الشجاعة ما لا يوصف وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج فلا يبرز اليه أحد ثم عاد أبو يعقوب الى مراكش

•(ذكر نهب نهاوند)•

فى هذه السنة نهب عسكر شملة نهاوند وسبب ذلك ان شملة كان أيام ايلدكز لا يزال يطلب منه نهاوند لكونها مجاورة بلاده ويبذل فيها الاموال فلا يجيبه الى ذلك فلما مات ايلدكز وملك بعده ولده محمد البهلوان وسار الى اذربيجان لاصلاحها انفذ شملة ابن أخيه ابن شنكا الى نهاوند وبلغ أهل البلد الخبر فتحصنوا وحصرهم وقاتلهم وقاتلوه وأفحشوا فى سبه فلما علم انه لا طاقة له بهم رجع الى تستر وهى قريبة منها وأرسل أهل نهاوند الى البهلوان يطلبون منه نجدة فتأخرت عنهم فاطمأنوا وخرج ابن شنكا من تستر فى خمسمائة فارس وسار يوما وليلة فقطع أربعين فرسخا حتى وصل الى نهاوند وضرب البوق وأظهر انه من أصحاب البهلوان لانه جاءهم من ناحيته ففتح أهل البلد الابواب فدخله فلما توسط قبض على القاضى والرؤساء وصلبهم ونهب البلد وقطع أنف الوالى وأطلقه وتوجه نحو ماسبذان قاصدا العراق

•(ذكر قصد نور الدين بلاد قلج ارسلان)•

فى هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكى الى مملكة عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان وهى ملطية وسيواس واقصرا وغيرها ملازما على حربه وأخذ بلاده منه وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس قصده قلج ارسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريدا فريدا فسار الى نور الدين مستجيرا به وملتجئا اليه فأكرم نزله وأحسن اليه وحمل له ما يليق أن يحمل الى الملوك ووعده النصرة والسعى فى رد ملكه اليه ثم انه أرسل الى قلج ارسلان يتشفع فى اعادة ملكه فلم يجبه الى ذلك فسار نور الدين اليه فابتدأ بكيسون وبهسنى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها وكان ملكه لمرعش أوائل ذى القعدة والباقى بعدها فلما ملكها سير طائفة من عسكره الى سيواس فملكوها وكان قلج ارسلان لما سار نور الدين الى بلاده قد سار من طرفها التى تلى الشام الى وسطها وأرسل الى نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح فتوقف نور الدين عن قصده رجاء ان يصلح الامر بغير حرب فأتاه من الفرنج ما أزعجه فأجابه الى الصلح وشرط عليه ان ينجده بعساكره الى الغزاة وقال له أنت تجاور الروم ولا تغزوهم وبيدك قطعة كبيرة من بلاد الاسلام ولا بد من الغزاة معى فأجابه الى ذلك وبقى سيواس على حالها بيد نواب نور الدين وهى لذى النون فبقى العسكر فى خدمة ذى النون الى ان مات نور الدين فلما مات رحل عسكره عنها وعاد قلج ارسلان وملكها وهى بيد أولاده الى الآن سنة ست وعشرين وستمائة ولما كان نور الدين فى هذه السفرة جاءه رسول كمال الدين أبى الفضل محمد بن

العقد مع الله بأشرطة فأرضوا الله بهذه * كما صدقتكم وعده * وانما عهده عند السلطان أن يحسن النظر * وعهده عند الشيخ الجليل أن يحسن الحضر * وهراة من البلاد شيمة هذه الدولة وعيبتها فان حط عن جانبها العلاوه * وأزيل عن عينها الاتاوه * فلله هذا النظر ما أحلى ثماره * وأكرم آثاره * ولما وضعت هذه الحرب أوزارها * وأفاضت غرة النصر أنوارها * سنح للسلطان أن يلوى أعنته الى جانب الهند للايقاع بالمعروف بنواسه شاه أحد أولاد ملوك الهند كان نصبه ببعض ما افتتحه من ممالكهم تلافيه على سد ثغورها * وتحصين أطرافها وحدودها * اذ كان * قد استحوذ عليه الشيطان * فارتد فى سائرة الشرك وانسلخ عن جلدة الاسلام * وواطأ زعماء الكفار على خلع ربقة الدين والانفصام * عن عروة الحبل المتين فمن من فوره اليه * وصب سيوفا تقطر من دماء مخالفيه عليه * وركضا بادر أرواح الرياح * واختصر أوقات الاظلام والاصباح * حتى نفاه عن مثواه * وملك عليه جملة ما حواه * وأعاد الى تلك

عبد الله بن الشهرزوري من بغداد ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة وباربل وخلاط والشام وبلاد قلج ارسلان وديار مصر

(ذكر رحيل صلاح الدين من مصر الى الكرك وعوده عنها)

فى هذه السنة فى شوال رحل صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر بعساكرها جميعها الى بلاد الفرنج يريد حصر الكرك والاجتماع مع نور الدين عليه والاتفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين كل واحد منهما فى جهة بعسكره وسبب ذلك ان نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الفرنج فى العام الماضى وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه أرسل يعتذر ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين فاستقرت القاعدة بينهما ان صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق فأيهما سبق صاحبه يقيم الى أن يصل الآخر اليه وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين عن مصر لان طريقه أبعد وأشق ووصل الى الكرك وحصره وأما نور الدين فانه لما وصل اليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر فرق الاموال وحصل الازواد وما يحتاج اليه وسار الى الكرك فوصل الى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العود الى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لانهم علموا انه ان اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلا فلما عاد أرسل الفقيه عيسى الى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر وانه مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم وأرسل معه من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف فجاء الرسول الى نور الدين وأعلمه ذلك فعظم عليه وعلم المراد من العود الا انه لم يظهر للرسول تأثرا بل قال له حفظ مصر أهم عندنا من غيرها وسار صلاح الدين الى مصر فوجد أباه قد قضى نحبه ولحق بربه وكلمة تقول لقاتلها دعنى وكان سبب موت نجم الدين انه ركب يوما فرسا بمصر فنفر به الفرس نفرة كبيرة شديدة فسقط عنه فحمل الى قصره وقيذا وبقى أياما ومات فى السابع والعشرين من ذى الحجة وكان خيرا عاقلا حسن السيرة كريما جوادا كثير الاحسان الى الفقراء والصوفية والمجالسة لهم وقد تقدم من ذكره وابتداء امره وأمر أخيه شيركوه ما لا حاجة الى اعادته.

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة زادت دجلة زيادة كثيرة أشرفت بها بغداد على الغرق فى شعبان وسدوا أبواب الدروب ووصل الماء الى قبة أحمد بن حنبل ووصل الى النظامية ورباط شيخ الشيوخ واشتغل الناس بالعمل فى القورج ثم نقص وكفى الناس شره وفيها وقعت النار ببغداد من درب بهروز الى باب جامع القصر ومن الجانب الآخر من حجر النحاس الى دار أم الخليفة وفيها أغار بنو حزن من خفاجة على سواد العراق وسبب ذلك ان الحماية كانت لهم لسواد العراق فلما تمكن يزدن من البلاد وتسلم الحلة أخذها منهم وجعلها لبنى كعب من خفاجة وأغار بنو حزن على السواد فسار يزدن فى عسكر ومعه الغضبان الخفاجى وهو من بنى كعب لقتال بنى حزن فبينما هم سائرون ليلا رمى بعض الجند الغضبان بسهم فقتله لفساد ه وكان فى السواد فلما قتل عاد العسكر

البقاع بهجة ملكه وسلطانه * وحصد نجوم الشرك عنها بحدى سيفه وسنانه * فذانك برهانان من ربك فى اعلاء دولته * واشاعة دعوته * واعزاز نصرته * وافلاج حجته * ويسر الله له الانقلاب الى غزنة * مظاهرا له بين نصرين يتحاذيان فخامة وجلالة * ويتباريان نباهة وجزالة * وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

(ذكر فتح قلعة بهيم نغر)

قد كان السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * بعد أن فتح الفتحين * واقتدح النجحين * عرج على غزنة للاستراحة * والتفرغ لشكر الله على النعم المتاحة * فأقام بها شاحذا عزيمته لغزوة اخرى ترتفع بها حدود الاسلام * ويتعفر لها خدود الاصنام * وتتنكس عندها رايات الشيطان فى رحل للغواية شده * وحبل للضلالة مده * اذ كان بعد همته يسومه خلاف الطبائع البشرية فى استخشان المضجع الوثير * واستحباب الشوك على الوتير * واختيار قرع الاسنة والعوالى * على نقر

الى بغداد وأبعدت خفارة السواد الى بقرون وفيها اخرج ترجمم الايوانى فى جمع من التركمان فى حياة ايلدكز وتطرق أعمال همذان ونهب الدينور واستباح الحريم وجمع ايلدكز العساكر وهو بنقجوان فسار مجدا فيمن خف من عسكره فقصده فهرب ترجمم الى أن قارب بغداد وتبعه ايلدكز فخاف الخليفة انها حيلة ليصل الى بغداد فجاءة فشرع فى جمع العساكر وعمل السور فأرسل الى ايلدكز الخلع والالقاب الكبيرة فاعتذر انه لم يقصد الا كف الامير يزدن وهو من أكابر امراء بغداد وكان يتشيع فوقع بسببه فتنة بين السنية والشيعة بواسط لان الشيعة جلسوا له للعزاء وأظهر السنية الشماتة به فآل الامر الى القتال فقتل بينهم جماعة ولما مات أقطع أخوه تامش ما كان لاخيه وهى مدينة واسط ولقب علاء الدين وفيها أرسل نور الدين محمود بن زنكى رسولا الى الخليفة وكان الرسول القاضى كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله الشهرزورى قاضى بلاده جميعها مع الوقوف والديوان وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان وما هو عليه من جهاد الكفار وفتح بلادهم ويطلب تقليدا بما بيده من البلاد مصر والشام والجزيرة والموصل وبما فى طاعته كديار بكر وما يجاورها كخلاط وبلاد قلج ارسلان وان يعطى من الاقطاع بسواد العراق ما كان لابيه زنكى وهو صريفين ودرب هرون والتمس أرضا على شاطئ دجلة يبنيها مدرسة للشافعية ويوقف عليها صريفين ودرب هرون فأكرم كمال الدين اكراما لم يكرمه رسول قبله وأجيب الى ما التمسه فمات نور الدين قبل الشروع فى بناء المدرسة رحمه الله

(ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة)

(ذكر ملك شمس الدولة زبيد وغيرها من بلاد اليمن)

قد ذكرنا قبل ان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر وأهله كانوا يخافون من نور الدين محمود أن يدخل الى مصر فيأخذها منهم فشرعوا فى تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم ان أخرجهم نور الدين من مصر ساروا اليها وأقاموا بها فسيروا شمس الدولة توران شاه بن أيوب وهو أخو صلاح الدين الاكبر الى بلاد النوبة فكان ما ذكرناه فلما عاد الى مصر استأذنوا نور الدين فى أن يسير الى اليمن لقصد عبد النبى صاحب زبيد لاجل قطع الخطبة العباسية فأذن فى ذلك وكان بمصر شاعر اسمه عمارة من أهل اليمن فكان يحسن لشمس الدولة قصد اليمن ويصف البلاد ويعظم ذلك فى عينه فزاده قوله رغبة فيها فشرع يتجهز ويعد الازواد والروايا والسلاح وغيره من الآلات وجند الاجناد فجمع وحشد وسار عن مصر مستهل رجب فوصل الى مكة أعزها الله تعالى ومنها الى زبيد وفيها صاحبها المتغلب عليها المعروف بعبد النبى فلما قرب منها رآه أهلها فاستقلوا من معه فقال لهم عبد النبى كأنكم بهؤلاء وقد جنى عليهم الحر فهلكوا الا أكلة رأس فخرج اليهم بعسكره فقاتلهم شمس الدولة ومن معه فلم يثبت أهل زبيد وانهزموا ووصل المصريون الى سور زبيد فلم يجدوا عليه من يمنعهم فنصبوا السلالم وصعدوا السور فملكوا البلد عنوة ونهبوه وأكثروا النهب وأخذوا عبد النبى أسيرا وزوجته المدعوة بالحرة وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة لا سيما اذا جاءت قافلة الحاج كانوا يجدون عندها صدقة دارة وخيرا كثيرا ومعروفا عظيما فلما أسر شمس

الثالث والثانى وترجيح حدود البيض القواضب على خدود البيض الكواعب كل ذلك لجد يقتنيه وصيت يقتفيه وعزم يعزو به وسعى يتقرب الى الله به وفيه حتى اذا انسلخ ربيع الآخر من السنة المذكورة استخار الله فى اتمام ما رامه واسراج ما ولى الجلمه متوكلا على الله الذى طالما أمده بنصره وعززه بمنه حتى اذا انتهى السير به الى شط جهند لاقاه ابرهمن بال بن انندبال فى جيوش تغص بسود الرجال فى بيض الصفاح وزرق الاسنة وحمر الرماح وزهر الدروع ودكن الفيول واشتبكت الحرب عن أنيابها العصل وتوالت الحملات كما تتهاوى لوامع الشهب وتترامى نوازع السحب ودارت رحا الطعنات والضرائب طاحنة كل ندب شجاع وقرم مطاع وامتدت الوقعة من غدوة النهار الى كهولة الظل حتى اكتست الارض لون الشقائق من دماء الطلى والعواتق وكادت تدور للكفار دائرة لولا أن الله أعان السلطان على حملة فى خواص غلمانه كشعب

الدولة عبد النبى وسلم شمس الدولة عبد النبى الى بعض امرائه يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل من بنى منقذ أصحاب شيزر وامره ان يستخرج منه الاموال فاعطاه منها شيأ كثيرا ثم انه دلهم على قبر كان قد صنعه لوالده وبنى عليه بنية عظيمة وله هنالك دفن شيئا فاعلمهم به فاستخرجت الاموال من هنالك وكانت جليلة المقدار وأما الحرة فانها أيضا كانت تدلهم على ودائع لها فأخذ منها مالا كثيرا ولما ملكوا زبيد واستقر الامر لهم بها ودانت أهلها وأقيمت فيها الخطبة العباسية أصلحوا أحوالها وساروا الى عدن وهى على البحر ولها مرسى عظيم وهى فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك وهى من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها وصاحبها انسان اسمه ياسر فلوا قام بها ولم يخرج عنها لعاد والخائبين واتم حاله بجهله وانقضاء مدته على الخروج اليهم ومباشرة قتالهم فسار اليهم وقاتلهم فانهزم ياسر ومن معه وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة فدخلوا البلد قبل أهله فملكوه وأخذوا صاحبها ياسرا أسيرا وأرادوا نهب البلد فمنعهم شمس الدولة وقال ماجئنا لنخرب البلاد وانما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها فلم ينهب أحد منها شيأ فبقيت على حالها وثبت ملكه واستقر أمره ولما مضى الى عدن كان معه عبد النبى صاحب زبيد مأسورا فلما دخل الى عدن قال سبحان الله كنت قد علمت انى أدخل الى عدن فى موكب كبير فانا انتظر ذلك وأسر به ولم أكن أعلم انى أدخلها على هذا الحال ولما فرغ شمس الدولة من أمر عدن عاد الى زبيد وحصر مافى الجبل من الحصون فملك قلعة تعز وهى من أحصن القلاع وبها تكون خزاين صاحب زبيد وملك أيضا قلعة التعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون واستناب بعدن عز الدين عثمان بن الزنجبيلى وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ وجعل فى كل قلعة نائبا من أصحابه وألقى ملكهم باليمن جرانه ودام وأحسن شمس الدولة الى أهل البلاد واستصفى طاعتهم بالعدل والاحسان وعادت زبيد الى أحسن أحوالها من العمارة والامن بعد خرابها

(ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين)

فى هذه السنة ثانى رمضان صلب صلاح الدين يوسف بن أيوب جماعة ممن أراد الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين وسبب ذلك ان جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبى الحسن اليمنى الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضى العويرس وداعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان وحاشية القصر وافقهم جماعة من امراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام الى ديار مصر على شئ بذلوه لهم من المال والبلاد فاذا قصدوا البلاد فان خرج صلاح الدين بنفسه اليهم ثاروا هم فى القاهرة ومصر واعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر اليهم ثاروا به وأخذوه واخذوا البلد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة وانا قد ابعدت اخاه الى اليمن خوفا ان يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده وأرسلوا الى الفرنج بصقلية والساحل فى ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الفرنج وكان من لطف الله بالمسلمين ان الجماعة المصريين أدخلوا معهم زين الدين على بن نجا الواعظ والقاضى المعروف بابن نجية ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعى

أدبارهم * وبحث عن مقامهم
آثارهم * وأغنى ثلاثين فيلا
كأشخاص التصور * بل
كأمواج البحور * وأقبل
أولياؤه يحسبونهم أنى
يثقفونهم من بطون الاودية
والشعاب * وظهور الشناف
والهضاب * واقتفى السلطان
بنفسه أثره بين تلك المهارب *
متنجزا وعد الله فى نصرة
دينه * وقتل كل ذى نفاق
وشقاق بجنيه * فأفضى به
الطلب الى بهيم نغر حصن
قلعة بنيت على حرف طود
رفيع * خلال مامنيع *
وقد كان ملوك الهند وأعيان
أهلها وجماعات النساك من
ذوى الاملاك بها يدخرونها
مخزنة للصنم الاعظم ينقلون
اليها قرنا بعد قرن من أنواع
الذخائر * وأعلاق الجواهر *
ماتخف أوزانه * وتثقل
عند السوم قيمه وأثمانه *
عبادة بزعمهم لما يفيدهم
الحسنى * ويقربهم الى الله
زلفى * فصادف السلطان
منها ثمرة الغراب * وزبدة
الاحقاب * مالا تقله ظهور
الاجمال * ولا تسعه أوعية
الاحمال * ولا تنسخه أيدى
الكتاب * ولا تدركه فكر
الحساب * فنشر عليها
جنوده * وضرب حواليها
بنوده * وانبرى لقتال
مستحفظيها بقلب جرى *

والقضاة الان بنى رزيك قالوا يكون الوزير منا وبنى شاور والقاضى قالوا يكون الوزير منا
فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين وأعلمه حقيقة الامر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم
ومواطأتهم على ما يريدون يفعلونه وتعريفه ما يتجدد أولا بأول ففعل ذلك وصار يطالعه
بكل ما عزموا عليه ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة وهو فى الظاهر اليه
والباطن الى اولئك الجماعة وكان يرسل اليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فاتى الخبر الى صلاح
الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق اليه من
النصارى وداخله فاخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على المقدمين فى هذه الحادثة
منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وصلبهم وقيل فى كشف امرهم ان عبد
الصمد المذكور كان اذا لقى القاضى الفاضل الصلاحى يخدمه ويتقرب اليه بجهده وطاقته
فلقيه يوما فلم يلتفت اليه فقال القاضى الفاضل ما هذا الا لسبب وخاف أن يكون قد صار له
باطن مع صلاح الدين فأحضر على بن نجا الواعظ وأخبره الحال وقال أريد تكشف لى الامر
فسعى فى كشفه فلم يره من جانب صلاح الدين شيأ فعدل الى الجانب الآخر فكشف الحال
وحضر عند القاضى الفاضل وأعلمه فقال تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال اليه
فحضر عند صلاح الدين وهو فى الجامع فذكر له الحال فقام واخذ الجماعة وقررهم فاقروا فأمر
بصلبهم وكان عمارة بينه وبين القاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها فلما أراد صلبه قام القاضى
الفاضل وخاطب صلاح الدين فى اطلاقه وظن عمارة انه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين
يا مولانا لا تسمع منه فى حقى فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة انه كان يشفع فيك
فندم ثم اخرج عمارة ليصلب فطلب ان يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه
ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب • ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودى فى أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها الى أقاصى
الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله وأما الذين نافقوا على
صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا أعلمهم انه علم بحالهم وأما الفرنج فان فرنج صقلية
قصدوا الاسكندرية على ما نذكره ان شاء الله تعالى لانهم لم يتصل بهم ظهور الخبر عند صلاح
الدين وأما فرنج الساحل الشامى فانهم لم يتحركوا لعلمهم بحقيقة الحال. وكان عمارة شاعرا
مفلقا فمن شعره

لو ان قلبى يوم كاظمة معى • لملكته وكظمت فيض الادمع
قلب كفاك من الصبابة انه • لبى نداء الظاعنين وما دعى
ما القلب أول غادر فالومه • هى شيمة الايام مذ خلقت معى
ومن الظنون الفاسدات توهمى • بعد اليقين بقاءه فى اضلعى

وله أيضا

لى فى هوى الرشا العذرى اعذار • لم يبق لى مذ أقر الدمع انكار
لى فى القدود وفى لثم الخدود وفى • ضم النهود لبانات واوطار

واقتضى • وعزم ذكى • وبأس قوى • ورأى بالصواب ورى • ولما رأى القوم غصص تلك الشعاب بعقاوير الجنود • ونظاير النبال صعدا كشرر الوقود • استفزهم الرعب والوجل • وألوى بأحلامهم الخوف والوهل • فخطفت أبصارهم تلك البروق فترقا وهاتيك الرعود فروعا والسكور بشوقها • وحضرتهم دولة السلطان فهرتهم كلاب الادبار والخذلان • وأعيتهم وجوه الامن الامن جانب الاستئمان • فتنادوا جميعا بشعار السلطان • وفتحوا باب القلعة وجاءوا يتهافتون الى الارض للامان • كالعصافير أخرجتها البوارق • والغيوث جادتها الغيوم البوارق • وفتح الله تلك القلعة على السلطان فتحا يسيرا • وآتاه من لدنه فتحا كبيرا • واغتنم ل مقترح النفوس من بنات المعادن والصور • وزابنات القمم والصور • ودخلها فى والى الجوزجان أبى نصر احمد ابن محمد الفريغونى وسائر خاصته ووصل صاحبه الكبير بن السرتاش وأسغ تمكين بخزائن العين والورق وسائر ذوات الاخطار والقيم ووكل بنفسه بخزانته .

هذا اختياري فوافق ان رضيت به * اولا فدعني وما أهوى واختار

وله ديوان شعر مشهور في غاية الحسن والرقة والملاحة

(ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله)

في هذه السنة توفي نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر يوم الاربعاء حادي عشر شوال بعلة الخوانيق ودفن بقلعة دمشق ونقل منها الى المدرسة التي انشأها بدمشق عند سوق الخواصين ومن عجيب الاتفاق انه ركب ثاني شوال والى جانبه بعض الامراء الاخيار فقال له الامير سبحان من يعلم هل نجتمع هنا في العام المقبل ام لا فقال نور الدين لا تقل هكذا بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر ام لا فمات نور الدين رحمه الله بعد احد عشر يوما ومات الامير قبل الحول فأخذ كل منهما بما قاله وكان قد شرع يتجهز للدخول الى مصر لاخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب فانه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته وكان يعلم انه انما يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه ومن الاجتماع به فانه يؤثر كون الفرنج في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فارسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة وكان عزمه ان يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره الى مصر فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مرد له حكى لي طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الاطباء قال استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الاطباء فدخلنا اليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له كان ينبغي أن لا تؤخر احضارنا الى أن يشتد بك المرض الآن وينبغي أن تعجل الانتقال من هذا الموضع الى مكان فسيح مضيء فله أثر في هذا المرض وشرعنا في علاجه وأشرنا بالفصد فقال ابن ستين لا يفتصد وامتنع منه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضي عنه وكان اسمر طويل القامة ليس له لحية الا في حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة ابن أيوب وملكها وكان مولده سنة احدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم ار فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز احسن من سيرته ولا اكثر تحريا منه للعدل وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر من اخبار دولتهم واننذكر ههنا نبذة لعل يقف عليها من له حكم فيقتدي به فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه فانه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت اليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له يحصل له منها في السنة نحو العشرين دينارا فلما استقلتها قال ليس لي الا هذا وجميع ما بيدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لاجلك وكان يصلي كثيرا بالليل وله فيه اوراد حسنة وكان كما قيل

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما احسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث واسمعه طلبا

الجواهر فنقل منها ما اقله ظهور رجاله * واستعمل سائرها أعيان رجاله * فكان مبلغ المنقول من الورق سبعين ألف ألف درهم شاهية ومن الذهبيات والفضيات سبعمائة ألف ألف وأربعمائة منا وزنا ومن أصناف الثياب التسترية والديابيج السوسية ما أطلق مشايخ الزمان * والطاعنين في الاسنان * أنه لا عهد لهم بأمثالها صنعة وتفويفا وتزيينا وتلطيفا * وفي جملة الموجود بيت من الفضة البيضاء كغاييوت الاغنياء طوله ثلاثون ذراعا في عرض خمس عشرة ذراعا صفائح مضروبة مهيأة للطي والنشر والنصب والحط وشراع من ديباج الروم أربعون ذراعا في عرض عشرين ذراعا بقائمتين من ذهب واخويين من سبيكة فضة ووكل السلطان بتلك القلعة من ثقاته من من يراعيها * ويؤدي امانة الاستحفاظ فيها * وكر عائدا الى غزنة في ضمان النصر والاظهار * وقران اليسر واليسار * ولما امتست عصاه جانب القرار بها امر بساحة داره ففرشت بتلك الجواهر من درر كالنجوم الثواقب قد نسلت على الايدي

للادبر وأما عدله فانه لم يترك في بلاده على سعتها مكسا ولا عشرا بل أطلقها جميعها في مصر
والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند احكامها واحضره انسان الى
مجلس الحكم فمضى معه اليه وأرسل الى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول قد جئت
محاكما فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم وظهر الحق له فوهبه الخصم الذي احضره وقال اردت
ان اترك له ما يدعيه انما خفت ان يكون الباعث لي على ذلك الكبر والانفة من الحضور الى
مجلس الشريعة فحضرت ثم وهبته ما يدعيه وبنى دار العدل في بلاده وكان يجلس هو والقاضي
فيها ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده او اكبر أمير عنده. واما شجاعته فاليها
النهاية وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بهما فقال له القطب النساوي الفقيه بالله
عليك لا تخاطر بنفسك وبالاسلام فان اصبت في معركة لا يبقى من المسلمين احد الا اخذه السيف
فقال له نور الدين ومن محمود حتى يقال له هذا من قبلي من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله
الذي لا اله الا هو وأما ماله من المصالح فانه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها دمشق
وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى
الجامع النوري بالموصل وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق وبنى الخانكاهات في جميع
البلاد واوقف على الجميع الوقوف الكثيرة سمعت ان حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار
صوري وكان يكرم العلماء واهل الدين ويعظمهم ويقوم اليهم ويجلسهم معه وينبسط معهم
ولا يرد لهم قولا ويكاتبهم بخط يده وكان وقورا مهيبا مع تواضعه وبالجملة فحسناته كثيرة ومناقبه
غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب

(ذكر ملك ولده الملك الصالح)

لما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسمعيل بالملك بعده وكان عمره احدى عشرة سنة وحلف
له الامراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له
بها وضرب السكة باسمه وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم
وصار مدبر دولته فقال له كمال الدين صاحب مصر هو من أصحاب نور الدين والمصلحة ان
نشاوره في الذي نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا وهو
اقوى منا لانه قد انفرد اليوم بملك مصر فلم يوافق هذا القول اغراضهم وخافوا ان يدخل صلاح
الدين ويخرجهم فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يعزيه
ويهنئه بالملك وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه ان الخطبة والطاعة له كما كانت لابيه
فلما سار سيف الدين غازي صاحب الموصل وملك البلاد الجزرية على ما نذكره فأرسل صلاح
الدين أيضا الى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده واخذها ليحضر في خدمته
و يكف سيف الدين وكتب الى كمال الدين والامراء يقول لو أن نور الدين علم أن فيكم من
يقوم مقامي او يثق اليه مثل ثقته الي لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل
عليه الموت لم يعهد الى احد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري وأراكم قد تفردتم بمولاي
وابن مولاي دوني وسوف أصل الى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازي
كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده وغضب ابن المقدم وجماعة الامراء بالملك

الثواقب * ومن يواقيت
كالجمر قبل الخمود * او الجمر
بعد الجمود * ومن زبرجد
كأطراف الآس نضارة
أو ورق الاخوان غضارة
ومن قطع الماس كمثاقيل
الرمان * في المقادير والاوزان
واجتمعت وفود الاطراف
على ادراك ما لم يرو في كتب
الاولين اجتماع مثله لاحد
من صناديد القروم * وملوك
العجم والروم * وحضر ذلك
المشهد رسل طغان خان
ملك الترك اخي ايلك فرأوا
ما لم تره العيون * ولم يملكه
قارون * صنع الله الذي
امره اذا اراد شيئا ان يقول
له كن فيكون

(ذكر آل فريغون)

قد كانت ولاية الجوزجان
لآل فريغون ايام آل
سامان يتوارثها كابر
عن كابر ويوصي بها
اول الى آخر وهم اشراف
النفوس والهمم * كرام
الاخلاق والشيم * وطاء
الاكناف * لنزاع الاطراف
خصاب الرحال * لوفود
الآمال * دأبهم اجلال قدر
الآداب * ورفع درجات
الكتاب * وافتراض حقوق
الاحرار * واغلاء اسعار
الاشعار * فكم من غريب
آواه احسانهم * ومن اديب

الصالح ولم يرسلوه الى حلب خوفا أن يغلب عليهم شمس الدين على بن الداية فانه كان أكبر
الامراء النورية وانما منعه من الاتصال به والقيام بخدمته مرض لحقه وكان هو واخوته
بحلب وأمرها اليهم وعساكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده ولما عجز عن الحركة أرسل الى
الملك الصالح يدعوه الى حلب ليمتنع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمه قطب الدين فلم
يمكنه الامراء الذين معه من الانتقال الى حلب لما ذكرناه

(ذكر ملك سيف الدين البلاد الجزرية)

كان نور الدين قبل ان يمرض قد أرسل الى البلاد الشرقية الموصل وديار الجزيرة وغيرها
يستدعى العساكر منها لجهة الغزاة والمراد غيرها وقد تقدم ذكره فسار سيف الدين غازى بن
قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل فى عساكره وعلى مقدمته الخادم سعد الدين
كمشتكين الذى كان قد جعله نور الدين بقلعة الموصل مع سيف الدين فلما كانوا ببعض الطريق
وصلت الاخبار بوفاة نور الدين فاما سعد الدين فانه كان فى المقدمة فهرب جريدة وأما سيف
الدين فأخذ كل ما كان له من برك وغيره وعاد الى نصيبين فملكها وأرسل الشحن الى الخابور
فاستولوا عليه وأقطعه وسار هو الى حران فحصرها عدة أيام وبها مملوك لنور الدين يقال له
قايماز الحرانى فامتنع بها وأطاع بعد ذلك على أن تكون حران له وينزل الى خدمة سيف الدين
فقبض عليه وأخذ حران منه وسار الى الرها فحصرها وملكها وكان بها خادم خصى اسود
لنور الدين فسلمها وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر فأعطيها ثم أخذت
منه ثم صار الى ان يستعطى مايقوم به ويقوته وسير سيف الدين الى الرقة فملكها وكذلك
سروج واستكمل جميع بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر فانها كانت منيعة وسوى رأس عين
فانها كانت لقطب الدين صاحب ماردين وهو ابن خال سيف الدين فلم يتعرض اليها وكان شمس
الدين على بن الداية وهو اكبر الامراء النورية بحلب مع عساكرها فلم يقدر على العبور الى
سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد الفالج كان به فأرسل الى دمشق يطلب الملك الصالح فلم يرسل
اليه لما ذكرناه ولما ملك سيف الدين الجزيرة قال له فخر الدين عبد المسيح وكان قد وصل اليه من
سيواس بعد موت نور الدين وهو الذى اقر له الملك بعد أبيه فظن ان سيف الدين يرعى له ذلك
فلم يجن ثمرة ما غرس وكان عنده بعض الامراء قال له الرأى ان تعبر الى الشام فليس به مانع
فقال له اكبر امرائه وهو أمير يقال له عز الدين محمود المعروف بزلفندار قد ملكت اكثر
ما كان لابيك والمصلحة ان تعود فرجع الى قوله وعاد الى الموصل ليقضى الله أمرا كان
مفعولا

(ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها)

لما مات نور الدين محمود صاحب الشام اجتمعت الفرنج وساروا الى قلعة بانياس من اعمال
دمشق فحصروها فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم العساكر عنده بدمشق فخرج عنها
فراسلهم ولاطفهم ثم أغلظ لهم فى القول وقال لهم ان أنتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فنحن
على ما كنا عليه والا فنرسل الى سيف الدين صاحب الموصل ونعامله ونصالحه ونستنجده ونرسل الى
صلاح الدين بمصر فنستنجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها ولا تقومون لنا وأنتم تعلمون ان

اغنام سلطانهم * ومن كسير
جبره انصافهم * ومن حسير
انهضه عطفهم والطافهم
وكان الامير ابو الحرث
احمد بن محمد غرة تلك الدولة
* وانسان تلك المقلة *
وجمال تلك الحلة * وطراز
تلك الحلة * بما أوتى من كرم
خصيب * وكنف رحيب *
وشرف رغيب * ومرتقى
همة بعيدة ومستقى نائل
قريب * وكان الامير
سبكتكين خطب اليه
كريمته على السلطان يمين
الدولة * وامين الملة *
ثم اوجب لولده ابى نصر احمد
ابن محمد كريمة له فانتسجت
اللحمة * واشتبكت
العصمة * والتحمت
الوثائق * واستحكمت
الاواصر والعلائق * ولما
مضى ابو الحرث لسبيله
ورثه ابو نصر ابنه فأوجب
السلطان اقراره على ولايته
ايثارا له بفضل رعايته
وعنايته * الى ان قضى نحبه
فى شهور سنة احدى
واربعمائة وأقرأنى ابو
الفضل احمد بن الحسين
الهمذانى المعروف بالبديع
كتابا اليه * جعله مقدمة
الوفود عليه * فنال به من
رغائب الايادى ماملا به
يديه * وهو كتابى والبحر وان
لم اره * فقد سمعت خبره

صلاح الدين كان يخاف ان يجتمع بنور الدين والآن تقدر الى ذلك الطرف واذا طلبناه الى
بلادكم فلا يمتنع فعلوا ما صدقه فصالحوه على شيء من المال أخذوه واسرى اطلقوا لهم كانوا اخذ
المسلمين وتقررت الهدنة فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره واستعظمه وكتب الى الملك الصالح
والامراء الذين معه يقبح لهم ما فعلوه ويبذل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم وازعاجهم
عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح وكان قصده أن يصير له طريق الى بلاد الشام ليملك البلاد
والامراء الشاميون انما صالحوا الفرنج خوفا منه ومن سيف الدين غازي صاحب الموصل
فانه كان قد اخذ البلاد الجزرية وخافوا منه أن يعبر الى الشام فرأوا صلح الفرنج أصلح من
ان يجيء هذا من الغرب وهذا من الشرق وهم مشغولون عن ردهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في المحرم وقع الحريق ببغداد فاحترق اكثر الظفرية ومواضع غيرها ودام
الحريق الى بكرة وطفئت النار وفيها في شعبان بنى ابن شنكا وهو ابن أخي شملة صاحب
خوزستان قلعة بالقرب من الماهكي ليتقوى بها على الاستيلاء على تلك الاعمال فسير اليه
الخليفة العساكر من بغداد لمنعه فالتقوا فحمل بنفسه على الميمنة فهزمها واقتتل الناس قتالا
عظيما وأسر ابن أخي شملة وحمل رأسه الى بغداد فعلق بباب النوبي وهدمت القلعة وفيها
في رمضان وكان الزمان ربيعا توالت الامطار في ديار بكر والجزيرة والموصل فدامت أربعين
يوما ما رأينا الشمس فيها غير مرتين كل مرة مقدار لحظة وخربت المساكن وغيرها وكثر
الهدم ومات تحته كثير من الناس وزادت دجلة زيادة عظيمة وكان اكثرها ببغداد فانها زادت
على كل زيادة تقدمت منذ بنيت بغداد بذراع وكسر وخاف الناس الغرق وفارقوا البلد
وأقاموا على شاطئ دجلة خوفا من انفتاح القورج وغيره وكانوا كلما انفتح موضع بادروا
بسده ونبع الماء في البلاليع وخرب كثيرا من الدور ودخل الماء الى البيمارستان العضدي
ودخلت السفن من الشبابيك التي له فانها كانت قد تقلعت ثم منّ الله تعالى على الناس بنقص
الماء بعد ان أشرفوا على الغرق وفيها في جمادى الاولى كانت الفتنة ببغداد بين قطب الدين
قايماز والخليفة وسببها ان الخليفة أمر باعادة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء الى الوزارة فمنع منه
قطب الدين وأغلق باب النوبي وباب العامة وبقيت دار الخليفة كالمحاصرة فأجاب الخليفة
الى ترك وزارته فقال قطب الدين لا أقنع الا باخراج عضد الدين من بغداد فأمر بالخروج منها
فالتجأ الى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسمعيل فأخذه الى رباطه وأجاره ونقله الى دار
الوزير بقطفتا فأقام بها ثم عاد الى بيته في جمادى الآخرة وفيها سقط الامير أبو العباس
احمد بن الخليفة وهو الذي صار خليفة من قبة عالية الى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح
فالقى نفسه بعده وسلم ابن الخليفة وصاح فقيل لنجاح لم ألقيت نفسك فقال ما كنت أريد البقاء
بعد مولاي فرعى له الامير أبو العباس ذلك فلما صار خليفة جعله شرابيا وصارت الدولة جميعها
بحكمه ولقبه الملك الرحيم عز الدين وبالغ في الاحسان اليه والتقديم له وخدمه جميع الامراء
بالعراق والوزراء وغيرهم وفيها في رمضان وقع ببغداد برد كبار ما رأى الناس مثله فهدم الدور
وقتل جماعة من الناس وكثيرا من المواشي فوزنت بردة منها فكانت سبعة أرطال وكان عامته

والبيت وان لم ألقه فقد
تصورت خلقه * والملك العادل
وان لم أكن أتيته * فقد لقيت
صيته * ومن رأى من السيف
اثره * فقد رأى أكثره *
ومازلت أبدا أقفو الامير أسمع
بهذا البيت القديم بناؤه *
الفسيح فناؤه * الرحيب
أفناؤه * الكريم أبناؤه *
وأنشد من هذه الحضرة
ضالتي * والعراقي بمنه
وبسره * تريق حسره *
والزمن المنزور يقعد تارة
ويثور * فكم من عام عزمت
وأبت المقادير * ونويت
وعرضت معاذيره والآن
لما وقفت لهذه الزورة
اختلفت على أخبار
الملك العادل في مستقره
واختلفت باختلافها مرة
في قوس الطريق ومرة
في وتره وعلى اقتفاء أثره *
حتى بلغت مبلغي هذا ثم
وسوس الي الشيطان
تقديرا في أقصد هذه
الحضرة طامعا في مال *
أو طامعا الى نوال * وعظم
سلطان هذه الوسوسة حتى
كاد يثنيني عن درك الحظ
من طاعته ولم أبعد ما ألقاه
الشيطان في خلدي أن
يكون * ولا ناشدت
الله الظنون * أن تنصرف
في تصديقي الا الى محرقة
أو رقعة اوختمة أودعها

كالنارنج بكسر الاغصان هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزى فى تاريخه والعهدة عليه وفيها كانت وقعة عظيمة بين المؤيد صاحب نيسابور و بين شاه مازندران قتل فيها كثير من الطايفتين فانهزم شاه مازندران ودخل المؤيد بلاد الديلم وخربها وقتل باهلها وعاد عنها وفيها وقعت وقعة كبيرة بين أهل باب البصرة وأهل باب الكرخ وسببها ان الماء لما زاد سكر أهل باب الكرخ سكرا رد الماء عنهم فغرق مسجد فيه شجرة فانقلعت فصاح اهل الكرخ انقلعت الشجرة لعن الله العشرة فقامت الفتنة فتقدم الخليفة الى علاء الدين تنامش فمال على أهل باب البصرة لانه كان شيعيا وأراد دخول المحلة فمنعه أهلها واغلقوا الابواب ووقفوا على السور وأراد احراق الابواب فبلغ ذلك الخليفة فانكره أشد انكار وأمر باعادة تنامش فعاد ودامت الفتنة اسبوعا ثم انفصل الحال من غير توسط سلطان وفيها عبر ملك الروم خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلج ارسلان فجرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون فلما رأى ملك الروم عجزه عاد الى بلده وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كثيرة وفيها فى جمادى الاولى مات أحمد بن على بن المعمر بن محمد بن عبد الله أبو عبد الله العلوى الحسينى نقيب العلويين ببغداد وكان يلقب الظاهر وسمع الحديث الكثير ورواه وكان حسنة أهل بغداد وفيها توفى الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد ابن محمد العطار الهمدانى سافر الكثير فى طلب الحديث وقراءة القرآن واللغة وكان من اعيان المحدثين وكان له قبول عظيم ببلده عند العامة والخاصة

(ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة)

(ذكر وصول اسطول صقلية الى مدينة الاسكندرية وانهزامهم منها)

فى هذه السنة ظفر أهل الاسكندرية وعسكر مصر باسطول الفرنج من صقلية وكان سبب ذلك ماذكرناه من ارسال أهل مصر الى ملك الفرنج بساحل الشام والى صاحب صقلية ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر فجهز صاحب صقلية اسطولا كثيرا عدته مائتى شينى تحمل الرجالة وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل وستة مراكب كبارا تحمل آلة الحرب واربعين مركبا تحمل الازواد وفيها من الراجل خمسون الفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة منها خمسمائة تركبلى وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية وسيره الى الاسكندرية من ديار مصر فوصلوا اليها فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة من أهلها وطمأنينة فخرج اهل الاسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول وابعدوا عن البلد فمنعهم الوالى عليهم من ذلك وامرهم بملازمة السور ونزل الفرنج الى البر مما يلى البحر والمنارة وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمجانيق وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر الا القليل و رأى الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ماراعهم وسيرت الكتب بالحال الى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال اول يوم الى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قريب السور ووصل ذلك اليوم من العساكر الاسلامية كل من كان فى اقطاعه وهو قريب من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها واحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون

اومدحة أسمعها * اوجعة أسرعها * ثم اذكر هذه الدولة المالكة اغصنها * اوراية انصبها * اوكتيبة اغلبها * أودولة اقلبها * فأما الدرهم والدينار فدفعهما الى * ونزعهما من يدى سواء لدى * لا اشكر واهبهما * ولا اشكو سالبهما * ان لى فى القناعة وقنا * وفى الصناعة بحثا * لا يبعد منال المال اذا أردته * ولا يحوجنى الى ركوب العقاب * وسلوك الشعاب مهما قصدته * بل يجيئنى فيضا * و يتطفل على ايضا وهذه الحضرة حرسها الله تعالى وان احتاج اليها المأمون * ولم يستغن عنها قارون * فان الاحب الى أن أقصدها قصد موال لا قصد سؤال * والرجوع عنها بجمال * أحب الى من الرجوع عنها بمال * قدمت التعريف * وأنا أنتظر الجواب الشريف * فان نشط اضيف ظله خفيف * وضالته رغيف * فلينزجر له بالاستقبال طائر الاقبال * والسلام * وله فيمن اصدر عن فنائه * مثقلا بنعمائه * قال

ألم ترأنى فى سفرتى
لقيت الغنى والمنى والاميرا

وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون الى الدبابات فاحرقوها وصبروا القتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت اماراته ولم يزل القتال الى آخر النهار ودخل اهل البلد اليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثرة القتل والجراح في رجالتهم وأما صلاح الدين فانه لما وصله الخبر سار بعساكره وسير مملوكا له ومعه ثلاثة جنائب ليجد السير عليها الى الاسكندرية يبشر بوصوله وسير طائفة من العسكر الى دمياط خوفا عليها واحتياطا لها فأتى رسل الملك فوصل الاسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عادوا الى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن ان صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد ان يشاهد قتاله وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره فسقط في أيديهم وازدادوا تعبا وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيامهم فغنموها بما فيها من الاسلحة الكثيرة والتجملات العظيمة وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم الى البحر وقربوا شوانيهم الى الساحل ليركبوا فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون الى بكرة ودام القتال الى ان اضحى النهار فغلبهم أهل البلد وهم ما بين قتيل واسير وكفى الله المسلمين شرهم

(ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر)

في أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر واجتمع اليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير وكان هناك أمير من الصلاحية في إقطاعه وهو أخو الامير أبي الهيجاء السمين فقتله الكنز فعظم قتله على أخيه وهو من اكبر الامراء وأشجعهم فسار الى قتال الكنز وسير معه صلاح الدين جماعة من الامراء وكثيرا من العسكر ووصلوا الى مدينة طود فامتنعت عليهم فقاتلوا من بها وظفروا بهم وقتلوا منهم كثيرا وذلوا بعد العز وقهروا واستكانوا ثم سار العسكر بعد فراغهم من طود الى الكنز وهو في طغيانه يعمه فقاتلوه فقتل هو ومن معه من الاعراب وغيرهم وأمنت بعده البلاد واطمأن أهلها

(ذكر ملك صلاح الدين دمشق)

في هذه السنة سلخ ربيع الاول ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق وسبب ذلك ان نور الدين لما مات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازي الى حلب كما ذكرناه فأقام بها عند شمس الدين علي بن الداية فلما استولى سيف الدين على البلاد الجزرية خاف ابن الداية أن يعبر الى حلب فيملكها فأرسل سعد الدين الى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر الى حلب فلما قارب دمشق سير اليه شمس الدين محمد بن المقدم عسكرا فنهبوه وعاد منهزما الى حلب فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه ثم ان الامراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة فعلموا ان مسيره الى حلب اصلح للدولة من مقامه بدمشق فأرسلوا الى ابن الداية يطلبون ارسال سعد الدين

ولما تراءى شممت التراب
وكنت امرأ لا أشم العبيرا
لقيت امرأ مل عين الزمان
يعلو جلالا ويرنو منيرا
لآل فريغون في المكرمات
يد أولا واعتذار أخيرا
اذا ما حللت بمغناهم
رأيت نعيما وملكا كبيرا
فلا يعدم الملك ذو روعة
يمون المنى ويسر السريرا
ولابي الفتح البستي فيهم
بنو فريغون قوم في وجوههم
سيما الهدى وسناء السودد العالي
كأنما خلقوا من سودد وعلا
وسائر الناس من طين وصلصال
من نال منهم تقل هذا أجلهم
قدرا وأمضاهم بالنفس والمال
يا سائلي ما الذي حصلت عندهم
دع السؤال وقم فانظر الى حالي
أما ترى أن حالي كيف قد حليت
بيوم ألم ترحالي عنهم ترحالي
فانما كل ما كان من شكر أبوهم
فان ذا البحر لا لاغتفالي

لما أخذ الملك الصالح بجهزه وسيره * وعلى نفسه ابراقش تجنى * فسار الى دمشق فى المحرم من هذه السنة واخذ الملك الصالح وعاد الى حلب فلما وصلوا اليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية واخوته وعلى رئيس بن الخشاب رئيس حلب ومقدم الاحداث بها ولولا مرض شمس الدين بن الداية لم يتمكن من ذلك واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح نخاف ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق وقالوا ان استقرامر حلب اخذ الملك الصالح وسار به الينا وفعل مثل مافعل بحلب وكاتبوا سيف الدين غازى صاحب الموصل ليعبر الفرات اليهم ليسلموا اليه دمشق فلم يفعل وخاف ان تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير الى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمه وعسكر حلب من وراء ظهره فيهلك اشار عليه بهذا فامتنع عزالدين والجبان يقدر البعيد من الشر قريبا ويرى بالجبن حزما كما قال

يرى الجبناء ان الجبن حزم * وتلك طبيعة الرجل الجبان

فلما اشار عليه بهذا الرأى قبله وامتنع من قصد دمشق وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحهما على ما اخذه من البلاد فلما امتنع عن العبور الى دمشق عظم خوفهم وقالوا حيث صالحهم سيف الدين لم يبق لهم مانع عن المسير الينا فكاتبوا حينئذ صلاح الدين يوسف ابن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه عليهم وكان كبيرهم فى ذلك شمس الدين بن المقدم ومن أشبه أباه فما ظلم وقد ذكرنا مخامرة أبيه فى تسليم سنجار سنة اربع واربعين وخمسمائة فلما وصلت الرسل الى صلاح الدين بذلك لم يلبث وسار جريدة فى سبعمائة فارس والفرنج فى طريقه فلم يبال بهم فلما وطئ ارض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتبه نخرج والقيه فلما رأى قلة من معه خاف على نفسه واجتمع بالقاضى الفاضل وقال ما أرى معكم عسكرا وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار اخذكم اهل السواد فان كان معكم مال سهل الامر فقالوا معنا مال كثير يكون خمسين الف دينار فضرب صاحب بصرى على راسه وقال هلكتم واهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار ثم سار صلاح الدين الى دمشق فخرج كل من بها من العسكر اليه فلقوه وخدموه ودخل البلد ونزل فى دار والده المعروفة بدار العقيقى وكانت القلعة بيد خادم اسمه ريحان فاحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزورى وهو قاضى البلد والحاكم فى جميع اموره من الديوان والوقف وغير ذلك وارسله الى ريحان ليسلم القلعة اليه وقال انا مملوك الملك الصالح وماجئت الا لانصره واخدمه واعيد البلاد التى اخذت منه اليه وكان يخطب له فى بلاده كلها فصعد كمال الدين الى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين اليها واخذ مافيها من الاموال واخرجها واتسع بها وثبت قدمه وقويت نفسه وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالمملوك والخطبة والسكة باسمه

(ذكر ملك صلاح الدين مدينتى حمص وحماة)

لما استقر ملك صلاح الدين لدمشق وقرر أمرها استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغدكين بن أيوب وسار الى مدينة حمص مستهل جمادى الاولى وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة فى اقطاع الامير فخر الدين مسعود الزعفرانى فلما مات نور الدين لم

(ذكر أمير المؤمنين القادر بالله واتصاله منصب آبائه الراشدين بدار السلام واستقرار الامامة عليه وانعقاد البيعة له بعد الطائع لله وما اشتبك من الحال بين السلطان بهاء الدولة وأمين الملة وبين بهاء الدولة وضياء الملة أبى نصر ابن عضد الدولة فى زمانه) قد كان بهاء الدولة وضياء الملة ينقم من الطائع لله أمورا الصدره فيها من غير رفاقه * وعدوله بها عن حكم استحقاقه * فدعاه ما نوالى عليه من خلاف رضاه الى مراعاة مصلحة الدين باختيار من يرعى حق الامامه * ويتولى حياطة الخاصة والعامه * ويعزل هوى النفس فى اتباع الحق واستشعاره * ونصرة الحق واظهاره * وأخذ يتلطف فى التدبير عليه الى أن تمكن منه نخلعه *

يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها ولم يكن له في قلاع هذه البلاد حكم انما فيها ولاة لنور الدين وكان بقلعة حمص وال يحفظها فلما نزل صلاح الدين على حمص حادي عشر الشهر المذكور راسل من فيها بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم من الغد فملك البلد وأمن أهله وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة الى ان عاد من حلب على ما نذكره ان شاء الله وترك بمدينة حمص من يحفظها ويمنع من بالقلعة من التصرف وان تصعد اليهم ميرة وسار الى مدينة حماة وهو في جميع أحواله لا يظهر الا طاعة الملك الصالح بن نور الدين وانه انما خرج ليحفظ بلاده عليه من الفرنج واستعادة ما أخذه سيف الدين غازي صاحب الموصل من البلاد الجزرية فلما وصل الى حماة ملك المدينة مستهل جمادى الآخرة وكان بقلعتها الامير عز الدين جورديك وهو من المماليك النورية فامتنع من التسليم الى صلاح الدين فأرسل اليه صلاح الدين يعرّفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح وانما يريد حفظ بلاده عليه فاستحلفه جورديك على ذلك وسيره الى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفي اطلاق شمس الدين علي وحسن وعثمان أولاد الداية من السجن فسار جورديك الى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك الى حلب قبض عليه كمشتكين وحبسه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة الى صلاح الدين فملكها

(ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حمص وبعلبك)

لما ملك صلاح الدين حماة سار الى حلب فحصرها ثالث جمادى الآخرة فقاتله أهلها وركب الملك الصالح وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم قد عرفتم احسان أبي اليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدي اليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق وقال من هذا كثيرا وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الاموال والانفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده وجدّوا في القتال وفيهم شجاعة قد ألفوا الحرب واعتادوها حيث كان الفرنج بالقرب منهم فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل جوشن فلا يقدر على القرب من البلد وأرسل سعد الدين الى سنان مقدم الاسماعيلية وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم الى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة بوقبيس فعرفهم لانه جارهم في البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رآهم قال لهم ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الاسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا وبقي صلاح الدين محاصرا حلب الى سلخ جمادى الآخرة ورحل عنها مستهل رجب وسبب رحيله ان القومص الصنجيلي صاحب طرابلس كان قد أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبقي في الحبس الى هذه السنة فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير فلما وصل الى بلده اجتمع الفرنج عليه يهنئونه بالسلامة وكان عظيما فيهم من أعيان شياطينهم فاتفق ان مري ملك الفرنج لعنه الله مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأيا ومكرا ومكيدة فلما توفي خلف ابنا مجذوما عاجزا عن تدبير الملك فملكه الفرنج صورة لا معنى تحتها وتولى القمص تدبير الملك الحل والعقد عن أمره يصدرون فأرسل اليه من حلب يطلبون منه ان يقصد بعض

واحتوى عليه وعلى ما كان جمعه • وذلك في شعبان سنة احدى وثمانين وثلثمائة وأرسل الى البطائح وبها القادر بالله أبو العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله فاستقدمه دار السلام لعقد البيعة له سدا للثلمه • وتطرا للامه • وارتهانا للالفه • واحتلابا للمصلحة الجليله • فقدمها في شهر رمضان من هذه السنة وتسارع الناس الى مبايعته • واصفقوا على طاعته • وتراضوا عن طيب النفوس بامامته • وتباهوا شكرا لله على ما أتاحه لهم من بركات خلافته • ثقة بما اشتهر في الآفاق من مناقبه الغره • وضرائبه الزهره • ونشأته المسطورة على صفحات الدهر • فقام بما قلده الله من طوق الامامة مفوضا اليه أمره • ومتوكلا عليه وحده • فلم يرفي مقرونين سرير الخلافة أوقرمنه

البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم فسار الى حمص ونازلها سابع رجب فلما تجهز لقصدها
سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب فوصل الى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على
حمص بيوم ثم رحل الى الرستن فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين اليها
فحصر القلعة الى ان ملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة فصار أكثر الشام
بيده ولما ملك حمص سار منها الى بعلبك وبها خادم اسمه يمن وهو وال عليها من أيام نور الدين
فحصرها صلاح الدين فأرسل يمن يطلب الامان له ولمن عنده فأمنهم صلاح الدين وتسلم القلعة
رابع عشر رمضان من السنة المذكورة

(ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار)

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين الى ابن عمه
سيف الدين غازي ابن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويطلب ان يعبر اليه
ليقصدوا صلاح الدين ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد
الدين زنكي صاحب سنجار ويأمره ان ينزل اليه بعساكره ليجتمعوا على المسير الى الشام
فامتنع من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لانه هو الكبير فحمله
الطمع على الامتناع على أخيه فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعودا في
عسكر كثير هو معظم عسكره وسيره الى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبر أمير معه يقال له
عز الدين محمود ويلقب أيضا زلفندار وجعله المدبر للامر وسار سيف الدين الى سنجار فحصرها
في شهر رمضان وقاتلها وجد في القتال وامتنع عماد الدين بها وجد في حفظها والذب عنها فدام
الحصار عليها فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من
صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل الى الموصل وثبت قدم
صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازي في
الصلح فلم يستقر حال

(ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب)

في هذه السنة سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين وعز الدين زلفندار الى حلب واجتمع
معهم عساكر حلب وساروا كلهم الى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين الى سيف
الدين يبذل تسليم حمص وحماة وان يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم
يجب الى ذلك وقال لابد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعود الى مصر وكان صلاح
الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب فلما امتنع سيف الدين من اجابته الى ما بذل سار في
عساكره الى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا تاسع عشر رمضان بالقرب من مدينة حماة
بموضع يقال له قرون حماة وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه
الا انه قد رزق سعادة وقبولا من سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفي
وانهزموا لا يلوي أخ على أخيه وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى
صلاح الدين ثباته قال اما ان هذا أشجع الناس أو انه لا يعرف الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه
فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم

حماه * وأوفر أناه *
واصلب قناه * وأصدق
تقاه * وأرضى سيره *
وأذكى بصرا وبصيره *
وأزكى علانا وسريره * وأتم
جلالة وجزاله * وأعم سياسة
وحراسه * نعم ولا أقوى
منه جنانا * وأندى بنانا *
واعدل عقابا واحسانا *
وعطفته عاطفة القربى
على الطائع لله فاستخصه
لمنادمته * واجتباه
لمصاحبته * والحفه جناح
رعايته وحمايته * تفاديا
من غضاضة تلحقه في زمانه *
او نكبة ترهقه في ظل
سلطانه وجانب امانه * الى
ان فرق بينهما الدهر المولع
بالتفريق * واخذ الرفيق
عن الرفيق * ورثاه ابو
الحسن محمد بن الحسين بن
موسى العلوي المعروف
بالرضى الموسوي بقصيدة
منها

ان كان ذاك الطود خر
فبعد ما استعلى طويلا
موف على القلل الذوا
هب في العلا عرضا وطولا
قرم يسدد لحظه
فيرى القروم له مثولا

وغنموا منهم غنائم كثيرة وآلة وسلاحا عظيما ودوابّ فارهة وعادوا بعد طول السكار مستريحين
وعاد الملتزمون الى حلب وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها محاصرا لها ومقاتلا وقطع حينئذ
خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة في بلاده ودام محاصرا لهم فلما طال
الامر عليهم راسلوه في الصلح على ان يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فأجابهم
الى ذلك واستقام الصلح ورحل عن حلب في العشر الاول من شوال ووصل الى حماة ووصلت
اليه بها الخلع الخليفتية مع رسوله

(ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعرين)

في هذه السنة في العشر الآخر من شوال ملك صلاح الدين قلعة بعرين من الشام وكان صاحبها
فخر الدين مسعود بن الزعفراني وهو من اكابر الامراء النورية فلما رأى قوة صلاح الدين نزل
منها واتصل بصلاح الدين وظن ان صلاح الدين يكرمه ويشاركه في ملكه ولا ينفرد عنه بأمر
مثل ما كان مع نور الدين فلم ير من ذلك شيأ ففارقه ولم يكن بقي له من اقطاعه التي كانت له في الايام
النورية غير بعرين ونائبه بها فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب عاد الى حماة وسار
منها الى بعرين وهي قريبة منها فحصرها ونصب عليها المنجنيقات وادام قتالها فسلمها اليه
بالامان فلما ملكها عاد الى حماة فأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي وأقطع
حمص ناصر الدين ابن عمه شيركوه وسار منها الى دمشق فدخلها أواخر شوال من السنة

(ذكر ملك البهلوان مدينة تبريز)

في هذه السنة ملك البهلوان بن ايلدكز مدينة تبريز وهي من جملة بلاد آقسنقر الاحمديلي
وسبب ذلك ان البهلوان سار الى مراغة وحصرها وكان ابن آقسنقر الاحمديلي قد مات وأوصى
بالملك لابنه فلك الدين فقصده البهلوان ونزل على قلعة روين دز وحصرها فامتنعت عليه فتركها
وحصر مراغة وسير أخاه قزل ارسلان في جيش الى مدينة تبريز فحصرها ايضا وكان البهلوان
قد قتل أهل مراغة فظفروا بطائفة من عسكره فخلع عليهم صدر الدين قاضي مراغة وأطلقهم
فحسن ذلك عند البهلوان وشرع القاضي في الصلح على ان يسلموا تبريز الى البهلوان فأجيب الى
ذلك واستقرت القاعدة عليه وحلف كل واحد منهما لصاحبه وتسلم البهلوان تبريز وأعطاها
أخاه قزل ارسلان ورحل عن مراغة بعسكره

(ذكر وفاة شملة)

في هذه السنة مات شملة التركماني صاحب خوزستان وكان قد كثرت ولايته وعظم شأنه وبقي
مدة طويلة وبقي كذلك زيادة على عشرين سنة وكان سبب موته انه قصد بعض التركمان
فعلموا بذلك فاستعانوا بشمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب عراق العجم فسير اليهم جيشا
فاقتتلوا فأصاب شملة سهم ثم أخذ أسيرا وولده وابن أخيه وتوفي بعد يومين وهو من التركمان
الافشرية ولما مات ملك ابنه بعده

(ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد)

في هذه السنة في شوال سير علاء الدين تامش وهو من أكابر الامراء ببغداد وكان قطب الدين
قايماز زوج اخته عسكرا الى العراق فنهبوا اهله وبالغوا في أذاهم فجاء منهم جماعة الى بغداد

ويرى عزيزا حيث حل
ولا يرى الاذليلا
كالليث الا انه اغتذ
الهلا والدوغيلا
وعلاء لى الاقران لا
مثلا يعدولا عديلا
من معشر ركبوا العلا
وابوا عن الكرم النزولا
غر اذا نسبوا الناك
ثروا اللوامع والحجولا
كرموا فروعا بعدما
طابوا وقد كرموا اصولا
نسب غدار واده
يستصبون له الفحولا
يا ناصر الدين الذي
رجع الزمان به كليلا
يا صارم المجد الذي
ملئت مضاربه فلولا
يا كوكب الاحسان اعـ
ـجلك الدجى عنا افولا
يا غارب النجم المقا
م غدوت منه ولا بديلا
لهفي على ماض مضى
ان لا ارى منه بديلا
وزوال ملك لم يكن
يوما يقدر ان يزولا
ومنازل سطا الزما
ن على معالمها الطلولا
من بعد ما كانت على
الايام مرباة تكولا
والاسد تربة كرالقنا
فيها وترتبط الخيولا
ويتبع المتن الجنا
م ويطلق الجدا الجزيلا
ن يتج الآمال يو
م تعود بالبان سولا

واستغاثوا فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز وتنامش وتحكمهما عليه فقصدوا جامع القصر واستغاثوا فيه ومنعوا الخطيب وفاتت الصلاة أكثر الناس فأنكر الخليفة ما جرى فلم يلتفت قطب الدين وتنامش الى ما فعل واحتقروه فلا جرم لم يمهلهم الله تعالى لاحتقارهم الدعاء وازدرائهم أهله فلما كان خامس ذى القعدة قصد قطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطار وكان صاحب المخزن وهو خاص الخليفة وله به عناية تامة فلم يراع الخليفة فى صاحبه فأرسل اليه يستدعيه ليحضر عنده فهرب فاحرق قطب الدين داره وحالف الامراء على المساعدة والمظاهرة له وجمعهم وقصد دار الخليفة ليعلمه ان ابن العطار فيها فلما علم الخليفة ذلك ورأى الغلبة صعد الى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادما فصاح واستغاث وقال للعامة مال قطب الدين لكم ودمه لى فقصد الخلق كلهم دار قطب الدين للنهب فلم يمكنه المقام لضيق المنازع وغلبة العامة فهرب من داره من باب فتحه فى ظهرها لكثرة الخلق على بابها وخرج من بغداد ونهبت داره وأخذ منها من الاموال ما لا يعد ولا يحصى فرؤى فيها من التنعم ما ليس لاحد مثله فمن جملة ذلك ان بيت الطهارة الذى كان له فيه سلسلة ذهب من السقف الى محاذى وجه القاعد على الخلاء وفى اسفلها كرة كبيرة ذهب مخرمة محشوة بالمسك والعنبر ليشمها اذا قعد فتشبث انسان وقطعها ودخل بعض الصعاليك فأخذ عدة أكياس مملوءة دنانير وكان الاقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به الناس فلما أخذ ذلك الصعلوك الاكياس قصد المطبخ فأخذ منه قدرا مملوءة طبيخا وألقى الاكياس فيها وحملها على رأسه والناس يضحكون منه فيقول انا أريد شيأ اطعمه عيالى اليوم فنجا بما معه فاستغنى بعد ذلك فظهر المال ولم يبق من نعمة قطب الدين فى ساعة واحدة قليل ولا كثير ولما خرج من البلد تبعه تنامش وجماعة من الامراء فنهبت دورهم ايضا وأخذت أموالهم واحرق أكثرها وسار قطب الدين الى الحلة ومعه الامراء فسير الخليفة اليه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ فلم يزل به يخدعه حتى سار عن الحلة الى الموصل على البر فلحقه ومن معه عطش عظيم فهلك أكثرهم من شدة الحر والعطش ومات قطب الدين قبل وصوله الى الموصل فحمل ودفن بظاهر باب العمادى وقبره مشهور وهذا عاقبة عصيان الخليفة وكفران الاحسان والظلم وسوء التدبير فانه ظلم اهل العراق وكفر احسان الخليفة الذى كان قد غمره ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الامور كلها كما كانت عامة بغداد كانوا يريدونه وكان قوى بالاحسان على البلاد فأطاعوه ولما مات فى ذى الحجة وصل علاء الدين تنامش الى الموصل فأقام مدة ثم أمره الخليفة بالقدوم الى بغداد فعاد اليها وبقى بها الى ان مات بغير اقطاع وكان هذا آخر أمرهم ولما أقام قطب الدين بالحلة امتنع الحاج من السفر فتأخروا الى ان رحل عنها فدخلوا من الكوفة فى ثامن عشر يوما وهذا ما لم يسمع بمثله وفات كثيرا منهم الحج ولما هرب قطب الدين خلع الخليفة على عضد الدين الوزير واعيد الى الوزارة قال بعض الشعراء فى قطب الدين وتنامش هذه الابيات

انكنت معتبرا بذلك زائل * وحوادث عقبة الادلاج
فدع العجائب والتواريخ الاولى * وانظر الى قيماز وابن تقاج

من يرد دالشمر الطوال
لو يكشف الخطب الجليلا
وتراه يمنع دونها
وادى النوائب أن يسيلا
عقاد ألوية الملوك *

له على العلا جليلا
والمقالات خطباء العراق
وشعراؤها كأعراف
الجياد على مجالس الخلافة
فى امتداح القادر بالله أمير
المؤمنين * وذكر مآثر
أيامه ومفاخر الخلافة *
مرابيع الكرم * وينابيع
الحكم * ومصابيح الظلم *
ومجاديح الامم * وليوث
البهم * وغيوث القحم *
وبلغنى ان مقاماتهم مدونة
بالعراق من بين منظوم
ومنثور * ونقر وشذور *
فلا حاجة بنا الى تتبع
ذكرها مع اشتهارها *
وحكى أبو محمد عبد السلام
ابن محمد بن الهيصم أحد
أعيان الكرامية بنيسابور
قال قمت فى مجلس القادر
بالله أمير المؤمنين خطيبا
بحضرة بنى هاشم ومشايخ
بغداد واعيان الحجيج
فقلت الحمد لله ذى العزة
القاهره * والحجة الباهره *
والنعم المتظاهره * الذى عم
احسانه * ودام سلطانه *
ولطف شانه * فلا راد لقضائه
* ولا مانع لعطائه * ولا
معقب لحكمه * ابتعث
محمدا صلى الله عليه من

عفت الزمان عليهما فعفاهما * من كاسه صرفا بغير مزاج
فتبدلوا بعد القصور وظلها * ونعيمها بمهامه وفجاج
فليحذر الباقون من امثالها * نكبات دهر خائن مزعاج

وكان قطب الدين كريما حليم الوجه حسن الاخلاق محبا للعدل والاحسان كثير البذل للمال والذى كان يجرى منه انما كان يحمله عليه تامش ولم يكن بارادته

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة مات زعيم الدين صاحب المخزن واسمه يحيى بن عبد الله بن محمد بن المعمر بن جعفر أبو الفضل وحج بالناس عدة سنين واليه الحكم فى الطريق وتاب عن الوزارة وتنقل فى هذه الاعمال أكثر من عشرين سنة وكان يحفظ القرآن

(ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين)

فى هذه السنة عاشر شوال كان المصاف بين سيف الدين غازى بن مودود وبين صلاح الدين يوسف بن أيوب بتل السلطان على مرحلة من حلب على طريق حماة وانهزم سيف الدين وسبب ذلك انه لما انهزم اخوه عز الدين مسعود من صلاح الدين فى العام الماضى وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين صاحب سنجار عاد الى الموصل وجمع عساكره وفرق فيهم الاموال واستنجد صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدتهم ستة آلاف فارس فسار الى نصيبين فى ربيع الاول من هذه السنة واقام بها فاطال المقام حتى انقضى الشتاء وهو مقيم فضجر العسكر ونفدت نفقاتهم وصار العود الى بيوتهم مع الهزيمة أحب اليهم من الظفر لما يتوقعونه ان ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة ثم سار الى حلب فنزل اليه سعد الدين كمشتكين الخادم مدبر دولة الملك الصالح ومعه عسكر حلب وكان صلاح الدين فى قلة من العساكر لانه كان صالح الفرنج فى المحرم من هذه السنة على ما نذكره ان شاء الله وقد سير عساكره الى مصر فارسل يستدعيهم فاتوه على الجوه ليلحقوا غرضهم منه لكنهم تربثوا وتأخر واعتمد على ثقته عساكره فسار من دمشق الى ناحية حلب ليلقى سيف الدين فالتقى العسكران بتل السلطان وكان سيف الدين قد سبقه فلما وصل صلاح الدين كان وصوله العصر وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا فالقوا انفسهم الى الارض ليس فيهم حركة فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم وهم على هذا الحال فقال زلفندار ما بنا حاجة الى قتال هذا الخارجى فى هذه الساعة غدا بكرة نأخذهم كلهم فترك القتال الى الغد فلما اصبحوا اصطفوا للقتال فجعل زلفندار وهو المدبر للعسكر السيفى اعلامهم فى وهدة من الارض لا يراها الا من هو بالقرب منها فلما لم يرها الناس ظنوا ان السلطان قد انهزم فلم يثبتوا وانهزموا ولم يلو اخ على أخيه ولم يقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد ووصل سيف الدين الى حلب وترك بها أخاه عز الدين مسعود افى جمع من العسكر ولم يقم هو وعبر الفرات وسار الى الموصل وهو لا يصدق انه ينجو وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل فاستشار وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز فى مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عقر الحميدية فقال له مجاهد

خير أرومة العرب * ولدا * وأفضل جراثيمها محتدا * وأطولها ضبادا * وأرسخها فى المكرمات أوتادا * فأيده أحسن تأييده * وأكد أمره أفضل تأكيد * حتى استقل الدين ناهضا * واضمحل الشرك داحضا * وظهر أمر الله والمشركون كارهون فعليه صلوات الله عدد الرمل والحصا * ما طلعت عليه شمس الضحى * وعلى آله الطيبين * ثم قيض الله من بعده الخلفاء الراشدين * لتمهيد الدين * وتوهين كيد الملحدين * فبسطوا للاسلام بساطه * ونهجوا لاهل الايمان صراطه * الى أن تأدى الامر الى ذويه * من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنى صنو أبيه * فأقاموا الاسلام من أوده * وأسندوا الامر الى مستنده * معتصمين بحبل الله * صادعين بأمر الله * معظمين حرمات الله * وهلم جرا الى أن تأكدت بيعة الخلافة بأمير المؤمنين * القادر بالله فبهر نوره العالمين * وشفى ذكره على المنابر صدور قوم مؤمنين * من بعد التواء من اظهر العناد * وازورار من قصد الفساد * وأبى الله الا نصرة الحق وادالته * وقمع الباطل واذالته * ولقد حدثنى محمد

الدين ارأيت ان ملكت الموصل علك اتقدر ان تمتنع ببعض ابراج القصيل فقال لافقال برج في القصيل خير من العقر ومازال الملوك ينهزمون ويعاودون الحرب واتفق هو والوزير على شدازره وتقويته قلبه فثبت ثم اعرض عن زلفندار وعزله واستعمل مكانه على امارة الجيوش مجاهد الدين قايماز على مانذكره ان شاء الله وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس ولم يكن كذلك انما كان على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس اقل من خمسمائة فانني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وميسرة وقلبا وجاليشة وغير ذلك وكان المتولى لذلك والكاتب له أخي مجد الدين ابا السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله وانما قصد العماد ان يعظم أمر صاحبه بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفا والحق احق ان يتبع ثم ياليت شعرى كم هي الموصل واعمالها الى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون الف فارس

(ذكر ماملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين)*

لما انهزم سيف الدين وعسكره ووصلوا الى حلب عاد سيف الدين الى الموصل كما ذكرناه وترك بحلب أخاه عز الدين مسعودا في طائفة من العسكر نجدة للملك الصالح وأما صلاح الدين فانه لما استولى على اثقال العسكر الموصلي هو وعسكره وغنموها واتسعوا بها وقووا سار الى براعة فحصرها وقاتله من بالقلعة ثم تسلمها وجعل فيها من يحفظها وسار الى مدينة منبج فحصرها آخر شوال وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي وكان شديد العداوة لصلاح الدين والتحريض عليه والاطماع فيه والطعن فيه فصلاح الدين حنق عليه متهدد له فاما المدينة فلكها ولم تمتنع عليه وبقي القلعة وبها صاحبها قد جمع اليها الرجال والسلاح والذخائر فحصره صلاح الدين وضيق عليه وزحف الى القلعة فوصل النقابون الى السور فنقبوها وملكوها عنوة وغنم العسكر الصلاحي كل مافيها وأخذ صاحبها أسيرا فأخذ صلاح الدين كل ماله واصبح فقيرا لايملك نقيرا ثم اطلقه صلاح الدين فسار الى الموصل فأقطعه سيف الدين غازى مدينة الرقة ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار الى قلعة اعزاز فنازلها ثالث ذى القعدة من السنة وهي من احسن القلاع وامنعها فنازلها وحصرها وأحاط بها وضيق على من فيها ونصب عليها المنجنيقات وقتل عليها كثير من العسكر فبينما صلاح الدين يوما في خيمة لبعض أمرائه يقال له جاولى وهو مقدم الطائفة الاسدية اذوثب عليه باطني فضربه بسكين في رأسه فجرحه فلولا ان المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله فامسك صلاح الدين يد الباطني بيده ألا انه لايقدر على منعه من الضرب بالكلية انما يضرب ضربا ضعيفا فبقي الباطني يضرب به في رقبته بالسكين وكان عليه كزاغند فكانت الضربات تقع في زيق الكزاغند فتقطعه والزرد يمنعها من الوصول الى رقبته لبعد اجله فجاء امير من امرائه اسمه يازكش فامسك السكين بكفه فجرحه الباطني ولم يطلقها من يده الى ان قتل الباطني وجاء آخر من الاسماعيلية فقتل أيضا وثالث فقتل وركب صلاح الدين الى خيمته كالمذعور لايصدق بنجاته ثم اعتبر جنده فمن انكره أبعده ومن عرفه اقره على خدمته ولازم حصار اعزاز ثمانية وثلاثين يوما كل يوم أشد قتالا مما قبله

ابن الفضل الصولي عن المبرد أن العباس بن أبي عبدون حدثه ان سعيد الخطيب قال لما بايع الفضل بن مروان المعتصم بالله امير المؤمنين قام فحمد الله وأثنى عليه وقال

بايعت منبسطا ولولم تنبسط
كفي لبيعته قطعت بنانها
من ذا اليه لايمد يمينه
قطع الاله يمينه فأبانها

ولو الذى في خدمة امير المؤمنين مايقارب هذا اويشاكله * وذلك انه أظهر بيعته لوارد كتابه على حين التواء من التوى بناحية بلخ وقال فيها

سبقت يميني نحو بيعة قادر
بالله لما حالفته يد القدر
ماضر بيعته التواء من التوى
والله مبرمها بكنون الزبر
واقد أراه أحق من وطئ الحصى
بوراثة الشم البهاليل الغرر
فلا خلعن القلب منى ان أبى
ولاقلعن العين ان زاغ البصر

وها أنا قد ساعدني توفيق الله حتى وطئت بساط أمير المؤمنين شاكرا ما أنعم الله علينا بولي أمير المؤمنين محمود بن سبكتكين فانه في رسمه كاسمه والله نسأل أن يديم سلامة أمير المؤمنين* وأن يبلغه أمله في الامير أبي الفضل ولي عهد المسلمين*

وكثرت النقوب فيها فاذعن من بها وسلموا القلعة اليه فتسلمها حادي عشر ذي الحجة

•(ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها)•

لما ملك صلاح الدين قلعة اعزاز رحل الى حلب فنازلها منتصف ذي الحجة وحصرها وبها الملك الصالح ومن معه من العساكر وقد قام العامة في حفظ البلد القيام المرضي بحيث انهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد لانه كان اذا تقدم للقتال خسر هو وأصحابه وكثر الجراح فيهم والقتل وكانوا يخرجون ويقاتلونه ظاهر البلد فترك القتال واخلد للمطاولة وانقضت سنة احدى وسبعين ودخلت سنة اثنتين وسبعين وهو محاصر لها ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح في العشرين من المحرم فوقعت الاجابة اليه من الجانبين لان أهل حلب خافوا من طول الحصار فانهم ربما ضعفوا وصلاح الدين رأى انه لا يقدر على الدنو من البلد ولا على قتال من به فأجاب أيضا وتقررت القاعدة في الصلح للجميع للملك الصالح ولسيف الدين صاحب الموصل ولصاحب الحصن ولصاحب ماردين وتحالفوا واستقرت القاعدة ان يكونوا كلهم عونا على الناكث الغادر فلما انفصل الامر رحل عن حلب بعد ان أعاد قلعة اعزاز الى الملك الصالح فانه اخرج الى صلاح الدين أختا له صغيرة طفلة فاكرمها صلاح الدين وحمل لها شيأ كثيرا وقال لها ما تريدين قالت أريد قلعة اعزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها اليهم ورحل الى بلد الاسماعيلية

•(ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها واقامة غيره)•

في هذه السنة في ذي الحجة كان بمكة حرب شديدة بين امير الحاج طاشتكين وبين الامير مكثر ابن عيسى امير مكة وكان الخليفة قد أمر امير الحاج بعزل مكثر واقامة أخيه داود مقامه وسبب ذلك انه كان قد بنى قلعة على جبل أبي قبيس فلما سار الحاج عن عرفات لم يبيتوا بالمزدلفة وانما اجتازوا بها فلم يرموا الجمار انما بعضهم رمى بعضها وهو سائر ونزلوا الابطح فخرج اليهم ناس من اهل مكة فحاربوهم وقتل من الفريقين جماعة وصاح الناس الغزاة الى مكة فهجموا عليها فهرب أمير مكة مكثر فصعد الى القلعة التي بناها على جبل أبي قبيس فحصروه بها ففارقها وسار عن مكة وولي أخوه داود الامارة ونهب كثيرا من الحاج وأخذوا من اموال التجار المقيمين بها شيأ كثيرا واحرقوا دورا كثيرة ومن اعجب ما جرى فيها ان انسانا زراقا ضرب دارا بقارورة نفط فاحرقها وكانت لايتام فاحترقت ما فيها ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكانا آخر فاتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها فاحترق هو بها فبقي ثلاثة أيام يعذب بالحريق ثم مات

•(ذكر عدة حوادث)•

في هذه السنة في شهر رمضان انكسفت الشمس جميعها واظلمت الارض حتى بقي الوقت كأنه ليل مظلم وظهرت الكواكب وكان ذلك ضحوة النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه وكنت حينئذ صبيا بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخ لنا من العلماء اقرأ عليه الحساب فلما رأيت ذلك خفت خوفا شديدا وتمسكت به فقوى قلبي وكان عالما بالنجوم ايضا وقال لي الآن ترى هذا جميعه انصرف فانصرف سريعا وفيها ولى الخليفة المستضيء بأمر الله حجبة الباب أبا طالب نصر بن علي

الغالب بالله ابن أمير المؤمنين ويلقبه بسعادة آبائه الراشدين • وأسلافه الطيبين الطاهرين • والحمد لله رب العالمين • وصلى الله على نبيه محمد وآله اجمعين • قال فأمر القادر بالله أمير المؤمنين بأن تنسخ الخطبة في جملة أخواتها المسطورة المخزونة وانما ارجت منابر خراسان بذكر القادر بالله أمير المؤمنين على ما أوجبته طاعة السلطان يمين الدولة وأمين الملة لامر الله في انتقال محنته واقتضاء خليفته وحجته • كتابه بعبارة من الافضاء الى ابنه أبي الفضل بعهده • في ولاية امير المؤمنين من بعده • وتلقيبه بالغالب بالله ورسم توفيته واجب حقه • والحاق ذكره على المنابر باسمه • وطبع النقود على ذكر تلقيبه • فأوجب السلطان يمين الدولة • وأمين الملة • طاعته فيما أمر ومتابعته في جميع ما رسم فتقارن ذكراهما في الخطب • وترافق اسماهما على صفحات الفضة والذهب • ونعود الى ذكر بهاء الدولة • وضياء الملة • من لدن استأثر الله بعضد الدولة • وتاج الملة • ابي شجاع فناخسرو الى ان أفضى

الناقد وكان يلقب فى صغره قنبر اقصار وايصيحون به ذلك اذا ركب فأمر الخليفة ان يركب معه جماعة من الاتراك يمنعون الناس من ذلك فامتنعوا فلما كان قبل العيد خلع عليه ليركب فى الموكب فاشترى جماعة من أهل بغداد من القنابر شيأ كثيرا وعزموا على ارسالها فى الموكب اذا رأوا ابن الناقد فانهى ذلك الى الخليفة وقيل له يصير الموكب ضحكة فعزله وولى ابن المعوج وفيها فى ذى الحجة يوم العيد وقعت فتنة ببغداد بين العامة وبين الاتراك بسبب أخذ جمال النصر فقتل بينهم جماعة ونهب شئ كثير من الاموال ففرق الخليفة أموالا جليلة فيمن نهب ماله وفيها زلزلت بلاد العجم من جهة العراق الى ماوراء الرى وهلك فيها خلق كثير وتهدمت دور كثيرة واكثر ذلك كان بالرى وقزوين وفيها فى ربيع الآخر استوزر سيف الدين غازى صاحب الموصل جلال الدين ابا الحسن ابن جمال الدين محمد بن على وكان جمال الدين وزير البيت الاتابكى وقد تقدمت اخباره وهو المشهور بالجود والافضال ولما ولى جلال الدين الوزارة ظهرت منه كفاية عظيمة ومعرفة تامة بقوانين الوزارة وله مكاتبات وعهود حسنة مدونة مشهورة وكان جوادا فاضلا خيرا وكان عمره لما ولى الوزارة خمسا وعشرين سنة وفيها فى ذى الحجة استناب سيف الدين أيضا عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز وفوض اليه الامور وكان قبل ذلك اليه الامر بمدينة اربل واعمالها وكان رحمه الله من صالحى الامراء وارباب المعروف بنى كثيرا من الجوامع والخانات فى الطرق والقناطر على الانهار والربط وغير ذلك من أبواب البر وكان دائم الصدقة كثير الاحسان عادل السيرة رحمه الله وفيها قبض الخليفة على سنجر المقتفوى استاذ الدار ورتب مكانه أبا الفضل هبة الله بن على بن هبة الله بن الصاحب وفيها فى رمضان قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الذى ملك اليمن الى دمشق ولما سمع ان أخاه صلاح الدين ملكها حن الى الوطن والاتراب ففارق اليمن وسار الى الشام وأرسل من الطريق الى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله وكتب فى الكتاب شعرا من قول ابن المنجم المصرى

والى صلاح الدين اشكو أننى * من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعا لبعد الدار منه ولم أكن * لولا هواه لبعد دار اجزع
فلأركبن اليه متن عزائمى * ويخب بى ركب الغرام ويوضع
ولاقطعن من النهار هواجرا * قلب النهار بحرها يتقطع
ولاسرين الليل لا يسرى به * طيف الخيال ولا البروق اللمع
وأقدمن اليه قلبى مخبرا * انى بجسمى من قريب أتبع
حتى أشاهد منه اسعد طلعة * من أفقها صبح السعادة يطلع

وفى هذه السنة فى المحرم برز صلاح الدين من دمشق وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام وبكسره عسكر الموصل فخافه الفرنج وغيرهم وعزم على دخول بلادهم ونهبه والاغارة عليه فأرسلوا اليه يطلبون الهدنة معه فأجابهم اليها وصالحهم فأمر العساكر المصرية بالعود الى مصر والاستراحة الى ان يعاود طلبهم وشرط عليهم انه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخرون فساروا اليها واقاموا بها الى ان استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ما ذكرناه وفيها مات أبو الحسن على بن عساكر البطائحى المقرى وكان قد سمع الحديث الكثير ورواه وكان نحويا جيدا وفى ذى الحجة

الامر اليه * واستقر الملك عليه * وفيما نطق به كتاب الصابى * المعروف بالتاجى من وقائع عضد الدولة مع بختيار الى ان أظفره الله به فقضى عليه بحد حسامه وجرعه كأس حمامه * واحتياله على أبى تغلب ناصر بعد انهزامه * الى ان أمكنه التدبير عليه بابن الجراح أحد المتغلبين من الاعراب على حدود الشام فقبضه لاقتناصه عيارا أهداها اليه واطماع أكدها له حتى تعقله وقتله وحمل اليه علاوته ما يغنى عن تجديد ذكره ولما مضى عضد الدولة لسبيله وذلك فى شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة عند اشتغال أخيه مؤيد الدولة بويه بمحاربة حسام الدولة تاش وعميدها فائق فى عساكر خراسان اجتمع أبناء دولته * على ابنه صمصام الدولة * وشمس الملة * فبايعوه متوازرين وتوافقوا على طاعته متظاهرين * وأتاه الطائع لله أمير المؤمنين * فى حراقه على ظهر دجلة *

منها أوفى أبو سعد محمد بن سعيد بن محمد بن الرزاز سمع الحديث ورواه وله شعر جيد فمن ذلك أنه كتب إليه بعض أصدقائه مكاتبة وفيها شعر فأجابه

يا من أياديه تغنى من يعددها ... وليس يحصى مداها من لها يصف
عجزت عن شكر ما أوليت من كرم ... وصرت عبدا ولى فى ذلك الشرف
أهديت منظوم شعر كله درر ... فكل ناظم عقد عنده يقف
إذا أتيت بيت منه كان لنا ... قصرا ودر المعانى فوقه شرف
وإن أتيت أنا بيتا يناقضه ... أتيت لكن بيت سقفه يكف
ما كنت منه ولا من أهله أبدا ... وإنما جئت أدنو منه أقتطف

(ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة)

(ذكر نهب صلاح الدين بلاد الإسماعيلية)

لما رحل صلاح الدين من حلب على ما ذكرناه قبل قصد بلاد الإسماعيلية فى المحرم ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه وإرادة قتله فنهب بلدهم وخربه وأحرقه وحصر قلعة مصياث وهى أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم فنصب عليها المنجنيقات وضيق على من بها ولم يزل كذلك فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمى صاحب حماة وهو خال صلاح الدين يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم ويقول له إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين فشفع فيهم وسأل الصفح عنهم فأجابه إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم وكان عسكره قد ملوا من طول البيكار وقد امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل ونهب بلاد الإسماعيلية فطلبوا العود إلى بلادهم للاستراحة فأذن لهم وسار هو إلى مصر مع عسكرها لأنه كان قد طال عهده عنها ولم يمكنه المضى إليها فيما تقدم خوفا على بلاد الشام فلما انهزم سيف الدين وحصر هو حلب وملك بلادها واصطلحوا أمن على البلاد فسار إلى مصر وأمر ببناء سور على مصر والقاهرة والقلعة التى على جبل المقطم دوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة ذراع بالذراع الهاشمى ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين

(ذكر ظفر المسلمين بالفرنج والفرنج بالمسلمين)

كان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صاحب بعلبك فأتاه خبر أن جمعا من الفرنج قد قصدوا البقاع من أعمال بعلبك وأغاروا عليه فسار إليهم وكمن لهم فى الشعراء والغياض وأوقع بهم وقتل فيهم وأكثر وأسر نحو مائتى رجل منهم وسيرهم إلى صلاح الدين وكان شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين وهو الذى ملك اليمن قد وصل إلى دمشق كما ذكرناه وهو فيها فسمع أن طائفة من الفرنج قد خرجوا من بلادهم إلى أعمال دمشق فسار إليهم ولقيهم عند عين الجر فى تلك المروج فلم يثبت لهم وانهزم عنهم فظفروا بجمع من أصحابه فأسروهم منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار وهو من أعيان الجند الدمشقيين واجترأ الفرنج بعدها وانبسطوا فى تلك الولاية وجبروا الكسر الذى نالهم من ابن المقدم

(ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده إلى طاعته)

فى هذه السنة عصى شهاب الدين محمد بن بزان صاحب شهرزور على سيف الدين غازى وكان فى

يعزيه عن أبيه وقد ثار عوام الناس للزيارة حتى إذا قرب منه برز إليه صمصام الدولة بخشم وجهه رسم الطاعة وحق الخلافة وقال له الطائع لله نضر الله وجه الماضى ❊ وبارك فى الخلف الباقى ❊ وصير التعزية بعده لك لا بك والخلف عليك لا منك فأذرى على خديه دموع عينيه ❊ وبادر إلى الصعيد شكرا لما منّ الله به عليه ❊ ثم انتصب منصب أبيه فأجرى الأمور على استقامة وتدبرها بسياسة عامة وكان أخوه الأكبر أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة غائبا إلى مدينة واشير من أرض كرمان فلما بلغه نعى أبيه كر راجعا إلى فارس وقبض بها على نصر ابن هرون النصرانى فاستوفى عليه حواصل أمواله وتقلد أعمالها وامتد إلى الأهواز فملكها على أخيه أبى الحسين أحمد ابن عضد الدولة وغلب على البصرة معها وذلك فى رجب سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة ثم استعد لقصد بغداد طلبا لمكانة أبيه واستضافة ما فى يد أخيه إلى سائر ما يليه حتى إذا وافاها تلقاه صمصام الدولة بما أوجبه حق سنه عليه إجلالا وهيبة ومداراة

طاعته وتحت حكمه وكان سبب ذلك ان مجاهد الدين قايماز كان متوليا مدينة اربل وكان بينه وبين ابن برزان عداوة محكمة فلما استناب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل خاف ابن برزان ان يناله منه أذى فاظهر الامتناع من النزول الى الخدمة فأرسل اليه جلال الدين وزير سيف الدين كتابا يأمره بمعاودة الطاعة ويحذره عاقبة المخالفة وهو من أحسن الكتب وأبلغها فى هذا المعنى ولولا خوف التطويل لذكرته فليطلب من مكاتباته فلما وصل اليه الكتاب والرسول بادر الى حضور الخدمة بالموصل وزال الخلاف

(ذكر فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ)

بالقرب من جزيرة ابن عمر حصن منيع من أمنع المعاقل اسمه فنك وهو على رأس جبل عال وهو للاكراد البشنوية لهم بأيديهم نحو ثلثمائة سنة وكان صاحبه هذه السنة أميرا منهم اسمه ابراهيم وله أخ اسمه عيسى قد اخرج منه وهو لا يزال يسعى فى اخذه من أخيه ابراهيم فأطاعه بعض بطانة ابراهيم وفتح باب السر ليلا وأصعد منه الى رأس القلعة نيفا وعشرين رجلا فقبضوا على ابراهيم ومن عنده ولم يكن عنده الا نفر من خواصه وهذه قلة على صخرة كبيرة مرتفعة عن سائر القلعة ارتفاعا كثيرا وبها يسكن الامير واهله وخواصه وباقى الجند فى القلعة تحت القلة فلما قبضوا ابراهيم جعلوه فى خزانة وضربه بعضهم بسيف فى يده على عاتقه فلم يصنع شيأ فلما جعل فى الخزانة وكل به رجلين وصعد الباقون الى سطح القلة ولا يشكون ان القلعة لهم لا مانع عنهم ووصل من الغد بكرة الامير عيسى ليتسلم القلعة وبينهما دجلة وكانت امرأة الامير ابراهيم فى خزانة أخرى وفيها شباك حديد ثقيل يشرف الى القلعة فجذبته بيدها فانقلع وجند زوجها فى القلعة لا يقدرون على شئ فلما قلعت الشباك ارادت ان تدلى حبلا ترفع به الرجال اليها فلم يكن عندها غير ثياب خام فوصلت بعضها ببعض ودلتها الى القلعة وشدت طرفيها عندها فى عود فأصعدت اليها عشرة رجال ولم يكن براهم الذين على السطح ورأى الامير عيسى وهو على جانب دجلة الرجال يصعدون فصاح هو ومن معه الى أولئك الذين على السطح ليحذروا وكان كلما صاحوا صاح أهل القلعة لتختلف الاصوات فلا يفهم الذين على السطح فينزلون ويمنعون من ذلك فلما اجتمع عندها عشرة رجال أرسلت مع خادم عندها الى زوجها قدح شراب وأمرته ان يقرب منه كأنه يسقيه الشراب ويعرفه الحال ففعل ذلك وجلس بين يديه ليسقيه وعرفه الحال فقال ازدادوا من الرجال فأصعدت عشرين رجلا وخرجوا من عندها فمد ابراهيم يده الى الرجلين الموكلين به فأخذ شعورهما وأمر الخادم بقتلهما وكان عنده فقتلهما بسلاحهما فخرج واجتمع باصحابه وأرادوا فتح القلعة ليصعد اليه أصحابه من القلة فلم يجد المفاتيح وكانت مع اولئك الرجال الذين على السطح فاضطروا الى الصعود الى سطح القلعة ليأخذوا أصحاب عيسى فعلوا الحال فجاءوا ووقفوا على رأس المرق فلم يقدر أحد يصعد فأخذ بعض أصحاب ابراهيم ترسا وجعله على رأسه وحصل فى الدرجة وصعد وقاتل القوم على رأس المرق حتى صعد أصحابه فقتلوا الجماعة وبقى منهم رجل القى نفسه من السطح فنزل الى أسفل الجبل فتقطع فلما رأى عيسى ما حل باصحابه عاد خائبا مما أمله واستقر الامير ابراهيم فى قلعته على حاله

ومقاربة تفاديا من ضرر استيحاشه وعدوى مساءته غير عالم بأن محمدا فرد الايسع سيفين * ووترا واحدا لا يضم سهمين * فقربه ابو الفوارس ورفع محله * ثم خلعه وكبله وامر به الى قلعة كيوستان من ارض عمان واستولى على المملكة ولقبه الطائع لله بشرف الدولة وزين الملة فبقى على جملته سنتين وبغته حكم الله تعالى فى جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين وثلثمائة فقام اخوه شاهنشاه بهاء الدولة وضياء الملة ابو نصر بن عضد الدولة مقامه وتجرد لضبط الامور المائرة * وتلافى الاحوال الحائلة * وكفل بالملك كفالة خبير بالتجارب بصير بأعقاب العواقب وعما لا اتراك بفارس على صمصام الدولة فأبرزوه من معتقله وحله غلامه المعروف بسعادة على عاتقه منحدرا به الى فارس وما والاها * وتتبع اموالها فجباها * ثم تنكروا له وقدموا ابا على بن ابى الفوارس وعقدوا له الرياسة عليهم ولقبوه بشمس الدولة * وبهاء الملة * وتجردوا للدفاع عنه والدعاء اليه * فانتدب لمواقعتهم الى ان هزمهم اقبح هزيمة * وغنمهم ابرد غنيمة * فخفوا الى بغداد

ذكر نهب البندنيجين

في هذه السنة وصل الملك الذي بخوزستان عند شملة وهو ابن ملكشاه بن محمود الى البندنيجين فخربها ونهبها وقتل في الناس وسبى حريمهم وفعل كل قبيح ووصل الخبر الى بغداد فخرج الوزير عضد الدين وعرض العسكر ووصل عسكر الحلة وواسط مع طاشتكين امير الحاج وغرغلي وساروا نحو العدو فلما سمع بوصولهم فارق مكانه وعاد وكانت معه من التركمان جمع كثير فتبعهم عسكر بغداد ورجعوا من غير أمر بالعودة فأنكر عليهم ذلك وأمروا بالعود الى مواقفهم فعادوا لاوائل شهر رمضان وقد رجع الملك فنهب من البندنيجين ما كان سلم في الاول ووقعت بينهم وبين الملك وقعة ثم افترقوا فمضى الملك وفارق ولاية العراق

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في جمادى الاولى أقيمت الصلاة في الجامع الذي بناه فخر الدولة ابن المطلب بقصر المأمون غربي بغداد وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الشافعي رضي الله عنه بمصر وعمل بالقاهرة بيمارستان ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكثيرة وفيها رأيت بالموصل خروفين ببطن واحد ورأسين ورقبتين وظهرين وثماني قوائم كأنهما خروفان ببطن واحد ووجه احدهما الى وجه الآخر وهذا من العجائب وفيها انقض كوكب اضاءت له الارض اضاءة كثيرة وسمع له صوت عظيم وبقي أثره في السماء مقدار ساعة وذهب وفيها توفي تاج الدين أبو علي الحسن بن عبد الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة وفيها في المحرم توفي القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري قاضي دمشق وجميع الشام واليه الوقوف بها والديوان وكان جوادا فاضلا ارتقى ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول رحمه الله ورضي عنه

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة

في هذه السنة في جمادى الاولى سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر الى ساحل الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج وجمع معه عساكر وجنودا لم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا الى عسقلان في الرابع والعشرين منه فنهبوا وأسروا وقتلوا واحرقوا وتفرقوا في تلك الاعمال مغيرين فلما رأوا ان الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمي البلاد من المسلمين طمعوا وانبسطوا وساروا في الارض آمنين ووصل صلاح الدين الى الرملة عازما على ان يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل الى نهر فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم الا والفرنج قد أشرفت عليهم بأطلابها وأبطالها وكان مع صلاح الدين بعض العسكر لان أكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة فلما رآهم وقف لهم فيمن معه وتقدم بين يديه تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فباشر القتال بنفسه بين يدي عمه فقتل من اصحابه جماعة وكذلك من الفرنج وكان لتقي الدين ولد اسمه احمد وهو من احسن الشباب اول ما تكاملت لحيته فأمره ابوه بالحملة عليهم فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالما قد أثر فيهم اثرا كثيرا فأمره بالعودة اليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا ومضى حميدا رحمه الله ورضي عنه وكان اشد الناس قتالا ذلك اليوم الفقيه عيسى رحمه الله وتمت الهزيمة على المسلمين وحمل

ساعرين مناسرين فركب بهاء الدولة وضياء الملة لقتال صمصام الدولة فتناوشا الحرب وصالا ككعوب الرماح ما بين المساء والصباح حتى شربت البصرة وتلاحقا انتراب اكثر كور الاهواز وقد كان اولاد بختيار محتبسين فاستنزلهم طائفة من الاكراد الخسروية عن معتقلهم موججين من نار الفتنة باستنزالهم وقلت مقالهم فتناصبهم الحرب مستكفا شرهم ومستدفعا بأسهم وضرهم فاختلفت بهم الوقائع بين تلك الفتن الثائرة والاحن الفائرة فكانت عقباها ان اجلت عنه قتيلا وتقدم بهاء الدولة المبادرة عليه تأرصد الجناة بطالبته حتى شردهم كل مشرد وطردهم كل مطارد وزعيمهم يومئذ سالار بن بختيار الملقب بنور الدولة وكان من امره انه انتبذ عنها مدحورا مثبورا فاضطرته الحال الى شقاق التجار في تجاراتهم واجتيازهم على مراصد القطع ببضاعاتهم على خروج يستعين به من جهدهم على مؤن معاشه ورياشه واتبعه بهاء الدولة بجيش واتبعوه بوشحر

بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل اليه فقتل الفرنجى بين يديه وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزما يسير قليلا ويقف ليلحقه العسكر الى ان دخل الليل فسلك البرية الى أن مضى فى نفر يسير الى مصر ولقوا فى طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء وهلك كثير من دواب العسكر جوعا وعطشا وسرعة سير وأما العسكر الذى كانوا دخلوا بلاد الفرنج فى الغارة فان أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير وكان من جملة من اسر الفقيه عيسى الهكارى وهو من اعيان الاسدية وكان جمع العلم والدين والشجاعة واسر ايضا اخوه الظهير وكانا قد سارا منهزمين فضلا الطريق فأخذا ومعهما جماعة من اصحابهما وبقوا سنين فى الاسر فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين الف دينار وجماعة كثيرة من الاسرى ووصل صلاح الدين الى القاهرة نصف جمادى الآخرة ورأيت كتابا كتبه صلاح الدين بخط يده الى اخيه شمس الدولة توران شاه وهو بدمشق يذكر الوقعة وفى أوله

ذكرتك والخطى يخطر بيننا * وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما انجانا الله سبحانه منه الا لامر يريده سبحانه

* وما ثبتت الا وفى نفسها أمر *

(ذكر حصر الفرنج مدينة حماة)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى حصر الفرنج أيضا مدينة حماة وسبب ذلك انه وصل من البحر الى الساحل الشامى كند كبير من الفرنج من أكبر طواغيتهم فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزما فاغتنم خلو البلاد لان شمس الدولة بن أيوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين وليس عنده كثير من العسكر وكان أيضا كثير الانهماك فى اللذات مائلا الى الراحات فجمع ذلك الكند الفرنجى من بالشام من الفرنج وفرق فيهم الاموال وسار الى مدينة حماة فحصرها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمى خال صلاح الدين وهو مريض شديد المرض وكان طائفة من العسكر الصلاحى بالقرب منها فدخلوا اليها واعانوا من بها وقاتل الفرنج على البلد قتالا شديدا وهجموا بعض الايام على طرف منه وكادوا يملكون البلد قهرا وقسرا فاجتمع أهل البلد مع العسكر الى تلك الناحية واشتد القتال وعظم الخطب على الفريقين واستقتل المسلمون وحاموا عن الانفس والاهل والمال فأخرجوا الفرنج من البلد الى ظاهره ودام القتال ظاهر البلد ليلا ونهارا وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد وطمعوا فيهم وأكثروا فيهم القتل فرحل الفرنج حينئذ خائبين وكفى الله المسلمين شرهم فساروا الى حارم فحصروها وكان مقامهم على حماة أربعة أيام ولما رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمى وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام

(ذكر قتل كمشتكين وحصر الفرنج حارم)

فى هذه السنة قبض الملك الصالح بن نور الدين على سعد الدين كمشتكين وكان المتولى لامر دولته والحاكم فيها وسبب قبضه انه كان بحلب انسان من أعيان أهلها يقال له أبو صالح بن العجمى وكان مقدما عند نور الدين محمود فلما مات نور الدين تقدم أيضا فى دولة ولده الملك الصالح وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكن لكثرة اتباعه بحلب وصار كل من كان يحسد كمشتكين انضم الى

فغلبوه * ووصلوا اليه فقتلوه وحمل غلام منهم رأسه الى بهاء الدولة فامتعض للرحم الدانيه * واللحمة الحانيه * من تشجعه على ملاقاته به * فأمر بالغلام فسلخ جلده من قرنه الى قدمه * عبرة لمن اقدم على ملك بسفك دمه * وبعث بعميد الجيوش الملقب بالصاحب الى بغداد لمراعاة تلك الاعمال * واستيفاء حقوق بيت المال * فاستدت سيرته * وحدت فى العدل بصيرته * وعم رفقة حجيج بيت الله الحرام * بالمنائح العظام * فانطلقت بشكره السنة الخاص والعام * من الناس الى ان قبضه الله اليه فسد مكانه بوزير الوزراء زيادة فى النظر للرعية فأربى على عميد الجيوش فى الاحسان الى الكافة اصلاحا لهم ورفقا بهم وطرحا عنهم وصفت نواحى فارس وكرمان لبهاء الدولة منضافة الى سائر أعماله وقعدت الفتن القائمة عن سوقها فى زمانه فعم الامن والسكون * وشمل الرفق والهدون * واستراح عباد الله مما كان يفدحهم من وطأة الجيوش ويلحقهم من معرة اختلاف السيوف وقد كان أبو على بن الياس ملك كرمان أيام عضد الدولة لآل سامان وأقام بها مدة

صالح وتوفر اجنادنه وكثروا سواده وكان عنده اقدام وجراءة فصار واحد الدولة بحلب ومن يصدر بالجماعة عن رأيه وأمره فبينما هو في بعض الايام في الجامع وثب به الباطنية فقتلوه ومضى شهيدا وتمكن بعده سعد الدين وقوى حاله فلما قتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين وقالوا هو وضع الباطنية عليه حتى قتلوه وذكروا ذلك للملك الصالح ونسبوه الى العجز وانه ليس له حكم وان سعد الدين قد تحكم عليه واحتقره واستصغره وقتل وزيره وابن الوابه حتى قبض عليه وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد اقطعه اياها الملك الصالح فامتنع من بها بعد قبضه وحصنوا فيها فسير سعد الدين اليها تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها الى الملك الصالح فأمرهم بذلك فامتنعوا فعذب كمشتكين واصحابه يرونه ولا يرحمونه فمات في العذاب وأصر أصحابه على الامتناع والعصيان فلما رأى الفرنج ذلك ساروا الى حارم من حماة في جمادى الاولى على ما ذكرناه منهم انهم لا ناصر لهم وان الملك الصالح صبي قليل العسكر وصلاح الدين بمصر فاغتنموا هذه الفرصة ونازلوها وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر ونصبوا عليها المنجنيقات والسلالم فلم يزالوا كذلك الى ان بذل لهم الملك الصالح مالا وقال لهم ان صلاح الدين واصل الى الشام وربما يسلم القلعة من بها اليه فأجابوا حينئذ الى الرحيل عنها فلما رحلوا عنها سير اليها الملك الصالح جيشا فحصروها وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج وصاروا كأنهم طلائع وكان قد قتل من أهلها وجرح كثير فسلموا القلعة الى الملك الصالح فاستناب بها مملوكا كان لابيه اسمه سرخك

•(ذكر عدة حوادث)•

في هذه السنة في المحرم خطب للسلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه المقيم عند ايلدكز بهمذان وكان أبوه ارسلان قد توفي وفيها سابع شوال هبت ببغداد ريح عظيمة فزلزلت الارض واشتد الامر على الناس حتى ظنوا ان القيامة قد قامت فبقى ذلك ساعة ثم انجلت وقد وقع كثير من الدور ومات فيها جماعة كثيرة وفيها رابع ذي القعدة قتل عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر ابن رئيس الرؤساء أبي القسم بن المسلمة وزير الخليفة وكان قد عزم على الحج فعبر دجلة ليسير وعبر معه أرباب المناصب وهو في موكب عظيم وتقدم الى أصحابه ان لا يمنعوا عنه أحدا فلما وصل الى باب قطيعا لقيه كهل فقال انا مظلوم وتقدم ليسمع الوزير كلامه فضربه بسكين في خاصرته فصاح الوزير قتلني ووقع من الدابة وسقطت عمامته فغطى رأسه بكمه وضرب الباطني بسيف وعاد الى الوزير فضربه واقبل حاجب الباب ابن المعوج لينصر الوزير فضربه الباطني بسكين وقيل بل ضربه رفيق كان للباطني ثم قتل الباطني ورفيقه وكان لهما رفيق ثالث فصاح وبيده سكين فقتل ولم يعمل شيأ وأحرقوا ثلاثتهم وحمل الوزير الى دار له هناك وحمل حاجب الباب مجروحا الى بيته فمات هو والوزير وحمل الوزير فدفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند جامع المنصور وكان الوزير قد رأى في المنام انه معانق عثمان بن عفان وحكى عنه ولده انه اغتسل قبل خروجه وقال هذا غسل الاسلام وأنا مقتول بلا شك وكان مولده في جمادى الاولى سنة اربع عشرة وخمسمائة وكان ابوه استاذ

من الزمان لا ينازعه فيها منازع • ولا يدافعه عنها مدافع • وكان حبس ابنه السبع في بعض قلاع كرمان اشفاقا من معرته للوثبة وآفا في رأيه • واضطراب تبينه في وجوه شمائله وأفعاله • ولبث عنه مدة • وهو يكابد منها بؤسا وضرا وشدة • فاتفق أن أشرف سرب من نساء أبيه وجواريه عليه فرثين له لضيق مكانه ودرن في وجه خلاصه وعمدن الى خمرهن فوصلن بعضها ببعض وخلصنه بها عن معتقله ولاصق أهل العسكر بخلاصه واظلال مقامه • فتجمعوا عليه وانقطعوا بجملتهم اليه ملالة على أبيه لهنات نقموها منه • وبلغ أبا على خبر الحادثة فأرسل الى ذوي الحزب والتألب باجمعا عما دعاهم اليه فأظهروا الضجر بمكانه والتبرم بطول زمانه • وساموه مفارقة كرمان ليستقر الامر على ابنه السبع بطاعتهم له وتوخيهم موافقته فعرف أبو على قولهم بجنب المداراة والاحتيال • في قابل الحال • ثم جمع ما قدر عليه من صنوف الاموال وكر عائدا الى بخارا مخليا بين السبع وبين تلك الولاية

دار المقتفى لامر الله فلما مات ولى هو مكانه فبقى كذلك الى ان مات المقتفى فاقره المستنجد
على ذلك ورفع قدره فلما ولى المستضئ استوزره وكان حافظا للقرآن سمع الحديث وله معروف
كثير وكانت داره مجمعا للعلماء وختمت أعماله بالشهادة وهو على قصد الحج وفيها كانت فتنة
ببغداد وسببها انه حضر قوم من مسلمى المدائن الى بغداد فشكوا من يهودها وقالوا ان لنا مسجدا
نؤذن فيه ونصلى وهو مجاور الكنيسة فقال لنا اليهود قد آذيتمونا بكثرة الاذان فقال المؤذن
ما نبالى بذلك فاختصموا وكانت فتنة استظهر فيها اليهود فجاء المسلمون يشكون منهم فأمر ابن
العطار وهو صاحب المخزن بحبسهم ثم أخرجوا فقصدوا جامع القصر واستغاثوا قبل صلاة
الجمعة فخفف الخطيب الخطبة والصلاة فعادوا يستغيثون فأتاهم جماعة من الجند ومنعوهم فلما
رأى العامة ما فعل بهم غضبوا لنصرة الاسلام فاستغاثوا وقالوا أشياء قبيحة وقلعوا طوابيق
الجامع ورجموا الجند فهربوا ثم قصد العامة دكاكين المخلطين لان أكثرهم يهود فنهبوها
وأراد حاجب الباب منعهم فرجموه فهرب منهم وانقلب البلد وخربوا الكنيسة التى عند دار
البساسيرى واحرقوا التوراة وأمر الخليفة ان تنقض الكنيسة التى بالمدائن وتجعل مسجدا
ونصب بالرحبة اخشاب ليصلب عليها قوم من المفسدين فظنها العامة نصبت تخويفا لهم لاجل
ما فعلوا فعلقوا عليها فى الليل جرذانا ميتة وأخرج جماعة من الحبس لصوص فصلبوا عليها وفيها
فى شعبان قبض سيف الدين غازى صاحب الموصل على وزيره جلال الدين على بن جمال الدين
لغير جرم ولا عجز ولا تقصير بل لعجز سيف الدين فان جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين
قايماز مشاحنة فقال مجاهد الدين لسيف الدين لابد من قبض الوزير فقبض عليه كارها لذلك ثم
شفع فيه ابن رئيس آمد لانه صهره زوج ابنته فأخرج وسار الى آمد فمرض بها وعاد الى دنيسر فمات
سنة خمس وسبعين وعمره سبع وعشرون سنة وحمل الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم فدفن
عند والده فى الرباط الذى بناه بها وكان رحمه الله من محاسن الدنيا جمع كرما وعلما ودينا وعفة
وحسن سيرة واستحلفه سيف الدين أنه لا يمضى الى صلاح الدين لانه خاف ان يمضى اليه للمودة
التى كانت بين جمال الدين وبين نجم الدين أيوب واسد الدين شيركوه فبلغنى ان صلاح الدين
طلبه فلم يقصده لليمين وفيها اجتمع الفرنج طائفة منهم وقصدوا أعمال حمص فنهبوها وغنموا
وأسروا وسبوا فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وسبقهم ووقف على طريقهم
وكمن لهم فلما وصلوا اليه خرج اليهم هو والكمين ووضعوا السيف فيهم فقتل أكثرهم وأسر
جماعة من مقدميهم ومن سلم منهم لم يفلت الا وهو مثخن بالجراح واسترد منهم جميع ما غنموا فرده
على أصحابه وفيها فى ربيع الآخر توفى صدقة بن الحسين الحداد الذى ذيل تاريخ الزاغونى
ببغداد وفيها فى جمادى الاولى توفى محمد بن أحمد بن عبد الجبار الفقيه الحنفى المعروف بالمشطب
ببغداد

* ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة *

* (ذكر قصد الفرنج مدينة حماة ايضا) *

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار جمع كثير من الفرنج بالشام الى مدينة حماة وكثر جمعهم من
الفرسان والرجالة طمعا فى النهب والغارة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى واحرقوا

وأقام ثقته بشر بن
المهدى وترمش الحاجب
على خدمة اليسع وكفالة
أمره اذ كانت حداثته
تقتضى استخلاف مثلهما
فى دعائمها وقوة رأيهما على
حضانة اموره وتبصيره
الرشد فى وجوه تدابيره ولما
وصل أبو على الى بخارا بولغ
فى تعهده واكرام مورده
واحلاله من الايثار
والاكبار محل مثله الى أن
توفى بها فى شوال سنة ست
وخمسين وثلثمائة فاما اليسع
فانه ولى كرمان فحمى
أطرافها وجبى أموالها
وكان أخوه سليمان مقيما
بسيرجان واليا عليها فأغراه
بشر بن المهدى به وأشار
عليه بمعاجلته قبل انتظام
شمله واستمرار حبله فكتب
اليه يستدعيه لهم لا يستغنى
عن مفاوضته فيه فامتنع
عن الاجابة بعلل اخترعها
ومعاذير تمحلها وضاق
اليسع ذرعا ولم يجد من
مناجزته بدا فنهض اليه
محاربا حتى هزمه وغنم ماله
فوقع سليمان الى بخارا
وأطمع اليسع نزق شبابه
فى مغالبة عضد الدولة أبى
شجاع على بعض حدود
عمله فكان مثله مثل العير
طلب قرنين فضيع الاذنين

وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيم بحماة ساروا اليهم وهم قليل متوكلين على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والاسر فيهم واستردوا ما غنموه من السواد وكان صلاح الدين قد عاد من مصر الى الشام في شوال من السنة المتقدمة وهو نازل بظاهر حمص فحملت الرؤس والاسرى والاسلاب اليه فامر بقتل الاسرى فقتلوا

﴿ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلاد منه﴾

في هذه السنة عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين ببعلبك وكانت له قد سلمها اليه صلاح الدين لما قصدها جزاء له حيث سلم اليه ابن المقدم دمشق على ما سبق ذكره فلم تزل بيده الى الآن فطلب شمس الدولة محمد بن أيوب أخو صلاح الدين منه بعلبك وألح عليه في طلبها لان تربيته ومنشاه كان بها وكان يحبها ويختارها على غيرها من البلاد وكان الاكبر فلم يمكن صلاح الدين مخالفته فأمر شمس الدين بتسليمها الى أخيه ليعوضه عنها فلم يجب الى ذلك وذكره العهود التي له وما اعتمده معه من تسليم البلاد اليه فلم يصغ اليه وألح في أخذها وسار ابن المقدم اليها واعتصم بها فوجه اليه صلاح الدين عسكرا وحصروه بها مدة ثم رحل عنها من غير ان يأخذها وترك عليه عسكرا يحصره فلما طال عليه الحصار أرسل الى صلاح الدين يطلب العوض عنها ليسلمها اليه فعوضه عنها وسلمها فاقطعها صلاح الدين أخاه شمس الدولة

﴿ذكر الغلاء والوباء العام﴾

في هذه السنة انقطعت الامطار بالكلية في سائر البلاد الشامية والجزيرة والعراقية والبلاد البكرية والموصل وبلاد الجبل وخلاط وغير ذلك واشتد الغلاء وكان عاما في سائر البلاد فبيعت الغرارة الحنطة بدمشق وهي أربعة عشر مكوكا بالموصلي بعشرين دينارا صوريا وبيع وكان الشعير بالموصل كل ثلاث مكاكي بدينار أميري وفي سائر البلاد ما يناسب ذلك واستسقى الناس في أقطار الارض فلم يسقوا وتعذرت الاقوات وأكلت الناس الميتة وما نابها ودام كذلك الى آخر سنة خمس وسبعين ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد عام أيضا كثر فيه الموت وكان مرض الناس شيأ واحدا وهو السرسام وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى الا ان بعض البلاد كان أشد من البعض ثم ان الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب وأرسل الامطار وأرخص الاسعار ومن عجيب ما رأيت اني قصدت رجلا من العلماء الصالحين بالجزيرة لاسمع عليه شيأ من حديث النبي صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان سنة خمس وسبعين والناس في أشد ما كانوا غلاء وقنوطا من الامطار وقد توسط الربيع ولم تجئ قطرة واحدة من المطر فبينا انا جالس ومعي جماعة ننتظر الشيخ واذ قد أقبل انسان تركماني قد أثر عليه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر فبكى وشكى الجوع فأرسلت من يشتري له خبزا فتأخر احضاره لعدمه وهو يبكي ويتمرغ على الارض ويشكو الجوع فلم يبق فينا الا من بكى رحمة له وللناس فتغيمت السماء وجاءت نقط من المطر متفرقة فضج الناس واستغاثوا ثم جاء الخبز فأكل التركماني بعضه وأخذ

وذلك انه لما بلغ مفرق الدين بين كرمان وفارس أتاه صاحب طليعته ببطاقة من المستأمنة عن عسكر عضد الدولة وتأخسن اليهم وصب الخلع عليهم ثم هرب نفر منهم راجعين وراءهم فارتاب الجميع برفقائهم وظن ان وراء استئمانهم حيلة أو قبلة فأوسعهم تشكيلا وعمهم بالعقاب قطعا وتمثيلا واستأمن عنه الى عضد الدولة جملة من رجاله بغلمانهم وسلاحهم ووصلهم ومناهم فلما رأى أصحابه تباعد ما بين الامرين تألبوا عليه وتنمروا له وتحزبوا عنه وتسلل من جملتهم صفقة واحدة ألف رجل من وجوه الديلم الى معسكر عضد الدولة وهو بناحية أصطخر وفشا الظهربان بين الآخرين فجعلوا يتسللون لواذا ويتفرقون جميعا واشتاتا حتى انفض عنه عامة عسكره وبقي في خاصة غلمانه وحاشيته فاضطر الى معاودة واشهر وأسرع منها بعياله وخلف عليه حمله من أثقاله وأمواله نحو بخارا الايلاوي

الباقى ومشى واشتد المطر ودام المطر من تلك الليلة

(ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين)

في هذه السنة في ذي القعدة اجتمع الفرنج وساروا الى بلد دمشق مع ملكهم فاغاروا على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا فارسل صلاح الدين فرخشاه ولد أخيه في جمع من العسكر اليهم وأمره انه اذا قاربهم يرسل اليه يخبره على جناح طائر ليسير اليه وتقدم اليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدي الفرنج فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم فلم يشعر الا والفرنج قد خالطوه فاضطر الى القتال فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس وألقى فرخشاه نفسه عليهم وغشي الحرب ولم يكلها الى سواه فانهزم الفرنج ونصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفري وما أدراك ما هنفري كان يضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحرب وكان بلاء صبه الله على المسلمين فاراح الله من شره وقتل غيره من اضرابه ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس وفيها أيضا اغار البرنس صاحب انطاكية ولاذقية على حشير المسلمين بشيزر واخذه وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان فأخذ باموالهم وكان صلاح الدين على بانياس على ما نذكره ان شاء الله فسير ولد اخيه تقي الدين عمر الى حماة وابن عمه ناصر الدين محمد ابن شيركوه الى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة اطرافها من العدو رحمهم الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر نحو ثلث الليل الاخير وغاب منكسفا وفيها أيضا في التاسع والعشرين انكسفت الشمس وقت العصر فغربت منكسفة وفي هذه السنة في شعبان توفي الحيص بيص الشاعر واسمه سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس وكان قد سمع الحديث ومدح الخلفاء والسلاطين والاكابر وشعره مشهور فمنه قوله

كلما أوسعت حلمي جاهلا * اوسع الفحش له فحش المقال
واذا شاردة فهت بها * سبقت مر النعامى والشمال
لا تلني في شقائي بالعلا * رغد العيش لربات الحجال
سيف عز زانه رونقه * فهو بالطبع غني عن صقال

وفي المحرم ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر الابري وسمعت الحديث من السراج وطراد وغيرهما وعمرت هي قاربت مائة سنة وسمع عليها خلق كثير الحديث لعلو اسنادها

(ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة)

(ذكر تخريب الحصن الذي بناه الفرنج عند مخاضة الاحزان)

كان الفرنج قد بنوا حصنا منيعا يقارب بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام بمكان يعرف بمخاضة الاحزان فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق الى بانياس وأقام بها وبث الغارات على بلاد الفرنج ثم سار الى الحصن وحصره ليخبره ثم يعود اليه عند اجتماع العساكر فلما نازل الحصن قاتل من به من الفرنج ثم عاد عنه فلما دخلت سنة خمس وسبعين لم يفارق بانياس بل اقام بها وخيله تغير على بلاد العدو وأرسل جماعة من عسكره مع جالبي الميرة فلم تشعر الا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم فارسلوا الى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار في العساكر مجدا حتى

على شيء دون الاغذاذ في السير وطي بساط الارض بحوافر الخيل فلما اتصل خبره بعضد الدولة بادر على اثره الى واشهر فملكها واستصفى أموال آل الياس بها ثم استخلف عليها كوركير بن جستان ورجع الى فارس ولما ورد اليسع ناحية خوس من حدود قهستان خلف اثقاله وغلمانه بها وركب الجازات نحو بخارا للاستنجاد * وطلب الامداد * فلما وافاها قرب محله * وروعي له حقه * واستحضر مجلس الانس تخصيصا بمزية الاكرام والاثرة فلما قدر عليه سلطان الراح لم يتمالك ان قال مستبطئا او عرفت قعود الهمم بآل سامان عن اغاثة الراجين لها * واللاجين اليها * اطلبت غير هذه الحضرة ملاذا ومعتصرا فخشن مس هذا المقال منه وأمر به فنفي الى خوارزم و بلغ ابا علي بن سيمجور حاله ومقاله فبعث الى خوس من قبض على غلمانه وأمواله فنقلهم واياها اليه غنيمة خالصة عن ايدي الاعتراض والاشتراك وأصاب اليسع بخوارزم رمد أقلقه وأكده * واستنفد وسعه وجلده * وحمله الضجر بالالم على أن فقأ عينه الرمدة بيده * فسالت

وأقاموا وهم في القتال فقاتل الفرنج قتالا شديدا وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كثيرة ونجا ملكهم فريدا وأسر منهم كثير منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلا بعد الملك وأسروا أيضا أخا صاحب جبيل وصاحب طبرية ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وصاحب جينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم فأما ابن بيرزان فإنه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وإطلاق ألف أسير من المسلمين وكان أكثر العمل في هذا اليوم لعز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين وحكى عنه قال ذكرت في تلك الحال بيتي المتنبي وهما

فإن تكن الدولات قسما فإنها ● لمن ورد الموت الزؤام تدول

ومن هونت الدنيا على النفس ساعة ● وللبيض في هام الكماة صليل

فهان الموت في عيني فألقيت نفسي إليه وكان ذلك سبب الظفر ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس من موضع المعركة وتجهز للدخول إلى ذلك الحصن ومحاصرته فسار إليه في ربيع الأول وأحاط به وقوي طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه وبث العساكر في بلاد الفرنج للإغارة فنهبوا وأغاروا وجمعوا من الأخشاب والزرجون شيئا كثيرا ليعمله متارس للمنجنيقات فقال له جاولي الأسدي وهو مقدم الأسدية ومن أكابر الأمراء الرأي أننا نجربهم بالزحف أول مرة ونذوق قتال من به وننظر الحال معهم فإن استضعفناهم وإلا نصب المنجنيقات ما يفوت فقبل رأيه وأمر فنودي بالزحف إليه والجد في قتاله فزحفوا واشتد القتال وعظم الأمر فصعد إنسان من العامة بقميص خلق في باشورة الحصن وقاتل على السور لما علاه وتبعه غيره من أضرابه ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم ويحتموا إلى أن يأتيهم المدد وكان الفرنج قد جمعوا بطبرية فألح المسلمون في قتال الحصن خوفا من وصول الفرنج إليهم وإزاحتهم عنه وأدركهم الليل فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد ففعلوا فلما كان الغد أصبحوا فنقبوا الحصن وعمقوا النقب وأشعلوا النيران فيه وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه فإنه كان تسعة أذرع بالنجاري يكون الذراع ذراعا ونصفا فانتظروه يومين فلم يسقط فأمر صلاح الدين بإطفاء النار التي في النقب فحمل الماء وألقي عليها فانطفأت وعاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور وألقوا فيه النار فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسروا كل من فيه وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيرا من أسرى الفرنج وأدخل الباقين إلى دمشق فحبسوا وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره وألحقه بالأرض وكان قد بذل للفرنج ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال فلم يفعلوا ظنا منهم أنه إذا بقي تمكنوا به من كثير من بلاد الإسلام وأما الفرنج فاجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن فلما أتاهم الخبر بأخذه فت في أعضادهم فتفرقوا إلى بلادهم وأكثر الشعراء تهنئته في ذلك فمن ذلك قول صديقنا النشو بن نفادة رحمه الله

هلاك الفرنج أتى عاجلا ● وقد آن تكسير صلبانها

ولو لم يكن قد دنا حتفها ● لما عمرت بيت أحزانها

على شدته وكان ذلك سبب
هلاكه وحينه ولم يطر من
الايلسية بعد وذكر مات
استبعده وازدياد عضد
الدولة طولا وعزة وارتفاعا
وشمولا الى أن ورثه بهاء
الدولة وضياء الملة فأجرى
امورها على رسمها الموروثة
في حفظ الاطراف وبسط
العدل والانصاف ● ولما
ملك السلطان يمين الدولة
وامين الملة خراسان على
آل سامان ● وفتح سجستان ●
وحصل بين ولايته وبين تلك
الديار ● ذمام الجوار ●
فاتحه بهاء الدولة وضياء
الملة بكتبه مخاطبا الكريمة
ودله على صداق قلبه
المعمور بموالاته ● المقصور
على طلب مرضاته ● ووصل
ذلك بهدايا ومبار لاقت
برحب صدره ● وعلو همته
وقدره ● فاجابه السلطان
يمين الدولة وامين الملة الى
ما خطبه ● وأوجب له مثل
ما أوجبه ● واعقبه عارض
الوداد ● وأكد الاعتضاد ●
وقضى حق المكافأة وزاد ●
وتشوفت الحال بينهما
الى زيادة عصمة تشدد بها
البيوت والمرائر وتشترك
فيها الاقارب والاباعد
فسفر مشايخ الدولتين في
تشييد اللحمة ● وتوشيج
أسباب القربة ● الى ان اتاح
الله من ذلك ما عم القاصي

وقال علي بن محمد الساعاتي الدمشقي

أتسكن أوطان النبيين عصبة * تمين لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب * ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

(ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلج ارسلان)

في هذه السنة كان الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن ايوب ومقدمهم ابن اخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب وبين عسكر الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان صاحب بلاد قونية واقصرا وسببها أن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر رحمه الله كان قد اخذ قديما من قلج ارسلان حصن رعبان وكان بيد شمس الدين بن المقدم الى الآن فطمع فيه قلج ارسلان بسبب أن الملك الصالح بحلب بينه وبين صلاح الدين فارسل اليه من يحصره فاجتمع عليه جمع كثير يقال كانوا عشرين ألفا فأرسل اليهم صلاح الدين تقي الدين في ألف فارس فواقعهم وقاتلهم وهزمهم وأصلح حال تلك الولاية وعاد الى صلاح الدين ولم يحضر معه تخريب حصن الاحزان فكان يفتخر ويقول هزمت بألف مقاتل عشرين ألفا

(ذكر وفاة المستضيء بامر الله وخلافة الناصر لدين الله)

في هذه السنة في ثاني ذي القعدة توفي الامام المستضيء بامر الله امير المؤمنين ابو محمد الحسن بن يوسف المستنجد رضي الله عنه وأمه ام ولد ارمنية تدعى غضة وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة اشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان عادلا حسن السيرة في الرعية كثير البذل للاموال غير مبالغ في اخذ ما جرت العادة باخذه وكان الناس معه في أمن عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محبا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدا ومات سعيدا رضي الله عنه فلقد كانت ايامه كما قيل

كأن ايامه من حسن سيرته * مواسم الحج والاعياد والجمع

ووزر له عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء الى أن قتل في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ولما قتل حكم في الدولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار وكان خيرا حسن السيرة كثير العطاء وتمكن تمكنا كثيرا فلما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله امير المؤمنين فلما تمت البيعة صار الحاكم في الدولة استاذ الدار مجد الدين أبا الفضل بن الصاحب وفي سابع ذي القعدة قبض على ابن العطار ظهير الدين ووكل عليه في داره ثم نقل الى التاج وقيد ووكل به وطولب بودائعه وأمواله وفي ليلة الاربعاء ثامن عشر ذي القعدة أخرج ميتا على رأس حمال مسترا فغمز به بعض الناس فثار به العامة فالقوه عن رأس الحمال وكشفوا سوأته وشدوا في ذكره حبلا وسحبوه في البلد وكانوا وضعوا بيده مغرفة يعني انها قلم وقد غمسوها في العذرة ويقولون وقع لنا يا مولانا الى غير هذا من الافعال الشنيعة ثم خلص من أيديهم ودفن هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم واعراضهم وسيرت الرسل الى الآفاق لاخذ البيعة فسير صدر الدين شيخ الشيوخ الى البهلوان صاحب همذان وأصفهان والري وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ له في القول حتى انه قال لعسكره في حضرته ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع امير المؤمنين

والداني فائدته * وشمل الحاضر والبادي والطاري والثاني نفعه وعائدته

(ذكر وقعة نارين)*

ونشط السلطان يمين الدولة وأمين الملة في سنة أربعمائة لغزوة في ديار الهند ينكأ بها اقرح نكاياته فيها تقربا الى الله تعالى واحتسابا للمثوبة من عنده فنهض نحوها يحث الخيول * ويخترق الحزون والسهول * الى أن توسط ديار الهند فاستباحها * وأذل لقاحها * ونكس أصنامها * وعرض على السيوف اغتامها * وسار على هينته نحو مقصده وأوقع بعظيم العلوج وقعة أفاء الله بها عليه أمواله * واغنمه خيوله وأفياله * وحكم فيهم سيوف أوليائه يحسونهم بها بين كل سهب وفدفد * ويجزرونهم عند كل مهبط ومصعد * وردتهم الى غزنة فيما حواه من تلك الغنائم الموفورة سالما * غانما * وافرا * ظافرا * ولما رأى ملك الهند ما صبه الله عليه وعلى أهل مملكته من سوط العذاب بوقائع السلطان يمين الدولة وأمين الملة فيهم * ونكاياته في قاصيهم ودانيهم * وأيقن انه لا قبل له بثقل وطأته وخشونة جانبه ارسل اليه اعيان اقاربه وقرابينه ضارعا في هدنة تقف بهم

بل يجب عليكم أن تمنعوه من الإمارة وتقاتلوه فاضطر الى البيعة والخطبة وأرسل رضى الدين القزوينى مدرس النظامية الى الموصل لاخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله فى السنة

•(ذكر عدة حوادث)•

فى هذه السنة هبت ريح سوداء مظلمة بالديار الجزرية والعراق وغيرها وعمت أكثر البلاد من الظهر الى أن مضى من الليل ربعه وبقيت الدنيا مظلمة لا يكاد الانسان يبصر صاحبه وكنت حينئذ بالموصل فصلينا العصر والمغرب والعشاء الآخرة على الظن والتخمين وأقبل الناس على التضرع والتوبة والاستغفار وظنوا ان القيامة قد قامت فلما مضى مقدار ثلث الليل زال ذلك الظلام والظلمة التى غطت السماء فنظرنا فرأينا النجوم فعلمنا مقدار ما مضى من الليل لان الظلام لم يزد بدخول الليل وكان كل من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك وفيها فى ذى القعدة نزل شمس الدولة أخو صلاح الدين عن بعلبك وطلب عوضا عنها الاسكندرية فاجابه صلاح الدين الى ذلك واقطع بعلبك عز الدين فرخشاه ابن أخيه فسار اليها وجمع أصحابه وأغار على بلاد الفرنج حتى وصل الى قلعة صفد وهى مطلة على طبرية فسبى وأسر وغنم وخرب وفعل فى الفرنج أفاعيل عظيمة وأما شمس الدولة فانه سار الى مصر وأقام بالاسكندرية وإذا أراد الله أن يقبض رجلا بأرض جعل له اليها حاجة فانه أقام بها الى أن مات بها وفيها فارق الجامع الذى بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة وهو من أحسن الجوامع وفيها توفى أحمد بن عبد الرحمن الصوفى شيخ رباط الزوزنى وسمع الحديث وكان يصوم الدهر وعبد الملك بن عبد الخالق بن يوسف سمع الحديث ورواه وهو من بيت الحديث والقاضى عمر بن على بن الخضر أبو الحسن الدمشقى سمع الحديث ورواه وولى قضاء الحريم وعلى بن احمد الزيدى سمع الحديث الكثير وله وقف كتب كثيرة ببغداد وكان زاهدا خيرا صالحا ومحمد بن على حمزة بن على الاقساسى نقيب العلويين بالكوفة وكان ينشد كثيرا

ربّ قوم فى خلائقهم • غرر قد صيروا غررا
ستر المال القبيح لهم • ستراه ان زال ما سترا

ومحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن سديد الدولة الانبارى كاتب الانشاء بعد أبيه وابو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الدامغانى الفقيه كان مناظرا حسن المناظرة كثير العبادة ودفن عند قبر أبى حنيفة

•(ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة)•

•(ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية أخيه عز الدين بعده)•

فى هذه السنة ثالث صفر توفى سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل وديار الجزيرة وكان مرضه السل وطال به ثم أدركه فى آخره برسام ومات ومن عجيب ما يحكى ان الناس خرجوا سنة خمس وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث وشدة الغلاء وخرج سيف الدين فى موكبه فثار به الناس وقصدوه بالاستغاثة وطلبوا منه ان يأمر بالمنع من بيع الخمر فاجابهم

عند أمره • ونصح بماله ووفره • ويجرد أوقات دعائه اياه لنصره • على أن يقود المبادى الامر خمسين فيلا يعد آحادها باضعافها ثقل أجسام • وخفة أقدام • ويحمل معها مالا عظيم الخطر • كثير القدر • بما يضاهيه من ديار • تلك الديار • ومتاع • تلك البقاع • وعلى أن يناوب كل عام بين ألفا عسكره فى خدمة بابه بالغى رجل بادئين • وعائدين • الى أثارة ماوسه يلتزمها كل سنة يتحملها من يرث مكانه • ويقوم فى كفالة الملك مقامه • فاوجب السلطان اجابته الى ملتمسه لعز الاسلام ببذل طاعته واعطائه الجزية عن يده وبعث اليه من طالبه بتصحيح المال • وورود الافيال • فنقد ما وعده • وقدم الوفاء بما شرط وبعث بمن ضمن تجهيزهم الى بابه من خواص رجاله على جملة الخدمة واقامة رسم الطاعة فانعقدت تلك الهدنة ودرت تلك الاثارة وتتابعت القوافل بين ديار خراسان وبلاد الهند فى ضمان الامان • وجوار الحيطة والاحسان

•(ذكر غزوة غور)•

اتفق للسلطان يمين الدولة وأمين الملة فكر فى جبال

الى ذلك فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا أبوابها ودخلوها ونهبوها وأراقوا
ما بها من خمور وكسروا الظروف وعملوا ما لا يحل فاستغاث أصحاب الدور الى نواب السلطان
وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ولم يكن في الذي فعله العامة
من النهب وما لا يجوز فعله انما هو أراق الخمور ونهى العامة عن الذي يفعلونه فلم يسمعوا منه
فلما شكى الخمارون منه أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته فلما أطلق لينزل من
القلعة نزل مكشوف الرأس فارادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل وقال والله لا غطيت رأسي حتى
ينتقم الله لي ممن ظلمني فلم يمض غير أيام حتى توفي الزردار الذي تولى اذاه ثم تبعه مرض سيف
الدين واستمر الى أن مات وعمره حينئذ نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة
أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون وكان عاقلا وقورا قليل
الالتفات اذا ركب واذا جلس عفيفا لم يذكر عنه ما ينافي العفة وكان غيورا شديد الغيرة
لا يدخل دوره غير الخدم الصغار فاذا كبر أحدهم منعه وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ
الأموال على شح فيه وجبن ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجرشاه
وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة فخاف على الدولة من ذلك لان صلاح الدين يوسف بن أيوب
كان قد تمكن بالشام وقوي امره وامتنع اخوه عز الدين مسعود بن مودود من الاذعان لذلك
والاجابة اليه فأشار الامراء الاكابر ومجاهد الدين قايماز بان يجعل الملك بعده في عز الدين اخيه
لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس وان يعطى ابنيه بعض البلاد
ويكون مرجعهما الى عز الدين عمهما والمتولي لامرهما مجاهد الدين قايماز ففعل ذلك وجعل
الملك في أخيه واعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجرشاه وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير
ناصر الدين كسك فلما توفي سيف الدين ملك بعده الموصل والبلاد اخوه عز الدين وكان المدبر
للدولة مجاهد الدين وهو الحاكم في الجميع واستقرت الامور ولم يختلف اثنان

(ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلج ارسلان)

في هذه السنة سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من الشام الى بلاد قلج ارسلان بن مسعود بن قلج
ارسلان وهي ملطية وسيواس وما بينهما وقونية ليحاربه وسبب ذلك ان نور الدين محمد بن قرا
ارسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر كان قد تزوج ابنة قلج ارسلان المذكور
وبقيت عنده مدة ثم انه أحب مغنية فتزوجها ومال اليها وحكمت في بلاده وخزائنه واعرض
عن ابنة قلج ارسلان وتركها نسيا منسيا فبلغ أباها الخبر فعزم على قصد نور الدين واخذ بلاده
فأرسل نور الدين الى صلاح الدين يستجير به ويسأله كف يد قلج ارسلان عنه فارسل صلاح الدين
الى قلج ارسلان في المعنى فاعاد الجواب انني كنت قد سلمت الى نور الدين عدة حصون تجاور
بلاده لما تزوج ابنتي فحيث آل الامر معه الى ما يعلمه فانا اريد ان يعيد الي ما أخذه مني وترددت
الرسل بينهما فلم يستقر حال فيهما فهادن صلاح الدين الفرنج وسار في عساكره وكان الملك الصالح
اسمعيل بن نور الدين محمود بحلب فتركها ذات اليسار وسار على تل باشر الى رعبان فاتاه بها نور الدين
محمد واقام عنده فلما سمع قلج ارسلان بقربه منه ارسل اليه أكبر امير عنده وهو يقول له ان هذا
الرجل فعل مع ابنتي كذا وكذا ولا بد من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه فلما وصل الرسول واجتمع

الغور وغرد أهلها وغمدهم
على عظامهم من حلية الدين
وسمة الاسلام وحصولهم
في المقلة من عين حوزته *
والمركز من دائرة مملكته *
وتأذي المارة والسابلة
بعيث ارصادهم * وعيث
قطعهم وافسادهم *
لاستطالتهم بمناعة جبالهم
الشواهق * ومجال
مسالكهم المتضايق * فأنف
للدولة القاهرة من أن يخليها
على غلق أقفالها * وشدة
رتاجها * فصمم العزم على
تدويخ ديارهم * وتذليل
رقابهم * وانتزاع نعرة
الاستطالة من رؤسهم *
واستلال وحرة العصيان
من صدورهم * واجلب
عليهم بخيله ورجله * معولا
على صنع الله وفضله *
وقدم امامه والي هراة
التونتاش الحاجب * ووالي
طوس أرسلان الجاذب *
فسارا مقتحمين في مضايق
تلك المسالك الى أن أفضى
بهما الدؤوب الى مضيق قد
غص بحماة الغورية ممن
لفظتهم القرى القاصية *
والمحال المتنائية * فتناوشوا
الحرب تناوشا بطلت فيه
العوامل الا الصوارم *
في الجماجم * والخناجر * في
الحناجر * وتصابر الفريقان
على مر التكريهة حتى
سالت نفوس * وطارت عن

بصلاح الدين وأدى الرسالة امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ وقال للرسول قل لصاحبك والله
الذي لا اله الا هو لئن لم يرجع لاسيرن الى ملطية وبيني وبينها يومان ولا انزل عن فرسي الا في البلد
ثم اقصد جميع بلاده وآخذها منه فرأى الرسول امرا شديدا فقام من عنده وكان قد رأى
العسكر وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك ليس عنده ما يقاربه
فعلم انه ان قصدهم اخذ بلادهم فارسل اليه من الغد يطلب ان يجتمع به فاحضره فقال له اريد ان
اقول شيأ من عندي ليس رسالة عن صاحبي واحب ان تنصفني فقال له قل قال يا مولانا ما هو
قبيح بمثلك وانت من أعظم السلاطين واكبرهم شأنا ان تسمع الناس عنك انك صالحت الفرنج
وتركت الغزو ومصالح المملكة واعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة
وجمعت العساكر من اطراف البلاد البعيدة والقريبة وسرت وخسرت انت وعساكرك
الاموال العظيمة لاجل قحبة مغنية ما يكون عذرك عند الله تعالى ثم عند الخليفة وملوك الاسلام
وكافة العالم واحسب ان احدا ما يواجهك بهذا أما يعلمون ان الامر هكذا ثم احسب ان قلج
ارسلان مات وهذه ابنته قد ارسلتني اليك تستجير بك وتسألك ان تنصفها من زوجها فان فعلت
فهو الظن بك ان لا تردها فقال والله الحق بيدك وان الامر لكما تقول ولكن هذا الرجل دخل
علي واستجار بي ويقبح بي تركه لكنك انت اجتمع به واصلح الحال بينكم على ما تحبون وانا
اعينكم عليه واقبح فعله ووعد من نفسه بكل جميل فاجتمع الرسول بصاحب الحصن وتردد
القول بينهم فاستقر ان صاحب الحصن يخرج المغنية عنه بعد سنة وان كان لا يفعل يترك
صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وقلج ارسلان عليه واصطلحوا على ذلك وعاد صلاح الدين
عنه الى الشام وعاد نور الدين الى بلاده فلما انقضت المدة اخرج نور الدين المغنية عنه فتوجهت
الى بغداد واقامت بها الى ان ماتت

(ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الارمني)

وفيها قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الارمني بعد فراغه من امر قلج ارسلان وسبب ذلك ان ابن
ليون الارمني كان قد استمال قوما من التركمان وبذل لهم الاموال فامرهم ان يرعوا مواشيهم
في بلاده وهي بلاد حصينة كلها حصون منيعة والدخول اليها صعب لانها مضايق وجبال وعرة
ثم غدر بهم وسبى حريمهم وأخذ اموالهم واسر رجالهم بعد ان قتل منهم من حان أجله ونزل
صلاح الدين على النهر الاسود وبث الغارات على بلاده فخاف ابن ليون على حصن له على رأس
جبل ان يؤخذ فخربه واحرقه فسمع صلاح الدين بذلك فاسرع السير اليه فادركه قبل ان ينقل
ما فيه من ذخائر واقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه فارسل ابن ليون يبذل اطلاق من
عنده من الاسرى والسبي واعادة اموالهم على ان يردوا عن بلاده فاجابه صلاح الدين
الى ذلك واستقر الحال واطلق الاسرى واعيدت اموالهم وعاد صلاح الدين عنه في جمادى
الآخرة

(ذكر ملك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه)

في هذه السنة سار ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الى افريقية وملك قفصة وكان سبب ذلك
ان صاحبها علي بن المعز بن المعتز لما رأى دخول الترك الى افريقية واستيلاءهم على بعضها

الهام رؤس • وبلغ السلطان
خبر الفريقين فطلبهم في
خواص رجاله وجعل يلحقهم
الى ما وراءهم شيأ فشيأ
ويعلو عليهم ملاحمهم
شعبا فشعبا الى أن ارقاهم في
عطفات الجبال الشوامخ •
فألجأهم بقلال الراسيات
البواذخ • واستفسح المجال
الى عظيم الكفرة المعروف
بابن سوري فغزاه في عقر
داره • وأحاط به من جانب
حصاره • وشد عليه الحرب
وبرز الرجل في قرابة عشرة
آلاف رجل رجال كأنما
خلقت قلوبهم من حديد •
واكبادهم من جلاميد •
يستأنسون بأهوال
الوقائع • استئناس الظماء
بماء الشرائع • فصافوا عسكر
السلطان مرعدين بالبأس
والبأس مبرقين بصوارم
الاسياف وحملوا يهرون
في وجوههم هرير الكلاب
أصابها القراب وأحرجتها
الاحجار • فامر السلطان
بمباركة الشد عليهم على
ما اوجبه حكم الاحتياط
اذ كانوا مستندين الى معاقل
وثيقة • ومعتصمين بخنادق
عميقة • حتى اذا انتصف
النهار على ورفاحتهم في
مغامسة الحرب • ومصابرة
الطعن والضرب • اشار
بتوليتهم الظهور على وجه
الاستدراج والاقتبال

وانقياد العرب اليهم طمع ايضا فى الاستبداد والانفراد عن يوسف وكان فى طاعته فاظهر ما فى
نفسه وخالفه واظهر العصيان ووافقه اهل قفصة فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين
اصحاب ابى يعقوب وكان ذلك فى شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة فارسل والى بجاية الى
يوسف بن عبد المؤمن يخبره باضطراب امور البلاد واجتماع كثير من العرب الى قراقوش
التركى الذى دخل الى افريقية وقد تقدم ذكر ذلك وماجرى فى قفصة من قتل الموحدين
ومساعدة اهل قفصة صاحبهم على ذلك فشرع فى سد الثغور التى يخافها بعد مسيره فلما فرغ من
جميع ذلك تجهز العسكر وسار الى افريقية سنة خمس وسبعين ونزل على مدينة قفصة وحصرها
ثلاثة اشهر وهى بلد حصينة واهلها انجاد وقطع شجرها فلما اشتد الامر على صاحبها واهلها
خرج منها مستخفيا لم يشعر به احد من اهل قفصة ولا من عسكره وسار الى خيمة يوسف وعرف
حاجبه انه قد حضر الى امير المؤمنين يوسف فدخل الحاجب وأعلم يوسف بوصول صاحب قفصة
الى باب خيمته فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد وامر بادخاله عليه فدخل
وقبل يده وقال قد حضرت أطلب عفو امير المؤمنين عنى وعن اهل بلدى وان يفعل ماهو اهله
واعتذر فرق له يوسف فعفا عنه وعن اهل البلد وتسلم المدينة اول سنة ست وسبعين وسير
على بن المعز صاحبها الى بلاد المغرب فكان فيها مكرما عزيزا واقطعه ولاية كبيرة ورتب يوسف
لقفصة طائفة من اصحابه الموحدين وحضر مسعود بن زمام امير العرب عند يوسف ايضا
فعفا عنه وسيره الى مراكش وسار يوسف الى المهدية فأتاه رسول ملك الفرنج صاحب
صقلية يلتمس منه الصلح فهادنه عشر سنين وكانت بلاد افريقية مجدبة فتعذر على العسكر
القوت وعلف الدواب فسار الى المغرب مسرعا والله اعلم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى شمس الدولة توران شاه بن ايوب اخو صلاح الدين الاكبر بالاسكندرية
وكان قد أخذها من أخيه اقطاعا فاقام بها فتوفى وكان له أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون
اليه الاموال من زبيد وعدن وما بينهما من البلاد والمعاقل وكان أجود الناس واسخاهم
كفا يخرج كل ما يحمل اليه من أموال اليمن ودخل الاسكندرية وحكمه فى بلاد أخيه صلاح
الدين وأمواله نافذ ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مائتى ألف دينار مصرية دين فوفاها اخوه
صلاح الدين عنه لما دخل الى مصر فانه لما بلغه خبر وفاته سار الى مصر فى شعبان من السنة
واستخلف بالشام عز الدين فرخشاه ابن اخيه شاهنشاه وكان عاقلا حازما شجاعا وفيها توفى ابو
طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الاصفهانى بالاسكندرية وكان حافظ الحديث وعاملا به سافر فى طلب
الكثير وتوفى ايضا فى المحرم على بن عبد الرحيم المعروف بابن العصار اللغوى ببغداد وسمع
الحديث وكان من اصحاب ابن الجواليقى

(ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة)

(ذكر غزاة الى بلد الكرك من الشام)

فى هذه السنة سار فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق الى أعمال كرك ونهبها وسبب ذلك ان
البرنس ارناط صاحب الكرك كان من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين

فاغتروا بخدعة الانقلاب
وانفشوا عن مواقفهم الى
فسحة الفضاء لاغتنام فرصة
الانهزام فكرت عليهم
الخيول بضربات غنيت
بدورانها عن اخواتها
فلم ترتفع منها واحدة الا عن
دماغ منثور * ونياط مبتور
* وصرع فى تلك المعركة
الواحدة رجال كهشيم
المحتظر * واعجاز نخل منقعر
وملك الاسر عظيمهم
المعروف بابن سورى
باقربيه وذويه * وسائر
حواشيه * وأفاء الله على
السلطان ما اشتمل عليه
حصاره من ذخائر الاموال
والاسلحة التى اقتناها كابر
عن كابر * وتوارثها كافر عن
كافر * وأمر السلطان باقامة
شعائر الاسلام فيما افتتحه
من تلك القلاع والرباع
فأفصحت بذكره منابرها *
واشترك فى عز دعوته باديها
وحاضرها * ورجع بعد ذلك
عن وجهه على جناح
اليسر والنجاح * والظفر
المتاح * وحين رأى ابن
سورى حصوله فى ذل اساره
* واستباحة السلطان
ودائع حصاره * تبرم
بجثمانه * واستراح الى
برد وفاته * فامتص مما
كان أودعه فص خاتمه فجاد
للوقت بنفسه فخسر الدنيا
والآخرة ذلك هو

فتجهز وجمع عسكره ومن أمكنه الجمع وعزم على المسير في البر الى تيما ومنها الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة فسمع عز الدين فرخشاه ذلك فجمع العساكر الدمشقية وسار الى بلده ونهبه وخربه وعاد الى طرف بلادهم وأقام بها ليمنع البرنس من المسلمين فامتنع من مقصده فلما طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر علم البرنس ان المسلمين لا يعودون حتى تفرق جمعه وانقطع طمعه من اماركه فعاد فرخشاه الى دمشق وكفى الله المؤمنين شر الكفار

(ذكر تلبيس ينبغي أن يحتاط من مثله)

كان سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ الكناني ينوب عن شمس الدولة أخي صلاح الدين باليمن ويحكم في الاموال والبلاد بعد ان فارقها شمس الدولة كما ذكرناه وكان هوا الشام لانه وطنه فارسل الى شمس الدولة يطلب الاذن له في المجيء اليه فاذن له في المجيء فاستناب بزبيد اخاه حطان بن كامل بن منقذ الكناني وعاد الى شمس الدولة وكان معه بمصر فلما مات شمس الدولة بقي مع صلاح الدين فقيل عنه انه أخذ اموال اليمن وادخرها وسعى به اعداؤه فلم يعارضه صلاح الدين فلما كان هذه السنة وصلاح الدين بمصر اصطنع سيف الدولة طعاما وعمل دعوة كبيرة ودعا اليها اعيان الدولة الصلاحية بقرية تسمى العدوية وأرسل اصحابه يتجهزون من البلد ويشترون ما يحتاجون اليه من الاطعمة وغيرها فقيل لصلاح الدين ان ابن منقذ يريد الهرب وأصحابه يتزودون له ومتى دخل اليمن اخرجه عن طاعتك فارسل صلاح الدين فاخذه والناس عنده وحبسه فلما سمع صلاح الدين جلية الحال علم ان الحيلة تمت لاعدائه فيه فخفف ما كان عنده وسهل أمره وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية سوى ما اخذ منه من الحمل لاخوة صلاح الدين وأصحابه واطلقه واعاده الى منزلته وكان أديبا شاعرا

(ذكر ارسال صلاح الدين العساكر الى اليمن)

في هذه السنة سير صلاح الدين جماعة من امرائه منهم صارم الدين قتلغ أبه والي مصر الى اليمن للاختلاف الواقع بها بين نواب أخيه شمس الدولة وهم عز الدين عثمان بن الزنجيلي والي عدن وحطان بن منقذ والي زبيد وغيرهما فانه لما بلغهم وفاة صاحبهم اختلفوا وجرت بين عز الدين عثمان وبين حطان حروب وكل واحد منهما يروم أن يغلب الآخر على ما بيده واشتد الامر فخاف صلاح الدين أن يطمع اهل البلاد فارسل هؤلاء الامراء اليها واستولى قتلغ أبه على زبيد وأزال حطان عنها ثم مات قتلغ ابه فعاد حطان الى امارة زبيد واطاعه الناس بجوده وشجاعته

(ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمه عز الدين مسعود مدينة حلب)

في هذه السنة في رجب توفي الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها وعمره تسع عشرة سنة ولما اشتد مرضه وصف له الاطباء شرب الخمر للتداوي فقال لا أفعل حتى أستفتي الفقهاء فاستفتى فأفتاه فقيه من مدرسي الحنفية بجواز ذلك فقال له أرأيت ان قدر الله تعالى بقرب الاجل أيؤخره شرب الخمر فقال له الفقيه لا فقال والله لا لقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه علي ولم يشربه فلما أيس من نفسه أحضر الامراء وسائر الاجناد ووصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم ان عماد الدين

(ذكر القحط الواقع بنيسابور)

في سنة احدى وأربعمائة وقع القحط بنيسابور خصوصا وفي سائر بلاد خراسان عموما * فهلك بنيسابور وباطرافها دون غيرها مائة ألف او يزيدون وكم دفن منهم باطمارهم لضيق الاكفان بهم * وعجز غسلة الاموات عنهم * وكان الناس بين غلام وشاب وكهل وشيخ وفتاة وعجوز يتداعون الخبز الخبز ويذوبون على أنفسهم حتى تغور عيونهم * وتجب للموت جنوبهم * ورعوا نبات الارض حتى استحكم اليأس عن الزروع * وانقطعت الاطماع عن الريوع * وضاق بهم الامر فجعلوا يتتبعون رمام العظام على رؤس الكناسات فملأ بها ومهما ذبح قصاب ذبيحة اجتمع عليه الفوج بعد الفوج يتقاسمون دمها بالكيزان والخزف تسكينا لحرقة الجوع وابتزازه بعض القوت فلم ينل منه أحد الا سقط بلبه * وباد عن كثب بنفسه ومهدي بهم يتتبعون سقاطات حب الشعير عن الارواث وهيهات ان الشعير لاعن الانام * فكيف البهائم والانعام *

عمك ايضا وهو زوج اختك وكان والدك يحبه ويؤثره وهو تولى تربيته وليس له غير سنجار فلو
أعطيته البلد لكان أصلح وعز الدين له من البلاد من الفرات الى همذان ولا حاجة به الى بلدك
فقال له ان هذا لم يغب عنى ولكن قد علمتم ان صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى
ما بيدى ومتى سلمت حلب الى عماد الدين فيعجز عن حفظها وان ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا
معه مقام وان سلمتها الى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا
من جودة فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه ثم مات وكان حليما كريما عفيف اليد والفرج
واللسان ملازما للدين لا يعرف له شئ مما يتعاطاه الملوك والشباب من شرب خمر أو غيره حسن
السيرة فى رعيته عادلا فيهم ولما قضى نحبه أرسل الامراء الى اتابك عز الدين يستدعونه الى حلب
فسار هو ومجاهد الدين قايماز الى الفرات وأرسل أحضر الامراء عنده من حلب فحضروا
وساروا جميعا الى حلب ودخلها فى العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ بمصر ولولا
ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم فلما اجتاز فى طريقه اليها من الفرات كان تقى الدين عمر ابن اخى
صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها هاربا الى حماة وثار أهل حماة ونادوا بشعار عز الدين فاشار
عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق واطمعوه فيها وفى غيرها من بلاد الشام وأعلموه محبة
اهلها له ولاهل بيته فلم يفعل وقال بيننا يمين فلا نغدر به وأقام بحلب عدة شهور ثم سار عنها الى الرقة

(ذكر تسليم حلب الى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها)

لما دخل عز الدين الى الرقة جاءته رسل اخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب ان يسلم اليه حلب
ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار فلم يجبه الى ذلك ولج عماد الدين فى ذلك وقال ان سلمتم الى
حلب والا سلمت انا سنجار الى صلاح الدين فاشار حينئذ جماعة من الامراء بتسليمها اليه وكان
اشدهم فى ذلك مجاهد الدين قايماز فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكنه فى الدولة وكثرة عساكره
وبلاده وانما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عز الدين لانه عظم فى نفسه وكثر معه العسكر
وكان الامراء الحلبيون لا يلتفتون الى مجاهد الدين ولا يسلكون معه من الادب ما يفعله
عسكر الموصل فاستقر الامر على تسليم حلب الى عماد الدين واخذ سنجار عوضا عنها فسار عماد
الدين فتسلمها وسلم سنجار الى اخيه وعاد الى الموصل وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر ملك عز
الدين حلب فعظم الامر عليه وخاف ان يسير منها الى دمشق وغيرها ويملك الجميع وايس من
حلب فلما بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه وسار الى الشام وكان من الوهن على
دولة عز الدين ما نذكره ان شاء الله

(ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومصير صاحبها مع صلاح الدين)

كانت قلعة البيرة وهى مطلة على الفرات من ارض الجزيرة لشهاب الدين الارتقى وهو ابن عم
قطب الدين ايلغازى بن البى بن تمرتاش بن ايلغازى بن ارتق صاحب ماردين وكان فى طاعة
نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام فمات شهاب الدين وملك القلعة بعده ولده وصار
فى طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل فلما كان هذه السنة أرسل صاحب ماردين الى
عز الدين يطلب منه ان يأذن له فى حصر البيرة وأخذها فأذن له فى ذلك فسار فى عسكره الى قلعة
سميساط وهى له ونزل بها وسير العسكر الى البيرة فحصرها فلم يظفر منها بطائل الا انهم لازموا

ثم ترا قى الامر الى أن اكلت
الام ولدها والاخ أخاه
والزوج زوجته وظل
بعضهم يختلس بعضا من
شوارع الطرق الى الخرابات
فيطبخ منه ماشاء من
الباجات * وحرمت
الاسعار على الناس لكثرة
ماصبر عليها من لحوم البشر
فيبيع فى الاسواق وقبض
على اقوام بلا عدد كانوا
يغتالون السابلة * فيصبرونهم
على هذه الحالة * ووجد فى
دورهم مايغمر العدد من
رؤس الناس قد أكلت
لحومهم * وصهرت شحومهم
وأما الكلاب والسنانير *
فلم يبق منها الا العدد
اليسير * وخابت اوساط
الناس وارباب الحرف أن
يخترقوا وقت العشاء محلة
بائنة عن واسطة البلد
الا فى عديد * وسلاح
حديد * وذكر أن فقيها
وجيها من أصحاب الحديث
دخل على الامام أبى الطيب
سهل بن محمد بن سليمان
الصعلوكى فسأله عن
تطاول عهده به فقال لما أخذ
الامام عنى أحدوثة عجيبة
رد الله بها على روحى فضلا
منه جسيما * وصنعا
كريما * وذلك أنى جعلت
أمر ببعض العشيات وحيدا
فى شارع اشار اليه فلم يرعنى
الا وترصار فى عنقى * وجذبت

الحصار فأرسل صاحبها الى صلاح الدين وقد خرج من ديار مصر على ما نذكره يطلب منه ان ينجده ويرحل العسكر المباردي عنه ويكون هو في شدته كما كان أبوه في شدة نور الدين فاجابه الى ذلك وأرسل رسولا الى صاحب ماردين يشفع فيه ويطلب ان يرحل عسكره عنه فلم يقبل شفاعته واشتغل صلاح الدين بما نذكره من الفرنج فلما رأى صاحب ماردين طول مقام عسكره على البيرة ولم يبلغوا منها غرضا امرهم بالرحيل عنها وعاد الى ماردين فسار صاحبها الى صلاح الدين وكان معه حتى عبر معه الفرات على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة كثرت المنكرات ببغداد فاقام حاجب الباب جماعة لاراقة الخمور واخذ المفسدات فبينا امرأة منهن في موضع اذ جاء أصحاب حاجب الباب فاضطجعت وأظهرت انها مريضة وارتفع أنينها فرأوها على تلك الحال فتركوها وانصرفوا فاجتهدت بعدهم ان تقوم فلم تقدر وجاءت تصيح الكرب الكرب الى أن ماتت وهذا من أعجب ما يحكى وفيها في عاشر ذي الحجة توفي الامير همام الدين تتر صاحب قلعة تكريت بالمزدلفة كان قد استخلف الامير عيسى بن اخي مودود بوجع فتوفي ودفن بالمعلى مقبرة مكة وفيها في شعبان توفي عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد أبو البركات النحوي المعروف بابن الانباري ببغداد وله تصانيف حسنة في النحو وكان فقيها صالحا وفيها توفي ابراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعي بجزيرة ابن عمر وكان فاضلا كثير الورع

(ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة)

(ذكر مسير صلاح الدين الى الشام واغارته على الفرنج)

في هذه السنة خامس المحرم سار صلاح الدين عن مصر الى الشام ومن عجيب ما يحكى من التطير انه لما برز من القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر والناس عنده واعيان دولته والعلماء وارباب الآداب فمن بين مودع له وسائر معه وكل منهم يقول شيئا في الوداع والفراق وما هم بصدده من السفر وفي الحاضرين معلم لبعض اولاده فاخرج رأسه من بين الحاضرين وانشد

تمتع من شميم عرار نجد ۞ فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد اليها الى ان مات مع طول المدة ثم سار عن مصر وتبعه من التجار واهل البلاد ومن كان قصده مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره عالم كثير فلما سار جعل طريقه على ايلة فسمع ان الفرنج قد جمعوا له ليصادموه ويصدوه عن المسير فلما قارب بلادهم سير الضعفاء والاثقال مع أخيه تاج الملوك بوري الى دمشق وبقي هو في العساكر المقاتلة لا غير فشن الغارات باطراف بلادهم واكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك فلم يخرج اليه منهم احد ولا أقدم على الدنو منه ثم سار فأتى دمشق فوصلها حادي عشر صفر من السنة

(ذكر ملك المسلمين شقيفا من الفرنج)

في هذه السنة ايضا في صفر فتح المسلمون بالشام شقيفا من الفرنج يعرف بحبس جلدك وهو من اعمال طبرية مطل على السواد وسبب فتحه ان الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر الى

بوجده ضيقت على مخنقي فبينا انا اهيم وانا تائه الجاذب ومدا انا على ضيق المخنق اذ وثبت الي من بعض تلك الاوبات امرأة فضربت انفي وركبتها ضربة سقطت منها مغشيا علي فلم أشعر بعدها بشيء من مصارف اموري الى ان افقت من الغشي ببرد ماء رش بين وجهي وتراقي فنظرت الى قوم أجانب يحادوني عادهاني ويكاتموني صورة ما عراني فاذا هم ساعة وجيء بلحي ادركوني عابدين الى منازلهم فهرب منهم من أشفق على قتلي واستباحة دمي وتركني برمقي وخلى الوتر في عنقي فصبرت ساعة الى ان استوفيت الافاقة واستعدت القوة والطاقة وعدت الى المنزل وسقطت من هول ذلك المصرع على الفراش عشرين يوما مدهوشا مبهوتا ومرضا مسبوتا الى ان من الله علي باوائل الاقبال وزوال أكثر ما مسني من ألم الاعتلال فبكرت يوم أحسست بالخفة الى المسجد لاقامة الفرض وصعدت المئذنة على الرسم فلم أستتم التكبير حتى اختطف عمامتي من راسي وهي أراد صاحبه رقبتي

الشام جمعوا وحشدوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم
ينتهزون فرصة او يظفرون بنصرة وربما عاقوا المسلمين عن المسير بان يقفوا على بعض المضايق
فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام فسمع فرخشاه الخبر فجمع من عنده من عساكر
الشام ثم قصد بلاد الفرنج واغار عليها ونهب دبورية وما يجاورها من القرى واسر الرجال وقتل
واكثر وسبي النساء وغنم الاموال وفتح منهم الشقيف وكان على المسلمين منه اذى شديد ففرح
المسلمون بفتحه فرحا عظيما وارسل الى صلاح الدين بالبشارة فلقيه في الطريق ففت ذلك في عضد
الفرنج وانكسرت شوكتهم

(ذكر ارسال سيف الاسلام الى اليمن وتغلبه عليه)

في هذه السنة سير صلاح الدين اخاه سيف الاسلام طغدكين الى بلاد اليمن وامره بملكها وقطع
الفتن بها وفوض اليه امرها وكان بها حطان بن منقذ كما ذكرناه قبل وكتب عز الدين عثمان
الزنجيلي متولي عدن الى صلاح الدين يعرفه باختلال البلاد ويشير بارسال بعض اهله اليها
لان حطان كان قوى عليه فخافه عثمان فجهز صلاح الدين اخاه سيف الاسلام وسيره الى بلاد
اليمن فوصل الى زبيد فخافه حطان بن منقذ واستشعر منه وتحصن في بعض القلاع فلم يزل
به سيف الاسلام يؤمنه ويهدي اليه ويلاطفه حتى نزل اليه فاحسن صحبته واعمل معه مالم
يكن يتوقعه من الاحسان فلم يثق حطان به وطلب منه دستورا ليقصد الشام فامتنع من
اجابته اظهارا للرغبة في كونه عنده فلم يزل حطان يراجعه حتى اذن له فاخرج اثقاله وامواله
ودوابه واهله واصحابه وكل ماله وسير الجميع بين يديه فلما كان الغد دخل الى سيف الاسلام
ليودعه فقبض عليه واسترجع جميع ماله فاخذه عن آخره لم يسلم منه قليل ولا كثير ثم سجنه
في بعض القلاع وكان آخر العهد به فقيل انه قتله وكان في جملة ما اخذ منه من الاموال الذهب
العين في سبعين غلافا زردية مملوءة ذهبا عينا واما عز الدين عثمان الزنجيلي فانه لما سمع ما جرى
على حطان خاف فسار نحو الشام خائفا يترقب وسير معظم امواله في البحر فصادفهم مراكب
فيها اصحاب سيف الاسلام فاخذوا كل مال لعز الدين ولم يبق له الا ما صحبه في الطريق وصفت زبيد
وعدن وما معهما من البلاد لسيف الاسلام

(ذكر اغارة صلاح الدين على الغور وغيره من بلاد الفرنج واعمالها)

لما وصل صلاح الدين الى دمشق كما ذكرناه اقام اياما يريح ويستريح هو وجنده ثم سار الى
بلاد الفرنج في ربيع الاول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم في الاقحوانة من الاردن
وجاءت الفرنج بجموعها فنزلت بطبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن اخيه الى بيسان فدخلها
قهرا وغنم ما فيها وقتل وسبي وبث في الغور غارة شعواء فعم اهله قتلا واسرا وجاءت العرب فاغارت
على جينين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنج من طبرية فنزلوا تحت
جبل كوكب فتقدم صلاح الدين اليهم وارسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب فلم يبرحوا
ولم يتحركوا للقتال فامر ابني اخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج فيمن
معهما فقاتلوا قتالا شديدا ثم ان الفرنج انحازوا على حاميتهم فنزلوا عفربلا فلما رأى صلاح الدين
ما قد اثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم الى دمشق

فاخطأها لما اراد الله من
انساء اجلي * واستبقاء
مهلي * فعدلت عن الاذان
الى الصياح بطالب الامان
وجعلت لله على بعد ذلك
نذرا أن لا اخرج مدة هذه
الفتنة من داري الا والشمس
بيضاء نقيه * ولا أرجع اليها
الا وفي النهار بقيه * فهذه
هي التي ثبطتني عن الخدمه
وأقعدتني عن الرسم في
مشاهدة الجمله * فقضى
الحاضرون عجبا من تلك
الداهيه * وسألوا الله تعالى
حسن السلامة والعافيه *
وحكي عن الاستاذ أبي سعد
عبد الملك بن عثمان الواعظ
احد الصالحين * من عباد الله
تعالى الموقنين * والساعين
في مصالح المسلمين * انه نقل
الى دار كان يسكنها المرضى
والزمنى من الفقراء وابناء
السبيل في يوم واحد من
أيام هذه السنة أربعمائة
ميت عن برح الجوع
والمخمصة على أن يوعز
بتكفينهم ودفنهم فأبى
خبازه الذي كان يقسم
جرايات المذكورين من
جهته وهو في جيرته يذكر
انه قد بقي في هذا اليوم
بعينه مما كسد على البيع
أربعمائة منا خبز فسبحان
من يقضي على من يشاء
بالفناء * مع امكان الاقوات *
ووجود الكفايات * وقد

(ذكر حصر بيروت)

ثم انه سار عن دمشق الى بيروت فنهب بلدها وكان قد أمر الاسطول المصري بالمجيء في البحر اليها فساروا ونازلوها واغاروا عليها وعلى بلدها وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب ما لم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة أيام وكان عازما على ملازمتها الى ان يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها ان البحر قد القى بطسة للفرنج فيها جمع عظيم منهم الى دمياط كانوا قد خرجوا للزيارة الى البيت المقدس فاسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى الفا وستمائة وستا وسبعين اسيرا فضربت بذلك البشائر

(ذكر عبور صلاح الدين الفرات وملكه ديار الجزيرة)

في هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات الى الديار الجزرية وملكها وسبب ذلك ان مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين وهو مقطع حران كان قد أقطعه اياها عز الدين اتابك المدينة والقلعة تقوية واعتضادا ارسل الى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يعلمه انه معه يحب دولته ووعده النصرة له اذا عبر الفرات ويطمعه في البلاد ويحثه على الوصول فسار صلاح الدين عن بيروت ووصل مظفر الدين تترى اليه يحثه على المجيء مجد صلاح الدين في السير مظهرا انه يريد حصر حلب تسترا للحال فلما قارب الفرات سار اليه مظفر الدين فعبر الفرات واجتمع به فقصد البيرة وهي قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزري وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين وفي طاعته وقد ذكرنا سبب ذلك قبل فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذي عند البيرة وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين الى الشام قد جمعا العسكر وسارا الى نصيبين ليكونا على أهبة واجتماع لئلا يتعرض صلاح الدين الى حلب ثم تقدما الى دارا فنزلا عندها لحمايتها مما لم يكن في الحساب فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا الى الموصل وارسلا الى الرها عسكرا يحميها ويمنعها فلما سمع صلاح الدين ذلك قوي طمعه في البلاد ولما عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك اصحاب الاطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته فاجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن الى ما طلب منه لقاعدة استقرت بينهما كان نور الدين عنده بالشام فانه استقر الحال ان صلاح الدين يحصر آمد ويملكها ويسلمها اليه وسار صلاح الدين الى مدينة الرها فحصرها في جمادى الاولى وقاتلها اشد قتال فحدثني بعض من كان بها من الجند أنه عد في غلاف رمح اربعة عشر خرقا وقد خرقته السهام ووالى الزحف عليها وكان بها حينئذ مقطعها وهو الامير فخر الدين مسعود الزعفراني فحيث رأى شدة القتال اذعن الى التسليم وطلب الامان وسلم البلد وصار في خدمة صلاح الدين فلما ملك المدينة زحف الى القلعة فسلمها اليه الدزدار الذي بها على مال اخذه فلما ملكها سلمها الى مظفر الدين مع حران ثم سار عنها الى الرقة فلما وصل اليها كان بها مقطعها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي فسار عنها الى عز الدين اتابك وملكها صلاح الدين وسار الى الخابور قرقيسيا وماكسين وعرابان فملك جميع ذلك فلما استولى على الخابور جميعه سار الى نصيبين فملك المدينة لوقتها وبقيت القلعة فحصرها عدة أيام فملكها أيضا واقام بها يصلح شأنها ثم اقطعها اميرا كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن واتاه الخبر

أكثر الناس في ذكر هذا الغلاء والبلاء فمنه قول أبي نصر الزاوهي الكاتب

قد أصبح الناس في غلاء وفي بلاء تداولوه
من يلزم البيت يود جوعا او يشهد الناس يأكلوه

(ولابي محمد العبد لكاني الزوزني)

لا تخرجن من البيوت لحاجة او غير حاجه
والباب أغلقه لشك موثقا منه رتاجه
لا يقتنصك الجائعون فيطبخونك شورباجه

وأمر السلطان عين الدولة وامين الملة بالكتب الى عماله بصب الاموال على الفقراء والمساكين فاستنقذ الله تعالى بها مهجات قوم قد أشرفت على الهلاك واستنقذهم من بين حسك الاحتناك فبقيت تلك السنة على حالها من القحط والغلاء الى ان ادركت غلات سنة اثنتين واربعمائة فمن الله تعالى بازالة تلك الشدة واطفاء تلك النائرة المتقدة وتدارك عباده بعد استحكام اليأس منهم بالغيوث الهامية والريوع الزاكية النامية وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم

(ذكر ما أنشئ اليمين

ان الفرنج قصد وادمشق ونهبوا القرى ووصلوا الى داريا وأرادوا تخريب جامعها فارسل
النائب بدمشق اليهم جماعة من النصارى يقول لهم ان اخربتم الجامع جددنا عمارته واخربنا
كل بيعة لكم فى بلادنا ولا نمكن احدا من عمارتها فتركوه ولما وصل الخبر الى صلاح الدين
بذلك اشار عليه من يتعصب لعز الدين بالعود فقال يخربون قرى ونملك عوضها بلادا ونعود
نعمرها ونقوى على قصد بلادهم ولم يرجع فكان كما قال

(ذكر حصر صلاح الدين الموصل)

لما ملك صلاح الدين نصيبين جمع امراءه وارباب المشورة عنده واستشارهم باى البلاد يبدأ
وأيها يقصد بالموصل ام بسنجار ام بجزيرة ابن عمر فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين كوكبرى
ابن زين الدين لا ينبغي ان يبدأ بغير الموصل فانها فى ايدينا لا مانع لها فان عز الدين ومجاهد الدين
متى سمعا بمسيرنا اليها تركاها وسارا عنها الى بعض القلاع الجبلية ووافقه ناصر الدين محمد ابن
عمه شيركوه وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيرا ليقطعه الموصل اذا ملكها وقد اجابه صلاح
الدين الى ذلك فاشار بهذا الرأى لهواه فسار صلاح الدين الى الموصل وكان عز الدين صاحبها
ومجاهد الدين نائبه قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل واظهرا من
السلاح وآلات الحصار ما حارت له الابصار وبذلا الاموال الكثيرة واخرج مجاهد الدين من
ماله كثيرا واصطلى الامور بنفسه فاحسن تدبيرها وشحنوا ما بقى بايديهم من البلاد كالجزيرة
وسنجار والموصل واربل وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والاموال وسار صلاح الدين
حتى قارب الموصل وترك عسكره وانفرد هو ومظفر الدين وابن عمه ناصر الدين بن شيركوه
ومعهم نفر من اعيان دولته وقربوا من البلد فلما قربوا ورآه وحققه رأى ما هاله وملأ صدره
وصدور أصحابه فانه رأى بلدا عظيما كبيرا ورأى السور والفصيل قد ملئا من الرجال وليس
فيها شرافة الا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين فلما رأى ذلك علم انه
لا يقدر على أخذه وانه يعود خائبا فقال لناصر الدين ابن عمه اذا رجعنا الى المعسكر فاحمل
ما بذلت من المال فنحن معك على القول فقال قد رجعت عما بذلت من المال فان هذا البلد
لا يرام فقال له ولمظفر الدين غررتمانى وأطمعتمانى فى غير مطمع ولو قصدت غيره قبله لكان اسهل
اخذا بالاسم والهيبة التى حصلت لنا ومتى نازلناه وعدنا منه ينكسر ناموسنا ويفل حدنا
وشوكتنا ثم رجع الى معسكره وصبح البلد وكان نزوله عليه فى رجب فنازله وضايقه ونزل
محاذى باب كندة وانزل صاحب الحصن بباب الجسر وانزل اخاه تاج الملوك عند الباب العمادى
وانشب القتال فلم يظفر وخرج اليه يوما بعض العامة فنالوا منه ولم يمكن عز الدين ومجاهد الدين
احدا من العسكر يخرجون لقتال بل لزموا الاسوار ثم ان تقى الدين اشار على عمه صلاح الدين
بنصب منجنيق فقال مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق ومتى نصبناه اخذوه ولو خربنا برجا
وبدنة من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير فالح تقى الدين وقال نجربهم به
فنصب منجنيقا فنصب عليه من البلد تسعة منجنيقات وخرج جماعة من العامة فاخذوه
وجرى عنده قتال كثير فاخذ بعض العامة لالكة من رجليه فيها المسامير الكثيرة ورمى بها
اميرا يقال له جاولى الاسدى مقدم الاسدية وكبيرهم فأصاب صدره فوجد لذلك ألما شديدا

احوال الخانية بعد معاودة ماوراء النهر)* قد كان السلطان يمين الدولة وامين الملة بعد انكشاف عسكر الترك عنه يراعى ما يسفر عنه تدبير ايلك خان واخيه الكبير طغان خان اذ كان أخوه يمالئ السلطان يمين الدولة عليه لايمان يزعم لزومها اياه ومواثيق يدعى انعقادها عليه ويظهر البراءة على ألسنة رسله من فعلات ايلك فى منابذته ومكاشفته والتخطى الى حدود مملكته ويورك ايلك الذنب عليه فى اغرائه بما أتاه* ومكاتبته فى البعث على ما جناه* ولما ظهر لايلك خان* ان اخاه طغان خان* قد جعله عرضة للجناية وقلده طوق تلك المكاشفة براءة منه وخذلانا اياه وشقا للعصاه* واسلاما له بما كسبت يداه* رأى ان يبتدئ به فيحسم داء قرابته* ويغسل بسيفه وضر جنايته* فجمع جيوش ماوراء النهر لقصده* واستدفاع مكره وغدره* وسار حتى اذا جاوز اوزجند نحوه سقطت ثلوج عظيمة سدت عليه مسالك العقاب المفضية اليه* فارتد عن وجهه الى قايل حتى طاب الهواء واخضر الشجر* وخفت

واخذ اللالكة وعاد عن القتال الى صلاح الدين وقال قد قاتلنا اهل الموصل بحماقات ما رأينا
بعدها مثلها والقى اللالكة وحلف انه لا يعود يقاتل عليها انفة حيث ضرب بها ثم ان صلاح الدين
رحل من قرب البلد ونزل متأخرا وقارب البيات فانه لقربه كان لا يأمن ذلك وكان سببه أيضا
ان مجاهد الدين اخرج في بعض الليالي جماعة من باب السر الذي للقلعة ومعهم المشاعل فكان
احدهم يخرج من الباب وينزل الى دجلة الى حيث الكبيبة ويطفئ المشعل فرأى العسكر
الناس يخرجون فلم يشكوا في الكبسة فحملهم ذلك على الرحيل والتأخر ليتعذر البيات على
أهل الموصل وكان صدر الدين شيخ الشيوخ رحمه الله قد وصل اليه قبل نزوله على الموصل ومعه
بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله في الصلح فأقاما معه على الموصل وترددت
الرسل الى عز الدين ومجاهد الدين في الصلح فطلب عز الدين اعادة البلاد التي أخذت منهم فأجاب
صلاح الدين الى ذلك بشرط ان تسلم اليه حلب فامتنع عز الدين ومجاهد الدين ثم نزل عن ذلك
واجاب الى تسليم البلاد بشرط ان يتركوا انجاد صاحب حلب عليه فلم يجيبوا الى ذلك
ايضا وقال عز الدين هو اخي وله العهود والمواثيق ولا يسعني أن انكثها ووصلت أيضا رسل قزل
ارسلان صاحب اذربيجان ورسل شاه ارمن صاحب خلاط في المعنى فلم يتفق امر ولا تم صلح
فلما رأى صلاح الدين انه لا ينال من الموصل غرضا ولا يحصل على غير العناء والتعب وان من
بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصده من عساكره واصحابه سار من
الموصل اليها

(ذكر ملكه مدينة سنجار)

لما سار صلاح الدين عن الموصل الى سنجار سير مجاهد الدين اليها عسكرا قوة لها ونجدة فسمع بهم
صلاح الدين فمنعهم من الوصول اليها واوقع بهم واخذ سلاحهم ودوابهم وسار اليها فنازلها
وكان بها شرف الدين امير اميران هندوا اخو عز الدين صاحب الموصل في عسكر معه فحصر
البلد وضايقه والح في قتاله فكاتبه بعض امراء الاكراد الذين به من الزرزارية وخامر معه
واشار بقصده من الناحية التي هو بها ليسلم اليه البلد فطرقه صلاح الدين ليلا فسلم اليه
ناحيته من الباشورة لا غير فلما سمع شرف الدين الخبر استكان وخضع وطلب الامان ولو
قاتل على تلك الناحية لاخرج العسكر الصلاحي عنها ولو امتنع بالقلعة لحفظها ومنعها ولكنه
عجز فلما طلب الامان اجابه صلاح الدين اليه فامنه وملك البلد وسار شرف الدين ومن معه الى
الموصل واستقر جميع ما ملكه صلاح الدين بملك سنجار فانه كان قصد أن يسترده المواصلة
اذا فارقه لانه لم يكن فيه من غيرها الا عبر فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور
واستناب بها سعد الدين بن معين الدين انز وكان من اكابر الامراء واحسنهم صورة ومعنى

(ذكر عود صلاح الدين الى حران)

لما ملك صلاح الدين سنجار وقرر قواعدها سار الى نصيبين فلقيه اهلها شاكين من أبي الهيجاء
السمين بما كان من ظلمه متأسفين على دولة عز الدين وعدله فيهم فلما سمع ذلك انكر على أبي الهيجاء
ظلمه وعزله عنهم واخذه معه وسار الى حران وفرق عساكره ليستريحوا وبقي جريدة في خواصه
وثقات اصحابه وكان وصوله اليها اوائل ذي القعدة من السنة

لانباة فكر عائدا على
ناره • لقت المثير موهنا
بناره • وكان ورود رسلهما
في التنازع الذي تقدم
ذكره فتراجعا القول في
البراءة من جناية العبود
وآمال بعضهم على البعض
في نقض المواثيق والعهود
فكلاهم السلطان في لغط
القول حتى وصلوا حضر
النقار الى برد الاستقاء
واراد السلطان بين الدولة
وأمين الملة بعد ذلك قرامم
قام بتعبية جيوشه •
وتغشية خيوله • فرتب
العسكر سماطين عن جنبيه
في هيئة لو رآها قارون
حين خرج على قومه
لقال ياليت لي مثل ما أوتي
محمود انه لذو حظ عظيم
وصفة مقامه وانه اصطف
من غلمانه • على التقابل
من الطرفين قرابة ألفي
غلام من عقائل الترك
في الوان الديابيج من بين
سود وبيض وحمر وصفر
وكهب وخضر • وفيما
يقرب من موقفه خمسمائة
غلام من خاصته في مثقلات
الروم بمناطق من ذهب
مرصعة بالجواهر واعمدة
من جنسه فوق الاكتاف
والعواتق وقد اطاف بهم
من عظام الفيول اربعون
فيلا على الماثلة غولشيها
ديابيج الروم بعصائبه

(ذكر اجتماع عز الدين وشاه ارمن)

في هذه السنة في ذي الحجة اجتمع اتابك عز الدين صاحب الموصل وشاه ارمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين وسبب ذلك ان رسل عز الدين ترددت الى شاه ارمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين فارسل شاه ارمن الى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة اليه بالكف عن الموصل وما يتعلق بعز الدين فلم يجبه الى ذلك وغالطه فارسل اليه اخيرا مملوكه سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعد شاه ارمن فاتاه وهو يحاصر سنجار يطلب اليه ان يتركها ويرحل عنها وقال له ان رحل عنها والا فتهدده بقصده ومحاربته فابلغه بكتمر الشفاعة فسوفه في الجواب رجاء ان يفتحها فلما رأى بكتمر ذلك ابلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان ولم يقبل منه خلعة ولا صلة واخبر صاحبه الخبر وخوفه عاقبة الاهمال والتواني عن صلاح الدين فسار شاه ارمن من خلاط وكان مخيما بظاهرها وسار الى ماردين وصاحبها حينئذ قطب الدين بن نجم الدين الى وهو ابن اخت شاه ارمن وابن خال عز الدين وحموه لان عز الدين كان قد زوج ابنة قطب الدين وحضر مع شاه ارمن دولة شاه صاحب بدليس وارزن وسار اتابك عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الاثقال وكان صلاح الدين قد ملك سنجار وسار عنها الى حران وفرق عساكره فلما سمع باجتماعهم سير الى تقي الدين ابن اخيه وهو بحماة يستدعيه فوصل اليه مسرعا واشار عليه بالرحيل وحذره منه آخرون وكان هوى صلاح الدين في الرحيل فرحل الى رأس عين فلما سمعوا برحيله تفرقوا فعاد شاه ارمن الى خلاط واعتذر بانني اجمع العساكر واعود ورجع عز الدين الى الموصل واقام قطب الدين بماردين وسار صلاح الدين فنزل بحرزم تحت ماردين عدة ايام

(ذكر الظفر بالفرنج في بحر عيذاب)

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك اسطولا وفرغ منه بالكرك ولم يبق الا جمع قطعه بعضها الى بعض وحملها الى بحر ايلة وجمعها في اسرع وقت وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة وسيرها فساروا في البحر وافترقوا فرقتين فرقة اقامت على حصن ايلة يحصرونه ويمنعون اهله من ورود الماء فنال اهله شدة شديدة وضيق عليهم واما الفرقة الثانية فانهم ساروا نحو عيذاب وافسدوا في السواحل ونهبوا واخذوا ما وجدوا من المراكب الاسلامية ومن فيها من التجار وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم فانهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا لا تاجرا ولا محاربا وكان بمصر الملك العادل ابو بكر بن ايوب ينوب عن اخيه صلاح الدين فعمر اسطولا وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولي الاسطول بديار مصر وكان مظفرا فيه شجاعا كريما فسار لؤلؤ مجدا في طلبهم فابتدأ بالذين على ايلة فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده فقاتلهم فقتل بعضهم واسر الباقي وسار من وقته بعد الظفر يقص اثر الذين قصدوا عيذاب فلم يرهم وكانوا قد اغاروا على ما وجدوه بها وقتلوا من لقوه عندها وساروا الى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه وكانوا عازمين على الدخول الى الحجاز مكة والمدينة حرسهما الله تعالى واخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام والدخول بعد ذلك الى اليمن فلما وصل لؤلؤ الى عيذاب ولم يرهم سار يقفو اثرهم فبلغ رابغ وساحل الحوراء

وفيها اليوان من الذهب الاحمر مرصعة بكل جوهر ثمين * وياقوت وزين * ووراء السماطين سبعمائة فيل في تجافيف مشهرة * بالوان مسورة * بالحراب والمران وعامة العسكر في سرابيل قد كدت القيون * وردت عن اجتلائها العيون * ورتب الرجالة امام الخيول في الترسة الواقيه * والجنن الحاميه * والسيوف المرهفه * والعوامل المختلفه * وقام بين يديه حجابه كالبدور * في ظلم الديجور * قابضين على قبائع سيوفهم هائبين قدره * وناظرين امره * واذن لهؤلاء الرسل على هذه الهيئة حتى لقوه * واقاموا من رسم الخدمة ما افترضوه * ثم عدل بهم الى الموائد في دار قد فرشت بعالم بحلك غير الجنة مزينة للمتقين * معدة للعارفين * وفي كل مجلس دسوت من الذهب الاحمر من جفان كالحواض واطباق كبار قد نضد بها من صدره الى قدمه بما يشاكله من الاواني الفائقه * والآلات الفاخرة الرائقه * وهي خاص مجلسه طارم قد جمعت الواحه وعضاداته بضباب الذهب وصفائحه وثقفت عساميره من جنسة

وغيرهما فادركهم بساحل الجوزاء فاوقع بهم هناك فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا الى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم وقاتلهم اشد قتال واخذ خيلا من الاعراب الذين هناك فركبها وقاتلهم فرسانا ورجالة فظفر بهم وقتل اكثرهم واخذ الباقين اسرى وارسل بعضهم الى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام اخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم وعاد بالباقين الى مصر فقتلوا جميعهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الاولى توفي عز الدين فرخشاه ابن اخي صلاح الدين وكان ينوب عنه بدمشق وهو ثقته من اهله وكان اعتماده عليه اكثر من جميع اهله وامرائه وكان شجاعا كريما فاضلا عالما بالادب وغيره وله شعر جيد من بين اشعار الملوك وكان ابتداء مرضه انه خرج من دمشق الى غزو الفرنج فمرض وعاد مريضا فمات ووصل خبر موته الى صلاح الدين وقد عبر الفرات الى الديار الجزرية فاعاد شمس الدين محمد بن المقدم الى دمشق ليكون مقدما على عسكرها وفيها مات فخر الدولة ابو المظفر بن الحسن بن هبة الله بن المطلب كان ابوه وزير الخليفة واخوه استاذ الدار فتصوف هو من زمن الصبا وبنى مدرسة ورباطا ببغداد عند عقد المصطنع وبنى جامعا بالجانب الغربي منها وفيها توفي الامير ابو منصور هاشم ولد المستضيء بامر الله ودفن عند ابيه وفيها توفي ابو العباس احمد بن على بن الرفاعي من سواد واسط وكان صالحا ذا قبول عظيم عند الناس وله من التلامذة ما لا يحصى

(ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة)

(ذكر ملك صلاح الدين آمد وتسليمها الى صاحب الحصن)

قد ذكرنا نزول صلاح الدين بحوزم تحت ماردين فلم ير اطمعه وجها وسار عنها الى آمد على طريق البارعية وكان نور الدين محمد بن قرا ارسلان يطالبه في كل وقت بقصدها واخذها وتسليمها اليه على ما استقرت القاعدة بينهما فوصل الى آمد سابع عشر ذي الحجة من سنة ثمان وسبعين ونازلها واقام يحاصرها وكان المتولي لامرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان وكان صاحبها ليس له من الامر شيء مع ابن نيسان فلما نازلها صلاح الدين اساء ابن نيسان التدبير ولم يعط الناس من الذخائر شيأ ولا فرق فيهم دينارا واحدا ولا قوتا وقال لاهل البلد قاتلوا عن نفوسكم فقال له بعض اصحابه ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم فلم يفعل شيأ وقاتلهم صلاح الدين ونصب المنجنيقات وزحف اليها وهي الغاية في الحصانة والمنعة بها وبسورها يضرب المثل وابن نيسان على حاله من الشح بالمال وتصرفه تصرف من ولت سعادته وادبرت دولته فلما رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال وجنحوا الى السلامة وكانت ايام ابن نيسان قد طالت وثقلت على اهل البلد لسوء سيرته وضيقه وتضييقه عليهم في مكاسبهم فالناس كارهون لها محبون لانقراضها وامر صلاح الدين ان يكتب على السهام الى اهل البلد يعدهم الخير والاحسان ان اطاعوه ويتهددهم ان قاتلوه فزادهم ذلك تقاعدا وتخاذلا واحبوا ملكه وتركوا القتال فوصل النقابون الى السور فنقبوه وعلقوه فلما رأى الجند واهل البلد ذلك طمعوا في ابن نيسان واشتطوا في المطالب مخافة صارت لما لا ذلك اخرج ابن نيسان نساءه الى القاضي

وفرش من الديابيج المثقلة بما لا تدركه الابصار منه غير حرة الذهب وفي الصندل المثقلة مقب ومنه بيوت مضلعة ومستديره يشتمل كل منها على نوع من الجواهر التي اعيت امثالها كاسرة العجم وقياصرة الروم ملوك الهند واقيال العرب وحمل الى المجلس اطباق فضة من الذهب مملوءة بالمسك الاذفر والعنبر الاشهب والكافور والعطر والعود العبق وهل جرا الى ما يملأ الابواع والايدي من اثريات مصوغه وتارنجات مصنوعه وما يشبه الفواكه من عقيان وبخش وبهرمان الى اوانى لم يسمع بمثلها رقة اجسام ودقة صنعة واحكام وطاف على الرجل ولدان كالدر المنثور واللؤلؤ المكنون براح كالماء المعين ورضاب الماء العتيق الى ان اشتفوا من عثرات العقول فاستأذنوا للقفول وصرفهم السلطان يمين الدولة وامين الملة بعد هذه المأدبة وتاههم بما وجبته همته من تحقيق امانيهم ورعاية حق الملح فيهم وبقي الاخوان على جملتهما في المنافرة والمناقرة والمكاوحة والمكالفة الى ان توسط السفراء ففصلوا الامر بينهما على ما يكف كلا منهما عن صاحبه على ما نشير ونذكره في موضعه ان شاء الله تعالى

الفاضل وزير صلاح الدين يسأله ان يأخذ له الامان ولاهله وماله وان يؤخره ثلاثة ايام حتى ينقل ماله بالبلد من الاموال والذخائر فسعى له الفاضل في ذلك فاجابه صلاح الدين اليه فسلم البلد في العشر الاول من المحرم هذه السنة واخرج خيمه الى ظاهر البلد ورام نقل ماله فتعذر ذلك عليه لزوال حكمه عن اصحابه واطراحهم امره ونهيه فارسل الى صلاح الدين يعرفه الحال ويسأله مساعدته على ذلك فامر له بالدواب والزجال فنقل البعض وسرق البعض وانقضت الايام الثلاث قبل الفراغ فمنع من الباقي وكانت ابراج المدينة مملوأة من انواع الذخائر فتركها بحالها ولو اخرج البعض منها لحفظ البلد وسائر نعمه وامواله لكن اذا اراد الله أمراً هيأ اسبابه فلما تسلمها صلاح الدين سلمها الى صاحب الحصن نور الدين فقيل له قبل تسليمها ان هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار فلو اخذت ذلك واعطيته جندك وسلمت البلد اليه فارغا لكان راضيا فانه لا يطمع في غيره فامتنع من ذلك وقال ما كنت لاعطيه الاصل وأبخل بالفرع فلما تسلم نور الدين البلد اصطنع دعوة عظيمة ودعا اليها صلاح الدين وامراءه ولم يكن دخل البلد وقدم له ولاصحابه من التحف والهدايا اشياء كثيرة

(ذكر ملك صلاح الدين تل خالد وعينتاب من اعمال الشام)

لما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار الى الشام وقصد تل خالد وهو من اعمال حلب فحصرها ورماها بالمنجنيق فنزل اهلها وطلبوا الامان فأمنهم وتسلمها في المحرم ايضا ثم سار منها الى عينتاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد وهو اخو الشيخ اسمعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي وصاحبه وكان قد سلمها اليه نور الدين فبقيت معه الى الآن فلما نازله صلاح الدين ارسل اليه يطلب ان يقر الحصن بيده وينزل الى خدمته ويكون تحت حكمه وطاعته فاجابه صلاح الدين الى ذلك وحلف له عليه فنزل اليه وصار في خدمته وكان ايضا في المحرم من هذه السنة

(ذكر وقعتين مع الفرنج في البحر والشام)

في هذه السنة في العاشر من المحرم سار اسطول المسلمين من مصر في البحر فلقوا بطسة فيها نحو ثلثمائة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الاموال والسلاح الى فرنج الساحل فقاتلوهم وصبر الفريقان وكان الظفر للمسلمين واخذوا الفرنج اسرى فقتلوا بعضهم وابقوا بعضهم اسرى وغنموا ما معهم وعادوا الى مصر سالمين وفيها أيضا سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحي الداروم الى نواحي مصر ليغيروا وينهبوا فسمع بهم المسلمون فخرجوا اليهم على طريق صدر وايلة فانتزح الفرنج من بين ايديهم فنزلوا بماء يقال له العسيلة وسبقوا المسلمين اليه فاتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء فانشأ الله سبحانه وتعالى بلطفه سحابة عظيمة فمطروا منها حتى رووا وكان الزمان قيظا والحر شديد في بر مهلك فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ووثقوا بنصر الله لهم وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم ولم يسلم منهم الا الشريد الفريد وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله

(ذكر ملك صلاح الدين حلب)

وفي هذه السنة سار صلاح الدين من عينتاب الى حلب فنزل عليها في المحرم أيضا في الميدان

(ذكر فتح قصدار)

قد كان السلطان يمين الدولة وامين الملة يراعي ما يتجدد من اخبار الاخوين ايلك وطغان خان فيما تنازعاه من الامر فلما بلغه اشتجار ذات بينهما استخار الله في قصد قصدار اذ كان صاحبها قد ألم بجانب المجانبة* واخل بحمل المقاطعة* اعتزازا بمناعة مملكته* واغترارا بحصانة الطرق المفضية الى حلته* وذلك في جمادى الاولى سنة اثنتين واربعمائة وفصل السلطان عن غزنة الى بست مورّيا بقصد هراة حتى انتشرت الاخبار بغزنة واستفاضت الاحاديث بظاهر أمره ثم ركض الى ناحية قصدار في الغاب الغاب من رجاله ركضة طوت تلك الجبال الوعرة* والمسالك الصعبة* فلم يشعر صاحب قصدار الا بغلمان السلطان حول داره* قبل أن يكتحل بضوء نهاره* أو يحتفل لشد ازاره* فنادى الامان الامان وبرز لخدم السلطان* فألزمه السلطان بخمسة عشر ألف ألف درهم من جملة ما كان

الاخضر واقام به عدة أيام ثم انتقل الى جبل جوشن فنزل باعلاه واظهر انه يريد أن يبني مساكن له ولاصحابه وعساكره واقام عليها اياما والقتال بين العسكرين كل يوم وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ومعه العسكر النوري وهم مجدون في القتال فلما رأى كثرة الخرج كأنه شح بالمال فحضر يوما عنده بعض اجناده وطلب منه شيأ فاعتذر بقلة المال عنده فقال له بعضهم من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الاموال ولو باع حلي نسائه فمال حينئذ الى تسليم حلب واخذ العوض عنها وارسل مع الامير طمان الياروقي وكان يميل الى صلاح الدين انه يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك وباعها باوكس الاثمان اعطى حصنا مثل حلب واخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثامن عشر صفر وتسلمها صلاح الدين فعجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا ما اتى حتى ان بعض عامة حلب احضر اجانة وماء وناداه انت لا يصلح لك الملك وانما يصلح لك ان تغسل الثياب واسمعوه المكروه واستقر ملك صلاح الدين بملكها وكان من زلزلة قدمه بتسلمها وكان على شفا جرف هار واذا اراد الله امرا فلا مرد له وسار عماد الدين الى البلاد التي اعطيها فتسلمها واخذ صلاح الدين حلب واستقر الحال بينهما ان عماد الدين يحضر في خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره اذا استدعاه لا يحتج بحجة ومن الاتفاقات العجيبة ان محي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح صلاح الدين بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر * مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على ما نذكره ان شاء الله تعالى ومما كتبه القاضي الفاضل في المعنى عن صلاح الدين فأعطيناه عن حلب كذا وكذا وهو صرف على الحقيقة أعطيناه الدراهم ونزلنا عن القرى وأحرزنا العواصم وكتب أيضا أعطيناه ما لم يخرج عن اليد فانه متى شاء أخذه لعدم حصانته وكان في جملة من قتل على حلب تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين الاصغر وكان فارسا شجاعا كريما حليما جامعا لخصال الخير ومحاسن الاخلاق طعن في ركبته فانفكت فمات منها بعد ان استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل ان يدخلها صلاح الدين فلما استقر من الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد اخذناها وهي لك فقال ذلك لو كان وانا حي ووالله لقد اخذتها غالية حيث تفقد مثلي فبكى صلاح الدين وابكى ولما خرج عماد الدين الى صلاح الدين وقد عمل له دعوة احتفل فيها فبينما هم في سرور اذ جاء انسان فأسر الى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعا ولا جزعا وأمر بتجهيزه سرا ولم يعلم عماد الدين ومن معه في الدعوة وأجمل الحزن وحده لئلا يتنكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل

(ذكر فتح صلاح الدين حارم)

لما ملك صلاح الدين حلب كان بقلعة حارم وهي من اعمال حلب بعض المماليك النورية واسمه سرخك وولاه عليها الملك الصالح عماد الدين فامتنع من تسليمها الى صلاح الدين فراسله صلاح الدين في التسليم وقال له اطلب من الاقطاع ما أردت ووعده الاحسان فاشتط في الطلب وترددت الرسل بينهم فراسل الفرنج ليحتمي بهم فسمع من معه من الاجناد انه يراسل الفرنج

القلاع من أموال عمله فالتزمها ونقد اكثرها وقبض السلطان على عشرين فيلا خطاما لها كان اعتقدها ليوم بؤسه وبأسه ووكل به من استوفى المال عليه ورجع عنه بعد ان رعى حق طاعته وضراعته باستخلافه عنه على ما كان يليه وبسط يده في أطراف عمله ونواحيه الى غزنة ظاهرا غبه فائزا قدحه عاليا يده واريا زنده صنعا من الله تعالى لمن يجتبيه من خيار خلقه لعمارة أرضه واقامة حقه والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم

(ذكر الشار ابن الوالد أبي نصر محمد بن أسد والشاه محمد ابنه وما أفضى اليه أمرهما)

قد كان يلقب كل من يلي أمر غرشستان بالشار صيغة مصطلحا عليها تنبئ عن معنى الملك ورتبة الاجلال والتعظيم وكان الشار أبو نصر والها الى ان ادرك ولده الشباب وفيه لوثة تمشيه ورقة تغلبه

خافوا ان يسلمها اليهم فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الامان والانعام فاجابهم الى ماطلبوا وسلموا اليه الحصن فرتب به دزدارا بعض خواصه واما باقى قلاع حلب فان صلاح الدين أقر عينتاب بيد صاحبها كما تقدم وأقطع تل خالد لامير يقال له داروم الياروقى وهو صاحب تل باشر واما قلعة اعزاز فان عماد الدين اسمعيل كان قد خربها فاقطعها صلاح الدين لامير يقال له سليمان بن جندر فعمرها وأقام صلاح الدين بحلب الى ان فرغ من تقرير قواعدها واحوالها ودواوينها واقطع اعمالها وأرسل منها الجمع العساكر من جميع بلاده

(ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى قبض عزالدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قايماز وكان اليه الحكم فى جميع البلاد واتبع فى ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر فى مضرة صاحبه وكان الذى أشار بذلك عزالدين محمود زلفندار وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذى كان أبوه صاحب الغراف وهما من أكابر الامراء فلما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين فاظهر انه مريض وانقطع عن الركوب عدة أيام فدخل اليه مجاهد الدين وحده وكان خصيا لا يمتنع من الدخول على النساء فلما دخل عليه قبض عليه وركب لوقته الى القلعة فاحتوى على الاموال التى لمجاهد الدين وخزائنه وولى زلفندار قلعة الموصل بعد مجاهد الدين وجعل ابن صاحب الغراف أمير حاجب وحكمهما فى دولته وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذ اربل واعمالها ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين على وهو صبى صغير ليس له من الحكم شئ والحكم والعسكر الى مجاهد الدين وتحت حكمه أيضا جزيرة ابن عمر وهى لمعز الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازى بن مودود وهو أيضا صبى والحكم والنواب والعسكر لمجاهد الدين وبيده أيضا شهرزور واعمالها ونوابه فيها ودقوقا ونائبه فيها وقلعة عقر الحميدية ونائبه فيها ولم يبق لعز الدين مسعود بعد ان أخذ صلاح الدين البلاد الجزرية سوى الموصل وقلعتها بيد مجاهد الدين وهو على الحقيقة الملك واسمه عزالدين فلما قبض عليه امتنع صاحب اربل من طاعة عزالدين واستبد وكذلك أيضا صاحب جزيرة ابن عمر وارسل الخليفة الى دقوقا فحصرها واخذها ولم يحصل لعز الدين مسعود غير شهرزور واعمالها وصارت اربل والجزيرة اضر شئ على صاحب الموصل وأرسل صاحبها الى صلاح الدين بالطاعة له والكون فى خدمته وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أرسل صدر الدين شيخ الشيوخ ومعه بشير الخادم الخاص الى صلاح الدين فى الصلح مع عزالدين صاحب الموصل وسير عزالدين معه القاضى محيى الدين أبا حامد بن الشهرزورى فى المعنى فأجاب صلاح الدين الى ذلك وقال ليس لكم مع الجزيرة واربل حديث فامتنع محيى الدين عن ذلك وقال هما لنا فلم يجب صلاح الدين الى الصلح الا بان تكون اربل والجزيرة معه فلم يتم أمره وقوى طمع صلاح الدين فى الموصل بقبض مجاهد الدين فلما رأى صاحب الموصل الضرر بقبض مجاهد الدين قبض على شرف الدين أحمد بن صاحب الغراف و زلفندار عقوبة لهما ثم أخرج مجاهد الدين على ما نذكره ان شاء الله

(ذكر غزو بيسان)

على الامر بقوة شبابه * واستظهاره بمن شايعه من أصحابه * فاعتزل أبوه عن الولاية وتركها له مخليا بينه وبين ما كان يليه * ويتفرد بالنظر والتدبير فيه * ومقتصرا على دراسة الكتب * ومطالعة الادب * اذ كان بها مولعا * وبلذتها دون سائر اللذات مقتنعا * وكان منتجع الافاضل من اعماق البلاد ينتابه منهم كل مبدع خطا وبيانا * أو مبدع به بلوى وامتحانا * فما ينشب بعد ان ينتابه * ويشهد بابه * حتى يستخصب جنابه * ويستجزل بره وثوابه * وكان صاحب الجيش أبو على محمد بن محمد ابن سيمجور لما فتح باب الاستعصاء على الرضى نوح بن منصور رام ان يستضيف ولاية الغرش الى ما يليه * وأن يجد من جانب الشارين طاعة له فى أوامره ونواهيه * فأظهرا التمرد عليه كراهة لاختياره على أرباب الملك الذين اعطوهم المقادة

لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي وهو صبي وجعل معه الامير سيف الدين يازكج وكان أكبر الامراء الاسدية وسار الى دمشق وتجهز للغزو ومعه عساكر الشام والجزيرة وديار بكر وسار الى بلد الفرنج فعبر نهر الاردن تاسع جمادى الآخرة من السنة فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفا فقصد بيسان فأحرقها وخربها وأغار على ما هناك فاجتمع الفرنج وجاؤا الى قبالته فحين رأوا كثرة عساكره لم يقدموا عليه فأقام عليهم وقد استندوا الى جبل هناك وخندقوا عليهم فأحاط بهم وعساكر الاسلام ترميهم بالسهام وتناوشهم القتال فلم يخرجوا وأقاموا كذلك خمسة أيام وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر لعل الفرنج يطمعون ويخرجون فيستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضا فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم في غير السلامة وأغار المسلمون على تلك الاعمال يمينا وشمالا ووصلوا فيها الى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول اليه والاقدام عليه فلما كثرت الغنائم معهم رأوا العود الى بلادهم بما غنموا مع الظفر أولى فعادوا الى بلادهم على عزم الغزو

●(ذكر غزو الكرك وملك العادل حلب)●

لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان تجهز للغزو الى الكرك فسار اليه في العساكر وكتب الى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب وهو نائبه بمصر يأمره بالخروج بجميع العساكر الى الكرك وكان العادل قد أرسل الى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها فأجابه الى ذلك وأمره ان يخرج معه بأهله وماله فوصل صلاح الدين الى الكرك في رجب ووافاه اخوه العادل في العسكر المصري وكثر جمعه وتمكن من حصره وصعد معه المسلمون الى ربضه وملكه وحصر الحصن من الربض وتحكم عليه في القتال ونصب عليه سبع منجنيقات لا تزال ترمي بالحجارة ليلا ونهارا وكان صلاح الدين يظن ان الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك وانهم يبذلون جهدهم في ردّه عنه فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع فرحل عنه منتصف شعبان وسير تقي الدين ابن أخيه الى مصر نائبا عنه ليتولى ما كان اخوه العادل يتولاه واستصحب اخاه العادل معه الى دمشق واعطاه مدينة حلب وقلعتها واعمالها ومدينة منبج وما يتعلق بها وسيره اليها في شهر رمضان من السنة واحضر ولده الظاهر منها الى دمشق

●(ذكر عدة حوادث)●

في هذه السنة تم الرباط الذي بنته ام الخليفة بالمأمونية وفيها في ذي الحجة توفي مكرم بن بختيار ابو الخير الزاهد ببغداد وروى الحديث وكان كثير البكاء وفي جمادى الآخرة توفي محمد بن بختيار ابن عبد الله ابو عبد المولد الشاعر ويعرف بالابله فمن جملة شعره

اراق دمي لا بل اراق دمي ● ظلما بظلم من ريقه الشبم

ذو قامة كالقضيب ناضرة ● وناظر من سقامه سقمي

جعلت من وعده على اصدق الشـ ● ـوعد ومن وصله على التهم

●(ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة)●

●(ذكر اطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهزام العجم)●

قد جاه وعلوا الطاعتهم تسليما وادلالا بحصانة صياصيهما وقلاعهما ● ومناعة حواشيهما واشياعهما ● ومحاماة لارضى على حقوق طاعتهما وسوابق حرماتهما ● انهم أبو على بنازعتهما ملكا ورثاه ● وطمع في فضل مال اقتناه ● فلم ينهنه أبو على ان يرد اليهما أبا القاسم العقيه ● أحد أنياب دولته ● وأركان دعوته ● في جيوش كثيفه ● وخيول على الآلاف منيفه ● فناهضهما في عقر دارهما ● متوقلا اليهما ● فوارع تصافح السماء ● وشوامخ تناطح الجوزاء ● ومتوقلا مخارم تردّ على السالك ● مرود السموم على غلائظ السالك ● يتابرهما في تلك المقامات التي يدار عندها بالرقى ● ويغشى على النفوس ● ويلجئهما من مضيق ● الى مضيق ● ويحجمهما بفريق بعد فريق ● حتى اجلاهما عن قرارة بيتهما ● الى قلعة ورثاها أباهما في أخريات

في هذه السنة في المحرم اطلق اتابك عز الدين صاحب الموصل مجاهد الدين قايماز من الحبس
بشفاعة شمس الدين البهلوان صاحب همذان وبلاد الجبل وسيره الى البهلوان واخيه قزل
يستنجدهما على صلاح الدين فسار الى قزل أولا وهو صاحب اذربيجان فلم يمكنه من المضي الى
البهلوان وقال مهما تختاره انا أفعله وجهز معه عسكرا كثيرا نحو ثلاثة آلاف فارس وساروا
نحو اربل ليحصروها فلما قاربوها أفسدوا في البلاد وخربوها ونهبوا وسبوا واخذوا النساء
قهرا ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم فسار اليهم زين الدين يوسف صاحب اربل في عسكره
فلقيهم وهم متفرقون في القرى ينهبون ويحرقون فانتهز الفرصة فيهم بتفرقهم والتقى بنفسه
وعسكره على اول من لقيه منهم فهزمهم وعمت الهزيمة على الجميع وغنم الاربليون اموالهم
ودوابهم وسلاحهم وعاد العجم الى بلادهم منهزمين وعاد صاحب اربل الى بلده مظفرا غانما
وعاد مجاهد الدين الى الموصل فكان يحكي انني مازلت أنتظر العقوبة من الله تعالى على سوء
افعال العجم فانني رأيت منهم مالا كنت أظنه يفعله مسلم بمسلم وكنت أنهاهم فلا يسمعون حتى
كان من الهزيمة ما كان

(ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب)

في هذه السنة سار ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الى بلاد الاندلس وجاز البحر اليها في جمع
عظيم من عساكر المغرب فانه جمع وحشد الفارس والراجل فلما عبر الخليج قصد غربي البلاد
فحصر مدينة شنترين وهي للفرنج شهرا فأصابه بها مرض فمات منه في ربيع الاول وحمل
في تابوت الى مدينة اشبيلية من الاندلس وكانت مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة وشهرا ومات
عن غير وصية بالملك لاحد من أولاده فاتفق رأي قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك
ولده أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فملكوه من الوقت الذي مات فيه أبوه لئلا يكونوا
بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو فقام في ذلك احسن قيام واقام راية الجهاد واحسن
السيرة في الناس وكان دينا مقيما للحدود في الخاص والعام فاستقامت له الدولة وانقادت اليه
بأسرها مع سعة اقطارها ورتب ثغور الاندلس وشحنها بالرجال ورتب المقاتلة في سائر بلادها
وأصلح احوالها وعاد الى مراكش وكان ابو يوسف حسن السيرة وكان طريقه الين من طريق
أبيه مع الناس يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم وهم اهل خدمته وخاصته واحبه الناس
ومالوا اليه واطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه وسلك في جباية الاموال ما كان ابوه يأخذه
ولم يتعده الى غيره واستقامت له البلاد بحسن فعله مع اهلها ولم يزل كذلك الى ان توفي
رحمه الله تعالى

(ذكر غزو صلاح الدين الكرك)

في هذه السنة في ربيع الآخر سار صلاح الدين من دمشق يريد الغزو وجمع عساكره وأتته
من كل ناحية وممن اتاه نور الدين محمد بن قرا ارسلان صاحب الحصن وكتب الى مصر ليحضر
عسكرها عنده على الكرك فنازل الكرك وحصره وضيق على من به وأمر بنصب المنجنيقات
على ربضه واشتد القتال فملك المسلمون الربض وبقي الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد
الا ان بينهما خندقا عظيما عمقه نحو ستين ذراعا فأمر صلاح الدين بالقاء الاحجار والتراب فيه

ها تيبك الجبال تزل عن
اعاليها أقدام الغيوم
وتحاق دون مبانيها كرام
الطيور وملك عليهما *
حصون جبالهما * وسهول
ديارهما ومجالهما * يجبيها
ويتتبع ما ينسب الى كل
واحد منهما فيها * الى ان صمد
الامير ناصر الدين سبكتكين
صمد أبي علي فاسترد
ابا القاسم الفقيه شغلا
بالبازل القرم عن الثني *
وبالعقاب المنقض عن
الكركي * وعلم ان قدا في
الوادي فطم على القرى
وانضم الشاران الى الامير
سبكتكين في نصرة الامير
نوح فانقمعا من ابي علي
حين ولي هزيما * وتعريا
عما تولاه واقتناه حديثا
وقديما * واجفل نحو
جرجان لا يملك رأيا ولا عزيما *
ولم تزل بعد ذلك حالهما
على جملتهما في الامنة
والسكون * وابطاه المصون
الى ان ورث السلطان * يمين
الدولة وامين الملة خراسان
حكم الله في أرضه يورثها
من يشاء من عباده والعاقبة
للمتقين ولما ادعن ولاة

بطمه فلم يقدر احد على الدنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهام من الجرخ والقوس والاحجار من المنجنيقات فامر ان يرمى بالاخشاب والتبن ما يمكن الرجال يمشون تحت السفا فيقفوا بطمون في الخندق ما يطمه ومنجنيقات المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلا ونهارا وارسل من فيه من الفرنج الى ملكهم وفرسانهم يستمدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن فاجتمعت الفرنج عن آخرها وساروا الى نجدتهم عجلين فلما بلغ الخبر بمسيرهم الى صلاح الدين رحل عن الكرك الى طريقهم ليلقاهم ويقاتلهم ويعود بعد ان يهزمهم الى الكرك فقرب منهم وخيم ونزل ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الارض وصعوبة المسلك اليهم وضيقه فاقام اياما ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم فلم يبرحوا منه خوفا على نفوسهم فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ وجعل بازائهم من يعلمه بمسيرهم فساروا ليلا الى الكرك فلما علم صلاح الدين ذلك علم انه لا يتمكن حينئذ ولا يبلغ غرضه فسار الى مدينة نابلس ونهب كل ما على طريقه من البلاد فلما وصل الى نابلس احرقها وخربها وقتل فيها واسر وسبى شيأ كثيرا وسار عنها الى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وبها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم ورحل الى جينين فنهبها وخربها وعاد الى دمشق ونهب ما على طريقه وخربه وبث السرايا في طريقه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون ووصل الى دمشق

(ذكر ملك الملثمين بجاية وعودها الى اولاد عبد المؤمن)

في هذه السنة في شعبان خرج علي بن اسحق المعروف بابن غانية وهو من اعيان الملثمين الذين كانوا ملوك المغرب وهو حينئذ صاحب جزيرة ميورقة الى بجاية فملكها وسبب ذلك انه لما سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر اسطوله فكان عشرين قطعة وسار في جموعه فارسى في ساحل بجاية وخرجت خيله ورجاله من الشواني فكانوا نحو مائتي فارس من الملثمين واربعة آلاف راجل فدخل مدينة بجاية بغير قتال لانه اتفق ان واليها سار عنها قبل ذلك بايام الى مراكش ولم يترك فيها جيشا ولا عدة لعدم عدو يحفظها منه فجاءه الملثم ولم يكن في حسابهم انه يحدث نفسه بذلك فارسى بها وانضم اليه جماعة من بقايا دولة بني حماد وصاروا معه فكثر جمعهم وقويت نفسه فسمع خبره والي بجاية فعاد من طريقه ومعه من الموحدين ثلثمائة فارس فجمع من العرب والقبائل الذين في تلك الجهات نحو ألف فارس فجمع بهم وبقربهم منه فخرج اليهم وقد صار معه قدر ألف فارس وثلاثة الاف راجل وصاح بجميع الجموع التي كانت مع والي بجاية الى الملثم فانهزم حينئذ والي بجاية ومن معه من الموحدين وساروا الى مراكش وعاد الملثم الى بجاية فجمع جيشه وخرج الى أعمال بجاية فأطاعه جميعها الا قسطنطينية الهوى فحصرها الى ان جاء جيش من الموحدين من مراكش في صفر سنة احدى وثمانين وخمسمائة الى بجاية في البر والبحر وكان بها يحيى وعبد الله أخوا علي بن اسحق الملثم فخرجا منها هاربين ولحقا باخيهما فرحل عن قسطنطينية وسار الى افريقية وكان سبب ارسال الجيش من مراكش ان والي بجاية وصل الى يعقوب بن يوسف صاحب المغرب وعرفه ما جرى ببجاية واستيلاء الملثمين عليها وخوفه عاقبة التواني فجهز العساكر في البر عشرين الف فارس وجهز الاسطول في البحر في خلق كثير واستعادوها

الاطراف للطاعة والتزام حكم التباعة واعطاء صفقة البيعة وقرع المنابر باقامة الخطبة وكانوا سمع واطاع وبذل في الخدمة والقربة المستطاع وانهضت الى الشارين في أخذهما باقامة الخطبة اسوة أمثالهما من ولاة الاطراف وضمناء الاعمال فتلقيا في بفروض الطاعة والحرص على الاقتداء بالجماعة وأمرا بالخطبة فاقيمت باسم السلطان بكورة الغرش في شهور سنة تسع وثمانين وثلثمائة وورد على الشارين كتب المصارين الى بخارا عن هزيمة مرو يذكرون للشارين انهم على الاستعداد والتأهب للمعاد فلينتظراهم ليأخذا من الانتصار ودرك الثار بنصيب فبعث الشار ابو نصر بها الى درج رقعة أفردني بها يسالني تاملها وانفاذها باعيانها الى السلطان ليقررنها في الموالاة ومخالفة ذوي المساواة

(ذكر وفاة صاحب ماردين وملك ولده)

في هذه السنة مات قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين بن البي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وملك بعده ابنه حسام الدين يولق ارسلان وهو طفل وقام بتربيته وتدبير مملكته نظام الدين البقش مملوك ابيه وكان شاه ارمن صاحب خلاط خال قطب الدين فحكم في دولته وهو رتب البقش مع ولده وكان البقش دينا خيرا عادلا حسن السيرة سليما فأحسن تربية الولد وتزوج أمه فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته لخبط وهوج كان فيه وكان النظام الدين هذا مملوك اسمه لؤلؤ قد تحكم في دولته وحكم فيها فكان يحمل النظام على ما يفعله مع الولد ولم يزل الامر كذلك الى ان مات الولد وله أخ أصغر منه لقبه قطب الدين فرتبه النظام في الملك وليس له منه الا الاسم والحكم الى النظام ولؤلؤ فبقي كذلك الى سنة احدى وستمائة فرض النظام البقش فأتاه قطب الدين يعوده فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ فضربه قطب الدين بسكين معه فقتله ثم دخل الى النظام وبيده السكين فقتله أيضا وخرج وحده ومعه غلام له والقى الرأسين الى الاجناد وكانوا كلهم قد انشأهم النظام ولؤلؤ فاذعنوا له بالطاعة فلما تمكن أخرج من أراد وترك من أراد واستولى على قلعة ماردين واعمالها وقلعة البارعية وصور وهو الى الآن حاكم فيها حازم في افعاله

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة توفي صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحمن بن شيخ الشيوخ اسمعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعيد أحمد في شعبان وكان قد سار في ديوان الخلافة رسولا الى صلاح الدين ومعه شهاب الدين بشير الخادم في معنى الصلح بينه وبين عز الدين صاحب الموصل فوصل دمشق وصلاح الدين يحصر الكرك فأقام الى ان عاد فلم يستقر في الصلح امر ومرضا وطلبا العودة الى العراق فأشار عليهما صلاح الدين بالمقام الى ان يصطلحا فلم يفعلا وسارا في الحرفات بشدة بالسمنة ومات صدر الدين بالرحبة ودفن بمشهد البوق وكان واحد زمانه قد جمع بين رياسة الدين والدنيا وكان ملجأ لكل خائف صالحا كريما حليما وله مناقب كثيرة ولم يستعمل في مرضه هذا دواء توكلا على الله تعالى وفيها توفي عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخجندي الفقيه الشافعي رئيس اصفهان وكان موته بباب همذان وقد عاد من الحج وله شعر منه

بالحي دار سقاها مدمعي * يا سقى الله الحي من مربع
ليت شعري والاماني ضلة * هل الى وادي الغضى من مرجع
أذنبت علوة للواشي بنا * ماعلى علوة لو لم تسمع
أوتحرت رشدا فيما بيننا * أوعفت عن غافلي معي

رحمه الله ورضي عنه وأرضاه

(ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة)

(ذكر حصر صلاح الدين الموصل ورحيله عنها الوفاة شاه ارمن)

في هذه السنة حصر صلاح الدين يوسف بن ايوب الموصل مرة ثانية وكان مسيره من دمشق في ذي القعدة من السنة الماضية فوصل الى حلب وأقام بها الى ان خرجت السنة وسار منها فعبر

فكتبت اليه في جواب رقعته تأملتها فوجدتها تدل على حدود قد عمل فيها صيقل الوقاحة كحدل يتوعد صاحبه بأن يضرب فكيف ان لم يكف عنه كفيه * ومانحن في هذا المعنى * وفيها اولى الله مولانا السلطان من الحسنى * الا كما قال المتنبي

ولله سر في علاك وانما
كلام العدى ضرب من الهذيان

واما قولهم انا على الانتصار * وطلب الثار * فتلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين على انا نقول

لئن كان اعجبكم عامكم
فعودوا الى حمص في القابل
فان الحسام الخضيب الذي
قتلتم به في يد القاتل

فان قالوا ان العود احمد فذلك ولكن العود ابن حمد البيد لا ابن ذم * وصادق فيه ما يسر لا ما ساء وغم * وقد رأوا في يده القائهم * كيف تفرقت السيوف بدمائهم * وتحكمت النسور في أشلائهم * فان تشطوا ثانية فها تيك

الى أرض الجزيرة فلما وصل حران قبض على مظفر الدين كوكبري بن زين الدين الذي كان سبب ملكه البلاد الجزرية وسبب قبضه عليه ان مظفر الدين كان يراسل صلاح الدين كل وقت ويشير عليه بقصد الموصل ويحسن له ذلك ويقوى طمعه حتى انه بذل له اذا سار اليها خمسين ألف دينار فلما وصل صلاح الدين الى حران لم يف له بما بذل من المال وأنكر ذلك فقبض عليه ووكل به ثم اطلقه واعاد اليه مدينتي حران والرها وكان قد أخذهما منه وانما أطلقه لانه خاف انحراف الناس عنه بالبلاد الجزرية لانهم كلهم علموا ما اعتمده مظفر الدين معه من تمليكه البلاد فأطلقه وسار صلاح الدين عن حران في ربيع الاول فحضر عنده عساكر الحصن ودارا ومعز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة وهو ابن اخي عز الدين صاحب الموصل وكان قد فارق طاعة عمه بعد قبض مجاهد الدين وسار مع صلاح الدين الى الموصل فلما وصلوا الى مدينة بلد سير اتابك عز الدين والدته الى صلاح الدين ومعها ابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء وجماعة من اعيان الدولة يطلبون منه المصالحة وبذلوا له الموافقة والانجاد بالعساكر ليعود عنهم وانما أرسلهن لانه وكل من عنده ظنوا انهن اذا طلبن منه الشام أجابهن الى ذلك لاسيما ومعهن ابنة مخدومه وولى نعمته نور الدين فلما وصلن اليه أنزلهن وأحضر اصحابه واستشارهم فيما يفعله ويقوله فأشار أكثرهم باجابتهن الى ما طلبن منه وقال له الفقيه عيسى وعلى بن أحمد المشطوب وهما من بلد الهكارية من اعمال الموصل مثل الموصل لا يترك لامرأة فان عز الدين ما ارسلهن الا وقد عجز عن حفظ البلد ووافق ذلك هواه فأعادهن خائبات واعتذر باعذار غير مقبولة ولم يكن ارسالهن عن ضعف وانما أرسلهن طلبا لدفع الشر بالتي هي أحسن فلما عدن رحل صلاح الدين الى الموصل وهو كالمتيقن انه يملك البلد وكان الامر بخلاف ذلك فلما قارب البلد نزل على فرسخين منه وامتد عسكره في تلك الصحراء بنواحي المدينة وكان يجري بين العسكرين مناوشات بظاهر الباب العمادي وكنت اذ ذاك بالموصل وبذل العامة نفوسهم غيظا وحنقا لرده النساء ورأى صلاح الدين ما لم يكن يحسبه وندم على رد النساء ندامة الكسعى حيث فاته الذكر وملك البلد وعاد على الذين أشاروا بردهن باللوم والتوبيخ وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره ممن ليس له هوى في الموصل يقبحون فعله وينكرونه وأتاه وهو على الموصل زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل فانزله ومعه اخوه مظفر الدين كوكبري وغيرهما من الامراء بالجانب الشرقي من الموصل وسير من المنزلة على بن أحمد المشطوب الهكاري الى قلعة الجزيرة من بلد الهكارية فحصرها واجتمع عليه من الاكراد والهكارية كثير وبقي هناك الى ان رحل صلاح الدين عن الموصل وكان عامة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من بالجانب الشرقي من العسكر ويعودون ولما كان صلاح الدين يحاصر الموصل بلغ اتابك عز الدين صاحبها ان نائبه بالقلعة يكاتبه فمنعه من الصعود الى القلعة وعاد يقتدي برأي مجاهد الدين وكان قد أخرجه كما ذكرناه ويصدر عن رأيه وضبط الامور واصلح ما كان فسد من الاحوال حتى آل الامر الى الصلح على ما نذكره ان شاء الله وحضر عند صلاح الدين انسان بغدادي اقام بالموصل ثم خرج الى صلاح الدين فأشار عليه بقطع دجلة عن الموصل الى ناحية نينوى وقال ان دجلة اذا انقطعت عن الموصل عطش أهلها فملكها

السوادم ماضية * والشاعم ضاربة * وما أشبه حال القوم بما قام به ابن الاشعث خطيبا في قومه فقال يا قوم انه ما بقي من عدوكم الا كما يبقى من ذنب الوزغة تضرب به يمينا وشمالا فما تلبث ان تموت وكذا المصباح اذا قارب انطفاؤه توهج قليلا * ثم لم يغن ذلك عن حينه قتيلا * فالحمد لله الذي جعل سيوف مولانا تخطب على منابر الرقاب ألسنة أعدائه تخطب فوق أسرة الاذقان واليه الرغبة في ان يطيل بقاء مولانا ما برز يوم من جانب امس * وطلع نفس من قرارة نفس * منصورا على من نابذه وناواه * ليودعه من بطن الارض ملحده وشواه * وعن كتب سيرى الشارك كيف يفعل الله بالغاوين * ويلبسهم خزي الباغين * ويردهم اسفل السافلين * وقيل وبعد الحمد لله رب العالمين * فكان الامر على ما حدست * وتفرست * فان ايلك الملان اصدر اليهم تلك عليهم دار الملك بضاراه واخذ معظم القوم

بغير قتال فظن صلاح الدين ان قوله صدق فعزم على ذلك حتى علم انه لا يمكن قطعه بالكلية فان المدة تطول والتعب يكثر ولا فائدة وراءه وقبحه عنده أصحابه فاعرض عنه وأقام بمكانه من أول ربيع الآخر الى ان قارب آخره ثم رحل عنها الى ميافارقين وكان سبب ذلك ان شاه ارمن صاحب خلاط توفى بها تاسع ربيع الآخر فوصل الخبر بوفاته فى العشرين منه فعزم على الرحيل اليها ليملكها حيث ان شاه أرمن لم يخلف ولدا ولا احدا من اهل بيته يملك بلاده بعده وانما قد استولى عليها مملوك له اسمه بكتمر ولقبه سيف الدين فاستشار صلاح الدين أمراءه ووزراءه فاختلفوا فاما من هواه بالموصل فيشير بالمقام وملازمة الحصار لها وأما من يكره أذى البيت الاتابكى فانه أشار بالرحيل وقال ان ولاية خلاط أكبر وأعظم وهى سائبة لا حافظ لها وهذه لها سلطان يحفظها ويذب عنها واذا ملكنا تلك سهل أمر هذه وغيرها فتردد فى أمره فاتفق انه جاءه كتب جماعة من اعيان خلاط من أهلها وأمرائها يستدعونه ليسلموا اليه البلد فسار عن الموصل وكانت مكاتبة من كاتبه خديعة ومكرا فان شمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب اذربيجان وهمذان وتلك المملكة قد قصدهم ليأخذ البلاد منهم وكان قبل ذلك قد زوج شاه أرمن على كبر سنه بنتا له ليجعل ذلك طريقا الى ملك خلاط واعمالها فلما بلغهم مسيره اليهم كاتبوا صلاح الدين يستدعونه اليهم ليسلموا البلد اليه ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان وتبقى البلد بأيديهم فسار صلاح الدين وسير فى مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما فساروا الى خلاط ونزلوا بطوانة بالقرب من خلاط وسار صلاح الدين الى ميافارقين واما البهلوان فانه سار الى خلاط ونزل قريبا منها وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبينه وبين صلاح الدين ثم انهم صلحوا أمرهم مع البهلوان وصاروا من حزبه وخطبوا له

(ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن)

فى هذه السنة توفى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد لما كان صلاح الدين على الموصل وخلف ابنين فملك الاكبر منهما واسمه سقمان ولقبه قطب الدين وتولى تدبير الأمور وزيره القوام بن سماقا الاسعردى وكان عماد الدين بن قرا ارسلان قد سيره أخوه نور الدين فى عساكره الى صلاح الدين وهو يحاصر الموصل وهو معه فلما بلغه خبر وفاة أخيه سار ليملك البلاد بعده لصغر أولاده فتعذر عليه ذلك فسار الى خرت برت فملكها وهى بيد أولاده الى سنة عشرين وستمائة ولما حضر صلاح الدين ميافارقين حضر عنده ولد نور الدين فأقره على ملك أبيه ومن جملته آمد وكانوا خافوا ان يأخذها منهم فلم يفعل وردهم الى بلادهم وشرط عليهم ان يراجعوه فيما يفعلونه ويصدرون عن أمره ونهيه ورتب معه أميرا لقبه صلاح الدين من أصحاب أبيه

(ذكر ملك صلاح الدين ميافارقين)

لما سار صلاح الدين الى خلاط جعل طريقه على ميافارقين مطمع ملكها حيث كان صاحبه قطب الدين صاحب ماردين قد توفى كما ذكرنا وملك بعده ابنه وهو طفل وكان حكمها الى شاه أرمن وعسكره فيها فلما تو فى طمع فى أخذها فلما نازلها رآها مشحونة بالرجال وبها زوجة

اسارى * وشرد الباقين فى الارض حيارى * ثم وطالعت الحضرة بصورة أمر الشارين فى الطاعة حتى حظيا من الاكرام بما توقعاه * وحليا من الاعزاز والايثار بما تطلعاه * وحضر الخدمة بعد ذلك الولد المعروف بشاه شار فصادف ما استحقه من ترحيب وترتيب * وحظ من الايجاب والايثار رغيب * وغبر مدة وهو بين الاغترار بسمة الملك * ولوثة فى الطبع ما يسلم أمثالها عند المولك من الهلك * وهو على ذلك محتمل * وبلطف القبول والاقبال مقتبل * واستأذن من بعد للانصراف وراءه فصادف اذنا بالمبار الكريمة مشفوعا * والى الخلع الشريفة فوق الهمة المنيفة مجموعا * وعاد الى أفشين قرارة بيته ومثابة عزه الى أن عنت للسلطان غزوة أحب ان يحتشد لها فضل احتشاد * ويستظهر بما حوله من قوة وعتاد * وأمراء جيوش

قطب الدين المتوفى ومعها بنات لها منه وهي أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فأقام صلاح الدين عليها يحصرها من أول جمادى الاولى وكان المقدم على اجنادها امير اسمه برتقش ولقبه أسد الدين وكان شجاعا شهما حفظ البلد أحسن الحفظ واشتد القتال عليه ونصب المنجنيقات والعرادات فلم يصل صلاح الدين الى ما يريد منها فلما رأى ذلك عدل عن القوة والحرب الى اعمال الحيلة فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول لها ان اسد الدين برتقش قد مال الى في تسليم البلد وهو نزعى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته وتريد ان يكون لك في هذا الامر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادي وتكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك ووضع من ارسل الى الاسد يعرفه ان الخاتون قد مالت الى المقاربة والانقياد الى السلطان وأن من بخلاط قد كاتبوه ليسلموا اليه خلاط لنفسه واتفق ان رسولا وصله من خلاط يبذلون له الطاعة وقالوا له من الاستدعاء اليهم ما كانوا يقولونه فأمر صلاح الدين الرسول فدخل الى ميافارقين وقال للاسد انت عن تقاتل وأنا قد جئت في تسليم خلاط الى صلاح الدين فسقط في يده وضعفت قوته وأرسل يقترح اقطاعا ومالا فأجيب الى ذلك وسلم البلد سلخ جمادى الاولى وعقد النكاح لبعض أولاده على بعض بنات خاتون وأقر بيدها القلعة هتاخ لتكون فيها هي وبناتها

(ذكر عود صلاح الدين الى بلد الموصل والصلح بينه وبين اتابك عز الدين)

لما فرغ صلاح الدين من امر ميافارقين واحكم قواعدها وقرر اقطاعها وولاياتها أجمع على العود الى الموصل فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل الى كفرزمار والزمان شتاء فنزلها في عساكره وعزم على المقام بها واقطاع جميع بلاد الموصل واخذ غلاتها ودخلها واضعاف الموصل بذلك اذ اعلم انه لا يمكنه التغلب عليها وكان نزوله في شعبان واقام بها شعبان ورمضان وترددت الرسل بينه وبين عز الدين صاحب الموصل وسار مجاهد الدين برسالة وتقرب وكان قوله مقبولا عند سائر الملوك لعلو منزلته فبينما الرسل تتردد في الصلح اذ مرض صلاح الدين وسار من كفرزمار عائدا الى حران فلحقه الرسل بالاجابة الى ما طلب فتقرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدة ان يسلم اليه عز الدين شهرزور واعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب من اعمال وأن يخطب له على منابر بلاده ويضرب اسمه على السكة فلما حلف ارسل رسله فحلف عز الدين له وتسلم البلاد التي استقرت القاعدة على تسليمها ووصل صلاح الدين الى حران فأقام بها مريضا وأمنت الدنيا وسكنت الدهماء وانحسمت مادة الفتن وكان ذلك بتوصل مجاهد الدين قايماز رحمه الله واما صلاح الدين فانه طال مرضه بحران وكان عنده من أهله اخوه الملك العادل وله حينئذ حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أيس من عافيته فحلف الناس لاولاده وجعل لكل منهم شيئا من البلاد معلوما وجعل اخاه العادل وصيا على الجميع ثم انه عوفي وعاد الى دمشق في المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ولما كان مريضا بحران كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه وله من الاقطاع حمص والرحبة فسار من عنده الى حمص فاجتاز بحلب واحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد اليه اذا مات صلاح الدين واقام بحمص ينتظر موته ليسير الى دمشق فيملكها فعوفي وبلغه الخبر على جهته فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه ليلة عيد الاضحى فانه شرب الخمر واكثر منه فأصبح ميتا فذكروا ان العهدة

ولده وأمر بالكتاب اليه ... الصوارم منه ومثلها * والقشاعم ضابحة * أشبه حال القوم بما قام به ابن الاشعث خطيبا في ... ثقة بخصوص ماله * وغرة ما أفاض عليه من مصالح افضاله * فلزمه الخذلان * عن المكان * ولقيه مبادي واهية الاركان * وظل يتردد بين المرارات والاذعان * الى ان حق عليه كلمة العصيان * فأعرض السلطان عند ذلك عن تدبيره * وأقبل على ما اهمه من امر مسيره * حتى اذا دان له ما قصد * وظفر بمن كند وتمرد * وعاد بالفتح نافقا وارده * والنجح شارقا ضياؤه * جدد مكاتبته ايعاما له من خيفة ان اوجسها * وايناسا من وحشة ان لابسها * واستبقاء للصنيعة عنده من ان يختضد أشاهها * او ينقطع دون المأمول شأوها * فلم يزدد الا كفورا ونفورا * وكان أمر الله قدرا مقدورا * وعند ذلك جرد السلطان حاجبه الكبير ابا سعيد التونتاش وقتاده والى طوس ارسلان

عليهم ان صلاح الدين وضع انسانا يقال له الناصح بن العميد وهو من دمشق فحضر عنده ونادمه وسقاه معا فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح فسألوا عنه فقيل انه سار من ليلته الى صلاح الدين فكان هذا مما قوى الظن فلما توفى اعاد اقطاعه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة وخلف ناصر الدين من الاموال والخيل والآلات شيأ كثيرا فحضر صلاح الدين فى حمص واستعرض تركته وأخذ اكثرها ولم يترك الاما لاخير فيه وبلغنى ان شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت ابيه بسنة فقال له الى اين بلغت من القرآن فقال الى قوله تعالى ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه

(ذكر الفتنة بين التركمان والاكراد بديار الجزيرة والموصل)

فى هذه السنة ابتدأت الفتنة بين التركمان والاكراد بديار الجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور واذربيجان وقتل فيها من الخلق مالا يحصى ودامت عدة سنين وتقطعت الطرق ونهبت الاموال وأريقت الدماء وكان سببها ان امرأة من التركمان تزوجت بانسان تركمانى واجتاز وا فى طريقهم بقلعة من الزوزان الاكراد فجاء اهلها وطلبوا من التركمان وليمة العرس فامتنعوا من ذلك وجرى بينهم كلام صاروا منه الى القتال فنزل صاحب تلك القلعة فأخذ الزوج فقتله فهاجت الفتنة وقام التركمان على ساق وقتلوا جمعا كثيرا من الاكراد وثار الاكراد فقتلوا من التركمان أيضا كذلك وتفاقم الشر ودام ثم ان مجاهد الدين قايماز رحمه الله جمع عنده جمعا من رؤساء الاكراد والتركمان وأصلح بينهم واعطاهم الخلع والثياب وغيرها وأخرج عليهم مالا جما فانقطعت الفتنة وكفى الله شرها وعادوا الى ما كانوا عليه من الطمأنينة والامان

(ذكر ملك الملثمين والعرب افريقية وعودها الى الموحدين)

قدذكرنا سنة ثمانين ملك على بن اسحق الملثم بجاية وارسال يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن العساكر واستعادتهم افسار الى افريقية فلما وصل اليها اجتمع سليم ورياح ومن هناك من العرب وانضاف اليهم الترك الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع شرف الدين قراقوش وقد تقدم ذكر وصوله اليها ودخل أيضا من اتراك مصر مملوك لتقى الدين ابن أخى صلاح الدين اسمه بوزابة فكثر جمعهم وقويت شوكتهم فلما اجتمعوا بلغت عدتهم مبلغا كثيرا وكلهم كاره لدولة الموحدين واتبعوا جميعهم على بن اسحق الملثم لانه من بيت المملكة والرياسة القديمة وانقادوا اليه ولقبوه بامير المسلمين وقصدوا بلاد افريقية فملكوها جميعها شرقا وغربا الا مدينتين تونس والمهدية فان الموحدين أقاموا بها وحفظوها على خوف وضيق وشدة وانضاف الى المفسد الملثم كل مفسد فى تلك الارض ومن يريد الفتنة والنهب والفساد والشر فخربوا البلاد والحصون والقرى وهتكوا الحرم وقطعوا الاشجار وكان الوالى على افريقية حينئذ عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتى وهو بمدينة تونس فارسل الى ملك المغرب يعقوب وهو بمراكش يعلمه الحال وقصد الملثم جزيرة باشرا وهى بقرب تونس تشتمل على قرى كثيرة فنازلها وأحاط بها فطلب أهلها منه الامان فامنهم فلما دخلها العسكر نهبوا جميع مافيها من الاموال والدواب والغلات وسلبوا الناس حتى ثيابهم وامتدت الايدى الى النساء والصبيان وتركوهم هلكى فقصدوا مدينة تونس فاما

الجاذب فمن ضمهم الى جملتهما ووسمهم بالمسير تحت رايتهما * لمناهضة الشاردين وامتلاك الغرض عليهما * واحاقة وبال العصيان * وكفران الاحسان * بهما فنهضا بالعدة والعديد * والبطش الشديد * واستلحقا أبا الحسن المنيعى الزعيم بمرو الروذ لمكانه من العلم بمعاطف السبل * ومخارم تلك الشعاب والقلل * فسارا اليهما فى رجال قد كدمتهم التجارب * ونيبتهم النوائب * يمجون بأطراف الثنايا على الزبر * ويدخلون ولوخرت الابر * ودمرا على الشاردين تلك الناحية فأما الشار الكبير الوالد أبو نصر فاستشف استار العاقبة * واغتنم شعار العافية * ولاذ بالامان الى الحاجب الكبير التونتاش * مظهرا للبراءة من فعل ولده * وصاد عابما اشتهر فى الخاص والعام من عقوقه وتمرده * وتحمل بشفاعته الى السلطان فى ملاينظمه بعين من لم

الاقوات فكانوا يغدون ويعملون مائة يوم بقوتهم وأما المنهزمون فكانوا يستعطون ويسألون الناس ودخل عليهم فصل الشتاء فاهلكهم البرد ووقع فيهم الوباء فاحصي الموتى منهم فكانوا اثنى عشر ألفا هذا من موضع واحد فما الظن بالباقي ولما استولى الملثم على افريقية قطع خطبة أولاد عبد المؤمن وخطب للامام الناصر لدين الله الخليفة العباسي وارسل اليه يطلب الخلع والاعلام السود وقصد في سنة اثنتين وثمانين مدينة قفصة فحصرها فأخرج أهلها الموحدين من عساكر ولد عبد المؤمن وسلموها الى الملثم فرتب فيها اجنادا من الملثمين والاتراك وحصنها بالرجال مع حصانتها في البناء وأما يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فانه لما وصله الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين وقصد قلة العسكر لقلة القوت في البلاد ولما جرى فيها من التخريب والاذى وسار في صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فوصل الى مدينة تونس وأرسل ستة آلاف فارس مع ابن أخيه فساروا الى على بن اسحق الملثم ليقاتلوه وكان بقفصة فوافوه وكان مع الموحدين جماعة من الترك فغدروا عليهم فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم وكان ذلك في ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين فلما بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس الى منتصف رجب من السنة ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثم والاتراك فوصل اليهم فالتقوا بالقرب من مدينة قابس واقتتلوا فانهزم الملثم ومن معه فأكثر الموحدون القتل حتى كادوا يفنونهم فلم ينج منهم الا القليل فقصدوا البر ورجع يعقوب من يومه الى قابس فقصدها وأخذها من أهل قراقوش وأولاده وحملهم الى مراكش وتوجه الى مدينة قفصة فحصرها ثلاثة أشهر وقطع أشجارها وخرب ما حولها فأرسل اليه الترك الذين فيها يطلبون الامان لانفسهم ولاهل البلد فأجابهم الى ذلك وخرج الاتراك منها سالمين وسير الاتراك الى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم في العدو وتسلم يعقوب البلد وقتل من فيه من الملثمين وهدم أسواره وترك المدينة مثل قرية وظهر ما أنذر به المهدي بن تومرت فانه قال انها تخرب أسوارها وتقطع أشجارها وقد تقدم ذكر ذلك فلما فرغ يعقوب من أمر قفصة واستقامت افريقية عاد الى مراكش وكان وصوله اليها سنة أربع وثمانين وخمسمائة

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة فارق الرضى أبو الخير اسمعيل القزويني الفقيه الشافعي بغداد وكان مدرس النظامية بها وعاد الى قزوين ودرس فيها بعده الشيخ أبو طالب المبارك صاحب ابن الخل وكان من العلماء الصالحين وفيها كان بين أهل الكرخ ببغداد وبين اهل باب البصرة فتنة عظيمة جرح فيها كثير منهم وقتل ثم أصلح النقيب الطاهر بينهم وفيها توفي الفقيه مهذب الدين عبد الله ابن أسعد الموصلي وكان عالما بمذهب الشافعي وله نظم ونثر أجاد فيه وكان من محاسن الدنيا وكانت وفاته بحمص

(ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة)

(ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز الى مصر واخراج الافضل من مصر الى دمشق واقطاعه اياها)

في هذه السنة أخرج صلاح الدين ولده الافضل عليا من مصر الى دمشق واقطعها له واخذ حلب

يرتكب جريرة ولم ينقل سريرة ولم يبدل في الطاعة والاخلاص سيرة فخذله الى هراة بين ترغيبه اقتضته طاعته واحتياط أوجبه خلاف الابن وعلقته وكتب بحاله الى السلطان فورد في الجواب ما أمنه رهق المؤاخذة وعنت المعاقبة وأما ابنه الشاه فتحصن بالقلعة التي أواها أيام السيمجورية وهي التي سبق وصفها في عز الجوانب ومناعة المناكب وصعوبة المصاعد والصعود على متون الغيوم الرواكد واستصحب اليها خواص غلمانه وخزائنه وسائر حاشيته وبطانته وقصده الحاجب أبو سعيد التونتاش وأبو الحرث ارسلان الجاذب في الجم الغفير من أعيان القواد وأبطال الافراد وتقاسما أركان الحصار وقذفاها بالمجانيق المنصوبة والعرادات الموضوعة ومناوشة الحروب من جهات كادت حشاشات النفوس

من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان الى مصر وجعله نائبا عنه واستدعى تقي الدين منها
وسبب ذلك انه كان قد استناب تقي الدين بمصر كما ذكرناه وجعل معه ولده الاكبر الافضل علي
فارسل تقي الدين يشكو من الافضل ويذكر انه قد عجز عن جباية الخراج معه لانه كان حليما كريما
اذا اراد تقي الدين معاقبة احد منعه فاحضر ولده الافضل وقال لتقي الدين لا تحتج في الخراج
وغيره بحجة وتغير عليه بذلك وظن انه يريد اخراج ولده الافضل لينفرد بمصر حتى يملكها اذا مات
صلاح الدين فلما قوي هذا الخاطر عنده احضر اخاه العادل من حلب وسيره الى مصر ومعه ولده
العزيز عثمان واستدعى تقي الدين الى الشام فامتنع من الحضور وجمع الاجناد والعساكر ليسير
الى المغرب الى مملوكه قراقوش وكان قد استولى على جبال نفوسة وبرقة وغيرها وقد كتب اليه
يرغبه في تلك البلاد فتجهز للسفر اليه واستصحب معه أنجاد العسكر وأكثرهم فلما سمع ذلك
صلاح الدين ساءه وعلم انه ان ارسل اليه يمنعه لم يجبه فارسل اليه يقول له اريد ان تحضر عندي
لاودعك وأوصيك بما افعله فلما حضر عنده منعه وزاد في اقطاعه فصار اقطاعه حماة ومنبج
والمعرة وكفرطاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها وكان تقي الدين قد سير في مقدمته
مملوكه بوزابة فاتصل بقراقوش وكان منهم ما ذكرناه سنة احدى وثمانين وخمسمائة وقد بلغني
من خبير باحوال صلاح الدين انه انما حمله على أخذ حلب من العادل واعادة تقي الدين الى الشام
ان صلاح الدين لما مرض بحران على ما ذكرناه أرجف بمصر أنه قد مات فجرى من تقي الدين
حركات من يريد أن يستبد بالملك فلما عوفي صلاح الدين بلغه ذلك فارسل الفقيه عيسى الهكاري
وكان كبير القدر عنده مطاعا في الجند الى مصر وأمره باخراج تقي الدين والمقام بمصر فسار مجدا
فلم يشعر تقي الدين الا وقد دخل الفقيه عيسى الى داره بالقاهرة وأرسل اليه يأمره بالخروج منها
فطلب أن يمهل الى أن يتجهز فلم يفعل وقال تقيم خارج المدينة وتجهز فخرج وأظهر انه يريد
الدخول الى الغرب فقال له اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر ارسل اليه يطلبه فسار
الى الشام فاحسن اليه ولم يظهر له شيأ مما كان لانه كان حليما كريما صبورا رحمه الله وأما أخذ
حلب من العادل فان السبب فيه أنه كان من جملة جندها أمير كبير اسمه سليمان بن جندر بينه
وبين صلاح الدين صحبة قديمة قبل الملك وكان صلاح الدين يعتمد عليه وكان عاقلا ذا مكر ودهاء
فاتفق ان الملك العادل لما كان بحلب لم يفعل معه ما كان يظنه وقدم غيره عليه فتأثر بذلك فلما
مرض صلاح الدين وعوفي سار الى الشام فسايره يوما سليمان بن جندر فجرى حديث مرضه
فقال له سليمان بأي رأي كنت تظن انك تمضي الى الصيد فلا يخالفونك بالله ما تستحي يكون
الطائر أهدى منك الى المصلحة قال وكيف ذلك وهو يضحك قال اذا أراد الطائر أن يعمل عشا
لفراخه قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه وأنت سلمت الحصون الى أهلك وجعلت أولادك على
الارض هذه حلب بيد أخيك وحماة بيد تقي الدين وحمص بيد ابن شيركوه وابنك العزيز مع تقي
الدين بمصر يخرجه أي وقت أراد وهذا ابنك الآخر مع اخيك في خيمة يفعل به ما أراد فقال له
صدقت واكتم هذا الامر ثم أخذ حلب من اخيه وأخرج تقي الدين من مصر ثم أعطى اخاه
العادل حران والرها وميافارقين ليخرجه من الشام ومصر لتبقى لاولاده فلم ينفعه ما فعل لما
اراد الله تعالى نقل الملك عن أولاده على ما نذكره

من هول المقام * أن تذوق
كأس الحمام * قبل ذوقها
بوقع السيوف والسهام
* وواصلوا الصبوح تلك
الحرب بالغبوق حتى هدما
أحد أسوار الحصار
فوضعاه بالحضيض من
وقع الجلاميد وصدم المجانيق
وتناولها أهل العسكر
منحنين على سائر الاسوار
كالعصم واقلة في شم
الهضاب * أو الارانب هاربة
من غضف الكلاب *
واشتبكت الحرب على تلك
الحال ضربا بالسيوف
القواضب * وأخذا باللحى
والذوائب * حتى سالت
المذانب من دفع النحور *
* واحمرت المطالع من علق
الصدور * ورأى الشاه عند
ذلك من هول المطلع ما لم يكن
ثم كان * فدعا الامان الامان *
هيهات ان غضاب النفوس
اذا صادفت نجح المرام *
ووجه التشفي بالانتقام *
لموقورة الآذان أو تفعل
أفعالها * وتنال من درك

(ذكر وفاة البهلوان وملك اخيه قزل)

فى هذه السنة فى أولها توفى البهلوان محمد بن ايلدكز صاحب بلد الجبل والرى واصفهان وأذربيجان واران وغيرها من البلاد وكان عادلا حسن السيرة عاقلا حليما ذا سياسة حسنة للملك وكانت تلك البلاد فى أيامه آمنة والرعايا مطمئنة فلما مات جرى باصفهان بين الشافعية والحنفية من الحروب والقتل والاحراق والنهب ما يجل عن الوصف وكان قاضى البلد رأس الحنفية وابن الخجندى رأس الشافعية وكان بمدينة الرى أيضا فتنة عظيمة بين السنية والشيعة وتفرق اهلها وقتل منهم وخربت المدينة وغيرها من البلاد . ولما مات البهلوان ملك اخوه قزل ارسلان واسمه عثمان وكان السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مع البهلوان والخطبة له فى البلاد بالسلطنة وليس له من الامر شئ وانما البلاد والامراء والاموال بحكم البهلوان فلما مات البهلوان خرج طغرل عن حكم قزل ولحق به جماعة من الامراء والجند فاستولى على بعض البلاد وجرت بينه وبين قزل حروب نذكرها ان شاء الله تعالى

(ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القمص صاحب طرابلس الى صلاح الدين)

كان القمص صاحب طرابلس واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلى قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية وانتقل اليها واقام عندها بطبرية ومات ملك الفرنج بالشام وكان مجذوما واوصى بالملك الى ابن اخت له وكان صغيرا فكفله القمص وقام بسياسة الملك وتدبيره لانه لم يكن للفرنج ذلك الوقت اكبر منه شأنا ولا اشجع ولا اجود رأيا منه فطمع فى الملك بسبب هذا الصغير فاتفق ان الصغير توفى فانتقل الملك الى امه فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به ثم ان هذه الملكة هويت رجلا من الفرنج الذين قدموا الشام من الغرب اسمه كى فتزوجته ونقلت الملك اليه وجعلت التاج على راسه واحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والداوية والبارونية واعلمتهم انها قد ردت الملك اليه واشهدتهم عليها بذلك فاطاعوه ودانوا له فعظم ذلك على القمص وسقط فى يديه وطولب بحساب ما جبى من الاموال مدة ولاية الصبى فادعى انه انفقه عليه وزاده ذلك نفورا وجاهر بالمشاقة والمباينة وراسل صلاح الدين وانتمى اليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعى له فى كل ما يريد وضمن له انه يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة وكان عنده جماعة من فرسان القمص فاطلقهم فحل ذلك عنده اعظم محل واظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم وكان ذلك من اعظم الاسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم على ما نذكره ان شاء الله وسير صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية فشنت الغارات على بلاد الفرنج وخرجت سالمة غانمة فوهن الفرنج بذلك وضعفوا وتجرأ المسلمون عليهم وطمعوا فيهم

(ذكر غدر البرنس ارناط)

كان البرنس ارناط صاحب الكرك من اعظم الفرنج واخبثهم واشدهم عداوة للمسلمين واعظمهم ضررا عليهم فلما رأى صلاح الدين ذلك منه قصده بالحصر مرة بعد مرة وبالغارة على بلاده كرة بعد اخرى فذل وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين فاجابه الى ذلك وهادنه

الثار منا الهامه ومازالت تلك دعواه وهذه حالهم حتى أخذوه أسراه واستنزلوه عنوة وقسرا واستبيح ذلك الحريم بما حواه من درهم ودينار ومال واستظهار وأخذ صاحبه ووزيره بل نديمه وسميره بل قليله وكثيره فوضع عليه الدق حتى أعفى بما عرفه من ذخائره وخبره من ودائعه وطلب عامة أوليائه وعماله والمتصرفين فى امور أمواله حتى عروا عن لباس اليسار وعزت أخلاقهم دون الاستدرار وقرطع أبو الحسن المنيعى عن ارتفاعات الغرش على ما علم ارتفاعاته منه قبل الثار فتمكن منها واستخلف هنالك من تقوى يده فى عمله وشحن الحصار بكوتوال يوثق بأمانته وبعث السلطان بعض خواصه لنقل الثار المأمور الى حضرته على سبيل ارفاق له من جهته فلما سلم اليه جمله فى وثاقه نحو غزنة وسمعت بعض الثقات انه اتفق للغلام أن يكتب الى أهله بخبره وما لقيه فى حالتى ورده وصدره ويبشرهم بنصرته فاستدعى الثار فى ماله وأمره وولى ذلك

وتحالفا وترددت القوافل من الشام الى مصر ومن مصر الى الشام فلما كان هذه السنة اجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الاموال كثيرة الرجال ومعها جماعة صالحة من الجند فغدر اللعين بهم واخذهم عن آخرهم وغنم اموالهم ودوابهم وسلاحهم واودع السجون من اسره منهم فارسل اليه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعده ان لم يطلق الاسرى والاموال فلم يجب الى ذلك واصر على الامتناع فنذر صلاح الدين نذرا أن يقتله ان ظفر به فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

كان المنجمون قديما وحديثا قد حكموا ان هذه السنة التاسع والعشرين من جمادى الآخرة تجتمع الكواكب الخمسة في برج الميزان ويحدث باقترانها رياح شديدة فلم يكن لذلك صحة ولم يهب من الرياح شئ البتة حتى ان الغلال الحنطة والشعير تأخر تجازها لعدم الهواء الذى يذرى به الفلاحون فأكذب الله احدوثة المنجمين وأخزاهم وفيها توفي عبد الله بن برى بن عبد الجبار بن برى النحوي المصري وكان اماما في النحو رحمه الله تعالى

(ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة)

اتفق أول هذه السنة يوم السبت وهو يوم النوروز السلطاني ورابع عشر اذار سنة ألف وأربعمائة وثمان وتسعين اسكندرية وكان القمر والشمس في الحمل واتفق أول سنة العرب وأول سنة الفرس التي جددوها أخيرا وأول سنة الروم والشمس والقمر في أول البروج وهذا يبعد وقوع مثله

(ذكر حصر صلاح الدين الكرك)

في هذه السنة كتب صلاح الدين الى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب الى الموصل وديار الجزيرة واربل وغيرها من بلاد الشرق والى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم الى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز له بغاية الامكان ثم خرج من دمشق أواخر المحرم في عسكرها وحلقته الخاص فسار الى رأس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الافضل علي ليجتمع اليه من يرد اليه منها وسار هو الى بصرى جريدة وكان سبب مسيره وقصده اليها انه أتته الاخبار ان البرنس ارناط صاحب الكرك يريد ان يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم واظهر انه اذا فرغ من اخذ الحجاج يرجع الى طريق العسكر المصري يصدهم عن الوصول الى صلاح الدين فسار الى بصرى ليمنع البرنس ارناط من طلب الحجاج ويلزم بلده خوفا عليه وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد بن لاجين وهو ابن اخت صلاح الدين وغيره فلما سمع ارناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه وانقطع عما طمع فيه فوصل الحجاج سالمين فلما وصلوا وفرغ سره من جهتهم سار الى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا وخربوا واحرقوا والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده وسائر الفرنج قد لزموا طرق بلادهم خوفا من العسكر الذى مع ولده الافضل فتمكن من الحصر والنهب والحريق والتخريب هذا فعل صلاح الدين

(ذكر الغارة على بلد عكا)

بخطيئة تأثم تفكرا * ثم أظهر تشكرا * وكتب ما عدا معناه أيتها القعبة * الرسية * أتريني أغفل عما احدثته بعدي من شناتى في الفراش وتمزيق ما خلفته عليك من مالي وتعمية ولقد أنهى الى جميع ما ركبته من فجور * وشربته من خمور * وضيعته من مالي في كل محظور ومنكور * وها أنا عائد اليك وايم الله لأضعن عليك الدهق وعلى والديك ولأدقن يديك على رجليك ولأجعلنك عظة لربات الخدور * في الدور * يا كذا يا كذا واستأنف الشتم حتى علم انه قد اكتفى ثم طوى الكتاب ودفعه الى الغلام فطير به بعض ثقاته فقامت القيامة على اهله ونفن عدوا سعين * وحرفن من صورتهن * وفكرن في امرهن * فوجدن اصوب الآراء تفريغ الدار * وتقديم الاستتار * وفعلن ذلك دائبات على القلق * ثابتات على الجوى والارق * فلما وصل الغلام الى الدار فاذا هي كالقاع القرق لا يلم بها نافخ ضرمة * ولا معلق وذمة * فبقي حيران

أرسل صلاح الدين الى ولده الافضل يأمره ان يرسل قطعة صالحة من الجيش الى بلد عكا ينهبونه ويخربونه فسير مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين وهو صاحب حران والرها واضاف اليه قايماز النجمى ودلدرم الياروقى وهما من أكابر الامراء وغيرهما فساروا الى صفورية أواخر صفر فخرج اليهم الفرنج فى جمع من الداوية والاسبتارية وغيرهما فالتقوا هناك وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود ثم انزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وأسر الباقون وفيمن قتل مقدم الاسبتارية وكان من فرسان الفرنج المشهورين وله النكايات العظيمة فى المسلمين ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد وغنموا وسبوا وعادوا سالمين وكان عودهم على طبرية وبها القمص فلم ينكر ذلك فكان فتحا كثيرا فان الداوية والاسبتارية هم جمرة الفرنج وسيرت البشائر الى البلاد بذلك

(ذكر عود صلاح الدين الى عسكره ودخوله الى الفرنج)

لما اتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداوية وقتل من قتل منهم واسر من أسر منهم عاد عن الكرك الى العسكر الذى مع ولده الملك الافضل وقد تلاحقت سائر الامراء والعساكر واجتمع بهم وسار واجمعا وعرض العسكر فبلغت عدتهم اثنى عشر ألف فارس ممن له الاقطاع والجامكية سوى المتطوعة فعبى عسكره قلبا وجناحين وميمنة وميسرة وجالشية وساقة وعرف كل منهم موضعه وموقفه وامرهم بلازمته وسار على تعبية فنزل بالاقحوانة بقرب طبرية وكان القمص قد انتمى الى صلاح الدين كما ذكرنا وكتبه متصلة اليه يعده النصرة ويمنيه المعاضدة وما يعدهم الشيطان الا غرورا فلما رأى الفرنج العساكر الاسلامية وتصميم العزم على قصد بلادهم ارسلوا الى القمص البطرك والقسوس والرهبان وكثيرا من الفرسان فانكروا عليه انتماءه الى صلاح الدين وقالوا له لا شك أنك أسلمت والالم تصبر على فعل المسلمين امس بالفرنج يقتلون الداوية والاسبتارية ويأسرونهم ويجتازون بهم عليك وانت لا تنكر ذلك ولا تمنع عنه ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس وتهدده البطرك انه يحرمه ويفسخ عليه نكاح زوجته الى غير ذلك من التهديد فلما رأى القمص شدة الامر عليه خاف واعتذر وتنصل وتاب فقبلوا عذره وغفروا زلته وطلبوا منه الموافقة على المسلمين والموازرة على حفظ بلادهم فاجابهم الى المصالحة والانضمام اليهم والاجتماع بهم وسار معهم الى ملك الفرنج واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ولم تغن عنهم من الله شيأ وجمعوا فارسهم وراجلهم ثم ساروا من عكا الى صفورية وهم يقدمون رجلا ويؤخرون اخرى قد ملئت قلوبهم رعبا

(ذكر فتح صلاح الدين طبرية)

لما اجتمع الفرنج وساروا الى صفورية جمع صلاح الدين امراءه واستشارهم فاشار اكثرهم عليه بترك اللقاء وان يضعف الفرنج بشن الغارات واخراب الولايات مرة بعد مرة فقال له بعض امرائه الرأى عندى اننا نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبى فان وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه فان الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار واقبل يريد قتال المسلمين والرأى ان نفعل فعلا نعذر فيه ونكف الالسنة عنا فقال صلاح الدين الرأى عندى ان نلقى بجميع المسلمين جميع الكفار فان الامور لا تجرى بحكم الانسان

وسال عن اهل البلدان • فاخبروه بصورة الكتاب • وما خيف من الفضيحة بالعقاب • فدعا او بلاه • ولعن الكاتب ومن والاه • والكاتب ومن أملاه • واستمال فى رد العمال بضمان أكده • واحسان جدده • وبلغ الخبر السلطان فضحك لاحتيال الشاعر عليه وقال كذا فى مثله من يتقدم الشاعر كاتبا • ووضع حرمته بالامس نائبا • ولما حل هو الى الباب تقدم السلطان بجريده للسياط تأديباه على ما أغفل من حق النعمة • وهتكه من ستر الحشمة • فجردها واخذته عذبات العقاب فاكثر الضراعة والاستكانة • وشكا الى السلطان الذل والمهانة • فلما استوفى التأديب حقه دون أن يبلغ التحكيم منه المرام • والعقاب أمده ومداه • أمر بازالته واعتقاله • فى موضع يصلح لامثاله • وأمن

ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي ان نفرق هذا الجمع الا بعد الجد بالجهاد ثم رحل من الاقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره وصعد جبلها وتقدم حتى قارب الفرنج فلم ير منهم أحدا ولا فارقوا خيامهم فنزل وأمر العسكر بالنزول فلما جنه الليل جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ونزل جريدة الى طبرية وقاتلها ونقب بعض ابراجها وأخذ المدينة عنوة في ليلة ولجأ من بها الى القلعة التي لها فامتنعوا بها وفيها صاحبتها ومعها أولادها فنهب المدينة واحرقها فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين الى طبرية وملكه المدينة وأخذ ما فيها واحراقها واحراق ما تخلف مما لا يحمل اجتمعوا للمشورة فأشار بعضهم بالتقدم الى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية فقال القمص ان طبرية لي ولزوجتي وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقي القلعة وفيها زوجتي وقد رضيت ان يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديما وحديثا ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة واذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد عنها اخذناها وان اقام بها لا يقدر على المقام بها الا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم واهليهم فيضطر الى تركها ونفتك من اسر منا فقال له برنس ارناط صاحب الكرك قد اطلت في التخويف من المسلمين ولا شك انك تريدهم وتميل اليهم والا ما كنت تقول هذا واما قولك انهم كثيرون فان النار لا يضرها كثرة الحطب فقال انا واحد منكم ان تقدمتم تقدمت وان تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون فقوي عزمهم على التقدم الى المسلمين وقتالهم فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه وقربوا من عساكر الاسلام فلما سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية الى عسكره وكان قريبا منه وانما كان قصده بمحاصرة طبرية ان يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء من المسلمين وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين فبقوا على حالهم الى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم واما المسلمون فانهم طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يحرض بعضهم بعضا وقد وجدوا ريح النصر والظفر وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرأتهم فاكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية وفرق فيهم النشاب

(ذكر انهزام الفرنج بحطين)

اصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر فركبوا وتقدموا الى الفرنج فركب الفرنج ودنا بعضهم من بعض الا ان الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا فاقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر فقتلوا من خيول الفرنج كثيرا هذا القتال بينهم والفرنج قد جمعوا انفسهم براجلهم وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية لعلهم يردون الماء فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم ووقف بالعسكر في وجوههم وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم

بمواساته * والتوسيع عليه في أقواته * ومداواة جراحاته * من حيث لا يشعر باذنه فيه * وفيما أباحه من الترفيه * كما سرى في تضاعيف مزاجه ولا الخمر في عروق البشر * والماء في أصول الشجر * وأقسم اسعافه بغلام كان حظيا عنده فرده عليه * وأعيد بعض ما يصلحه اليه * فاما أبو المقيم بهراة فأذن له في ورود الباب * ولوحظ بعين الايجاب * وابتاع السلطان منهما خاص ضياعهما بالغرش حلالها عن عقدة الشبهة واستضافة اياها الى جملة ضياعه الملكية وأمر لهما باثمان ما باعاه نقدا صيانة لهما من مس الفاقة وذل الحاجة * ورفرف الشيخ الجليل شمس الكفاة على الشار أبي نصر بجناح الاكرام والرعاية حتى أتاه الداعي * وقام به الناعي * وذلك في سنة ست وأربعمائة

(ذكر وقعة ناردين)

قد كان السلطان يمين الدولة *

وبينما هم فيما هم فيه والناس يأمرون بالتوبة ويقتدون فيه منهم فحمل علوك من مماليك الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج فقاتل قتالا عجب منه الناس ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة فضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيرا فلما رأى القمص شدة الامر علم انهم لا طاقة لهم بالمسلمين فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم وكان المقدم من المسلمين في تلك الناحية تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب علم انه لا سبيل الى الوقوف في وجوههم فامر أصحابه ان يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الارض نارا وكان الحشيش كثيرا فاحترق وكانت الريح فحملت حر النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال فلما انهزم القمص سقط في ايديهم وكادوا يستسلمون ثم علموا انهم لا ينجيهم من الموت الا الاقدام عليه فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم لولا لطف الله بهم الا ان الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون الا وقد قتل منهم فوهنوا لذلك وهنا عظيما فاحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطرها فارتفع من بقي من الفرنج الى تل بناحية حطين وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعوهم عما ارادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير وأخذ المسلمون صليبهم الاعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت ويذكرون ان فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم فكان اخذه عندهم من اعظم المصائب عليهم وايقنوا بعده بالقتل والهلاك هذا والقتل والاسر يعملان في فرسانهم ورجالتهم فبقي الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين فحكى لي عن الملك الافضل ولد صلاح الدين قال كنت الى جانب ابي في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بازائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي قال فنظرت اليه وقد علته كآبة وارْبَدَّ لونه وامسك بلحيته وتقدم وهو يصيح كذب الشيطان قال فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا الى التل فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي هزمناهم فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الاولى ألحقوا المسلمين بوالدي وفعل مثل ما فعل اولا وعطف المسلمون عليهم فالحقوهم بالتل فصحت انا ايضا هزمناهم فالتفت والدي الي وقال اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة قال فهو يقول لي واذا الخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى وبكى من فرحه وكان سبب سقوطها ان الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه فلم يجدوا الى الخلاص طريقا فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الارض فصعد المسلمون اليهم فالقوا خيمة الملك واسروهم عن بكرة ابيهم وفيهم الملك واخوه والبرنس ارناط صاحب الكرك ولم يكن في الفرنج اشد منه عداوة للمسلمين واسروا ايضا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الداوية وكان من اعظم الفرنج شأنا واسروا ايضا جماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية وكثر القتل والاسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن انهم اسروا واحدا ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا احدا وما أصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل

وأمين الملة لما استصفى نواحي الهند الى حيث لم تبلغه في الاسلام راية ولم تتل بها قط سورة او آية فرحض عنها ادناس الشرك وشحن دونها اغباش الكفر وبنى بها مساجد يقوم فيها دعاة الله بالاذان الذي هو شعار الايمان رأى ان يطوي تلك الديار الى واسطة الهند منتقما الله ممن يجحد توحيده ويضع اعبادة الانداد من دونه تعالى خده ووريده وحكيا فسيوفا طبعت على غرار الاسلام وسقيت بماء الايمان وسنت في قراب دين الله واقتضيت بايدي الاخيار والابرار من اولياء الله فندب الرجال وفرق الاموال واخلص اليقين واستنصر الواحد المعين ونهض في الظلم والرجم والليل المدلهم وذلك في سنة اربع واربعمائة وسار في الخريفات فصل الخريف ثقة بطيب الهواء من جانب الجنوب فاتفق عند اقتحامه تلك الديار ان سقطت ثلوج

وهو سنة احدى وتسعين واربعمائة الى الآن بمثل هذه الوقعة فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين فى خيمته واحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك واجلس الملك الى جانبه وقد اهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا فشرب واعطى فضله برنس صاحب الكرك فشرب فقال صلاح الدين ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذنى فينال امانى ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه وعدد عليه غدراته وقام اليه بنفسه فضرب رقبته وقال كنت نذرت دفعتين أن اقتله ان ظفرت به احداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدرا فلما قتله سحب وأخرج ارتعدت فرائص الملك فسكن جاشه وأمنه وأما القمص صاحب طرابلس فانه لما نجا من المعركة كما ذكرناه وصل الى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث الا أياما قلائل حتى مات غيظا وحنقا مما جرى على الفرنج خاصة وعلى دين النصرانية عامة

(ذكر عود صلاح الدين الى طبرية وملك قلعتها مع المدينة)

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج أقام بموضعه باقى يومه وأصبح يوم الاحد عاد الى طبرية ونازلها فارسلت صاحبتها تطلب الامان لها ولاولادها وأصحابها ومالها فاجابها الى ذلك فخرجت بالجميع فوفى لها فسارت آمنة ثم أمر بالملك وجماعة من أعيان الاسرى فارسلوا الى دمشق وأمر بمن أسر من الداوية والاسبتارية ان يجمعوا ليقتلهم ثم علم ان من عنده أسير لا يسمح به لما يرجو من فدائه فبذل فى كل أسير من هذين الصنفين خمسين دينارا مصرية فاحضر عنده فى الحال مائتا أسير منهم فامر بهم فضربت أعناقهم وانما خص هؤلاء بالقتل لانهم أشد شوكة من جميع الفرنج فاراح الناس من شرهم وكتب الى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم سواء كان له أو لغيره ففعل ذلك ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة فرأيت الارض ملأى من عظامهم تبين على البعد منها المجتمع بعضه على بعض ومنها المفترق هذا سوى ما جحفته السيول وأخذته السباع فى تلك الآكام والوهاد

(ذكر فتح مدينة عكا)

لما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها يوم الثلاثاء ووصل الى عكا يوم الاربعاء وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ فعجب هو والناس من ذلك لانهم علموا ان عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل وأسير وانهم لم يسلم منهم الا القليل الا انه نزل يومه وركب يوم الخميس وقد صمم على الزحف الى البلد وقتاله فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل اذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الامان فأجابهم الى ذلك وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين وساروا عنها متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقى على حاله ودخل المسلمون اليها يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى وصلوا بها الجمعة فى جامع كان للمسلمين قديما ثم جعله الفرنج بيعة ثم جعله صلاح الدين جامعا وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامى بعد ان ملكه الفرنج وسلم البلد الى ولده الافضل وأعطى جميع ما كان فيه للداوية من اقطاع وضياع وغير ذلك للفقيه عيسى وغنم المسلمون ما بقى مما لم يطق الفرنج حمله وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسقلاط والبندقى والسكر والسلاح وغير ذلك من أنواع الامتعة كثيرا فانها كانت

لم يعهد قبلها مثلها افسدت شارق تلك الجبال * وسترت بين الاباطح والتلال * وكتم وجه الهواء كثرها ترى الحوافر والاخفاف * فضلا عن الحاسر والاطراف * وضلت مهايع الطرق فلم تعرف الميامن من المياسر * ولا القادم من المتأخر * واضطرت الحال الى الانعطاف * الى ان يأذن الله ثانيا فى الانصراف * ولكل شئ حد محدود * وأمد ممدود * واقبل السلطان على استئناف العدة والعتاد * واستكمال الميرة والازواد * واستدعاء اعيان الغزاة من اطراف البلاد * حتى اذا تمت العدة والعديد * وباهى العقد باخواته الفريد * وتضام الناس كقزع الخريف من كل وجه منثورا * وعن كل أوب محشوا ومحشورا * واقبل الربيع بطيب المقيل *

مقصد التجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها وكان كثير ممن قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده لم يكن له من ينفقه ففرق صلاح الدين وابنه الافضل ذلك جميعه على أصحابهما وأكثر ذلك فعله الافضل لانه كان مقيما بالبلد وكانت شيمته في الكرم معروفة وأقام صلاح الدين بعكا عدة أيام لاصلاح حالها وتقرير قواعدها

(ذكر فتح مجدل يابا)

لما هزم صلاح الدين الفرنج أرسل الى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك ويأمره بالمسير الى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقي عنده من العسكر ومحاصرة ما يليه منها فسارع الى ذلك وسار من مصر فنازل حصن مجدل يابا وحصره وغنم ما فيه وورد كتابه بذلك الى صلاح الدين وكانت بشارة كبيرة

(ذكر فتح عدة حصون)

في مدة مقام صلاح الدين بعكا تفرق عسكره الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وقدموا من ذلك بما سد الفضاء وسير تقي الدين فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور وسير حسام الدين عمر بن لاجين في عسكر الى نابلس فاتى سبسطية وبها قبر زكريا فأخذها من أيدي النصارى وسلمها الى المسلمين ووصل الى نابلس فدخلها وحصر قلعتها واستنزل من فيها بالامان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على املاكهم وأموالهم

(ذكر فتح يافا)

لما خرج العادل من مصر وفتح مجدل يابا كما ذكرنا سار الى مدينة يافا وهي على الساحل فحصرها وملكها عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها ما لم يجر على أحد من أهل تلك البلاد وكان عندي جارية من أهلها أخذت بحلب ومعها طفل عمره نحو سنة فسقط من يدها فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيرا فسكنتها وأعلمتها انه ليس بولدها ما يوجب البكاء فقالت ماله أبكي انما أبكي لما جرى علينا كان لي ستة اخوة كلهم هلكوا جميعهم وزوج واختان لا أعلم ما كان منهم هذا من امرأة واحدة والباقي بالنسبة ورأيت بحلب امرأة فرنجية قد جاءت مع سيدها الى باب فطرقه سيدها فخرج صاحب البيت فكلمهم ثم أخرج امرأة فرنجية فحين رأتها الاخرى صاحتا واعتنقتا وهما يصرخان ويبكيان وسقطتا الى الارض ثم قعدتا يتحدثان واذا هما أختان وكان لهما عدة من الاهل ليس لهما علم بأحد منهم

(ذكر فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت)

فاما تبنين فقد ذكرنا انفاذ صلاح الدين تقي الدين ابن أخيه الى تبنين فلما وصلها نازلها وأقام عليها فرأى حصرها لا يتم الا بوصول عمه صلاح الدين اليه فارسل اليه يعلمه الحال ويحثه على الوصول اليه فرحل ثامن جمادى الاولى ونزل عليه حادي عشره فحصرها وضايقها وقاتلها بالزحف وهي من القلاع المنيعة على جبل فلما ضاق عليهم الامر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من اسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل فلما دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدين وكساهم وأعطاهم نفقة وسيرهم الى أهليهم وبقي الفرنج كذلك خمسة أيام ثم أرسلوا يطلبون

واعتدال برد الغداة والاصيل * استخار الله تعالى في الرحيل * وسار كالبحر الاخضر تضربه الاعاصير * والامر المحتم تجنبه المقادير * فغدت وحوش الارض مأسوره * وطيور الهواء مقهوره * ولو اصحت الارض لرنت من ثقل الحديد * والمشي الوئيد * وحث الابطال فوق القب القياديد * وساق امامه ادلاء يهتدون اعماق تلك البلاد ولا الشمس عليها طالعه * ولا النجوم بها مستقيمة وراجعه * وحث الركائب شهرين بين انهاره * جهة الاقوار بعيدة ما بين الاقطار * وواد تضل في ارجائها اسراب الصافير * وتصار في دخانها افواج العصافير * حتى اذا غاب القصد عن الخيول كتائب * وميزها عصائب * ولبتها كواكب * وفيها مناسر ومناقب * ونصب اخاه الامير نصر بن ناصر الدين في الجنة على كماة القواد * وحماة

الامان فأمنهم على أنفسهم فسلموها اليه ووفى لهم وسيرهم الى مأمنهم وأما صيدا فان صلاح
الدين لما فرغ من تبنين رحل عنها الى صيدا فاجتاز فى طريقه بصرفند فأخذها صفوا عفوا بغير
قتال وسار عنها الى صيدا وهى من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها
وتركها فارغة من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله وكان ملكها لتسع
بقين من جمادى الاولى وأما بيروت فهى من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها فلما فتح
صلاح الدين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ووصل اليها من الغد فرأى أهلها قد صعدوا
على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدد وقاتلوا على سورها قتالا شديدا واغتروا بحصانة
البلد وظنوا انهم قادرون على حفظه وزحف المسلمون اليهم مرة بعد مرة فبينما الفرنج يقاتلون
اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فأتاهم من اخبرهم ان البلد قد دخله المسلمون من
الناحية الاخرى قهرا وغلبة فأرسلوا ينظرون ما الخبر واذا ليس له صحة فأرادوا تسكين من به
فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على انفسهم من الاختلاف الواقع
ارسلوا يطلبون الامان فأمنهم على انفسهم واموالهم وتسلمها فى التاسع والعشرين من جمادى
الاولى من السنة فكان مدة حصرها ثمانية ايام واما جبيل فان صاحبها كان من جملة الاسرى
الذين سيروا الى دمشق مع ملكهم فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق فى تسليم جبيل على
شرط اطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك فأحضره مقيدا عنده تحت الاستظهار والاحتياط
وكان العسكر حينئذ على بيروت فسلم حصنه واطلق اسرى المسلمين الذين به واطلقه صلاح الدين
كما شرط له وكان هذا صاحب جبيل من اعيان الفرنج واصحاب الرأى والمكر والشر به يضرب
المثل بينهم وكان للمسلمين منه عدو أزرق وكان اطلاقه من الاسباب الموهنة للمسلمين على
ما يأتى بيانه

(ذكر خروج المركيش الى صور)

لما انهزم القمص صاحب طرابلس من حطين الى مدينة صور أقام بها وهى اعظم بلاد الشام
حصانة واشد امتناعا على من رامها فلما رأى السلطان قد ملك تبنين وصيدا وبيروت خاف ان
يقصد صلاح الدين صور وهى فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها فلا يقوى على حفظها
وتركها وسار الى مدينة طرابلس فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين فلو بدأ
بها صلاح الدين قبل تبنين وغيرها لاخذها بغير مشقة لكنه استعظمها لحصانتها فأراد ان
يفرغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل اخذها فكان ذلك سبب حفظها وكان امر الله قدرا
مقدورا واتفق ان انسانا من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيش لعنه الله خرج فى
البحر بمال كثير للزيارة والتجارة ولم يشعر بما كان من الفرنج فأرسى بعكا وقد رابه ما رأى من
ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح وضرب الاجراس وغير ذلك وما رأى ايضا
من زى اهل البلد فوقف ولم يدر ما الخبر وكانت الريح قد ركدت فأرسل الملك الافضل اليه بعض
اصحابه فى سفينة يبصر من هو وما يريد فأتاه القاصد فسأله المركيش عن الاخبار لما انكره
فأخبره بكسرة الفرنج واخذ عكا وغيرها واعلمه ان صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها وحكى
الامر له على وجهه فلم يمكنه الحركة لعدم الريح فرد الرسول يطلب الامان ليدخل البلد بما معه

وأرسلان الجاذب فى
الميسرة فى البهم المذكور
والبزل الفحول وجعل أبا
عبد الله محمد بن ابراهيم
الطائى على المقدمة فى
مساعير العرب أحلاس
الظهور * وابناء الصوارم
والذكور * ورتب فى
القلب الحاجب التونتاش
وسائر خواصه وغلمان داره
رجال اذا اصطفوا فالجبال
الشواهق * أو زحفوا
فالسيول الدوافق * ونذر
بهم عدو الله ملك الهند
ففزع * من فاجئ الفزع
الى من حوله من تكاكرته
وأعيان جيوشه وناصرته
ولجأ الى شعب جبل ملجج
المدخل * خشن المتوغل
صعب المرتقى والمتوقل
مستعصما بالاحتجاز * عن
البراز * وبالاحتراس * من
وقع الباس * وسد مغفر
الجبلين بفيلة لها الرائون
هضابا نابتة * وجبالا ثابتة

من متاع ومال فأجيب الى ذلك فردده مرارا كل مرة يطلب شيئا لم يطلبه فى المرة الاولى وهو يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء ليسير به فبينما هو فى مراجعاته اذ هبت الريح فسار عنهم الى صور وسير الملك الافضل الشوانى فى طلبه فلم يدركوه فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير لان صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرهما مما ذكرنا اعطى أهلها الامان فساروا كلهم الى صور فكثر الجمع بها الا انهم ليس لهم رأس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم وليسوا أهل حرب وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد اليه فأتاهم المركيس وهم على ذلك العزم فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذل ما معه من الاموال وشرط عليهم ان تكون المدينة وأعمالها له دون غيره فأجابوه الى ذلك فأخذ أيمانهم عليه وأقام عندهم ودبر أحوالهم وكان من شياطين الانس حسن التدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة وشرع فى تحصينها فجدد حفر خنادقها وعمل أسوارها وزاد فى حصانتها واتفق من بها على الحفظ والقتال دونها

(ذكر فتح عسقلان وما يجاورها)

لما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده لاسباب منها انهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام وكان يختار ان تتصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم اليها ولما فى فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم الى غير ذلك من الاغراض فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية اليه من دمشق وقال لهما ان سلمتما البلاد الى فلكما الامان فأرسلا الى من بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما اقبح رد وجبهوهما بما يسوءهما فلما رأى السلطان ذلك جد فى قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وزحف مرة بعد أخرى وتقدم النقابون الى السور فنالوا من باشورة شيئا هذا وملكهم يكرر المراسلات اليهم بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم انه اذا أطلق من الاسر أضرم البلاد على المسلمين نارا واستنجد بالفرنج من البحر وأجلب الخيل والرجل من أقاصى بلاد الفرنج وأدانيها وهم لا يجيبون الى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به ولما رأوا انهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا واذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضا ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين فى تسليم البلد على شروط اقترحوها فأجابهم صلاح الدين اليها وكانوا قد قتلوا فى الحصار أميرا كبيرا من المهرانية فخافوا عند مفارقة البلد أن عشيرته يقتلونهم بثأره فاحتاطوا فيما اشترطوا لانفسهم فأجيبوا الى ذلك جميعه وسلموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوما وسيرهم صلاح الدين بنسائهم وأموالهم وأولادهم الى بيت المقدس ووفى لهم بالامان

(ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لعسقلان)

لما فتح صلاح الدين عسقلان أقام بظاهرها وبث السرايا فى أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزة ومشهد ابراهيم الخليل عليه السلام ويبنى وبيت لحم وبيت جبريل

وبث النفير فى أقطار مملكته يستنهض من يحمل حجرا * فضلا عمن يلقم القوس وترا * أو يحسن بالسيف أثرا * ومد فى طول المطاولة كى يأتى عسكر السلطان بقوة وافيه وعدة متوافيه * أو يلجئ أولياء الله الى الاختلال * من فرط الملال * أو النفور من ضيق الصدور * ولم يعلم ان الله من وراء المؤمنين وان الله موهن كيد الكافرين * ولما علم السلطان من نيته فى ارجاء القتال * وتأخير النزال * دلف الى عدو الله بقلوب قد صقلها التوحيد وبشرها الوعد وانذرها الوعيد ورماهم بالصيلم * من رجالة الديلم * وبالشياطين * من الافغانية الطاعنين * رجال كالاجبال * مطوحة بالنفوس مذللة للاعين الشوس أو الليوث انزحها الجوع

والنطرون وكل ما كان للداوية

(ذكر فتح البيت المقدس)

لما فرغ صلاح الدين من امر عسقلان وما يجاورها من البلاد على ما تقدم وكان قد أرسل الى
مصر أخرج الاسطول الذى بها فى جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو
معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة فاقاموا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما
رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه فحين وصل الاسطول وخلا الاسرمن تلك الناحية سارعن
عسقلان الى البيت المقدس وكان به البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شانا من ملكهم وبه
أيضا باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك وبه أيضا من
خلص من فرسانهم من حطين وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحى عسقلان وغيرها
فاجتمع به كثير من الخلق كلهم يرى الموت أيسر عليه من ان يملك المسلمون البيت المقدس
ويأخذوه منهم ويرى ان يبذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه وحصنوه تلك
الايام بما وجدوا اليه سبيلا وصعدوا على سوره بجدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب
عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات
ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ولما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير فى جماعة من
أصحابه غير محتاط ولا حذر فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكا فقاتلوه
وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه فاهم المسلمين قتله وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على
القدس منتصف رجب فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لاهله
من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع وبقى صلاح الدين خمسة أيام
يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لانه فى غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع
قتال الامن جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية فى العشرين
من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها
ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقاتلوا أشد قتال رآه احد من الناس كل
واحد من الفريقين يرى ذلك دينا وحتما واجبا فلا يحتاج فيه الى باعث سلطانى بل كانوا
يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون الى ظاهر
البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين وممن استشهد من المسلمين الامير عز الدين عيسى
ابن مالك وهو من اكابر الامراء وكان ابوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلى القتال بنفسه كل
يوم فقتل الى رحمة الله تعالى وكان محبوبا الى الخاص والعام فلما رأى المسلمون مصرعه عظم
عليهم ذلك واخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد فازالوا الفرنج عن مواقفهم فادخلوهم
بلدهم ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة
يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنج عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب
فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما راى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمى
المتدارك وتمكن النقابين من النقب وانهم قد اشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم
يتشاورون فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم البيت المقدس الى

وأعياها الى اشيا لها الرجوع * ينقذون فى الاسداد نفوذ الشهاب فى العمدان * او البيارم فى الحيطان * ويفرعون البوادخ كالوعول وينزلون عنها كتحدر السيول * ووصلها عليهم اياما تباعا يجذبهم بصدق البراز * الى البراز * جذب النار للسليط والمغناطيس للحديد وكلما فارقوا تلك المضايق التقطهم الفرسان كما تلتقط الافراس البيادق ولم تزل هذه حالهم حتى انضم الى اللعين اكثر من والاه * ولباه معظم من دعاه * وعندها احتشد للبروز مستندا الى الجبل من حوله الافيال كالقلل فجد المصاع * واحتد القراع وحمى الوطيس * واستوى المروس والرئيس * وصار اللقاء كفاحا فمن آخذ بالتلابيب * ومناقر

صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم فى طلب الامان فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من اجابتهم وقال لا افعل بكم الا كما فعلتم باهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها فلما رجع الرسل خائبين محرومين ارسل باليان ابن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا الامر وتحريره فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب فى الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه فلما أيس من ذلك قال له ايها السلطان اعلم اننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظنا منهم انك تجيبهم اليه كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة فاذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق اموالنا وامتعتنا ولا نترككم تغنمون منها دينارا واحدا ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت اعزاء أو نظفر كراما فاستشار صلاح الدين أصحابه فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الامر فيه عن اى شئ تنجلي ونحسب انهم اسارى بايدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للفرنج فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوما عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا فبذل باليان ابن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فاجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وكان يوما مشهودا ورفعت الاعلام الاسلامية على اسواره ورتب صلاح الدين على أبواب البلد فى كل باب أمينا من الامراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم الامناء الاموال وتفرقت أيدي سبا ولو اديت فيه الامانة لملأت الخزائن وعم الناس فانه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان ولا يعجب السامع من ذلك فان البلد كبير واجتمع اليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها والداروم والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق والكنائس وكان الانسان لا يقدر ان يمشي ومن الدليل على كثرة الخلق ان أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة واطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطي وأخذ اسيرا ستة عشر ألف آدمي ما بين رجل وامرأة وصبي هذا بالضبط واليقين ثم ان جماعة من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية اقطاعه مقيمون بالبيت المقدس فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم وكان جماعة من الامراء يلبسون الفرنج زي الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروها واستوهب جماعة من صلاح الدين عددا من الفرنج فوهبهم لهم فاخذوا قطيعتهم وبالجملة فلم يصل الى خزائنه الا القليل وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت واقامت به ومعها من

كالمه السبب ومضارب ما بين الرؤس الى العراقيب فكلما اشلبت القبلة للتهويل والتفخيم والحطم بالاظلاف والخراطيم مطارتها مصائب الزانات متلوية كالاراقم منسابة الى حدق العيون او ثغر الملاقم ورأى الكافر موقع أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الطائي من الغناء وضراوته باسالة الدماء فاتصاه باخشن من فى جملته شوكة واعظمهم شكة حتى أثخنوه ضربا على الهام وحطما من خلف وقدام وهو كالطود ثابت لا يميل شرف مقامه ولا يكل دون الضرب بحسامه متسمحا بالروح فى نصرة الدين وطاعة رب العالمين ورأى السلطان افضاء الكفرة عليه فامده بكوكبة من خواصه لاستخلاصه فاستنقذوه الى السلطان مثخنا بالسيوف منقوطا

الحشم والعبيد والجواري خلق كثير ولها من الاموال والجواهر النفيسة شيء عظيم فطلبت الامان لنفسها ومن معها فامنها وسيرها وكذلك أيضا أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها كان يقوم بالملك واطلق مالها وحشمها واستأذنته في المصير الى زوجها وكان حينئذ محبوسا بقلعة نابلس فاذن لها فأتته واقامت عنده واتته أيضا امرأة للبرنس ارناط صاحب الكرك وهو الذي قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين فشفعت في ولدها اما سور فقال لها صلاح الدين ان سلمت الكرك اطلقته فسارت الى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه فلم يطلق ولدها ولكنه أطلق مالها ومن تبعها وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج ومعه من أموال البيع منها الصخرة والاقصى وقمامة وغيرها ما لا يعلمه الا الله تعالى وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له ليأخذ ما معه يقوى به المسلمين فقال لا اغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور وكان على راس قبة الصخرة صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم الى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتا واحدا من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج أما المسلمون فكبروا فرحا وأما الفرنج فصاحوا تفجعا وتوجعا فسمع الناس صيحة كادت الارض أن تميد بهم لعظمها وشدتها فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين باعادة الابنية الى حالها القديم فان الداوية بنوا غربي الاقصى ابنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من هري ومستراح وغير ذلك وادخلوا بعض الاقصى في ابنيتهم فاعيد الى الاول وامر بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار والانجاس ففعل ذلك اجمع ولما كان الجمعة الاخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقيل له ان نور الدين محمودا كان قد عمل بحلب منبرا أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه واتقانه وقال هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الاسلام مثله فامر باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الاقصى واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فاحضروا من الرخام الذي لا يوجد ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون اليه قد ادخر على طول السنين فشرعوا في عمارته ومحوا ما كان في تلك الابنية من الصور وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فامر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالفرش ان القسيسين باعوا كثيرا منها للفرنج الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا يشترونه بوزنه ذهبا رجاء بركتها وكان أحدهم اذا دخل الى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ويجعل في مذبحها فخاف بعض ملوكهم ان تفنى فامر بها ففرش فوقها حفظا لها فلما كشفت نقل اليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ورتب القراء وادر عليهم الوظائف الكثيرة فعاد الاسلام هناك غضا طريا وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر

بالاسنة كالحروف * فأمر له بفيل يستريح الى سعيه عن ألم الجراح بجوارحه فصار الفيل ملكا له يتميز به من أعيان أهل عسكره ولم تزل الحرب على حالها حتى أهب الله النصر لأوليائه وادار دائرة السوء على أعدائه * فأخذتهم سيوف الحق تحسهم بين كل مصاد ومنعطف واد * ومدخل ومغار * ومتعسف ومنار وملكت عليهم الفيلة التي كانوا أعدوها حصونا واقية فصارت عليهم عباقية وأفاء الله على السلطان وأوليائه غنائم رحضت الصدور عن رين الحسد لاشتراك الكافة في الغنى المقصود * واستوائهم في كفاية الموجود * وفتح الله ناردين فحاط زبه شعائر الاسلام اذلم تبلغه راية الحق من لدن عهد النبي صلى الله عليه وسلم الى زمن

ابن الخطاب رضي الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخرا وشرفا وأما الفرنج من
أهله فانهم أقاموا وشرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم وما لا
يطيقون حمله وباعوا ذلك بأرخص الثمن فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من
أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام في
مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم الى ذلك فاستقروا فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج وترك
الفرنج أيضا أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الاسرة والصناديق والبتيات وغير ذلك وتركوا أيضا
من الرخام الذي لا يوجد مثله من الاساطين والالواح والفص وغيره شيئا كثيرا ثم ساروا

(ذكر رحيل صلاح الدين الى صور ومحاصرتها)

لما فتح صلاح الدين البيت المقدس أقام بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب
امور البلد وأحواله وتقدم بعمل الربط والمدارس فجعل دار الاسبتار مدرسة للشافعية وهي
في غاية ما يكون من الحسن فلما فرغ من أمر البلد سار الى مدينة صور وكانت قد اجتمع فيها
من الفرنج عالم كثير وقد صار المركيش صاحبها والحاكم فيها وقد ساسهم أحسن سياسة وبالغ
في تحصين البلد ووصل صلاح الدين الى عكا فأقام بها أياما فلما سمع المركيش بوصوله اليها جد
في عمل سور صور وخنادقها وتعميقها ووصلها من البحر الى البحر من الجانب الآخر فصارت
المدينة كالجزيرة في وسط الماء لا يمكن الوصول اليها ولا الدنو منها ثم رحل صلاح الدين من عكا
فوصل الى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس
وتلاحقوا وسار في الثاني والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى
القتال وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث ان يتصل القتال
على أهل البلد على ان الموضع الذي يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل
البلد لحفظه وعليه الخنادق التي قد وصلت من البحر الى البحر فلا يكاد الطير يطير على إتيان
المدينة كالكف في البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبي الساعد والقتال انما هو
في الساعد فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والجروخ والدبابات وكان أهل صلاح
الدين يتناوبون القتال مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازي وأخيه العادل بن أيوب وابن
أخيه تقي الدين وكذلك سائر الامراء وكان للفرنج شواني وحراقات يركبون فيها في البحر
ويقفون من جانبي الموضع الذي يقاتل المسلمون منه أهل البلد فيرمون المسلمين من جانبهم
بالجروخ ويقاتلونهم وكان ذلك يعظم عليهم لان أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم وأصحاب
الشواني يقاتلونهم من جانبيهم فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين الى الجانب الآخر
لضيق الموضع فكثرت الجراحات في المسلمين والقتل ولم يتمكنوا من الدنو الى البلد فأرسل صلاح
الدين الى الشواني التي جاءته من مصر وهي عشر قطع وكانت بعكا فأحضرها برجالها ومقاتلتها
وعدتها وكانت في البحر تمنع شواني أهل صور من الخروج الى قتال المسلمين فتمكن المسلمون
حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله فقاتلوه برا وبحرا وضايقوه حتى كادوا يظفرون فجاءت
الاقدار بما لم يكن في الحساب وذلك ان خمس قطع من شواني المسلمين باتت في بعض تلك الليالي
مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول اليه فباتوا ليلتهم يحرسون وكان مقدمهم

السلطان يمين الدولة وأمين
الملة عز كتب الله له على
يده ومنها أتاح له التوفيق
والتيسير من عنده ووجد
في بيت بقت عظيم حجر منقور
دلت كتابته على أنه مبني
منذ أربعين ألف سنة فقضى
السلطان من جهل القوم
عجبا اذ كان أهل الشريعة
القراء والحق المنزل من
السماء على أن مدة الدنيا
سبعة آلاف سنة وأنا
منها في الالف الاخير وكل
ما تباعدت به الاخبار من
أمارات الساعة موجوده
وبأبصار العيون وبصائر
القلوب مشهوده واستفق
فيه أعيان العلماء فكل
أجمع على انكار ذلك المذكور
وعلى تزييف مثله من شهادات
الصور وعاد السلطان
وراءه تلك الغنائم العظيمة
فكاد عدد الارقاء من
العبيد والاماء يزيد على
عدد الدهماء ورخصت

عبد السلام المغربي الموصوف بالحذق فى صناعته وشجاعته فلما كان وقت السحر أمنوا فنامو ا فما شعروا الا بشوانى الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم فارقعت بهم فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وادخلوهم ميناصور والمسلمون فى البر ينظرون اليهم ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر فنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق وتقدم السلطان الى الشوانى الباقية بالسير الى بيروت لعدم استناعه بها لقلتها فسارت فتبعها شوانى الفرنج فلما رأى من فى شوانى المسلمين الفرنج مجدين فى طلبهم ألقوا انفسهم فى شوانيهم الى البر فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد الى مقاتلة صور فى البر وكان ذلك قليل الجدوى اضيق المجال وفى بعض الايام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام الى آخر النهار وكان خروجهم قبل العصر وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد ان كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط فلما أسر قتل وبقوا كذلك عدة أيام

(ذكر الرحيل عن صور الى عكا وتفريق العساكر)

لما رأى صلاح الدين ان أمر صور يطول رحل عنها وهذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة بل فتح الجميع فى الايام القريبة كما ذكرناه بغير تعب ولا مشقة فلما رآى هو واصحابه شدة أمر صور ملوها وطلبوا الانتقال عنها ولم يكن لاحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين فانه هو جهز اليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والاموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره كان يعطيهم الامان ويرسلهم الى صور فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم واموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فاجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجؤن اليها فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها وسنذكر ان شاء الله ما صار اليه الامر بعد ذلك لتعلم ان الملك لا ينبغى ان يترك الحزم وان ساعدته الاقدار فلان يعجز حازما خير له من ان يظفر مفرطا مضيعا للحزم واعذر له عند الناس ولما أراد الرحيل استشار أمراءه فاختلفوا فالجماعة يقولون الرأى ان نرحل فقد جرح الرجال وقتلوا وملوا وفنيت النفقات وهذا الشتاء قد حضر والشوط بطين فنريح ونستريح فى هذا البرد فاذا جاء الربيع اجتمعنا وعاودناها وغيرها وكان هذا قول الاغنياء منهم وكأنهم خافوا ان السلطان يقترض منهم ما ينفقه فى العسكر اذا أقام لخلو الخزائن وبيوت الاموال من الدرهم والدينار فانه كان يخرج كل ما حمل اليه منها وقالت الطائفة الاخرى الرأى ان نصابر البلد ونضايقه فهو الذى يعتمدون عليه من حصونهم ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب واخذنا باقى البلاد صفوا عفوا فبقى صلاح الدين مترددا بين الرحيل والاقامة فلما رأى من يرى الرحيل اقامته أخل بما أرادو اليه من المحاربة والرمى بالمنجنيق واعتذروا بجراح رجالهم وأنهم قد أرسلوا بعضهم ليحضروا نفقاتهم والعلوفات لدوابهم والاقوات لهم الى ذلك من الاعذار فصاروا مقيمين بغير قتال فاضطر الى الرحيل فرحل عنها آخر شوال وكان أول كانون الاول الى عكا فأذن العساكر جميعها بالعود الى اوطانهم والاستراحة فى الشتاء والعود فى الربيع فعادت عساكر الشرق

قيم الممالك فصار أصحاب المهن الخاملة فضلا عن فوقهم من الرزقه * يعتقدون عدة من تلك الرزقه * وذلك فضل الله الذى أعز به الدين وأذل الالحاد والملحدين والحمد لله رب العالمين

(ذكر وقعة تانيسر)

قد كان أنهى الى السلطان يمين الدوله وأمين الملة أن بناحية تانيسر فيلة من جنس فيلة الصيلان الموصوفة فى الحروب وان صاحبها غال بها فى الكفر والجحود غير آل جهدا فى الطغوى والعنود * وانه محتاج الى ذوقة من كأسه * وحرقة من جمرات بأسه * ليعلم أن عز الاسلام عام * وان له من سطوة الله سهما كما لسائر أقيال الهند سهام * فعزم السلطان على غزوة اليه يرفع بها راية الاسلام * وينسخ معها ولاية الاصنام * ويدع الكفر عليها محجوب الغارب

والموصل وغيرها من عساكر الشام وعساكر مصر وبقي حلقته الخاص مقيما بعكا ثم نزل بقلعتها
ورد أمر البلد الى عز الدين جورديك وهو من أكابر المماليك النورية جمع الديانة
والشجاعة وحسن السيرة

•(ذكر فتح هونين)•

لما فتح صلاح الدين تبنين امتنع من بهونين من تسليمها وهي من أحسن القلاع وامنعها فلم ير
التعريج عليها ولا الاشتغال بمحاصرتها بل سير اليها جماعة من العسكر والامراء فحصروها
ومنعوا من حمل الميرة اليها واشتغل بما تقدم ذكره من فتح عسقلان والبيت المقدس وغير
ذلك فلما كان يحاصر مدينة صور أرسل من فيها يطلبون الامان فأمنهم فساروا ونزلوا منها
ووفى لهم بامانهم

•(ذكر حصر صفد وكوكب والكرك)•

لما سار صلاح الدين الى عسقلان جعل على قلعة كوكب وهي مطلة على الاردن من يحصرها
ويحفظ الطريق للمجتازين لئلا ينزل من به من الفرنج يقطعونه وسير طائفة أخرى من العسكر
ايضا الى قلعة صفد فحصروها وهي مطلة على مدينة طبرية وكان حصن كوكب للاسبتارية وحصن
صفد للداوية وهما قريبان من حطين موضع المصاف فلجأ اليهما من سلم من الداوية
والاسبتارية فحصرهما فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شر من فيهما واتصلت الطرق
حتى كان يسير فيها المنفرد لا يخاف وكان مقدم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب أميرا
يقال له سيف الدين محمود أخو جاولي الاسدي وكان شهما شجاعا يرجع الى دين وعبادة فأقام
عليه الى آخر شوال وكان أصحابه يحرسون نوبا مرتبة فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين
كانت نوبتهم في الحراسة وكان قد صلى ورده من الليل الى السحر وكانت ليلة كثيرة الرعد
والبرق والريح والمطر فلم يشعر المسلمون وهم نازلون الا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف
ووضعوا السلاح فيهم فقتلوهم أجمعين وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا
الى قلعتهم فقووا بذلك قوة عظيمة أمكنهم ان يحفظوا قلعتهم الى ان أخذت أواخر سنة أربع
وثمانين على ما سنذكره ان شاء الله وأتى الخبر الى صلاح الدين بذلك عند رحيله عن صور فعظم
ذلك عليه مضافا الى ما ناله من أخذه وانيه ومن فيها ورحيله عنه ثم رتب على حصن كوكب
الامير قايماز النجمي في جماعة أخرى من الاجناد يحاصرونها

•(ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم)•

في هذه السنة يوم عرفة قتل شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بعرفات وهو
أكبر الامراء الصلاحية وقد تقدم من ذكره ما فيه كفاية وسبب قتله انه لما فتح المسلمون البيت
المقدس طلب اذنا من صلاح الدين ليحج ويحرم من القدس ويجمع في سنته بين الجهاد والحج
وزيارة الخليل عليه السلام وما بالشام من مشاهد الانبياء وبين زيارة رسول الله صلى الله
وسلم عليه وعليهم أجمعين فأذن له وكان قد اجتمع تلك السنة من الحجاج بالشام الخلق العظيم
من البلاد والعراق والموصل وديار الجزيرة وخلاط وبلاد الروم ومصر وغيرها ليجمعوا بين
زيارة بيت المقدس ومكة فجعل ابن المقدم أميرا عليهم فساروا حتى وصلوا الى عرفات سالمين

والشام • وسارق أولياء الله الذين قد نشأوا على القراع • نشأ الاطفال على الرضاع • وضروا بدماء الكفار ضراوة الصقور بغاث الاطيار وقطع الى المذكور • أودية لم يقطعها غير طائر • أو حيوان عابر وخرق سباسب لم يرها راجل ماش ولا نعل حافر • وجهدهم في تلك القفار غلالات الشقاء • وبلالات الانواء فضلا عن سائر الآفات حتى صنع الله لهم بأن بدوا منها الى فضاء يفضي الى ناحية المقصود ودونه نهر صخاب • أرضه تراب وصفاح كتاني السيوف حداد يأتي بشاطئه شعب جبل قد استند اليه الكافر مستظهرا بقبوله • ومتكثرا بأنفاس رجاله وخيوله • فاحتال السلطان لقتال عسكره في مجاوزة النهر الى أعداء الله الكثيرة الغيرة حتى عبروه

ووقفوا في تلك المشاعر وأدّوا الواجب والسنة فلما كان عشية عرفة تجهز هو وأصحابه ليسيروا
من عرفات فأمر بضرب كوساته التي هي امارة الرحيل فضربها أصحابه فأرسل اليه أمير
الحاج العراقي وهو مجير الدين طاشتكين ينهاه عن الافاضة من عرفات قبله ويأمره بكف
أصحابه عن ضرب كوساته فأرسل اليه يقول انني ليس لي معك تعلق أنت أمير الحاج العراقي
وأنا أمير الحاج الشامي وكل منا يفعل ما يراه ويختاره وسار ولم يقف ولم يسمع قوله فلما رأى
طاشتكين اصراره على مخالفته ركب في أصحابه واجناده وتبعه من غوغاء الحاج العراقي
وبطاطيهم وطماعتهم العالم الكثير والجم الغفير وقصدوا حاج الشام مهولين عليهم فلما قربوا
منهم خرج الامر من الضبط وعجزوا عن تلافيه فهجم طماعة العراق على حاج الشام وفتكوا
فيهم وقتلوا جماعة ونهبت أموالهم وسبيت جماعة من نسائهم الا انهن رددن عليهم وجرح
ابن المقدم عدة جروح وكان يكف أصحابه عن القتال ولو أذن لهم لانتصف منهم وزاد لكنه
راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم فلما أثخن بالجراحات أخذه طاشتكين الى خيمته وانزله
عنده ليمرضه ويستدرك الفارط في حقه وساروا تلك الليلة من عرفات فلما كان الغد مات بمنى
ودفن بمقبرة المعلى ورزق الشهادة بعد الجهاد وشهود فتح البيت المقدس رحمه الله تعالى

(ذكر قوة السلطان طغرل على قزل)

في هذه السنة قوي أمر السلطان طغرل وكثر جمعه وملك كثيرا من البلاد فأرسل قزل الى
الخليفة يستنجده ويخوفه من طغرل ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختارونه
وأرسل طغرل رسولا الى بغداد يقول أريد أن يتقدم الديوان بعمارة دار السلطنة لأسكنها اذا
وصلت فأكرم رسول قزل ووعده بالنجدة وردّ رسول السلطان طغرل بغير جواب وأمر الخليفة
بنقض دار السلطنة فهدمت الى الارض وعفي أثرها

(ذكر ملك شرستي من الهند وانهزام المسلمين بعدها)

في آخر هذه السنة سار شهاب الدين الغوري ملك غزنة الى بلاد الهند وقصد بلاد اجمير وتعرف
بولاية السوالك واسم ملكهم كولة وكان شجاعا شهما فلما دخل المسلمون بلاده ملكوا مدينة
تبرندة وهي حصن منيع عامر وملكوا سرستي وملكوا كوه رام فلما سمع ملكهم جمع العساكر
فأكثر وسار الى المسلمين فالتقوا وقامت الحرب على ساق وكان مع الهند أربعة عشر فيلا فلما
اشتدت الحرب انهزمت ميمنة المسلمين وميسرتهم فقال لشهاب الدين بعض خواصه قد انكسرت
الميمنة والميسرة فانج بنفسك لئلا يهلك المسلمون فأخذ شهاب الدين الرمح وحمل على الهنود فوصل
الى الفيلة فطعن فيلا منها في كتفه ويجرح الفيل لا يندمل فلما وصل شهاب الدين الى الفيلة زرقه
بعض الهنود بحربة فوقعت الحربة في ساعده فنفذت الحربة من الجانب الآخر فوقع حينئذ
الى الارض فقاتل عليه أصحابه ليخلصوه وحرص الهنود على أخذه وكان عنده حرب لم يسمع
بمثلها وأخذه أصحابه فركبوه فرسه وعادوا به منهزمين فلم يتبعهم الهنود فلما أبعدوا عن موضع
الوقعة بمقدار فرسخ أغمي على شهاب الدين من كثرة خروج الدم فحمله الرجال على أكتافهم
في محفة اليد أربعة وعشرين فرسخا فلما وصل الى لهاوور أخذ الامراء الغورية وهم الذين
انهزموا ولم يثبتوا وعلق على كل واحد منهم عليق شعير وقال أنتم دواب ما أنتم أمراء وسار الى

من طريقين * وشغلوهم
بالباس من الجانبين * ومهما
جدّ الكفاح بين الفريقين
أمر السلطان بحملة على
الكفار في مخاضات النهر
الهائل * والماء الصخب
الشائل * ترجّهم عن طرف
الساحل * وتقحمهم أشداق
تلك الشعاب والمداخل
واشتدت الحرب ضربا
بالخناجر في الحناجر
وبالقواضب في المناكب
وأولياء الله في كل حال
ظاهرون * والكافرون
هم الصاغرون * حتى اذا
كاد يهرم شباب النهار حمل
المسلمون من جميع الجهات
حملة أوجرت بهم لهوات
تلك المخارم مضطرين
فخالفوا القبلة التي كانوا
بها معترين * وتبعها أولياء
الله يردون الاعظم فالاعظم
منها الى موقف السلطان
فلم يفتهم الا ماجد في الهرب
أو ضاق دون اقتناصه

غزنة وأمر بعضهم بمشي اليها ماشيا فلما وصل الى غزنة أقام بها ليستريح الناس وتذكر ما فعله بملك الهند الذى هزمه سنة ثمان وثمانين ان شاء الله تعالى

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول قتل مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب وهو أستاذ دار الخليفة أمر الخليفة بقتله وكان متحكما فى الدولة ليس للخليفة معه حكم وكان هو القيم بالبيعة له وظهر له أموال عظيمة أخذ جميعها وكان حسن السيرة عفيفا عن الاموال وكان الذى سعى به انسان من أصحابه وصنائعه يقال له عبيد الله بن يونس فسعى به الى الخليفة وتبع آثاره فقبض عليه وقتله وفيها فى ربيع الآخر وقع حريق فى الظفرية ببغداد احترقت أخطاب كثيرة وسببه أن فقيها بالمدرسة النظامية كان يطبخ طعاما يأكله فغفل عن النار والطبيخ فعلقت النار واتصلت فاحترقت جميعها واحترق درب السلسلة وغيره مما يجاوره وفيها فى شوال استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله بن يونس ولقبه جلال الدين ومشى أرباب الدولة فى ركابه حتى قاضى القضاة وكان ابن يونس من شهوده وكان يمشى ويقول لعن الله طول العمر وفيها فى الحرم توفى عبد المغيث بن زهير الحربى ببغداد وكان من أعيان الحنابلة قد سمع الحديث الكثير وصنف كتابا فى فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالعجائب وقد رد عليه أبو الفرج بن الجوزى وكان بينهما عداوة وفيها توفى قاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى وولى القضاء للمقتفى بعد موت الزينبى ثم للمستنجد بالله ثم عزل ثم أعيد الى المستضىء بأمر الله وفيها توفى على بن خطاب بن ظافر الشيخ الصالح من جزيرة ابن عمر وكان من الاولياء أرباب الكرامات وصحبته أنا مدة فلم أر مثله حسن خلق وسمت وكرم وعبادة رحمه الله وفيها ولدت امرأة من سواد بغداد بنتا لها اسنان وفيها توفى نصر بن فتيان بن مطر أبو الفتح بن المنى الفقيه الحنبلى لم يكن لهم مثله رحمه الله تعالى

م

محال الطلب وصب من دماء أولئك الارجاس ما قصر به النهر العاجز على طهارته واستنع من الشرب على غزارته ولولا أن الليل ستر آثرهم لاستلحم القتل أكثرهم وصنعا الدين بعث به رسوله المصطفى صلى الله عليه وعلى آله الذين ارتضى مظهرا له على الدين كله ولو كره المشركون فهو على الازدياد الى يوم التناد وانصرف السلطان بأولياء الله غانما وفوراء وظاهرا منصورا محمودا كاسمه مأجورا وقد غنم ما يكل عن ذكره أنامل التحرير ويضيق عن اثباته أدراج الاضابير وتطايرت البشائر فى الآفاق وخفقت عليها أجنحة الغروب والاشراق والحمد لله رب العالمين على عز الاسلام والمسلمين

{تم الجزء الحادى عشر من تاريخ الكامل لابن الاثير ويليه
الجزء الثانى عشر أوله ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة}